الجزيرة في عشرين عاما

أثرها في الإعلام والسياسة والأكاديميا

تأليف جماعي

تحرير:
عز الدين عبد المولى ونور الدين الميلادي

مركـز الجزيـرة للدراسـات
ALJAZEERA CENTRE FOR STUDIES

20

الجزيرة في عشرين عاما


مسيرة متجددة
ورسالة أصيلة

هذا الكتاب

انقضت عشرون عامًا على انطلاق قناة الجزيرة الفضائية في منتصف تسعينات القرن الماضي، مدشنة فصلًا جديدًا في تاريخ الإعلام العربي. ومنذ العام 1996، شهد مجال البث التلفزيوني، وأسلوب التغطية الإخبارية، تغييرًا هائلًا على أكثر من صعيد. لقد استطاعت الجزيرة، منذ أيامها الأولى، كسب عقول وقلوب شرائح واسعة من النخب، وتجاوز جمهورها حدود العالم العربي إلى مختلف أنحاء العالم. وقد بوَّأتها تغطيتها المتميزة والجريئة لأحداث المنطقة والعالم موقعا رائدا في الإعلام العربي والدولي على حد سواء، فكان أثرها واضحا في بيئتها الصحفية والسياسية العربية والإقليمية.
يحاول هذا الكتاب، الذي يجمع فصولا من تأليف ثلة من أبرز الباحثين وأساتذة الإعلام في عدة مؤسسات جامعية وبحثية، تتبع أثر الجزيرة وما تركته من بصمة في مجالات الإعلام والسياسة والأكاديميا. ويرصد، إلى جانب ذلك، علاقتها بجمهورها العربي والعالمي. كما ينظر في مستقبلها ومستقبل الإعلام العربي على ضوء التطورات الجارية.

المحرران

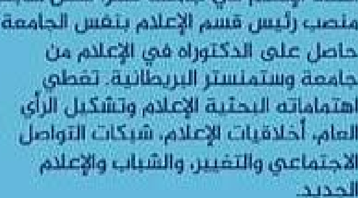



د. عزالدين عبد المولى،

مدير البحوث بمركز الجزيرة للدراسات. حاصل على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة إكستر البريطانية. تغطي اهتماماته البحثية الشؤون العربية وقضايا الشرق الأوسط ونظريات التحول الديمقراطي والإعلام. من مؤلفاته: العرب والديمقراطية والفضاء العام في عصر الشاشات المتعددة.



د. نورالدين الميلادي،



أستاذ الإعلام في جامعة قطر. شغل سابقا منصب رئيس قسم الإعلام بنفس الجامعة. حاصل على الدكتوراه في الإعلام من جامعة وستمنستر البريطانية. تغطي اهتماماته البحثية الإعلام وتشكيل الرأي العام، أخلاقيات الإعلام، شبكات التواصل الاجتماعي والتغيير، والشباب والإعلام الجديد.

مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTRE FOR STUDIES

الجزيرة في عشرين عاما

أثرها في الإعلام والسياسة والأكاديميا

تحرير:

عزالدين عبد المولى ونورالدين الميلادي

تأليف جماعي

الجزيرة في عشرين عاما

أثرها في الإعلام والسياسة والأكاديميا

تحرير

عزالدين عبد المولى

نورالدين الميلادي

تأليف

جمال زرن

محمد الزياني

يحيى اليحياوي

منجي المبروكي

شون باورز

تينا أوستاد فيغنسكو

حسناء حسين

محمد الراجي

مي شيغينوبو

كمال حميدو

سكوت بريدجيز

فيليب سيب

نهى ملر

عزيز دواي

(لوغو) مركز الجزيرة للدراسات

شكر وتنويه

هذا الكتاب، لم يكن ليرى النور بدون الجهد الكبير الذي بذله المؤلفون الذين شاركوا فيه بفصول متنوعة ومن زوايا مختلفة. ورغم ضيق الوقت وانشغالات الجميع خلال الأشهر الماضية، فقد وصل هذا العمل الجماعي المتميز إلى شكله النهائي. فالشكر الجزيل لهم جميعا على ما بذلوه من جهد علمي سيكون لبنة جديدة تضاف إلى ما أُنتج على مدى السنوات الماضية من دراسات وأبحاث حول الجزيرة.

فالذكرى العشرون لانطلاق الجزيرة، تُعتبر معلما له دلالة كبيرة في تاريخها الحافل بالإنجازات. فقد انطلقت قناة إخبارية تبث لعدد محدود من الساعات، ثم سرعان ما تحوّلت إلى شبكة إعلامية عالمية بالغة التأثير. نأمل أن يقدّم هذا الكتاب لقُرّائه، بما تضمّنه من رصد وتحليل لتأثير الجزيرة في عدة مجالات، رواية أقرب إلى الحقيقة عما قدّمته الجزيرة لمتابعيها في عقدين من الزمن. كما نأمل أن يكون مصدرا مفيدا للباحثين والأكاديميين والمدرّسين وصانعي السياسات.

في الأخير، نتوجه بالشكر الجزيل لكل من أسهم في هذا العمل من أي زاوية كانت؛ فلولا تضافر تلك الجهود لما خرج هذا المؤلَّف إلى قارئه بهذا الشكل. نشكر إدارة شبكة الجزيرة على دعمها وتقديم التسهيلات اللازمة، كما نشكر مركز الجزيرة للدراسات الذي احتضن هذا المشروع لعدة أشهر. الشكر أيضًا موصول للمترجمين والمراجعين والمعلِّقين على إسهاماتهم المقدَّرة.

المحتويات

تراجم المؤلفين

د. عزالدين عبد المولى (محرر)، مدير البحوث بمركز الجزيرة للدراسات. حاصل على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة إكستر البريطانية، والماجستير من كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن، والماجستير في الفلسفة السياسية من جامعة السوربون بباريس. تغطي اهتماماته البحثية الشؤون العربية وقضايا الشرق الأوسط ونظريات التحول الديمقراطي والإعلام. ترجم وحرر وساهم بفصول في عدة كتب باللغتين العربية والإنجليزية. شارك بأوراق بحثية في مؤتمرات إقليمية ودولية. من مؤلفاته: "العرب والديمقراطية والفضاء العام في عصر الشاشات المتعددة" (بيروت 2015).

د. نورالدين الميلادي (محرر)، أستاذ الإعلام والاتصال بكلية الآداب والعلوم في جامعة قطر. تقلّد سابقا منصب رئيس قسم الإعلام بنفس الجامعة. حاصل على الدكتوراه في الإعلام والاتصال من جامعة وستمنستر البريطانية. قام بتدريس مادة الإعلام والصحافة منذ العام 2001 في جامعات بريطانية مختلفة. وهو أيضا رئيس تحرير مجلة علمية دولية محكمة باللغة الإنجليزية تعنى بدراسات الإعلام العربي. من ضمن اهتماماته البحثية: الاعلام وتشكيل الرأي العام، أخلاقيات الإعلام، شبكات التواصل الاجتماعي والتغيير، ظاهرة الجزيرة والشباب والهوية والإعلام الجديد.

د. جمال زرن، أستاذ الإعلام والاتصال بجامعة قطر منذ سبتمبر 2014. قبل التحاقه بجامعة قطر، عمل أستاذا مشاركا بمعهد الصحافة وعلوم الأخبار بتونس منذ العام 2000. اشتغل كصحفي ورئيس تحرير، وكان مديرا لإذاعة تونس الثقافية. حاصل على الدكتوراه في الإعلام وعلى شهادتي ماجستير. ترأس وحدة بحوث تكنولوجيات الاتصال والإعلام بمعهد الصحافة وعلوم الأخبار بتونس بين عامي 2011 و2014. تغطي اهتماماته البحثية البيئة الجديدة للاتصال، وأخلاقيات الإعلام، والاتصال السياسي وقضايا الإعلام العربي. صدرت له عدة كتب وبحوث علمية في مجلات عربية وأجنبية.

د. محمد الزياني، أستاذ الإعلام والاتصال، ومدير برنامج الإعلام والسياسة بجامعة جورجتاون. يعمل أيضا في برنامج الدراسات العليا حول الاتصال والثقافة والتكنولوجيا، ويدير بالشراكة برنامج الإعلام والتكنولوجيا والثقافة الرقمية في الشرق الأوسط، التابع لنفس الجامعة. صدرت له عدة مؤلفات منها: "الفضائيات العربية والسياسة في الشرق الأوسط" (2004)، "ظاهرة الجزيرة: منظور نقدي للإعلام العربي الجديد" (2005)، "ثقافة الجزيرة: في كواليس عملاق الإعلامي العربي" (2007)، الجماهير المتشابكة والجدل الرقمي" (2015) الذي فاز بجائزة الجمعية الدولية للاتصال عن أفضل كتاب حول الاتصال العالمي والتغيير الاجتماعي. كما صدر له مؤخرا، مع سوزي مرقاني، كتاب "الإعلام والسياسة غداة الانتفاضات العربية" (2016).

د. يحيى اليحياوي، باحث مغربي، حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة محمد الخامس بالرباط في التدبير الاستراتيجي للمنظمات. خريج المدرسة الوطنية العليا للبريد والاتصالات والفضاء بباريس. عمل أستاذا زائرا للتعليم العالي بكلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط. كما عمل أستاذا زائرا للتعليم العالي بكلية الحقوق في نفس الجامعة. حاصل على جائزة المغرب الكبرى للكتاب حول كتابه "الاتصالات في محك التحولات" سنة 1996. كرمته الجمعية الدولية للمترجمين العرب سنة 2007 عن مجموع أعماله. صدر له العديد من الكتب والدراسات في مجال الإعلام والاتصال.

منجي المبروكي، محاضر في علوم الاتصال والدراسات الثقافية بالمعهد العالي للفنون الجميلة بجامعة سوسة، والمعهد العالي للتنشيط الشبابي والثقافي بجامعة تونس بين عامي 1993 و2016. عمل سابقا مديرا لإذاعة الشباب والإذاعة الوطنية بتونس (2012-2014). له عشرات المقالات المنشورة وكذلك عديد

الدراسات الفردية والجماعية. من ضمن اهتماماته البحثية الجزيرة والرأي العام، الإعلام والانتقال الديمقراطي، والشباب وتقنيات الاتصال الحديثة.

د. شون باورز، مدير مركز دراسات المعلومات الدولية وأستاذ الاتصال الدولي بجامعة جورجيا ستيت. عضو مجلس المستشارين لدى الهيئة الاستشارية للدبلوماسية العامة التابعة للخارجية الأميركية. نشر مؤخرا كتاب "الحرب الإلكترونية الحقيقية: الاقتصاد السياسي لحرية الإنترنت"، ويقود حاليا بالشراكة مشروعا بحثيا عن "المقاربات المدنية للصراع والعنف الديني" بتمويل من المفوضية الأوروبية. نال باورز زمالات بحثية عديدة من بينها زمالات من كلية لندن للاقتصاد (أل أس إي) وجامعة بنسلفانيا، وجامعة أوكسفورد، وجامعة أوروبا المركزية.

د. تينا أوستاد فيغنسكو، أستاذ الصحافة ونظريات الإعلام بكلية أوسلو وأكيرشوس في جامعة أوسلو بالنرويج. تجمع فيغنسكو بين الخلفية الصحفية والخلفية الأكاديمية، حيث تكتب للصحافة النرويجية، إلى جانب عملها في الجامعة. تغطي اهتماماتها البحثية الأخبار الدولية، الصراعات في التغطية الإعلامية، الإعلام والجماعات المهمشة. صدر لها في العام 2013 كتاب: "الجزيرة والمشهد الإعلامي الدولي: الجنوب يتحدث". نشرت العديد من البحوث والدراسات في دوريات علمية محكمة مثل: المجلة العالمية للصحافة والسياسة؛ مجلة الإعلام والثقافة والمجتمع؛ مجلة الصحافة؛ مجلة دراسات صحفية؛ والمجلة العالمية للاتصال.

د. حسناء حسين، باحثة اجتماعية متخصّصة في مجال الاتصال والإعلام والنوع الاجتماعي، ومتعاونة مع مركز "إميل دوركايم للعلوم السياسية والاجتماعية المقارنة" في بوردو، ومرصد الدراسات حول التطرّف التابع لمؤسّسة "بيت العلوم الانسانية" في باريس. حاصلة على شهادتي دكتوراه في العلوم الاجتماعية من الجامعة اللبنانية وجامعة بوردو الفرنسية. لها دراسات ومقالات علمية عديدة حول قضايا النساء في الإعلام والمجتمعات العربية المعاصرة، واستخدامات وسائط الاتصال الحديثة، منشورة في مجلات متخصّصة باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية. لديها تحت النشر كتاب "تمثّلات النساء وتطوّر أوضاعهن في الفضائيات العربية العابرة للحدود.

د. محمد الراجي، باحث في مركز الجزيرة للدراسات، ومشرف برنامج الدراسات الإعلامية. حاصل على شهادة الدكتوراه في الإعلام من جامعة أم درمان الإسلامية في العام 2015، وماجستير في الصحافة الإذاعية والتلفزيونية من الجامعة نفسها في العام 2011، ودبلوم الدراسات العليا في الأدب الحديث بجامعة محمد الخامس بالمغرب في العام 1995. عمل في قناة الجزيرة بقسم ضمان الجودة بين عامي 2005 و2013. تركز اهتماماته البحثية على الإعلام والاتصال وأثرهما المعرفي والثقافي والاجتماعي.

د. مي شيغينوبو، باحثة في علوم الإعلام والاتصال. حاصلة على شهاد الدكتوراه في الإعلام من جامعة دوشيشة في كيوتو باليابان حول دور الجزيرة في تأطير الأخبار وتحديد الأجندة الإخبارية. تعمل صحفية ومذيعة برامج حوارية سياسية ومنتجة أفلام وثائقية. تغطي اهتماماتها البحثية الإعلام والسياسة وقضايا العالم العربي والشرق الأوسط. لها إسهامات بحثية في مجال الإعلام العربي والتحولات السياسية. صدر لها في العام 2003 كتاب "من الغيتو إلى الشرق الأوسط"، وفي العام 2012: "الربيع العربي: كيف وقعت تغطيته في الإعلام ولدى الغرب".

د. كمال حميدو، أستاذ الإعلام والاتصال بجامعة قطر. حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة السربون بفرنسا. تغطي اهتماماته البحثية الاتصال المؤسسي والعلاقات العامة كامتداد للأبحاث التي قام بها على مستوى دراسات الماجستير، ثم بسوسيولوجيا التلفزيون ووسائل الإعلام الحديثة واستخدامات المتلقين

وإشباعاتهم كامتداد لانشغالاته البحثية على مستوى الدكتوراه. تنطلق اهتماماته البحثية المرتبطة بالتلفزيون والوسائط الذكية من الرغبة في فهم وتفسير تأثير محتوياتها وآليات عملها ومنظوماتها على عملية التغير الثقافي والاجتماعي، وكذا على الإدراك والعمليات المعرفية.

سكوت بريدجيز، باحث في الإعلام في جامعة كانبيرا بأستراليا. صدر له كتاب بعنوان "18 يومًا: الجزيرة الإنجليزية والثورة المصرية" (إيديتا، 2013). تبحث أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه في استراتيجيات توسع شبكة الجزيرة الإعلامية حول العالم، مع التركيز بشكل خاص على وجودها في أستراليا، والدور الذي لعبته تغطية القناة الإنجليزية للأحداث الإخبارية الكبرى مثل ثورة 25 يناير/كانون الثاني 2011 في مصر.

بروفسور فيليب سيب، أستاذ الصحافة والدبلوماسية العامة والعلاقات الدولية في جامعة جنوب كاليفورنيا. تتركز أبحاثه على تأثير التغطية الإخبارية على السياسة الخارجية وتحديدا في قضايا الصراع والإرهاب. ألف وحرر عددا من الكتب من بينها: "ديبلوماسية العناوين: كيف تؤثر التغطية الإخبارية في السياسة الخارجية" (1996)، "الصحفي العالمي: الخبر والضمير في عالم مليء بالصراعات" (2001)، "الإعلام الجديد والشرق الأوسط الجديد" (2007)، "تأثير الجزيرة" (2008)، "الديبلوماسية الفورية: السياسة والسلطة في عصر الإعلام الاجتماعي" (2012). يتولى سيب أيضا تحرير سلسلتي الاتصال السياسي العالمي، والديبلوماسية العامة الدولية اللتين تصدران عن دار بلغريف ماك ميللان.

د. نهى ميلّر، أستاذ الإعلام في جامعة بدفوردشر البريطانية، ونائب مدير مركز أبحاث الإعلام والفن والأداء في نفس الجامعة. تدير بالشراكة مع البروفسور جون سيلفرمان مركز تحليل الإعلام العالمي والبحث والاستشارات. حاصلة على شهادة الدكتوراه من جامعة كوبنهاغن في الدنمارك. تركز اهتماماتها البحثية على الإعلام العربي، والدين والنوع الاجتماعي في وسائل الإعلام. عملت في مجال الصحافة في مؤسسة البث الدنماركية، وخدمة بي بي سي العالمية. صدرت لها عدة كتب منها: "صناعة الأخبار العربية" (2005)، و"الصحافة العربية الحديثة" (2007)، "الإعلام العربي (2011)، و"تغطية أخبار منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا" (2016).

د. عزيز دواي، أستاذ الاتصال والإعلام الرقمي بجامعة أونتاريو في كندا، ومؤسس ومدير برنامج الدراسات الإعلامية والثقافية في معهد الدوحة للدراسات العليا. حاصل على شهادة الدكتوراه في الإعلام الجماهيري من جامعة بنسلفانيا الأميركية. تركز اهتماماته البحثية على الإعلام الجديد والنشاط السياسي، والإعلام العربي والديمقراطية، والإعلام العالمي والصراعات الدولية. من مؤلفاته: "تأثير الإعلام على التغيير الاجتماعي في إفريقيا". نشر أكثر من أربعين فصلا في كتاب ودراسة محكمة في الدوريات الأكاديمية المحكمة، وله تحت النشر كتاب بتحرير مشترك بعنوان: "الهويات الوسيطة والصحافة الجديدة في العالم العربي".

مقدمة

انقضت عشرون عامًا على انطلاق قناة الجزيرة الفضائية في منتصف تسعينات القرن الماضي، مدشِّنة فصلًا جديدًا في تاريخ الإعلام العربي الذي كان يعيش تحت رقابة صارمة لأنظمة الحكم. ومنذ العام 1996، شهد مجال البثِّ التلفزيوني ، وأسلوب التغطية الإخبارية، تغييرًا هائلًا على أكثر من مستوى. كما ساعدت تقنيات البث الفضائي وما تبعها من تطورات متسارعة في مجال الإنترنت وخصوصًا على صعيد شبكات التواصل الاجتماعي، على تعزيز تيار التدفق العكسي للمعلومات والأخبار، ليصبح ذلك ملمحًا بارزًا من ملامح المشهد الإعلامي العربي والعالمي. وعلى غرار ما حصل في مناطق أخرى من العالم، أسهمت تلك التغييرات العميقة والمتسارعة في تشكيل رأي عام جديد وخلق فضاء عام عربي.

إلى جانب ذلك، ساعد البثُّ التلفزيوني العربي العابر للحدود، بقيادة الجزيرة، على بلورة هوية عربية واحدة وولادة وعي عربي مشترك. ولا يمكن أن نفهم ارتفاع مستوى الوعي لدى الشارع العربي بضرورة التغيير السياسي وإقامة الحكم الرشيد بعيدًا عن تأثير تلك التحولات التي شهدها مجال الإعلام. فأثر الدومينو الذي رأيناه في تتابع ثورات الربيع العربي التي انطلقت في تونس في أواخر العام 2010، يجد جذوره في منتصف التسعينات مع انطلاق عدد من الفضائيات، في مقدمتها الجزيرة. لقد نجحت تلك الفضائيات في توحيد الجمهور العربي، وتمكينه من التواصل عبر الفضاء العام الافتراضي، والرفع من منسوب الوعي لديه عن طريق ما تبثه من أخبار وتحقيقات وبرامج حوارية ووثائقيات وغيرها.

ربطت الجزيرة أيضًا بين عرب المهجر وأوطانهم الأصلية، بعد أن ظلوا لعقود طويلة يعيشون ما يشبه حالة من الانقطاع الثقافي والسياسي عن شؤون بلدانهم. كما أصبح بإمكان المعارضين السياسيين وناشطي المجتمع المدني أن يعبِّروا عن مواقفهم وآرائهم، ويؤثِّروا ولو نسبيًّا، في الرأي العام وفي مسارات صناعة القرار. لقد نجحت القناة في جلب كل ذلك الاهتمام، وإحداث كل ذلك التأثير، بفضل الثقافة الصحفية الجديدة التي أدخلتها للمنطقة وتحدَّت من خلالها الثقافة السائدة عربيًّا وإقليميًّا ودوليًّا. وقد حفَّز ذلك النجاح عددًا من الدول الغربية لإطلاق مشاريعها الإعلامية الناطقة بالعربية. في هذا السياق، انطلقت قنوات الحرة الأميركية، وبي بي سي البريطانية، ودويتشه فيلله الألمانية، وفرنسا 24، وروسيا اليوم. التقت أهداف تلك المشاريع جميعها في التأثير على الرأي العام العربي الذي بدا أن الجزيرة تهيمن عليه بشكل واسع.

لقد استطاعت الجزيرة، منذ أيامها الأولى، كسب عقول وقلوب شرائح واسعة من النخبة ومن الجمهور، كما تمكَّنت من مواكبة الصراعات والتوترات السياسية والاجتماعية في المنطقة، وكان لما تتسم به صحافتها من جرأة غير مسبوقة الفضل في اتساع نطاق متابعة أخبارها وبرامجها من قِبل المشاهدين؛ فقد عالجت قضايا ساخنة تقع في قلب الاهتمام لدى الشارع العربي، مثل البطالة والفساد السياسي والمالي وحرية التعبيير والتنظم، إلى غير ذلك مما يشغل المواطنين والرأي العام، ولا يجد حظه في وسائل الإعلام الأخرى. فعلى سبيل المثال تبقى تغطية الجزيرة للانتفاضة الفلسطينية أحد النماذج الأساسية التي يبرز من خلالها اختلافها عن تغطية بقية القنوات الإخبارية؛ فسرديتها للانتفاضة تتأطر ضمن سياق خاص يجعل منها حلقة في سلسلة طويلة من صراع البقاء ومقاومة الاحتلال الإسرائيلي.

شهدت العشريَّتان الماضيتان أيضًا، عددًا من الاضطرابات والأحداث الكبرى التي باتت تهدد أسس النظام الإقليمي التي وُضعت منذ عشرات السنين. وما يجري في سوريا والعراق واليمن وليبيا من صراعات سياسية واجتماعية وعسكرية ليست إلا مؤشرات على ما يمكن أن تكون عليه المنطقة في المستقبل. وقد طرحت تلك الصراعات تحديات جدية على التغطية الإعلامية للجزيرة، وأثارت أسئلة لدى قطاعات من المشاهدين حول مدى حيادها ومهنيتها.

وإذا كانت عشرية التسعينات من القرن الماضي، عشرية "سي إن إن"، فإن العشريتين الماضيتين هما بالتأكيد عشريتا الجزيرة. فمنذ انطلاقها وهي تحتل الصدارة في نسب المشاهدة وحجم التأثير ورضى الجمهور. جدير بالإشارة هنا أن أحد عوامل هذا النجاح هو التمويل السخي والدعم المعنوي الذي تلقاه الشبكة من دولة قطر التي تستضيفها وترعاها. وقد برز ذلك جليًّا في تأكيدات المسؤولين القطريين المتعاقبة على استمرار الدعم وفي الوقت ذاته استمرار احترامهم لاستقلاليتها التحريرية. وإذا كان الدعم القطري الرسمي عاملًا أساسيًّا في نجاح "ظاهرة" الجزيرة، فإن جانبًا آخر من نجاحها يعود إلى دور إدارتها التي تمكنت من استقطاب أفضل الكفاءات المهنية من العالم العربي ومن الغرب للنهوض بهذا المشروع الكبير.

لقد استطاعت الجزيرة، متسلحة بخبرات تلك الكفاءات العالمية، أن تعيد صياغة قواعد المهنة وممارساتها، استنادًا إلى فهم جديد ومختلف لقيم الحياد والموضوعية والجرأة في نقل الأخبار. كما تمكنت من الوصول إلى جمهور عالمي والتأثير في توجهاته من خلال تزويده بمحتوى إخباري بديل نابع من المنطقة ومتفهِّم لنسيجها الثقافي والاجتماعي. فما أصبح يُصطَلَح عليه بـ"الدفق العكسي" للأخبار، إنما هو في الحقيقة أثر من الآثار الكثيرة لـ"ظاهرة" الجزيرة. وقد دفعت تلك الآثار أعدادًا متزايدة من الباحثين والمتخصصين في مجال الإعلام إلى الانكباب على دراستها ومقاربة تجربتها من زوايا متعددة. وبقطع النظر عن النتائج التي انتهت إليها تلك البحوث، يظل حجم الاهتمام في حد ذاته ظاهرة لافتة للنظر.

يحاول هذا الكتاب، الذي يجمع فصولًا من تأليف ثُلَّة من أبرز الباحثين وأساتذة الإعلام في عدَّة مؤسسات جامعية وبحثية، تتبع أثر الجزيرة وما تركته من بصمة في مجالات الإعلام والسياسة والأكاديمية. ويرصد، إلى جانب ذلك، علاقتها بجمهورها العربي، سواء في المنطقة العربية أم في المهجر، دون أن يغفل مشاهديها خارج الفضاء العربي. نأمل أن يقدم هذا العمل الجماعي الشامل، قراءة موضوعية وثريَّة لتجربة هذه "الظاهرة" الإعلامية، وهي تكمل عقدها الثاني.

يتناول الفصل الأول الذي جاء تحت عنوان: **الجزيرة وتغيير المشهد الإعلامي العربي**، أثر الجزيرة في الإعلام العربي وما أحدثته من نقلة أصبح يؤرَّخ لها بما قبل الجزيرة وما بعدها. فقد شهد الإعلام العربي منذ ظهور قناة الجزيرة تغييرًا عميقًا وإن لم يكن شاملًا، انعكس في تحريره نسبيًّا من رقابة السلطة، وتجديد قوالبه الإخبارية، وظهور عدد من البرامج الحوارية السياسية المباشرة. تغيَّر الكثير من المحتوى التلفزيوني الذي أصبح المشاهد يتلقاه في الأعوام العشرين الماضية، فتغيرت علاقة الجمهور بالإعلام العربي بشكل عام، وعاد الناس يتابعون قنواتهم الإخبارية بعد أن كانوا قد هجروها بحثًا عن ضالتهم في وسائل الإعلام الأجنبية (عبد المولى). طرحت تلك العودة إشكالات عدَّة من بينها إشكالية التلقي بوصفها المدخل الرئيس لتبلور رأي عام جماهيري تُعرض عليه رسائل متعددة المضامين (زرن)؛ فالتعددية في الأخبار والبرامج التي أتاحتها الجزيرة لمشاهديها، ثم لحقت بها قنوات عربية وإقليمية أخرى، أصبحت سمة بارزة في الخطاب الإعلامي الذي يتلقاه ويتداوله المواطن العربي ويشارك من خلاله في الفضاء العام الجديد.

برز أثر الجزيرة أيضًا من خلال جهود القناة في إعادة صياغة قواعد الصحافة المهنية (الميلادي)، بتوسيع حدودها وضخِّها بجملة من القيم الجديدة. أمَّا القيم الراسخة مثل الحياد والموضوعية والاستقلالية، فقد تعاملت معها بمنظور جديد، حقَّق لها ريادة وتميزًا ومكَّنها من كسب عقول وقلوب الملايين من متابعيها في العالم العربي وخارجه ولكنه في الوقت ذاته أثار ظلالًا من الشك حولها وحول مدى احترافية ممارستها الصحفية؛ فاستخدام القناة في تغطيتها للصراعات والحروب صورًا مباشرة قوية وجريئة على سبيل المثال، يجعلها أقرب إلى "تمثيل" الواقع كما هو ونقل وجهه الحقيقي بما يحمله من بؤس ومعاناة من قِبل الضحايا والمهمَّشين (الزياني). ولكنها صور غالبًا ما لا تجد طريقها إلى شاشات الإعلام الغربي "النظيفة" لاعتبارات تتعلق بـ"عدم الملاءمة" مهنيًّا.

هذه النقلة التي أحدثتها الجزيرة في المشهد الإعلامي العربي أثَّرت بدورها في بيئتها السياسية الأوسع، وهو ما يعالجه الفصل الثاني تحت عنوان: **من تغيير الإعلام إلى التأثير في السياسة**. وحتى لا نسقط في المبالغة و"أسطرة" دور الإعلام وتأثيره السياسي، لابد من الإشارة إلى أن نضال الحركة السياسية العربية من أجل الإصلاح وانفتاح نظم الحكم طويل ومتجذر، ولم يبدأ مع "طفرة" التسعينات الإعلامية (اليحياوي). ما فعله الإعلام العربي الجديد على هذا الصعيد هو تعزيز جهود الإصلاح وتسريع وتيرة التغيير من خلال تعرية السلطة وكشف الفساد وتمكين المواطن بكسر احتكار الدولة لوسائل الإعلام، لاسيما المسموع منها والمرئي. نتج عن ذلك إعادة ترتيب العلاقة بين الحاكم والمحكوم الذي تفجَّر غضبه في شكل حركات احتجاجية واسعة عُرفت بثورات الربيع العربي.

لقد كان للإعلام الذي تحرر من هيمنة السلطة دور محوري في تلك الثورات؛ فقد مهَّد لها الأرضية من خلال تشكيل فضاء عام عربي، ترعرع في إطاره وعي سياسي مشترك، وتبلورت ضمنه أفكار واتجاهات وانتظارات، وتصاعدت على خلفيته الضغوط ومطالب التغيير. وعند تفجُّرها، كانت الجزيرة بقنواتها ومنصاتها المختلفة، حاضرة في الميدان، تنقل الأحداث في تغطية مباشرة ومفتوحة للحركة الاحتجاجية وهي تنتقل سريعًا بين بلدان الربيع العربي (المبروكي).

إلى جانب الإعلام والسياسة، تركت الجزيرة أثرًا آخر بالغ الأهمية في مجال البحث العلمي، تناوله الكتاب في فصل بعنوان: **الجزيرة في المجال الأكاديمي**. رصد هذا الفصل نحو مئة من أهم الإصدارات الأكاديمية حول الجزيرة (كتبًا ومقالات منشورة في دوريات محكَّمة وفصولًا في كتب). وحلَّل اتجاهاتها البحثية وصنَّفها، رغم ما بينها من تداخل في التخصصات، ضمن خمسة مجالات متمايزة، هي: الدراسات الصحفية، ودراسات الجغرافيا السياسية، ودراسات التواصل الثقافي، ودراسات الفضاء العام، والمناهج المستخدمة (باورز). هذا الاهتمام الكبير بالجزيرة في الوسط الأكاديمي، يُعَدُّ بالتأكيد إضافة نوعية إلى الأدبيات الراهنة في مجال الدراسات الإعلامية، ولكنه أيضًا أفاد تخصصات علمية أخرى، مثل: العلاقات الدولية، والدراسات القانونية، وعلم الاجتماع، ودراسات العولمة، والتواصل بين الثقافات كما بيَّن التحليل في هذا الفصل.

بعد رصد أثر الجزيرة في مجالات الإعلام والسياسة والبحث الأكاديمي في الفصول الثلاثة الأولى، يحلِّل الفصل الرابع الذي جاء تحت عنوان: **الجزيرة مقاربة جديدة للمهنية الصحفية**، نماذج من محتوى القناتين الإخباريتين العربية والإنجليزية، ويبحث في السياسة التحريرية التي تحكم ذلك المحتوى. يفتتح الفصل بالبحث في سؤال المهنية في صحافة الجزيرة الإنجليزية، في ضوء أهداف القناة المعلنة وتوجهاتها التحريرية واستراتيجياتها في التغطية والتموقع والتوظيف. تحت هذا السؤال تعالج (فيغنسكو) عدة مسائل، من بينها: "المنظور الجنوبي" الذي تتبنَّاه القناة وتدافع عنه وعلاقة ذلك بأحد أهدافها في عكس تيار تدفق الأخبار العالمية. وتبحث في أهمية ودلالة اعتماد "مراسلين محليين" في إنتاج الأخبار ونقلها، وعلاقة ذلك بفكرة رواية القصة الخبرية من وجهة نظر أصحابها. كما تُسائل شعار "صوت من لا صوت له" ومدى نجاح الجزيرة في فسح المجال للمناطق والفئات والأصوات المهمَّشة إعلاميًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا.

من الأصوات المهمشة تقليديًّا في مجتمعات الشرق الأوسط الصوت النسائي، فهل وجد ذلك الصوت في قناة الجزيرة منبرًا للتعبير عن ذاته بما يمكِّنه من لعب دوره المستحق؟ يحلِّل هذا الفصل تمثلات النساء وأدوارهن في المجال العام من خلال تحليل مضمون برنامجين من برامج الجزيرة، هما: "للنساء فقط" و"رائدات" (حسين). وللوقوف على مدى تمكين الجزيرة للمرأة وإسهامها في تقديم صورة مغايرة للصورة النمطية التي يقدمها الإعلام السائد، تبحث هذه الدراسة في الحضور الجندري على شاشة القناة في محاولة لتلمُّس مواقع النساء وأدوارهن كمذيعات وضيفات وموضوع للنقاش. من زاوية أخرى، يتناول هذا الفصل النموذج الصحفي للجزيرة بالتركيز على دوره في تمكين المشاهد معرفيًّا. فالمحتوى الإعلامي الذي تقدمه الشبكة لا

يقتصر على البعد الإخباري "الحدثي"، وإنما يتعداه ليشكِّل خطابًا إبستيميًّا يسعى لتأسيس رؤية شاملة تربط بين تفاصيل الأحداث لتضفي عليها معنى نفهم من خلاله ما يدور حولنا (الراجي). تتجلى تلك الرؤية في أساليب تغطية القناة للقضايا العربية والإسلامية والدولية بوضعها في سياقاتها التاريخية والسياسية والثقافية. كما تسعى إلى فسح المجال أمام جمهورها العابر للحدود للوصول الحُرِّ إلى المعلومة وتمكينه من الاطِّلاع على الحقيقة التي تمنحه القوة وتُسلِّحه بالمعرفة والوعي.

جمهور الجزيرة، أفرد له الكتاب الفصل الرابع، فتابع تطوره الذي تَواكَبَ مع صعود القناة كلاعب مؤثِّر في الإعلام العالمي (شيغينوبو). بدأ جمهورًا عربيًّا اجتذبته نوعية المحتوى الذي تبثه الجزيرة، والذي اختلف منذ اليوم الأول عمَّا ألفه في قنواته المحلية، وحتى في بعض وسائل الإعلام العالمية. ثم توسع بالتدريج مع توسع تغطية القناة للأحداث العالمية الكبرى؛ فجاءت "عاصفة الصحراء" (1998) لتجعل من الجزيرة الوسيلة الإعلامية العربية الأبرز التي تابع المشاهد العربي من خلالها تطورات تلك الحملة العسكرية على العراق. تلتها الانتفاضة الفلسطينية الثانية (2000)؛ فحرب أفغانستان (2001)، ثم غزو العراق (2003) وأخيرًا ثورات الربيع العربي (2011).

يُلقي هذا الفصل كذلك الضوء على جمهور الجزيرة في بلدان المهجر، فيرصد حضورها بين الجاليات العربية كقناة رئيسية لاستقاء الأخبار والمعلومات، كما يبحث في الدوافع والمحفِّزات التي تجعل عرب المهجر ينجذبون إلى القناة ويفضِّلونها على غيرها، ويحلِّل أثر تلك العلاقة في إعادة تشكيل هويتهم وربطهم بزمان ومكان مغاير لموطن إقامتهم، وفي تغيير قناعاتهم السياسية والفكرية المرتبطة بالحياة السياسية داخل بلدان المهجر نفسها (حميدو). وإذا كان جمهور المهجر امتدادًا طبيعيًّا لجمهور الجزيرة في العالم العربي، فإن جمهورها خارج المجال العربي، وغير الناطق بالعربية، يحتاج إلى مزيد من الجهد البحثي لفهم طبيعته وطبيعة العوامل التي تدفعه لمتابعة أخبار الشبكة. يتناول هذا الفصل جانبًا من جمهور الجزيرة العالمي بالتركيز على طريقة تلقي القناة الإنجليزية في أستراليا (بريدجز)؛ فقد دخلت القناة إلى أستراليا بالأساس عبر شراكات للبثِّ التبادلي مع محطتي بث عموميتين. وقد كانت تلك الصيغة، التي أتاحت للجمهور الأسترالي متابعة بث الجزيرة عبر قنواته المحلية، خطوة ضرورية لتجاوز كثير من العقبات التي تقف في وجه الشبكات الأجنبية الوافدة إلى السوق الأسترالية. ورغم صغر حجم تلك السوق، حيث لا يتجاوز عدد سكان البلاد 25 مليونًا، فقد نجحت الجزيرة في الوصول إلى شرائح متنوعة من الجمهور، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار النشاط المتنامي للجزيرة على الصعيد الرقمي والإلكتروني، والذي عزَّز من حضورها ومن تأثيرها على ذلك الجمهور.

يُختتم الكتاب بفصل يُطلُّ من خلاله على **مستقبل الجزيرة والإعلام العربي**. وخلافًا لما يروج من تراجع دور الإعلام التلفزيوني لصالح تكنولوجيات الاتصال المتجددة، يؤكد (سيب) أن جمهور وسائل الإعلام العربية سيواصل نموه وفقًا للطرق والأساليب التي رسَّختها الجزيرة في التعامل مع الأخبار. وسيستمر الإعلام التلفزيوني في لعب دور محوري في تغطية الأحداث، خاصة مع تزايد التعقيدات الحاصلة في البيئة السياسية العربية وشرق الأوسطية بعد الربيع، والتي ستظل مصدرًا رئيسيًّا للأخبار في العالم. غير أن تلك التعقيدات تطرح على الجزيرة وعلى الإعلام العربي عمومًا جملة من التحديات، تتعلق بقدرة المؤسسات الإعلامية التقليدية على مواكبة التطورات الجارية في بيئتها الصحفية والتي قد تفرض عليها اتخاذ خيارات صعبة بشأن تقليل التركيز على البث والاستفادة أكثر بشبكات التواصل الاجتماعي للوصول إلى جمهور يشهد هو الآخر تحولًا ملحوظًا في عاداته وطرق تلقيه للمعلومة.

من التحديات الأخرى التي تواجه الإعلام العربي، ارتباطه الوثيق بالسياسة وصعوبة العمل باستقلال تام عن الفاعلين السياسيين وعن أجنداتهم المتباينة والمتصارعة. وقد انعكس ذلك الارتباط سلبًا على العلاقة بين

المشاريع الإعلامية العربية وقلَّل من فرص التعاون فيما بينها. على خلفية تلك الانقسامات والتحيزات الإعلامية، ترى (ميلر) أن مستقبل الإعلام العربي يكمن في استحداث مسارات جديدة للتعاون بين وسائل الإعلام العربية، سواء على قاعدة التوجه العربي الشامل، أو على أساس التكامل بين المؤسسات المحلية والمؤسسات ذات الانتشار الإقليمي والعالمي. هناك فرص كثيرة للتعاون بدل التنافس مثل الإنتاج المشترك، وإقامة مجمَّعات مشتركة للموارد التدريبية، والاتفاق على مجموعة من المعايير المهنية المشتركة.

يعزِّز هذا الاتجاه التعاوني اتجاه آخر رصده (دواي) في ما أسماه: "تلاقي وسائل الإعلام" والتحول إلى نظام إعلامي هجين. في سياق هذا النظام الجديد، الذي تُمثِّل الجزيرة أحد تمظهراته، تتلاشى الحدود بين الإعلام "القديم" والإعلام "الجديد" تلاشيًا كبيرًا وتتداخل فيه جماهير الإعلام التقليدي مع مستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي، بما يسهم في تشكيل ثقافة سياسية تشاركية ناشئة بالمنطقة. في الأخير، يبدو مستقبل الجزيرة والإعلام العربي بشكل عام، رهنًا بقدرتهما على التجديد وعلى الانخراط أكثر في البيئة الإعلامية "الهجينة"؛ حيث تلتقي الشاشة مع تكنولوجيات الاتصال الإلكترونية والرقمية، ويلتقي جمهور الفضائيات مع الجمهور الجديد المترابط عبر شبكات التواصل الاجتماعي.

المحرران

الدوحة، أكتوبر/تشرين الأول 2016

الفصل الأول

الجزيرة وتغيير المشهد الإعلامي العربي

ما قبل الجزيرة وما بعدها:

الإعلام العربي بين عصرين

عزالدين عبد المولى

مدير البحوث بمركز الجزيرة للدراسات

مقدمة

قد يختلف الدارسون للإعلام العربي كثيرا حول دوره وأدائه وطبيعة علاقته بالسياسة والسلطة وجمهور المتابعين، إلا أنهم بالتأكيد لا يختلفون على حقيقة النقلة التي شهدها في العقدين الأخيرين، سواء على مستوى المضامين أو أشكال الملكية أو أساليب العرض أو مستويات الحرية التي بات يتمتع بها. وليس التأريخ لهذه النقلة بالعقدين الأخيرين اعتباطيا، بل هو ربط واع بين "حدوثها" وبين "حدث" إطلاق قناة الجزيرة الفضائية في منتصف تسعينات القرن الماضي. وهو ربط يؤكد صلاحية المقولة التي تتردد كثيرا في الأدبيات المعنية بالإعلام العربي، مقولة "ما قبل الجزيرة وما بعدها".

لا يمكن إدراك طبيعة التحول المذكور وعمقه دون العودة قليلا إلى الوراء لرسم ملامح المشهد الإعلامي العربي قبل بداية البث التلفزيوني الفضائي، حيث كانت وسائل الإعلام على امتداد العالم العربي جزءًا من نظام تحكّم شامل، ومكوّنا طيّعا من مجموع مكونات منظومة الاستبداد العربية. فكانت، إلى حد كبير، مرآة عاكسة لسياسة الحاكم وصوته وصورته. لم يكن الفضاء قد فُتح بعد، وكانت الأرض تضيق بالعدد القليل من وسائل الإعلام الوطنية من محطات تلفزيونية أو إذاعية أو صحافة المكتوبة، تابعة للدولة أو تدور في فلكها إما مباشرة أو بشكل غير مباشر. ومع دخول البث الفضائي في بداية التسعينات، بدأت الصورة تتغير تدريجيا إلى أن انطلقت الجزيرة فأحدثت في ذلك المشهد نقلة نوعية وأدخلت الإعلام العربي، وربما السياق العربي برمّته، في عصر جديد مختلف إلى حد بعيد عما سبقه. ثم تعززت تلك النقلة بما حملته ثورة المعلومات وتكنولوجيات الاتصال الحديثة من إمكانات غير مسبوقة ولا محدودة، أصبح معها أي حديث عن العودة بالإعلام العربي إلى ما كان عليه، ضربا من الوهم.

يبحث هذا الفصل في الدور المفصلي للجزيرة في التغيير الذي شهده الإعلام العربي خلال العشرين عاما الماضية، وينقسم إلى ثلاثة عناصر أساسية: 1) الإعلام العربي ماضيا: خصائصه وملامحه. 2) حدث الجزيرة: سياقاته ودلالاته في المشهد الإعلامي العربي . 3) أثر الجزيرة في الإعلام والسياسة.

الإعلام العربي ماضيا: خصائصه وملامحه

ليس أبلغ للتدليل على أهمية التغيير الذي عرفه المشهد الإعلامي العربي من قولنا إن له ماضيا وإننا أصبحنا ننظر إلى ذلك الماضي باعتباره حقبة ولّت. وقبل التفصيل في خصائص ذلك الماضي وملامحه الأساسية، تجدر الإشارة إلى أن التحول المقصود لا يعني اختفاء كافة الممارسات أو العلاقات أو البنى التي كانت تحكم منظومة الإعلام العربي في السابق، وأن ما نتحدث عنه اليوم نمط جديد مختلف كليا ومنفصل عن ذلك الماضي. فماضي الإعلام العربي وحاضره متواصلان ومتداخلان وكثير من ملامح ذلك الماضي لا تزال ماثلة في عدد من البلدان العربية. ولكن التحول المقصود هنا هو أن العشريتين الماضيتين شهدتا ميلاد ظاهرة إعلامية عربية جديدة على غير مثال سابق. وأن تلك الظاهرة تحولت في سنوات قليلة إلى ما يشبه التيار العام تتنافس ضمنه قنوات التلفزيون والإذاعة والصحافة المكتوبة على الوصول إلى جمهور، هو بدوره مختلف إلى حد بعيد عن الجمهور القديم. كما تتنافس في التأثير السياسي والأيديولوجي عبر حدود و"سيادات" اختلف مفهومها كثيرا عن الماضي بفعل عوامل متداخلة أبرزها حركة العولمة الجارفة. وإذا كانت الجزيرة نقطة الانطلاق في ذلك التحول، فإن التطورات التي أعقبتها، خاصة على صعيد تكنولوجيات المعلومات والاتصال وشبكات التواصل الاجتماعي، وسّعت الفوارق بين البيئة الإعلامية القديمة والبيئة الجديدة، وبرّرت بحق الحديث عن ماض وحاضر للإعلام العربي.

يمكن إيجاز الخصائص العامة للإعلام العربي قبل الجزيرة في أربع نقاط أساسية: 1) مركزية الحاكم وتبعية الإعلام. 2) البث في غياب المتلقي. 3) أحادية الخطاب وغياب المنافسة. 4) تناسب القوة والضعف في علاقة الإعلام بالدولة.

1) **مركزية الحاكم وتبعية الإعلام:** باستثناء الصحف المهاجرة (مثل الحياة والشرق الأوسط والقدس العربي) والتي توفر لها قدر من الحرية وفرصة للاحتكاك المباشر بالصحافة العالمية في عواصم كبرى كلندن وباريس، كان الإعلام العربي على اختلاف أصنافه (المرئي والمسموع والمقروء)، مرتبطا بالسلطة ارتباطا عضويا أو تابعا لها، يدور في فلكها. ولم يكن نمط الملكية يختلف كثيرا بين بلدان المنطقة، حيث تملك الدولة وسائل الإعلام وتموّلها إما تمويلا مباشرا ومنتظما أو عبر العطاءات والإعلانات العمومية. ومع الملكية والتمويل يأتي التوجيه والتحكم في المحتوى وفي أولويات الاهتمام، فضلا عن سياسة التوظيف، لضمان ولاء طواقم التحرير والتزامها بسياسة الدولة أو السلطة أو الحزب الحاكم.

كان هذا النمط من العلاقة بين السلطة والإعلام في أبعادها الثلاثة (الملكية والتمويل والتوجيه) ينعكس بوضوح في بنية الخبر وفي أهميته وترتيبه في سياق النشرة. فكان الإعلام يدور مع الحاكم حيث دار. يغطي حركاته وسكناته، ويلمّع صورته ويعلي من شأنه، ويبرز إنجازاته المتحققة والموعودة. أما أهمية الخبر فتحددها عادة أهمية "المسؤول" (موضوع الخبر) وموقعه من هرمية السلطة. فخبر الرئيس أو الزعيم أو الملك يأتي أولا، يليه خبر رئيس الحكومة أو الوزير أو الوكيل، وإن بقي في النشرة فسحة من وقت، تُخصص للمحافظين والولاّة أو لإنجازات النظام وبرامجه في هذا القطاع أو ذاك. في ظل هذا الحضور الطاغي للحاكم في الإعلام، كان المواطن يختفي صوتا وصورة.

2) **البث في غياب المتلقي:** من النتائج المباشرة لتمركز الخطاب الإعلامي العربي، قبل مجيء الجزيرة، حول السلطة، غياب المواطن من الأجندة الإخبارية والبرامجية. وقد تجلى ذلك الغياب في وجوه أبرزها:

- غياب هموم المواطن وضمور القضايا التي تشغله من تنمية وتشغيل وحرية ومشاركة في الشأن العام. فالصيغة التي تُهيكَل بها الأخبار وتُعرَض، تنطلق من خلفية ترى في الدولة مركز الفعل وبالتالي ينبغي أن تكون مركز الاهتمام ومركز التغطية. أما المواطن فهامش ينبغي إهماله، وتابع لا يستحق وقتا على أثير الإذاعة أو شاشة التلفزيون الوطني. قيمته الوحيدة تنبع من موقعه في الطرف الآخر، موقع المتلقي.

- في مقابل هذا الغياب عن مركز التغطية الإعلامية، يقع تقديم صورة باهتة، وفي أحيان كثيرة مشوهة، عن مواطن تختزله الصحافة المطبوعة في زويا محددة؛ زوايا الأحداث والوفيات وقضايا المحاكم. وإذا سمحت السياسة التحريرية في مناسبات معينة بتغطية بعض الأحداث مثل الاحتجاجات والتحركات الاجتماعية أو غيرها، يقدّم المواطن المشارك فيها باعتباره مشاغبا أو فوضويا أو إرهابيا وقع تضليله وغسل دماغه.

- نتج عن هذا النمط من البث في اتجاه واحد غياب التفاعل من قبل الجمهور وتكريس صورة المتلقي السلبي أو "المتلقي الغائب". وإذا كان للسياسة التحريرية المهيمنة على المشهد الإعلامي العربي آنذاك دور أساسي في تغييب المتلقي، فإن محدودية الوسائل التكنولوجية التفاعلية في ذلك الوقت أسهمت هي الأخرى في تقليل الفرص أمام ظهور "جمهور عربي" وتشكيل "رأي عام" يستقبل ما تبثه وسائل الإعلام ويتفاعل معه.

- في ظل تلك البيئة الإعلامية الطاردة لجمهورها، وجد المواطن العربي ونخبه الثقافية والسياسية في الإعلام الأجنبي ملجأ، ومصدرا بديلا لتلقي المعلومات، ومتابعة أخبار المنطقة والعالم. فكانت قطاعات واسعة من الجمهور العربي تتابع إذاعة "هنا لندن" البريطانية و"مونتي كارلو" الفرنسية، و"دوتشي فيلله" الألمانية و"صوت أميركا". وفي ما يشبه اللجوء الإعلامي، كانت النخب تبحث عن أخبار المنطقة في قنوات "بي بي سي" ثم "سي أن أن" لاحقا، وهو ما عبر عنه فهمي هويدي بقوله: "أما الأحداث المهمة، بل وحتى الأفكار المهمة، فكنت أسعى إليها وألاحقها في نشرات الأخبار والتقارير والبرامج الحوارية التي تبثها المحطات التلفزيونية البريطنية والأميركية (هويدي، 2007، ص. 151).

3) ثالث الملامح المميزة للإعلام العربي قبل ظهور الجزيرة، أحادية الخطاب وغياب المنافسة. فالإعلام الرسمي الذي تجسده عادة مؤسسة الإذاعة والتلفزيون وبعض الصحف الوطنية ينهل من نفس المعين ويبث نفس الخطاب وذلك شأن كل إعلام حكومي. فالصفة الحكومية أغلب على الصفة العمومية في تلك المؤسسات، ليس لارتباطها العضوي بالحكومة ملكية وتمويلا وتوجيها، وحسب، بل بسبب غياب مفهوم "العموم" وثقافة "الخدمة العمومية". فغياب المجال العمومي بالمعنى الهابرماسي، الذي يتوسط بين الحيز الخاص من جهة، وحيز سلطة الدولة من جهة ثانية، جعل أغلب وجوه النشاط الإنساني مستتبعة للدولة فاقدة لأي خصوصية أو استقلالية فضلا عن البعد العمومي (هابرماس، 1989، ص.ص. 1-14). حتى المؤسسات الإعلامية التي تبدو في

الظاهر مستقلة في تمويلها وإدارتها، غالبا ما يكون خطابها متسقا مع خطاب المؤسسة الرسمية، وإن اختلفت معها فإن الاختلاف يكون في النبرة وليس في المقاربة أو في فلسفة التغطية.

الوجه الآخر لهذا الاتساق حد التطابق، وما يعكسه من سيادة الموقف الواحد والرأي الواحد والصوت الواحد، هو غياب التعدد والمنافسة في المشهد الإعلامي. فتعدد الصحف المطبوعة على سبيل المثال، هو في الحقيقة تعدد للنُّسخ وليس للرؤى المختلفة التي تسكن الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي. في ظل هذه الرتابة وغياب المنافسة التي تهيئ الأرضية لبروز بدائل محتملة، لم يكن من السهل توقع حدوث تطور حقيقي في المشهد الإعلامي العربي.

4) آخر خصائص تلك المرحلة، التي وضعت الجزيرة لها حدا، هي خصيصة التناسب في القوة والتأثير بين الدولة وإعلامها. وفي التاريخ شواهد كثيرة تؤكد أن قوة الإعلام من قوة الدولة وضعفه من ضعفها، فصعود الدول والامبراطوريات عادة ما ينعكس في إعلامها. كان ذلك واضحا خلال سيادة الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية في القرن التاسع عشر، واستمر مع الهيمنة الأميركية في القرن العشرين. ولم يخرج العالم العربي عن هذا السياق، إذ تقدم لنا إذاعة "صوت العرب" خلال الخمسينات والستينات من القرن الماضي، مثالا حيا على ذلك التناسب (الأحمد، 2011). فقد اكتسبت الإذاعة قوتها وتأثيرها من قوة مصر في تلك الحقبة ومن تأثيرها البارز في محيطها العربي والإقليمي. ولكن الجزيرة خرجت عن سياق ذلك التناسب وقدمت نموذجا لإعلام قوي تجاوز تأثيره المحيط الإقليمي القريب والبعيد، ليبلغ آفاق العالمية، رغم انطلاقها من دولة صغيرة بكل المقاييس. لقد غيرت الجزيرة فهمنا لمعنى القوة واستخداماتها وبينت أن التأثير يمكن أن ينفك عن القوة الصلبة إذا كان ضمن رؤية ثاقبة. يبدو أن ذلك هو ما حصل مع الجزيرة، حين "حلت الرؤية محل القوة" على حد تعبير محمد حسنين هيكل (2007، ص. 125).

حدث الجزيرة: سياقاته ودلالاته في المشهد الإعلامي العربي

لم تأت الجزيرة كتطور طبيعي في سياق الإعلام العربي، الذي حددنا خصائصه وملامحه في الجزء السابق، بل جاءت كحدث غير متوقع و"كحجر رُمي به في مياه الإعلام العربي الآسنة" على حد تعبير الصحفي سلامة أحمد سلامة (نيغوس (Negus)، 2001) أو كبذرة زُرعت في قلب الصحراء (مايلز (Miles)، 2005). ولذلك اتسمت ردود الفعل على انطلاقها بالتوتر والتوجس وعدم الفهم، خاصة على المستوى الرسمي إعلاميا وسياسيا. فعلى خلاف الترحيب الواسع من قبل جمهور المشاهدين المتعطش إلى إعلام عربي بديل، واجهتها الكثير من الحكومات العربية بحملات متعاقبة من التشكيك في رسالتها ونسج الأساطير حول نشأتها وارتباطاتها وأجندتها "المشبوهة " (غريب، 2000، ص.ص. 409-410). بعض السياسيين الغربيين صدرت عنهم ردود فعل مشابهة وأحيانا أكثر حدة وتوترا، فوُصمت القناة بالتحريض والإرهاب والتطرف القومي والديني ومعاداة الغرب ومناهضة السامية (لينش (Lynch)، 2005، ص.ص. 36-45).

بعض العناصر التفسيرية لظهور الجزيرة نجدها بالتأكيد في السياق المحلي لدولة قطر في منتصف تسعينات القرن العشرين، سواء على مستوى سياستها الداخلية التي شهدت صعود قيادة جديدة إلى سدة الحكم تحمل رؤية مختلفة لدور قطر ولسياستها داخل المنطقة وخارجها، أو على صعيد الوضع الجيو سياسي الهش للإمارة الصغيرة وموقعها في محيط إقليمي مضطرب (باورز (Powers). 2009، ص. 87)، إلا أن هناك عوامل أخرى جعلت من إطلاق الجزيرة حدثا إعلاميا له دلالات تاريخية تتجاوز نطاقها كقناة إخبارية. بعض تلك العوامل لصيقة بالبيئة الإعلامية والسياسية العربية، وبعضها الآخر يتعلق بطبيعة المحتوى غير المسبوق الذي تبثه القناة وتستقطب من خلاله جمهورا عابرا للحدود وللهويات الوطنية الضيقة.

فقد بدأت عشرية التسعينات بغزو العراق للكويت وما نجم عنه من انقسام في الموقف العربي وحرب ثانية في الخليج. وفيما كانت القوات الإميركية وحلفاؤها تتمركز في المنطقة استعدادا لشن الحرب، كانت طواقم وتجهيزات "سي أن أن" للبث الفضائي تتمركز هي الأخرى في بغداد لنقل العمليات على الهواء مباشرة. وكما كرّست حرب الخليج الثانية ريادة سي أن أن في مجال البث الإخباري الحي، فقد أكدت أيضا محورية الدور الذي يمكن أن يلعبه الإعلام الفضائي في بلورة "رواية" معينة عن الحرب، ونقلها ضمن أطر إخبارية محددة ومنتقاة بعناية، وتشكيل الرأي العام وفقا لتلك الرواية وما تحمله من رسائل. على المستوى العربي، خلقت حرب الخليج الثانية، وما رافقها من صعود لسي أن أن وتأثيرها البالغ (ليفينغسون (Livingston)، 1997)، حاجة ملحة لدى الدول العربية إلى بلورة رواياتهم الخاصة، سواء لتبرير مواقفهم من الحرب أم لتسويغ سياساتهم الداخلية والخارجية بشكل عام. فلم تكد الحرب تضع أوزارها حتى بدأت المنافسة تشتد على إطلاق القنوات الفضائية العربية الحكومية والخاصة، و"بدأت وتيرة التغيير في المشهد الإعلامي في الشرق الأوسط تتسارع، بما في ذلك توسيع طاقات الأقمار الاصطناعية الموجهة إلى المنطقة، وزيادة كبيرة في عدد القنوات، ونمو مماثل في حجم جمهور الفضائيات" (صقر، 2001، ص. 11).

صحيح أن المشهد الإعلامي العربي شهد طفرة على مستوى البث الفضائي في النصف الأول من التسعينات، ولكنها طفرة على مستوى الكم وليس الكيف. فأغلب الفضائيات التي أطلقت في تلك الفترة كانت قنوات حكومية، اكتفت بتحويل محتواها الذي كانت ترسله أرضيا إلى جمهورها المحلي، إلى بث فضائي على الأقمار الاصطناعية. فبين عامي 1990 و1996 على سبيل المثال، أُطلقت فضائيات مصر، والكويت، والإمارات (دبي)، والأردن، والمغرب، وسوريا، ولبنان، والسودان، واليمن، والبحرين، وتونس، وليبيا. إلى جانب هذه القنوات الحكومية، أُطلقت بعض القنوات والشبكات الخاصة (مثل أوربت، أي أر تي، أم بي سي، المستقبل) التي تبث محتوى ترفيهيا بدرجة أولى. في هذه البيئة الإقليمية المتغيرة سياسيا والمكتظة إعلاميا، وُلدت الجزيرة، وسرعان ما برزت خصوصيتها واختلافها عن باقي القنوات، لتتحول في وقت قياسي إلى "ظاهرة" إعلامية بتعبير زياني (2006)، اجتذبت الدارسين والباحثين من مختلف أنحاء العالم (عبد المولى ونصر، 2013). وانصبت تلك البحوث في مجملها على محتوى الجزيرة باعتباره نقطة قوتها الرئيسية وعامل تميزها الأبرز.

أول ما تميزت به قناة الجزيرة عن غيرها من الفضائيات العربية تخصصها في بث الأخبار والبرامج الحوارية المباشرة. فأخبارها منذ البداية خرجت عن السائد مما ألفه المشاهد العربي،

فقلبت ترتيب الأخبار وأولوياتها ليصبح المواطن في مركز التغطية ويتدحرج "المسؤول" إلى هامشها. وأصبحت القيمة الخبرية للحدث هي التي تحدد موقعه من النشرة بقطع النظر عن أي عوامل أخرى. ولا شك أن هذه المعادلة الجديدة في بنية الأخبار التي تقدمها الجزيرة لم يكن ممكنا الوصول إليها لولا طبيعة العلاقة التي تربط بينها وبين الدولة التي تستضيفها وتوفر لها التمويل. وهي علاقة تختلف كليا عن نمط العلاقات السائد بين الدولة العربية ووسائل الإعلام التي تعمل فيها.

تلك العلاقة تمثل ثاني عوامل التميز الذي عُرفت به القناة، فقد أتاحت لها مستوى من الحرية غير مسبوق جعل غرفة أخبارها تحدد أولوياتها وتضبط أجندتها الإخبارية والبرامجية باستقلال عن أي طرف خارجي. فالدولة التي تستضيفها اختارت منذ البداية عدم التدخل في شؤونها، إدراكا منها بأن أي تدخل تحريري سيفقدها خصوصيتها ويحوّلها إلى مجرد رقم في لائحة القنوات العربية التي تملأ الفضاء ولا تؤثر في الأرض. تلك الحرية المفتقدة في باقي وسائل الإعلام العربية والتي تفاجأ بمداها الكثيرون بما في ذلك صحفيو القناة القادمون من أعرق المؤسسات العالمية مثل بي بي سي (القاسم، 2005، ص.ص. 93-104؛ كريشان، 2007، ص. 61)، هي التي جعلت من محرري الجزيرة ينجحون في التقاط الأحداث التي تستحق التغطية بعيدا عن أوامر السلطة وتوجيهاتها، وعن ضغوط المعلنين وميولاتهم. فكانت تغطيتها الإخبارية أقرب إلى اهتمامات المواطن وألصق بهموم الشارع العربي، الذي التف حولها منذ أيامها الأولى.

يكمن العامل الثالث وراء القيمة المضافة التي مثّلها ظهور الجزيرة في التقاء منسوب الحرية في تغطيتها الإخبارية مع درجة عالية من الجرأة في معالجة القضايا ومناقشة الشؤون الجارية في برامجها الحوارية المباشرة مثل "الاتجاه المعاكس" و"أكثر من رأي" و"بلا حدود". فقد فتحت تلك البرامج منابرها لمناقشة قضايا كانت تعدّ من المحرّمات في وسائل الإعلام العربية مثل الفساد والاستبداد والحريات الفردية والعامة وحقوق المرأة والمشاركة السياسية ومساءلة الحكومات والعلاقة مع إسرائيل. واستضافت شخصيات لم تكن تحظى قبل الجزيرة بمساحات إعلامية للظهور والتعبير عن آرائها ومواقفها ومخاطبة الجمهور، مثل المعارضين السياسيين ونشطاء المجتمع المدني وممثلي الأقليات والمهمشين بشكل عام. وأفسحت المجال أمام مشاركة الجمهور في تلك النقاشات وشجعته على التفاعل الحي مع الضيوف ومع ما يُطرح في تلك المنابر من موضوعات حية ومثيرة للجدل. فكانت أسئلة المتّصلين وتعليقاتهم، بما تحمله من غضب واتهامات وأحيانا انقدات لاذعة للسلطات تمر على الهواء بشكل مباشر دون رقابة أو توجيه. وقد خصصت الجزيرة على مدى سنوات عديدة، برنامجا مفتوحا للجمهور دون ضيوف أو أجندة مسبقة، هو برنامج "منبر الجزيرة".

هذا الجمهور العربي الواسع الذي تجمعه شاشة الجزيرة أصبح كيانا فاعلا يقترح موضوعات النقاش، ويضغط على الحكومات، ويلعب دور الرقيب على كثير من ممارساتها. فقد أعاد اكتشاف ذاته وهويته المشتركة من خلال هذه القناة التي تنطلق من بيئته القريبة، وتنطق بلسانه العربي الجامع، وتنظر إلى الأحداث بعينيه، وتضع أخباره في مركز تغطيتها. فلأول مرة، كما ينقل هيو مايلز عن مصطفى سواق: "تتاح الفرصة للعرب لمشاهدة صحفيين عرب يصنعون الأخبار ويديرون البرامج الحوارية بنفس المعايير الاحترافية التي يرونها في المؤسسات الإخبارية الغربية" (مايلز، 2005، ص. 34). هذا اللقاء بين الاحترافية في الأداء، والجرأة في

طرح القضايا ومناقشتها، مع سقف الحرية المرتفع، هو الذي صنع وصفة نجاح الجزيرة، فاستعادت بذلك الجمهور الذي دفعه الإعلام العربي إلى اللجوء إلى وسائل الإعلام الأجنبية، كما اجتذبت جمهور المهاجرين العرب، لا سيما في الغرب الأوروبي والأميركي وربطتهم مجددا بوطنهم وثقافتهم وتاريخهم.

أثر الجزيرة في الإعلام والسياسة

ربما لم تحظ مؤسسة إعلامية على مدى التاريخ بما حظيت به شبكة الجزيرة من الاهتمام الإعلامي والسياسي والأكاديمي. وقد أنجزت حولها خلال السنوات العشرين الماضية مئات البحوث العلمية في مختلف أنحاء العالم وبمختلف اللغات. وليس ذلك إلا لأهمية "ظاهرة الجزيرة" التي تركت في واقعها أثرا لم تتركه وسيلة إعلامية قبلها.

تجلّى ذلك الأثر أول ما تجلى في مجال الإعلام العربي، الذي أدخلت إليه ممارسات صحفية بدت غريبة عليه أول الأمر. من أمثلة ذلك ما سبق ذكره من حوارات سياسية مباشرة وجريئة، وتغطية إخبارية تدور حول المواطن وهمومه بدلا من الحاكم وسياساته. منها أيضا التغطية الميدانية الموسعة والقريبة من الأحداث، بفضل انتشار مراسلي القناة ومكاتبها في نحو خمسين بلدا، ما يجعل الوصول إلى المعلومة ونقل الخبر أسرع وأكثر دقة. فتحت تلك الممارسات الصحفية الجديدة باب المنافسة على مصراعيه، فتكاثرت القنوات الإخبارية الناطقة بالعربية سواء المنطلقة من المنطقة مثل قناة العربية (السعودية)، أو الموجهة إليها من مناطق أخرى من العالم مثل فرنسا 24 (الفرنسية)، الحرة (الأميركية)، بي بي سي (البريطانية)، دوتشه فيلله (الألمانية)، روسيا اليوم (الروسية)، سي سي تي في (الصينية). حتى الفضائيات الحكومية التي هجرها جمهورها، بدأت تطوّر من محتواها ومن أساليب عرضها للأخبار والبرامج، في محاولة لمواكبة التغييرات المتسارعة في المشهد الإعلامي العربي منذ مجيء الجزيرة. أتاحت تلك المنافسة المفتوحة وما أحدثته من دينامية جديدة في المنطقة، تعدد الخيارات أمام المشاهد العربي، كما خلقت لديه تنوعا غير مسبوق في أنماط التلقي وفي علاقته بالإعلام المحلي والإقليمي والدولي، وأسهمت في تشكيل ثقافة سياسية جديدة في المنطقة (لينش، 2005، ص. 40)، أكثر انفتاحا على العالم وأميل للاحتجاج على الواقع وألصق بقضايا الشأن العام.

ذلك البعد الثقافي - السياسي في المحتوى الإعلامي للجزيرة، ولعدد من القنوات الإخبارية الأخرى التي نشأت بفعل "تأثير الجزيرة" (سيب (Seib)، 2008)، مثّل لبنة في بناء وعي جديد لدى شرائح واسعة من الجمهور، أثّر بدوره في الحقل السياسي العربي، وهو مجال تأثير آخر للجزيرة. فعلاقة التأثير المتبادل بين الإعلام والسياسة، التي أُلّفت فيها أدبيات نظرية كثيرة، تجد في المنطقة العربية حالة تطبيقية نموذجية (عبد المولى، 2012). وما يشهده العالم العربي من تغيير سياسي تحت ما يسمى بـ"الربيع العربي" ليس منفصلا عن التغيير العميق الذي شهده حقل الإعلام منذ منتصف تسعينات القرن الماضي. فـ"الجمهور العربي الجديد" بتعبير لينش (2005)، الذي أعاد الانتشار عبر حدود "الدولة الوطنية"، وانخرط لعدة سنوات في نقاش مفتوح لشؤونه السياسية، واكتسب وعيا احتجاجيا مسلحا بالمعرفة والاطلاع على حجم الظلم والفساد

الذي كانت تخفيه منظومات إعلامه القديمة، وتحرر من سيطرة الحكومة ورقابتها السابقة على المعلومات والأخبار، كان في قلب أحداث الربيع العربي.

استخدم ذلك الجمهور الجديد منابر الجزيرة التي ألفها جيدا ووثق فيها لسنوات عديدة، وأضاف إليها خبرته الجديدة في التعامل مع تكنولوجيات الاتصال الحديثة وشبكات التواصل الاجتماعي، فبدأ دوره في السياسة يتغير كما تغيرت علاقته بالإعلام منذ عقدين. وإذا كان من المبالغة ومجانبة الصواب نسبة التغيير السياسي الذي تعيشه المنطقة منذ ست سنوات إلى أثر الجزيرة ووسائل الإعلام على اختلاف أنماطها واستخداماتها، فإن تغييب ذلك الدور أو التهوين منه، مجانب أيضا للواقع. فالوعي السياسي الجديد الذي ظل يتشكل على مدى سنوات، لم يكن ليتحول إلى تعبيرة اجتماعية احتجاجية بتلك السرعة لو لم تتوفر له منصات إعلامية حرة على رأسها الجزيرة. ولم يكن لتلك التعبيرة الاحتجاجية التي انطلقت محليا أن تتوسع على نطاق وطني ثم إقليمي لو لم تجد في الإعلام منبرا مفتوحا ينقل صوتها وصورتها إلى العالم.

خاتمة

قد يكون التغيير الذي شهده الإعلام العربي منذ إطلاق الجزيرة عميقا ومؤثرا كما سبق بيانه، ولكن الإعلام العربي ليس كله الجزيرة. فما زالت مقاومة التغيير تسكن كثيرا من المؤسسات الإعلامية كما تسكن عقول الكثير من السياسيين في المنطقة. ومع أن العلاقة المتبادلة بين الحقل السياسي والحقل الإعلامي العربي الجديد قد شهدت تحولات هامة، إلا أنها مازالت مقبلة على تغييرات لا نعلم مداها ولا طبيعة الأثر الذي ستتركه على الإعلام وعلى السياسة معا. فمن جهة، لا يزال التلاقي والاندماج بين الإعلام التقليدي والاعلام الإلكتروني والرقمي في بداياته رغم التطورات الهائلة والمتسارعة التي نشهدها، والتي تنبئ بتشكيل بيئة إعلامية هجينة مختلفة كليا عما نعرفه اليوم. ومن جهة أخرى ما تزال حركة التغيير السياسي التي يشهدها العالم العربي في سنواتها الأولى.

وسواء أنظرنا إلى المستقبل من زاوية الإعلام أم من زاوية السياسة أم من زاوية العلاقة بينهما، فإن توسيع مساحة التلاقي بين المجالين وتكثيف التفاعل بينهما يعني المزيد من التغيير والمزيد من الغموض في آن واحد. فتأثير التغيير السياسي على الإعلام في بعض بلدان الربيع العربي على سبيل المثال، لا يقل أهمية عن تأثير الإعلام في المجال السياسي. وقد بيّنت تجربة السنوات الست الماضية أن انفتاح المجال السياسي باتجاه مزيد من الديمقراطية والمشاركة السياسية، يفتح أيضا المنظومة الإعلامية الوطنية على مزيد من التنوع والحركية. وهو تغيير من شأنه أن يطال هيمنة الفضائيات العربية والإقليمية، على المشهد الإعلامي، وعلى رأسها قناة الجزيرة. فجرعة الحرية التي ضخّها الربيع العربي في الإعلام التونسي والمصري والليبي واليمني، حررته من قيود كثيرة كانت تكبّل أداءه في السابق، وجعلته أكثر جرأة في تناول قضايا المواطن ومناقشة الشأن العام. وقد انعكس ذلك بشكل ملحوظ على اختيارات المشاهد في تلك البلدان، فلم تعد قنوات الجزيرة أو العربية أو فرنسا 24 مثلا، تحظى بالأولوية المطلقة خاصة إذا تعلق الأمر بتغطية الأخبار المحلية.

المراجع

Abdelmoula, E. and Nasr, S. *Academic Research about Al Jazeera: PhDs, Masters, Books & Research Papers 1996 – 2012*, Doha, Al Jazeera Centre for Studies, 2013.

Abdelmoula, E. "Beyond the Systemic Approach: Al Jazeera a New Paradigm in the Media-Politics Relationship", *Journal of US-China Public Administration*, Vol. 9, No 5, 2012, pp. 552-562.

Al Ahmad, A, *Voice of the Arabs Radio: Its Effects and Political Power During the Nasser Era (1953-1967)*, Paper Presentation Prepared for The Joint Journalism Historians Conference, Arthur L. Carter Journalism Institute, New York University, March 12, 2011.

Al Kasim, F. "The Opposite Direction: A Program which Changed the Face of Arab Television", in M. Zayani (ed.) *The Al Jazeera Phenomenon: Critical Perspectives on New Arab Media*, Pluto Pres, 2005, pp. 93-104.

Ghareeb, E. "New Media and the Information Revolution in the Arab World: An Assessment", *The Middle East Journal*, Vol. 54, No 3, 2000, pp. 409-410

Habermas, Y. *The Structural Transformation of the Public Sphere*, MIT Press, 1989[1962], pp. 1-14.

Heikal, M. H. "A Matter of Chemistry", in E. Abdelmoula (ed.) *The Al Jazeera Decade: 1996-2006*, Alwaraqoon, Bahrain, 2nd ed. 2007, pp. 109-117.

Howeidy, F. "Setting the News Agenda in the Arab World", in E. Abdelmoula (ed.) *The Al Jazeera Decade: 1996-2006*, Alwaraqoon, Bahrain, 2nd ed. 2007, pp. 138-143.

Krichen, M. "The Promise" in E. Abdelmoula (ed.) *The Al Jazeera Decade: 1996-2006*, Alwaraqoon, Bahrain, 2nd ed. 2007, pp. 55-60.

Levingston, S. "Clarifying the CNN Effect: An Examination of Media Effects According to Type of Military Intervention", *The Joan Shorenstein Center*, Harvard University, 1997.

Lynch, M. "Watching Al-Jazeera", *The Wilson Quarterly*, Vol. 29, No 3, Summer 2005, pp. 36-45.

Lynch, M. *Voices of the new Arab public: Iraq, Al-Jazeera, and Middle East Politics Today*, New York, Columbia University Press, 2006.

Miles, H. *Al Jazeera: The Inside Story of the Arab News Channel that is Challenging the West*, Grove Press, 2005, p .13.

Negus, S. "Letter From Cairo: Egypt's Political Agenda is Increasingly Set by the Viewpoints Aired on Al Jazeera", *The Nation*, November 2011.

Powers, S. T*he Geopolitics of the News: The Case of the Al Jazeera Network*, PhD. dissertation, University of Southern California, 2009, pp. 87-102.

Sakr, N. Satellite Realms: Transnational Television, Globalisation and the Middle East, I.B. Tauris, 2011, p. 11.

Seib, P. *The Al Jazeera Effect: How the New Global Media Are Reshaping World Politics*, Potomac Books, 2008.

Zayani, M. *The Al Jazeera Phenomenon: Critical Perspectives on New Arab Media*, Pluto Press, 2005.

الإعلام العربي منظورا إليه:

في التعددية والتلقي والمجال العام

جمال زرن

أستاذ الإعلام والاتصال بجامعة قطر

مقدمة

يعتبر إطلاق قناة الجزيرة، التي أثارت وما زالت جدلا غير مسبوق في الإعلام العربي، إعلانا عن ميلاد إشكالية التلقي عربيا بوصفها المدخل الرئيسي لتبلور رأي عام جماهيري. وعند إثارتنا لإشكالية التلقي فكريا، تعترضنا مسألة التعددية بوصفها إحدى أهم تجليات النقاش العمومي الذي تضطلع به النخبة عبر وسائل الاتصال الجماهيرية. فقد استفاقت أغلب الأنظمة العربية بعد ظهور قناة الجزيرة الفضائية في سنة 1996 على أن نخبها ومعها كل الشعب، الذي هو جمهورها، بات يخونها في عقر دارها وذلك بمشاهدته قناة الجزيرة دون مشورة، وهي التي كانت تتوقع أن ذلك الجمهور/الشعب دائم الوفاء لها، طيع وله في لاوعيه عقود من الترويض على استهلاك رسالة إعلامية ذات لون واحد زُعم أنها رسالة نقية ووطنية.

إن ميلاد قناة الجزيرة التي لم يحسن أخصائيو الإعلام والاتصال في العالم العربي التعامل معه بوصفه مبحثا فكريا، يمكن أن يمثل مدخلا جديدا لتتبع تطور التلفزيون في بعده المتصل بالتلقي في العالم العربي، وكيف تحولت ظاهرة الجزيرة إلى مبحث يتنافس عليه الباحثون في الغرب، وتحلل مخرجاتها مراكز القرار هناك (عبد المولى، 2012). أضحت الجزيرة مقياسا لفهم الرأي العام السياسي وهواجس الشارع العربي وعقلية المواطن ونفسيته في العديد من مراكز البحوث. في الماضي لم يكن السياسيون في الغرب يولون قيمة للإعلام العربي الذي يمكن وصفه بإعلام الدولة والزعيم، ولكن مع نشأة الجزيرة وبروز التلقي في هيئة جديدة ظهر إلى السطح اهتمام غربي منقطع النظير بقضايا هيكلة الإعلام العربي وتكوين الصحفيين وتدريس الإعلام للطلاب العرب والتأسيس لشراكات[1]. قبل قناة الجزيرة الفضائية يكفي أن تفهم آليات اشتغال النظام العربي لتفهم إعلامه، لكن بعد 1996 بدأت شيئا فشيئا مخرجات الإعلام العربي تخرج عن منظور السلطة السياسية وبات المواطن عرضة لأكثر من خطاب، سواء أكان ذلك داخليا أم وافدا تدفعه تكنولوجيا جديدة يصعب التحكم فيها، وهو ما بات يستدعي المتابعة إن على المستوى البحثي أو السياسي.

إذا اعتبرنا أن العملية الاتصالية لا تقوم فقط بتوفر عنصر الوسيلة وتعددها كميا، فإنه يمكننا تقديم فرضية هامة في أنه نظريا لا يمكن الحديث عن إعلام عربي في غياب متلقٍّ عربي تعرض عليه رسائل إعلامية متعددة المضامين. فكأن الإعلام العربي الجديد ولد وتمظهر أكثر مع قناة الجزيرة بحكم أن الجزيرة أدخلت على عنصر التلقي مكونات

[1] البرنامج الأميركي لدعم الإعلام في شمال إفريقيا والشرق الأوسط وهو تحت إشراف وزارة الخارجية الأميركية ويعرف باسم MEPI وغيرها من البرامج التي يمولها الاتحاد الاوروبي.

جديدة وذلك من خلال تعددية خطابها وإثارتها لقضايا بات فيها النقاش العمومي ممكنا وطنيا وقوميا مثل: الشأن العام المحلي، والتعددية السياسية، والمقاومة، والتدخل الأجنبي، والمعارضة، والحريات. وإذا ما أردنا بيان هذا تكفي العودة إلى الإفرازات التي أثارتها قناة الجزيرة في المشهد الإعلامي العربي، وعلى النظام الرسمي العربي، وعلى العلاقات العربية الغربية أيضا. إذ توجد عشرات الشكاوى ضد قناة الجزيرة أغلبها من دول عربية بل وصل الأمر إلى منع الجزيرة من العمل في عديد الدول العربية وأثار حضورها أزمات سياسية وديبلوماسية حادة وصلت إلى سحب السفراء وسجن صحفييها واستهدافهم. وقع التعامل مع كل هذه الأحداث على أنها لا تمثل شأنا إعلاميا بقدر ما هي أزمات سياسية تدخل في إطار الأيديولوجيا أو خطاب المؤامرة. نقول هذا بعيدا عن الخطاب العاطفي الأيديولوجي الذي يتردد في المقاهي والمكاتب والندوات وتتناقله المخابرات عن ماهية الجزيرة وما لها وما عليها، وهو حديث لا صلة له بالبحث العلمي بقدر ما هو خطاب يدخل في ما أسميناه بـ"خطاب المؤامرة والأيديولوجيا" الذي استمال عديد النخب لتسقط في حبال استهلاكه. وإن كان لخطاب الأيديولوجيا والمؤامرة أن يحلل فيجب أن يكون ضمن مقاربة علمية تؤطر الجزيرة بوصفها وسيلة إعلام لها رسالة وجمهور متلقٍ.

إن رفض قناة الجزيرة هو رفض لعنصر التلقي في العملية الاتصالية، وإن رفض تلقي قناة الجزيرة هو رفض أيضا للتلفزيون لا بوصفه وسيلة اتصال فقط وإنما باعتباره ظاهرة الاتصال الجماهيرية الأولى منذ عقود، وباعتباره خاصة، فضاء تواصليا عاما مشتركا يساهم في تشريع الاختلاف وتشكيل المجال العمومي. إن التعامل على شاكلة القبول أو الرفض فقط مع قناة الجزيرة تعامل خطأ فكريا ومعرفيا لأنه يحيلنا إلى أبعد من ذلك، أي التعامل بالرفض أو القبول مع التلفزيون ذاته، وما يلعبه من دور اتصالي فاعل.

قد تستدعي هذه الفرضية لزاما تتبع تاريخ دخول التلفزيون إلى البلاد العربية، والسياق السياسي والاقتصادي والثقافي المحفز له، وما أثاره تبنيه من جدل بين رافض ومؤيد وصل حد إصدار الفتاوى من قبيل أنها بدعة وأداة غزو غربي وجهاز لتمييع المجتمع. فكأن العرب تعاملوا ماضيا مع التلفزيون بالشكل الذي يرغبون وليس مع التلفزيون كظاهرة اتصالية يُعتبر المتلقي أحد أهم عناصرها، له تمثلات مستقلة عن صانعيها ستظهر يوما من الأيام مهما حاول البعض إخمادها وتطويعها لغايات نفعية ذاتية أو سياسية أو فئوية أو تقنية. وعندما برزت الجزيرة وبرز معها متلق جديد استفاقت العديد من الدول العربية على أنه يمكن أن يوجد تلفزيون آخر مختلف عن تلفزيون الدولة الوطنية، والأخطر، فكريا، هو إمكانية أن يستقطب ذلك التلفزيون الجديد القادم من خارج الحدود، مشاهدي تلك الدولة ويوفر لهم تمثلات مختلفة عن التمثلات المعهودة لواقعهم السياسي.

يتناول هذا الفصل تلك العلاقة المتداخلة التي أنتجتها قناة الجزيرة منذ نشأتها وإلى حدود اندلاع ثورات الربيع العربي محاولين سبر أغوار الإشكالية الآتية: إلى أي مدى أسهمت قناة الجزيرة في بلورة إعلام عربي جديد قائم على مبدأ التعددية ودور النخبة وحضور عنصر التلقي؟ وسيكون ذلك من خلال تحليل المحاور التالية:

- الجزيرة والإعلام العربي الجديد وطبيعة العلاقة بينهما
- الإعلام العربي وقناة الجزيرة: من الهوية إلى التنمية إلى التعددية
- قناة الجزيرة والتعددية والأغلبية الصامتة
- النخبة والجزيرة والمجال العمومي العربي
- في تلقي قناة الجزيرة

1. الجزيرة والإعلام العربي الجديد

يكمن الإعلام العربي الجديد اليوم في الإعلام الإلكتروني وتحديدا شبكة الإنترنت، ومخرجاته من شبكات تواصل اجتماعي، وهو قول صحيح ولكنه يتسم بكثير من الحماسة الفكرية التقنوية. إن الإعلام الجديد هو مضمون ومحتوى جديد في وعاء جديد. هكذا نرى تعريف الإعلام الجديد. إن الإعلام الجديد ليس فقط إعلاما جديدا على مستوى التقنية بل إن جدته تكمن أيضا على مستوى الفكر الذي يحمله والأنساق الجديدة التي من المحتمل أن يفرزها سوسيولوجيا داخل المجتمع. فرغم حضور تعبيرات الإعلام الاجتماعي في حراك الربيع العربي في 2011 واحتلال هذا المصطلح الخطاب الأكاديمي والإعلامي النخبوي، فإننا نؤكد أن الإعلام الاجتماعي وشبكات تواصله ما هي إلا أحد إفرازات الإعلام الجديد وتجلياته (زرن، 2015).

وإذا ما أردنا تتبع مسار بروز دلالات الإعلام الجديد في العالم العربي فقد كان، قبل الانترنت، شديد الارتباط بظاهرة تكنولوجيات البث الفضائي التي برزت مع بداية تسعينات القرن الماضي وتلقّفتها خاصة قناة الجزيرة الفضائية سنة 1996. هذا فيما يتصل بالتقنية، أما المحتوى فإن الفضائيات، وعلى رأسها قناة الجزيرة قد أدخلت مضامين جديدة على الجمهور العربي تمثلت أساسا في ظاهرة التلقي والتعددية والنخبة والمجال العمومي (داهلغرن (Dahlgren)، 1994). وقد أتاح البث الفضائي الجديد بروز نمط جديد من التلقي وتعددية جديدة مختلفة عن السائد وخاصة نخبة عربية جديدة منها ما هو مساند تقليديا للأنظمة الحاكمة ومنها خاصة ما هو مختلف سياسيا وفكريا معها.

لقد فتحت قناة الجزيرة وبعدها قنوات عربية وغربية أخرى الفضاء العام للمشاهد العربي على مصراعيه ليجد في التلفزيون شيئا مختلفا عن التلفزيون الرسمي المحلي. فقد أصبح لدينا تلفزيون جديد بمضامين جديدة تعرض الاختلاف في المجتمع وتقدم وجوها جديدة مختلفة عن الأسماء السائدة المكررة في النظام الرسمي العربي في كل دولة. وأصبح الجهاز غير الجهاز وأدوات البث غير ذات أدوات البث، وذلك ليس بحثا عن الجدة في تقنيات البث بل بحث عن مضامين جديدة. علما أن تقنيات البث ما هي إلا مدخل لتعددية المضامين وبروز نخبة جديدة، وهو ما أنتج مظاهر جديدة في التلقي يمكن تلخيصها في نزول ما يعرض في التلفزيون اليوم إلى النقاش العام غدا، سواء أكان ذلك في المقاهي أم في المجالس أم في مؤسسات الحكم أم حتى في كواليس العلاقات الدولية.

لئن كانت عديد القنوات العربية التلفزيونية العمومية أو الخاصة سباقة إلى تبني تقنية البث الفضائي منذ سنة 1990، سنة انطلاق البث الفضائي للقناة المصرية العمومية، أو سنة 1991 سنة إطلاق قناة أم بي سي، أول فضائية عربية عامة، فإن هذه التقنية الجديدة في البث لم تكن منتجة عند هؤلاء لمخرجات جديدة، هذا إذا استثنينا بعض برامج التسلية والترفيه والإعلانات والزخرفة في عمليات الإخراج وتأثيث البرامج وعرضها (قعيبس (Guaaybess)، 2015). كان علينا أن ننتظر سنة 1996 لتأتي قناة الجزيرة، لتعتمد على نفس التقنية المتوفرة لدى أغلب القنوات العمومية العربية والخاصة، ولكن لتقدم للمتلقي العربي مضامين إعلامية وصحفية جيدة، تعرضها نخبة صحفية وفكرية مثقفة غير معهودة، وبإخراج جديد، كل ذلك ضمن آليات النقاش والتعددية.

عينة لبعض تواريخ انطلاق البث الفضائي للقنوات العربية العمومية والخاصة: بين 1989 و1996 تاريخ انطلاق الجزيرة.

القناة	تاريخ البث الفضائي	البلد	عمومية/خاصة	التخصص
القناة الثانية	مارس 1989	المغرب	خاصة ثم عمومية	عامة
الفضائية المصرية	ديسمبر 1990	مصر	عمومية	عامة
MBC	نهاية 1991	لندن	خاصة	عامة (ترفيه ودراما)
تلفزيون الكويت	أكتوبر 1992	الكويت	عمومية	عامة
تلفزيون دبي	أكتوبر 1992	دبي	عمومية	عامة
التلفزيون الأردني	يناير 1993	عمّان	عمومية	عامة
التلفزيون المغربي	مارس 1993	الدار البيضاء	عمومية	عامة
تلفزيون المستقبل	سبتمبر 1993	لبنان بيروت	عمومية	عامة
أوربيت ORBIT	1994	لندن	خاصة	ترفيهية
ART- شبكة راديو وتلفزيون العرب	يناير 1994	روما	خاصة	عامة
الفضائية السورية	يناير 1995	دمشق	عمومية	عامة
الفضائية السودانية	نوفمبر 1995	الخرطوم	عمومية	عامة
الفضائية اليمنية	نوفمبر 1995	عدن	عمومية	عامة
LBC	أبريل 1996	لبنان -بيرت	خاصة	عامة
البحرين	سبتمبر 1996	قطر	عمومية	إخبارية
قناة الجزيرة	نوفمبر1996	المنامة	عمومية	عامة
تونس 7 (سابقاً) الوطنية 1 حاليا	ديسمبر 1996	تونس	عمومية	عامة
الليبية	ديسمبر 1996	طرابلس	عمومية	عامة

يظهر لنا الجدول أعلاه أن أغلب القنوات المحلية سبقت الجزيرة إلى البث الفضائي وكانت برامجها متاحة لكل الجمهور العربي. لقد كان البث الفضائي لتلك القنوات، عبارة عن تقنية جديدة فقط، وذلك قبل أن يتم تغيير اسم القناة من القناة المغربية أو التونسية إلى الفضائية المغربية أو التونسية أو المصرية. لم نشهد تغيرا جذريا في المضامين لمواكبة البث الفضائي، بل جاء البث الفضائي للقنوات الوطنية فرصة لمزيد من غرس نفس الخطاب الأحادي الذي كانت تسوق له لعشرات السنين، وذلك حتى تؤكد مزيدا من الشرعية لدى الرأي العام الخارجي، وخاصة لدى بعض الجاليات في أوروبا أو أميركا. ونجد هذا النموذج في القنوات المغاربية والمصرية واللبنانية خاصة. فالإعلام الجديد، في الحقيقة، ليس تقنية فقط بل هو تقنية مضاف إليها مضامين ورؤى جديدة كان السبق فيه هنا لقناة الجزيرة. فلم تكن الإضافة الأساسية في مشروع قناة الجزيرة متعلقة بالقيمة التقنية أو المالية بل أساسا بالقيمة السياسية (قعيبس، 2011).

2. الإعلام العربي وقناة الجزيرة: من الهوية إلى التنمية إلى التعددية

تاريخيا، وبالعودة إلى أدبيات علوم الإعلام والاتصال في الغرب وخاصة في الولايات المتحدة، توجد علاقة خصوصية بين الاتصال بمفهومه النظري التجريدي وتجلياته الوظيفية التجريبية. فقد استغلت وسائل الإعلام في دفع قيم التقدم إلى الأمام، أي إلى مراتب بلوغ التنمية والتحضر. وتذهب بعض الدراسات إلى تحديد طبيعة المجتمع بالنظر إلى مستوى العلاقة بين التنمية والاتصال، أي سيرورة انتقال المجتمع من الحالة "التقليدية" إلى الحالة "التحديثية" (ماتلار وماتلار، 2006، ص. 112). إذ لا يمكن للمجتمعات المتخلفة أو التقليدية، حسب تلك الأدبيات، أن تستوحي نموذجا للتقدم إلا بمحاكاة النموذج الغربي والعودة إليه. وقد عرفت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية التي تميزت بتقسيم العالم إلى نموذجين متناقضين، الشرق/الغرب، اتجاها في الدراسات الاتصالية الغربية ينطلق من مفردات كالإعلام الدولي والعلاقات الدولية لتصدير "نظرية التحديث"، التي أعيد طرحها من

جديد وخاصة بعد أحداث 09/11 والحرب على العراق من زاوية الديمقراطية، والتي لا يمكن تصديرها هي الأخرى بعيدا عن وسائل الإعلام، لتصبح أخيرا رديفا للتحول الديمقراطي بعد الربيع العربي منذ 2011.

على هدي ما تقدم، يمكن تقسيم أهم المراحل الكبرى التي عاشها الإعلام العربي إلى ثلاث مراحل، يمكن إيجازها في مرحلة ما قبل الاستقلال، ثم خاصة مرحلة بناء الدولة الحديثة أي دولة ما بعد الاستقلال أو الدولة الوطنية أو كما يطلق عليها بعض المفكرين العرب الدولة الإقليمية، ثم أخيرا مرحلة العولمة أو ما بعد الحرب الباردة التي اتسمت بإعلام البث الفضائي العابر للأوطان والقارات وتعدد رسائله وضعف الدولة الوطنية (زرن، 2007، ص. 256). توصف مرحلة ما قبل الاستعمار بمرحلة الإعلام الشفوي ثم المكتوب، فلم يكن التلفزيون قد دخل بعد الدول العربية وكانت الإذاعة في قبضة الاستعمار أو كان بثها محدودا ومتعثرا. وحدها الصحافة المكتوبة ترسخت في الموروث الثقافي والفكري للنخب التقليدية العربية لتخلق، انطلاقا من إتقان لغة المستعمر بالإضافة إلى اللغة القومية، توجهات وتيارات لمخاطبة الآخر والمطالبة بالحقوق القومية والاستقلال، وذلك عبر الصحافة المحلية الناطقة باللغة العربية أو بلغة المستعمر. لقد كانت رسائل الإعلام، مجسدة في الصحافة، رسالة هووية، تأخذ من الدفاع عن الهوية العربية الإسلامية شعارا لها.

كانت الصحيفة إذن، في خدمة القضية الأم، ألا وهي الإصلاح والتحرر. وكان الشعار الرئيس والمحوري هو الدعوة إلى إعلام هادف. وكان على هذا الإعلام الالتزام بالشعارات التي ترفعها القوي التحررية والإصلاحية في أغلب الدول العربية المستعمرة (الجزائر، مصر، العراق، تونس...). تأثرت التجربة الصحفية العربية أثناء فترة الاستعمار بشكل كبير بسلوكيات وأخلاقيات صحافة المستعمر المحلية أو الوافدة من الدولة الأم (فرنسا أو بريطانيا أو إيطاليا...). فرغم كل التضييقات والقيود التي فرضت على ممارسة الصحافة العربية فقد بقيت متعددة التوجهات السياسية والتلوينات الفكرية، متأثرة بصحافة المستعمر الليبرالي. ففي عهد الاستعمار كانت توجد صحف نقابية وأخرى شيوعية وأخرى إسلامية وبعض العناوين الليبرالية، بالإضافة إلى بعض الصحف التي كانت بوق دعاية للمستعمر. كل تلك التلوينات هي انعكاس لصحافة المستعمر. يمكن القول مثلا إن الفترة الذهبية لصحافة المغرب العربي كانت أثناء حكم الجبهة الشعبية اليسارية التي صعدت إلى الحكم في فرنسا سنة 1936 (زرن، 2014، ص. 39). غير أن ذلك التعدد النسبي لن نجد له أثرا يذكر في عديد الدول العربية بعد الاستقلال. لماذا يا ترى؟

مع حلول الاستقلال بشكل سلمي أو نضالي في أغلب الدول العربية، علت مهمة بناء الدولة كشعار محوري ومركزي في أغلب البلدان العربية. وكان بناء الدولة لا يمر إلا عبر مشاريع تنموية مجسدة في التعليم، والاقتصاد الوطني، والاستقلال الزراعي، وبناء الجيش والوحدة الوطنية. في ذلك السياق التاريخي، كانت مهمة الإعلام العربي هي المساهمة في العملية التنموية باعتبارها إحدى معارك الدولة الحديثة وأهم ركيزة لبناء مجتمع حر ومتطور. على النخب الجديدة أن تكون على كلمة واحدة ضد كل مخالف يريد أن يحدث شقوقا في الوحدة الوطنية باسم شعارات كالأحزاب والتعددية والديمقراطية وغيرها. غير أن تلك المهمة النبيلة التي كانت في حاجة ماسة إلى إعلام وطني قوي وفعّال، واجهتها عدة تحديات كان أبرزها افتقار دولة الاستقلال الناشئة إلى بنية تحتية اتصالية وإعلامية.

بعد عقود من الاستقلال، فشلت الدولة العربية الحديثة، في أغلب البلدان العربية، في تحقيق التنمية المطلوبة، فأعيد طرح سؤال: لماذا فشلنا؟ ظهرت علامات الفشل مثلا مع نكسة 1967، كما تجلت في استفحال البطالة التي دفعت

بجموع الشباب إلى الهجرة إلى الغرب، هذا بالإضافة إلى غياب البنية التحتية واستفحال الرشوة والمحسوبية والفساد والتلاعب بالمال العام. تبين لاحقا أن التنمية الاجتماعية والاقتصادية لا مستقبل لها في غياب تحديث العملية السياسية، وإقامة أنظمة ديمقراطية تضمن التداول السلمي على السلطة عبر المشاركة السياسية والاجتماعية. غير أن المشاركة لا يمكن أن تتحقق وتُحصّن في غياب فضاءات مفتوحة للتعبير الديمقراطي الحر، التي تسمي في البلدان الديمقراطية بوسائل الاتصال الجماهيري. هنا مربط الفرس! فوسائل الاتصال الجماهيري غير متوفرة في أغلب البلدان العربية، وإن وجدت فهي أبواق دعاية للحزب الحاكم أو الأسرة المالكة. عمليا، لا يمكننا الحديث عن وسائل اتصال جماهيري في غياب التعددية في ملكية تلك الوسائل، والتعددية في الخطاب الذي تنتجه تلك المؤسسات. حتى بعد هبوب رياح التغيير في أوروبا الشرقية مع سقوط جدار برلين 1989، ظلت المنطقة العربية مستثناة من الديمقراطية والتعددية والحريات العامة (كنت وبالمر، 2005، ص.ص. 7-16).

إن من خصائص الاتصال الجماهيري الأساسية إرسال خطاب غير متجانس لأن الجماهير ليست منسجمة الأفكار والرؤى حول أشكال إدارة المجتمع والدولة وهو ما سنلاحظه بعد الربيع العربي من تفتت عديد الدول الوطنية ودخولها في حروب أهلية: ليبيا، اليمن، سوريا... ذلك أن الإيمان والإقرار بوجود مبدأ الاتصال الجماهيري يؤدي ضرورة إلى وجود رأي عام تعددي. ولا يمكن أن يوجد رأي عام شعبي أو نخبوي دون توفر حرية الاختيار والاختلاف ثم حرية الاقتراع عبر عرض أفكار تعددية، وهو ما كان غائبا في الممارسة الإعلامية والسياسية العربية. وقد صل الأمر حد اعتبار العرب حالة تاريخية خاصة في علاقتهم بالديمقراطية والتداول السياسي. في هذا السياق الدولي والعربي المشحون بالمفارقات، تلقّفت قناة الجزيرة الفضائية حاجة الرأي العام العربي إلى التعددية، فسرى تلقيها كما تسري النار في الهشيم، لتبرز ظاهرة التعددية ومعها الحديث عن وجود أغلبية صامتة في رأي عام عربي عاش عهودا من التعليب.

3. الجزيرة والتعددية والأغلبية الصامتة

لماذا توجد حاجة ماسة للحديث عن مسألة التعددية الإعلامية كلما اعترضنا مبحث المجال العمومي التواصلي في العالم العربي؟ ربما تكمن الإجابة في ضرورة حماية الرأي العام من الخضوع إلى دوامة الصمت من جهة وضرورة وجود حالة من التوازن البيئي الدائم داخل المجال الإعلامي (زرن، 2013، ص. 25). إن غياب التعددية سيدفع شيئا فشيئا إلى أن تسود في المجتمع، عبر وسائل الإعلام، بعض الأفكار أو القوى المهيمنة. فالأشخاص الذين يعتقدون، بشكل صحيح أو خطأ، أنهم يمثلون رأي الأغلبية لديهم ميل للحفاظ على الهدوء، وذلك لأن الناس لا يرغبون في أن يكونوا معزولين. أما أولئك الذين يعتنقون ما يعتقدون أنه رأي الأقلية فهم في كثير من الأحيان يقنعون أنفسهم بأن رأيهم خطأ. عندما يتحدث البعض ويبقى الآخرون صامتين، تبدأ عملية لولبية تتشكل على نحو متزايد لتبرز بعض الآراء كرأي سائد (نوال- نيومن، 1989، ص.ص. 181-189). ويتزايد هذا الشعور في الحقيقة، لأننا كثيرا ما نقلل من تقدير عدد الأشخاص الذين يشاركوننا في وجهات نظرنا ونبالغ في تقدير عدد الأشخاص الذين يعارضونها. ومن الواضح أن وسائل الإعلام تمارس دورا هاما في تشكيل الرأي، لأن ما نقرأه في الصحف ونشاهده في التلفزيون وفي الأخبار والبرامج الحوارية له تأثير فيما نعتقد أنه هو الرأي السائد حول قضايا

عديدة مختلفة. إن نظرية دوامة الصمت لنوال- نيومن تقترح أن وسائل الإعلام تساعد في تشكيل الرأي العام بدلا من أن تعكسه.

على التعددية إذن أن تضمن أن تعكس وسائل الإعلام الرأي العام، لا أن تشكله طبقا لمصالح فئوية أو عقائدية أو غيرها. إن صمت الأغلبية مقدمة لاستقالة المواطن من الانخراط في المساهمة في قضايا الشأن العام الأمر الذي بدوره سينعكس سلبا على الديمقراطية. فعملية احتكار ملكية وسائل الإعلام تسهم في تشكيل الرأي العام من قبل من يملك الوسيلة، وهو ما يجعل تعددية الملكية مقدمة لضمان تعددية الآراء والأفكار المعروضة في المجتمع. وعليه يصبح مفهوم التعددية عبارة عن "عرض إعلامي تعددي من خلال توفر تعددية في ملكية وسائل الإعلام مستقلة تعكس تنوع الأفكار والآراء وتعددها بشكل عادل" (زرن، 2012، ص. 20).

كما يمكن، ضمن مقاربة في الإجابة على سؤال لماذا التعددية، البحث في ما يمكن أن نصطلح على تسميته نظريا وإمبيريقيا بالبيئة الجديدة للمجال الإعلامي. نشير هنا إلى أن المشهد الإعلامي العربي يعيش إيكولوجيا خاصة به تتمثل في ضرورة التوازن بين الوسيلة والرسالة. وتأتي فكرة التوازن البيئي من حق المواطن في الاطلاع على المعلومة وحقه أيضا في تفسيرها وتحليلها. التعددية إحدى ضمانات توفر مجال إعلامي متوازن فيما يتعلق بالمؤشرات الكمية والكيفية للمؤسسة الإعلامية. فلا وجود لتوازن بيئي إذا لم تتوفر للمواطن صورة وفكرة متعددة عن المجتمع الذي ينتمي إليه. لتحقيق تلك البيئة، على وسائل الإعلام أن تكون في نفس الوقت تعددية في الملكية ومتعددة في رسالتها. كيف؟ هذا ما حاولت قناة الجزيرة الإجابة عليه من خلال:

- بروز قنوات فضائية منافسة للجزيرة سواء أكانت عمومية أم خاصة، عربية أم أجنبية، وهو ما غيّر من أشكال ملكية وسائل الإعلام ومن طبيعة رسائلها للجمهور في العالم العربي. هكذا أصبحت قناة الجزيرة محفّزا لتبلور تعددية خارجها بعد أن توفرت التعددية داخلها.
- تغطية إخبارية ميدانية تأخذ بأكثر من مصدر في صياغة الخبر وصل حد الاعتماد على القادة الإسرائيليين كمصدر لأخبار لها علاقة بالقضية الفلسطينية والداخل الإسرائيلي.
- حزمة من البرامج الحوارية لعل أشهرها في بداية قناة الجزيرة "أكثر من رأي" و"الاتجاه المعاكس" وغيرها.

لقد دخل الخبر إلى منطقة التعددية فيما يتعلق بالمصدر. فالتغطية التقليدية للخبر في الفضائيات العربية الرسمية والقائمة على مرجعية المصدر الرسمي أولا وأخيرا، جاءت الجزيرة لتتجاوزها. فأصبحنا نشاهد أثناء تغطية حدث في لبنان مثلا، العودة إلى مصدر رسمي وآخر من حزب الله وآخر سني. وفي فلسطين بات الحديث عن تعدد الجهات مثل حماس وفتح وقوى فلسطينية أخرى. بالإضافة إلى كل ما ذكر، فإن الجدة تكمن لدى الرأي العام في مسألة التعددية في الرأي ووجهات النظر المعروضة من يسارية وعلمانية وقومية وإسلامية، كانت إلى زمن قريب غائبة بل ممنوعة من كل الفضائيات العربية. لقد استجابت الجزيرة إلى تعطش المواطن العربي لمشاهدة التعددية الكامنة في المجتمع على شاشة التلفزيون تتجادل وتتحاجج. لقد أصبح التعدد الفكري والأيديولوجي والسياسي الذي يشق المجتمعات العربية ظاهرا للعيان وعلنيا، لتتحول المعارضة إلى كيان حاضر في التلفزيون يعبر عن مواقفه ويناقش سياسات دولته المحلية والخارجية. كما باتت عديد الأفكار التي كان يتم تداولها في "السوق السوداء" قابلة للمشاهدة والتفاعل والتداول والتلقي من نخبة مغمورة، وبدون إذن مسبق من أنظمة الحكم المحلية.

4. النخبة والجزيرة والمجال العمومي العمومي

كان حلم أي معارضة قبل بروز قناة الجزيرة أن تنال ترخيصا من النظام الحاكم بإصدار صحيفة أو أن تتكرم صحيفة محلية يتيمة بنشر بياناتها، فذلك يعتبر نصرا مبينا يمكِّنها من أن تتواصل مع قواعدها وتبعث برسائل إلى الرأي العام الداخلي والخارجي. وكثيرا ما صودرت في أكثر من دولة عربية صحيفة يومية أو أسبوعية محدودة الانتشار، لأنها أصدرت بيانا لحزب معارض ينتقد فيه وبشكل محتشم إحدى سياسات النظام الحاكم. ويأتي العقاب عادة قاسيا: حرمان الصحيفة من الإعلانات إن وجدت، عرقلة طبعها ومنعها من شراء الورق، وغيرها من أساليب الرقابة القاسية على حرية الرأي والتعبير. حدث ذلك في عدة بلدان عربية مثل مصر في عهد مبارك وتونس في عهد بن على. يمكن ذكر بعض الأمثلة من تونس، فقد كانت السلطة تمنع الكتابة في مواضيع أو أحداث لا ترغب في إثارتها. من تجليات تلك الممارسات تجاهل وسائل الإعلام التونسية للندوة الصحفية التي أعلن فيها الأمين العام للحزب الديمقراطي التقدمي آنذاك، أحمد نجيب الشابي ترشحه لانتخابات رئاسة الجمهورية في 2004 خلال شهر مارس 2003. وتغافل التلفزيون التونسية عن تغطية مظاهرات الهيئات المدنية، ومظاهرة الاتحاد العام التونسي للشغل المساندة للشعب العراقي يومي 24 و25 مارس 2003، رغم أنها أفردت قبل يوم واحد تغطية للمظاهرة التي دعا إليها التجمع الدستوري الديمقراطي، الحزب الحاكم في تلك الفترة.[1]

فجأة، وجدت تلك المعارضات والأحزاب نفسها بعد 1996، وإلى حدود الربيع العربي، تبث رسائلها عبر قناة الجزيرة إلى ما يناهز 70 مليون عربي. برزت تسميات كنا نجهلها مثل الحزب الديمقراطي، الجبهة الإسلامية، وهذا تقدمي وآخر إسلامي وهذا يساري. لم يتوقف الأمر عند هذه الأسماء بل أصبحنا نسمع أيضا عن معارض تونسي في باريس وآخر مصري في لندن، وعراقي في الأردن وليبي في أمريكا، وكلهم يتحدثون عن الحريات والشأن العام والديمقراطية، والتخلف والمعارضات والأحزاب والفساد. وكان الرأي العام وحتى قادة من داخل أنظمة الحكم يتساءلون: لماذا لا يترك لهم أن يتحدثوا في تلفزيونهم؟ بمثل هذا النموذج في البث، ساهمت الجزيرة في غرس مصطلحات وأفكار ورؤى جديدة في المشهد السياسي العربي كانت لعقود غائبة عن المجال العمومي العربي. بين الخبر والرأي، انصب النقد الموجه للجزيرة على التغطية الإخبارية أكثر من تحليل الأخبار ونقاشها. وهذا مفهوم في نظريات الصحافة، ذلك أن الخبر لا يرضي الجميع. وقد مهدت برامج مثل "الاتجاه المعاكس"، و"شاهد على العصر" و"أكثر من رأي" بشكل فعال، ومع حضور نخبة جديدة متحررة من القهر، لحصول الجزيرة على قدر كبير من المصداقية. فالنخبة هي من تصنع ميديا متطورة، فهي التي تصوغ الخطاب وتسوّق له. وقد عرفت الجزيرة بذلك كيف تستجيب لمتلقي التلفزيون في عالم عربي متحول (العويفي، 2013).

في هذا السياق، ومن زاوية أخرى، فإن أول ملاحظة يمكن إدراجها في دراستنا لنموذج بث قناة الجزيرة هو أنه ذو اتجاه أحادي مثله مثل المستهلك أو المتلقي للوسيلة الإعلامية، والذي يبدو مع بروز الوسيلة كتقنية سلبي التفاعل. فهو يجد نفسه أمام سؤال بين القبول والرفض، وتصبح الوسيلة التقنية عبارة عن علبة سوداء لا يمكن تغيير تشغيلها وخصائصها التقنية والفنية، وهو ما يستدعي تنزيلا سوسيولوجيا لها في المجتمع من قبل النخبة (فليشي (Flechy)، 1991، ص. 12). هنا نستحضر ما قاله الرئيس المصري الأسبق، حسنى مبارك عن قناة الجزيرة من كونها "علبة كبريت" متسائلا كيف يمكن لهذه المؤسسة التي كانت صغيرة الحجم، قليلة المعدات والعدد، أن تحدث كل ذلك

[1] راجع تقارير الرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان:
http://www.arabtimes.com/Arab%20con/tunisa/doc13.html .2004

الأثر، في حين أن التلفزيون المصري أكثر عدة وعتادا لكنه يجد نفسه عاجزا على متابعة نسق الجزيرة[1]. إن النخبة، ومن خلال عملية التلقي، هي الوحيدة التي بإمكانها إحداث جملة من التغييرات في العملية الإعلامية وذلك بحكم أن كل تقنية اتصالية جديد،ة ومنها البث الفضائي التلفزيوني، تمثل شكلا مستقلا عما سبق في حاجة إلى تبنى النخبة وتسويقها له. وإذا ما كانت الفوارق عميقة بين القيم الثقافية والاجتماعية والدينية لفئات التلقي قياسا للتقنية الاتصالية الجديدة فإن هذه الأخيرة يقع رفضها في غالب الأحيان بصفة مطلقة، مثل رفض العرب للطباعة والتلفزيون في بداية ظهورهما[2]، أو حتى رفض السينما الناطقة مقارنة بالسينما الصامتة في الغرب من قبل بعض النخب. وبحكم الفوارق السياسية العميقة التي تشق الرأي العام العربي بين الإعلام المحلي وما جاءت به قناة الجزيرة عبر البث الفضائي، فقد وقع تبني هذه التقنية من قبل النخبة لأنها تلبي حاجة ماسة في توازن المجتمع في علاقته بمشكلاته وإحياء لدورها المهمش.

في تلقى التقنية، يلعب المثقفون وقادة الرأي عادة، دورا محوريا في إقناع بقية الفضاءات العامة بتبنى المنتوج التقني الاتصالي الجديد مجسدا في البث الفضائي، بحكم انفتاح هؤلاء على العالم، وبفضل قدراتهم الفكرية والثقافية على استشراف ما قد تحدثه تلك التقنية من تأكيد لشرعيتهم ولمكانتهم المعرفية. عربيا، وفي عديد الحالات كانت النخب التي تتميز ثقافتها بهيمنة الخلفية الدينية والمرجعية التقليدية عقبة في تنزيل التقنية الاتصالية على أرض الواقع وإقناع العامة والسُّلَط بنجاعتها الثقافية والاجتماعية على البلاد والعباد. يتحول قادة الرأي والمثقفون إذن، إلى مدافع وناطق رسمي، مع كل فرصة تبرز فيها تقنية جديدة اتصالية كانت أو إعلامية. وذلك ما يفسر الإقبال الهائل لعلماء الاجتماع الغربيين على دراسة الشبكات البشرية في إطار الاهتمام بالشبكات الإلكترونية، وهو إعلان عن التقاء كل من علم الاجتماع بالعلوم التكنولوجية لأنسنة التقنية. فلا قيمة لما ينتجه المهندس إذا لم يصاحبه تفسير عالم الاجتماع والإنسانيات للمنتج الجديد. في الوطن العربي لم يخرج استقبال وسائل الإعلام والاتصال من جدلية الحرام والحلال وخطر الإنترنت على النشء وتأثير الفضائيات على مكامن الهوية، ومع بروز قناة الجزيرة جاء تأكيد النخب الحاكمة على خطر هذه القناة على السلطة في كل دولة عربية.

هي صدمة فكرية جديدة عاشها مرة أخرى العرب مع التلفزيون، تزامنت مع ثورة تقنية البث الفضائي الذي قهر حدود التلقي وجاء بعدها الإنترنت ليبعثر المشهد الإعلامي العربي الرسمي، وليؤكد للأنظمة العربية أنه لا وجود لعملية إعلامية في غياب التلقي وتعدد الخطاب الإعلامي، وأن تعدد هذا الخطاب يستدعي أن تصاحبه ملكية متعددة لوسائل الإعلام، ليفتح المشهد الإعلامي وبشكل مفاجئ وبمعطيات جديدة على مصراعيه (الحروب، 2014). فكأن ملف الإعلام قد دخل مجال التلقي دون أدنى استعداد من السياسيين ليتحول إلى ملف لا يستطيع أي طرف التحكم فيه، ثم ليفلت بعد ذلك من قبضة مقولة "الجمهور الواحد" حتى لمن كانوا وراء ذلك الشعار. ولم يكن المثقف بعيدا عن دائرة التلقي هذه، فبدأنا نسمع عبر تعدد فضاءات التلقي مثقفين عربا يقولون ولأول مرة: هذا رأيي، هذا تصوري، هذه فكرتي، هذا موقفي وهذا اختياري وأنا حر فيما أزعم وكيف أفكر. وتحول المثقف إلى شخص قريب من الناس يحلل جاهدا، بما توفر له من مساحة متواضعة على أعمدة الصحف ومن وقت زهيد تتحكم فيه نسب المشاهدة، الأحداث الساخنة والمتداخلة. وقد برز ذلك خاصة مع أحداث 09/11 ثم مع الحرب على العراق في العام 2003. أدرك المشاهد العربي أيضا، أنه يوجد عرب مثقفون يدرّسون في جامعات أميركية ويهتمون بالمعرفة

[1] قال ذلك عند زيارته لقناة الجزيرة في قطر.

[2] راجع فتاوى بعض الفقهاء عن المطبعة والتلفزيون والإنترنت والهاتف الجوال.

ويشتغلون بمؤسسات بحثية غربية، لهم جرأة لا يمتلكها المثقف المحلي التابع للسلطة. وقد أسهم هؤلاء المثقفون في نفض الغبار الكثيف الذي تراكم على كيفية تعامل العرب سياسيا وثقافيا مع المجتمعات الغربية، وذلك من خلال نقاش المواقف السياسية للحكومات والرأي العام، كل ذلك جاء به التلقي من خلال زواج التلفزيون بالمثقف مجسّدا في قناة الجزيرة.

5. في تلقي قناة الجزيرة

يشير دومينيك فولتون، الباحث الفرنسي المتخصص في الاتصال، إلى أننا كثيرا ما اهتممنا بالباث والرسالة وأهملنا عنصر التلقي. ربما يعود ذلك إلى أنه، ومنذ الكتاب والإذاعة والسينما والتلفزيون، كان لهذه الوسائط دائما جمهور(وولتون (Wolton)، 1993). إن حديثنا عن التلقي وقناة الجزيرة ليس حديثا عن الأرقام، فهذه القناة تربعت على عرش أعلى نسب المشاهدة منذ السنوات الأولى لانطلاقتها، إلى حدود اندلاع ثورات الربيع العربي سنة 2011. والتلقي هنا لا يقصد به الكيفية التي يتلقى بها الجمهور العربي قناة الجزيرة، بشكل جماعي أم فردي، في البيت أم في المقهى، وكيف يمكننا بحث ظاهرة تلقي قناة الجزيرة وقياسها علميا، وهل الاستمارة أم المقابلة أنجع. المطلوب هو مراجعة التأطير الفكري وتحديد سياقات تلقي هذه القناة وماهية التمثلات التي أحدثتها لدى المتلقي وكيف بلغت العلاقة بين المتلقي وقناة الجزيرة إلى علاقة تقترب من التملك (Appropriation).

لئن اشتركت الثقافات والحضارات في الوسيلة الإعلامية كتقنية، فإن الاختلاف يكمن دائما في التلقي وذلك بحكم الخلفية الثقافية والتاريخية وهوية كل المجتمع. ويبرز البعد الثقافي للتقنية من خلال اصطدام وسيلة الاتصال بالثقافة القومية المحلية ومعها كل الرموز الثابتة والمتحركة في الحضارة، مثل الدين والقيم والعقائد والطقوس، وهو ما يمكن أن نطلق عليه بتبيئة التلقي. فالثقافة والقيم والعادات والتقاليد تقوم، وبشكل مستقل عن وظائف الوسيلة التي حددها المهندس في المختبر، بتأطير تأثيرات الوسيلة الإعلامية في المجتمع، فتحدد صفاتها وآثارها. وبعبارة أخرى تحدد هويتها، فتصبح عربية أو هندية أو فرنسية (زرن، 2006). يزداد إشكال تلقي كل من (الوسيلة والرسالة) حضورا عندما نلتقي بالمجتمع العربي ذي الثقافة العربية الإسلامية والتاريخ الخاص. لقد كانت إشكالية التلقي مهملة، لتتحول مع الربيع العربي إلى أحد المحاور الرئيسة في البحوث الاتصالية والاجتماعية في الفكر الإعلامي العربي والغربي. تحيلنا إشكالية التلقي إلى فهم القضية الإعلامية على المستوى الفكري من خلال نسقين متلازمين هما:

- أولا: تلقى الوسيلة الإعلامية كتقنية وثقافة تاريخيا في الوطن العربي، وهو إشكال ذو صلة بتتبع تاريخ وسائل الاتصال والإعلام والقيام بما يمكن أن نطلق عليه بأركيولوجيا وسائل الإعلام وماهية صلة القرابة بينها.
- ثانيا: تلقى مضمون الرسالة الإعلامية من قبل الجمهور المستهدف، وهو ما نطلق عليه بالتلقي في بعده الكلاسيكي والخاص بالجمهور كمرجع متعدد. ويدفعنا هذا الضرب من التفكير إلى ضرورة مراجعة مسألة هل أن الجمهور معطى سوسيولوجي فاعل في صياغة الرسالة وفي عملية التلقي، أم معطى سلبي (خليل، 2005). ويمكن إعادة صياغة هذه الإشكالية على النحو التالي: ماذا تفعل وسائل الإعلام بالناس أو ماذا يفعل الناس بوسائل الإعلام؟ وترجمتها في بحثنا هذا: ماذا تفعل الجزيرة بالناس وماذا يفعل الناس بالجزيرة؟

إن أهم عنصر في عملية التلقي كظاهرة اجتماعية باتت مستقلة بذاتها عن كل عناصر العملية الاتصالية الأخرى في بعدها الشمولي، هو تعدد مضامين مخرجات العملية الإعلامية التي هي نتاج طبيعي لتعدد وسائل الاتصال الجماهيري، لا على مستوى الملكية فقط بل أيضا، وخاصة على مستوى الخطاب، أي على مستوى مضمون

الرسالة، لأنه لا يوجد في أي مجتمع جمهور متجانس، بل الجمهور مزيج من الخلفيات الثقافية والاجتماعية والسياسية والعرقية (سيغور (Segur)، 2008). لذلك نتساءل هل أن تعدد وسائل الإعلام عند العرب مع بداية القرن الواحد والعشرين تبعه تعدد في الرسالة، أي تعدد في عملية التلقي؟

على المستوى التاريخي يصعب الحديث عن عنصر التلقي، بمفهومه الوظيفي، في وسائل الإعلام العربية سواء أثناء الفترة الاستعمارية أو مع نشأة الدولة الإقليمية أو دولة ما بعد الاستقلال. فقد كانت الرسالة الإعلامية أحادية التوجه تتعامل مع عنصر التلقي ككل متكامل ومتجانس. في عهد الاستعمار كان المستعمر عبر الصحافة المكتوبة يريد بث ثقافته الغربية المنتصرة والمتفوقة لمجتمع جاهل ومتخلف، وكانت بقية الأصوات الوطنية التي يسمح لها باستغلال بعض الفضاءات للتعبير، تقول إنه يمكننا أن نحكم أنفسنا بأنفسنا بعيدا عن الوصاية أو الحماية. وكانت رسالة النهضة والحركات الوطنية العربية موجهة في الغالب إلى قلة مثقفة من الأرستقراطية العربية الغنية أو من المقربين من دوائر الاستعمار.

إنها رسالة نمطية متكررة تستهدف أقصى ما تستهدف، الدفاع عن الهوية من موقع حمائي، رافعة شعار المحافظة على قضايا من قبيل الدين الإسلامي، واللغة العربية، والعادات والتقاليد والهوية العربية. بعد الاستقلال كانت الدول العربية المستقلة الحديثة منهكة لا تتوفر بها مؤسسات دولة، فكانت مهمة بناء الدولة هي القضية المركزية. وكان على الرسالة الإعلامية أن تتواصل مع الجمهور، الذي كانت تنخره الأمية والجهل والفقر والبطالة، بشكل متجانس. أدى ذلك التوجه إلى احتكار الدولة لوسائل الإعلام وملكيتها ملكية مطلقة، وتواصل في أشكال مختلفة من الوصاية والأبوة المبثوثة في مضامين الرسائل الإعلامية إلى حدود ميلاد قناة الجزيرة الفضائية في منتصف التسعينات. فكيف كان تلقي الجزيرة إذن؟ لا قيمة كبيرة للتلقي القادم من عامة الناس إذا لم يُتبع بتلقي المسؤول السياسي للرسالة الإعلامية من جهة، وبتلقي النخب الأكاديمية والحاكمة لهذه الظاهرة السوسيولوجية المعقدة من جهة أخرى، وهو مبحث سعى للبحث فيه خليل أحمد خليل (2005).

يتأكد حديثنا عن دخول العرب دائرة التلقي مع قناة الجزيرة عندما اتجهت أغلب الدول العربية إلى إطلاق قنوات تابعة لها بشكل مباشر أو غير مباشر مثل قناة "العربية" و"الإخبارية" و"الرأي" و"المنار" و"الميادين" و"العالم" وغيرها، كرد فعل على تلقي جمهور تلك الدول لقناة الجزيرة، أو لقناة فضائية أجنبية، وذلك لتوفير وصفة التلقي المحلية لتلك القناة الأجنبية. وقد وصل عدد الفضائيات العربية في ظرف وجيز إلى ما يناهز 300 فضائية. ولم يكن الأمر متوقفا على الدول بل حتى بعض العرقيات (الأكراد) والمذاهب الدينية (الشيعة) وبعض المعارضات (المستقلة) سعت إلى توفير فضاءات خاصة بها كرد فعل على واقع الإقصاء، وكمحاولة لتوفير رسالة إعلامية لمتلق يريد خطابا مختلفا عن الخطاب السائد للتلفزيون المحلي. أدت الجزيرة إلى الاستفاقة وإدراك أنه يوجد أكثر من 70 مليون عربي يتلقون بثها، وهنا يمكن الاستشهاد بما قاله محمد كريشان من أن الجزيرة هي أكبر حزب عربي[1]. دخل العرب إذن، حرب التلقي وحرب كسب الجمهور وحرب الإعلان وحرب نسب التلقي التي كانت إلى زمن قريب لا نسمع عنها ولا قيمة لها عند السياسي والأكاديمي وحتى الجمهور.

من جهة أخرى، مثلت قناة الجزيرة صدمة فكرية للإعلام والحكومات الغربية. فقد كان الغرب يتمدد سياسيا من تخلف الإعلام العربي الذي أصبح يدفع بمواطنيه إلى اللجوء إلى وسائل الإعلام الغربية للاطلاع على العالم

[1] محمد كريشان، مقدم الأخبار والبرامج على قناة الجزيرة، ومن الإعلاميين الأوائل الذين التحقوا بالقناة.

وثقافاته وأخباره، إنه إعلام "القوة الناعمة" على حد تعبير جوزف ناي (ناي (Nye)، 2004). وتأكد هذا السعي خاصة مع ترسخ ظاهرة البث الفضائي لتتحول السي أن-أن والبي بي سي والقناة الثانية الفرنسية إلى قبلة المشاهد العربي. جاءت الجزيرة لتقلب المعادلة وتطيح بتاج المصداقية الإعلامية الغربية والجرأة والتغطية الحية المباشرة للخبر، ليجد المواطن العربي نفسه يستهلك أخباره وصوره، وأصبح إلى جانب ذلك قادرا على المقارنة بين الجزيرة وغيرها من القنوات الغربية. باتت الجزيرة توفر له نوعا من الحماية والعاطفة التي لم يجدها في إعلامه الوطني الذي أقصاه وهمش مشكلاته وأحلامه وأفسد ذوقه في الاستماع والفرجة ومشاهدة الأخبار وتبادل الآراء وغيرها من القضايا. وبسرعة تحركت المراكز الثقافية الغربية في الدول العربية لتشجيع مبادرات تأسيس مراكز سبر آراء وقياس الرأي العام في تلك الدول، وقدمت عروضا مادية مغرية لمن يأتيها بنتائج استطلاع رأي حول أي القنوات أكثر مشاهدة من الجمهور المصري أو التونسي أو المغربي. تجرى استطلاعات الرأي في بعض الأحيان بشكل سري وترسل إلى وزارات خارجية الدول، ليقع تحليل نتائجها ويقع على هدي ذلك تعديل الخطاب السياسي والتكتيك المزمع اتباعه في معالجة أية قضية تتعلق بالعرب والمسلمين. لقد كانت النتائج وخيمة، فبعد سنوات طويلة من التربع على هرم أفضل نسبة مشاهدة، وجدت تلك القنوات الغربية نفسها، وفي ظرف وجيز، في أسفل الترتيب، لتحل محلها قناة الجزيرة والعربية والمنار وأم بي سي وغيرها من القنوات الحكومية أو الخاصة.

إن بروز التلقي داخليا أثار اهتمام أطراف خارجية بقضية التلقي عند العرب، فأصبح الغرب، باحثين وحكومات ومؤسسات، يهتم بالإعلام العربي لأنه أصبح يساهم بشكل مستقل في تشكيل رأي عام عربي. وهو ما ذهب إليه عزالدين عبد المولى في قوله: "إن الدور المحوري الذي لعبته الجزيرة في إعادة تشكيل المشهد الإعلامي العربي، أثر بدرجات متفاوتة في السياسة الداخلية لعدد من البلدان العربية، كما أثر بدرجة أكبر في العلاقات بين دول المنطقة بشكل عام" (عبد المولى، 2015، ص. 144). إن الأمم والدول تعطي أهمية كبرى للرأي العام الخارجي في بناء استراتيجياتها وصياغتها، خاصة عندما يتعلق الأمر بالعرب والمسلمين والشرق الأوسط الذي يمثل مركز اهتمام عديد القوى الأجنبية. فمسألة التلقي لم تكن خاصة بتلقي العرب إعلاميا رسالة جديدة ومغايرة، بل إن التلقي كان أيضا غربيا فأصبحت نشرات قناة الجزيرة تحلّل وتشفّر في كبريات مراكز البحوث والدراسات. لا يتوقف إشكال التلقي إذن عند حدود ميلاد قناة الجزيرة بل إن قضية رفض بث قناة المنار في فرنسا مثلا، والجدل الواسع الذي أثارته بين الرفض والقبول، يعتبر إشكالية في التلقي. وبذلك انتهت سنوات اللامبالاة الغربية إزاء الإعلام العربي[1]. إن التعدد الإعلامي الداخلي وميلاد متلق عربي تحول إلى تلقٍّ عند الغرب. فالتعدد هنا أصبح تلقياً هناك، فبات الإعلام الغربي يتعامل بشكل مختلف مع الإعلام العربي لأن بثه لا يتوقف فقط عند حدود الدولة الوطنية، بل يتجه أيضا إلى الجاليات العربية المقيمة في الدول الغربية والتي أصبحت تمثل جزءا من الرأي العام الغربي المؤثر في سير بعض الانتخابات في أكثر من بلد (قعيبس، 2011).

خاتمة: الجزيرة والمجال العمومي العربي

يصعب الحديث، بعد كل سنوات الاستقلال ومحاولات التأسيس لإعلام وطني في جل الدول العربية، عن إعلام عربي "ناظرٍ". والمقصود بذلك أن تكون قد تشكلت له مخرجات عن الآخر بقدر تشكيل الآخر نظرة عنه. لذلك بقي

[1] سمح لقناة المنار اللبنانية التابعة لحزب الله بالبث عبر الكابل في فرنسا ولكن بعد فترة وجيزة وأمام ضغط اللوبي الصهيوني الفرنسي تدخل المجلس الأعلى للاتصال السمعي البصري وأوقف بث قناة المنار بحجة دعوتها إلى معاداة السامية والتحريض على العنف والإرهاب.

الإعلام العربي "منظورا إليه"، تهيمن عليه تمثلات الآخر والتي هي في الأصل تمثلات القوى السياسية الدولية لطبيعة النظام الرسمي العربي عامة، ولطبيعة الأنظمة العربية القطرية بشكل خاص. يبدو أنه، ومع قناة الجزيرة أصبح الإعلام العربي، ولأول مرة في تاريخه، "ناظرا ومنظورا إليه" في الوقت نفسه. "ناظرا" من خلال عدسة الجزيرة التي تحولت إلى عنوان لتقديم رؤية للعرب عن الأحداث المحلية والدولية. فكثيرا ما أثيرت تغطية السي أن أن لحرب الخليج الثانية في العام 1991 وكيف كان العرب خارج دائرة التغطية. أما مع الحرب على العراق في العام 2003، فقد تغيرت المقاربة وأصبحت هناك أكثر من كاميرا تصور وتنقل الأحداث للرأي العام الداخلي والخارجي، ومنها كاميرا قناة الجزيرة وغيرها من الفضائيات. أصبح الإعلام العربي "منظورا إليه" من خلال ما وفرته قناة الجزيرة من نظرة للواقع العربي بشقه القومي والمحلي فأصبحت محل متابعة من أنظمة الحكم العربية، وخاصة من القوى الدولية الكبرى التي كانت تعرف جيدا وما زالت، القيمة المضافة لهذه المنطقة الاستراتيجية وأن التحكم في الشعوب بات أصعب من التحكم في الأنظمة وهو ما حدث فعلا مع الربيع العربي سنة 2011، وكيف فوجئ الجميع باشتعال كل تلك الثورات في المنطقة العربية (العبد الله، 2012).

"المنظور إليه" في كل هذا لم يعد، كما كان معهودا عند الغرب، النظام الحاكم وكيف يدير شؤون الناس، بل الناس وكيف ينظرون إلى أساليب حكمهم قياسا إلى بقية الأمم المتقدمة. إنه المجال العمومي العربي في حلة جديدة. فيورغن هبرماس وفي مقدمة طبعة سنة 1990 لكتابة عن المجال العمومي يؤكد أن قيمة حضور الفرد في الفضاء العام ليست كافية في حد ذاتها، بل قيمته تكمن في أن ينشر ذلك الحضور المادي ويعرض من قبل وسائل الإعلام فتتناقله (داشو (Dacheux)، 2015). فالمجال العمومي بوصفه فضاء للتوسط بين الدولة والمجتمع يحتوي في داخله المجال العمومي الإعلامي الذي له دوره في إظهار التعددية والنقاش وصراع الأفكار داخل المجتمع. لماذا؟ يكفي العودة إلى ما قاله كانط في حديثه عن الحرية، فهو يعتقد بأن الحرية لها حدود، وأن النظام الاجتماعي والسياسي يصبح مهددا إذا ما فعل كل فرد ما بدا له صحيحا. ولذلك حدد كانط فضاء خاصا جديدا يمكن أن تتمظهر فيه الأفكار بشكل حر من خلال أهمية التمييز بين الاستعمال الخاص والاستعمال العمومي للعقل. وهو ما بات يعرف مع هابرماس بالمجال العمومي (كاثودري (Cathaudrey)، 2011).

لا يمكن بعد إثارة كل تلك الإشكاليات، أن لا نقر بنسبية التحولات التي عاشها ويعايشها الإعلام من خلال فعل البث الفضائي أو تأثير قناة الجزيرة أو انتشار الإنترنت، في علاقتها بالمجال العمومي. يمكن في هذا السياق العودة إلى ما قاله فيليب سيب "حتى في حال اقتربنا من تحقيق التكافؤ التكنولوجي وتقدم العرب خطوات باتجاه المستويات العالمية في استخدام الإعلام الجديد، ينبغي أن نكون حذرين جدا في التفاؤل بإمكانية حدوث إصلاح يلعب فيه الإعلام دورا رياديا" (سيب (Seib)، 2011، ص. 197). ويواصل فيليب سيب حديثه مستشهدا بما قاله جون آلترمان من أن أغلب النقاش الذي نراه على شاشات الفضائيات العربية "لا يزال إلى حد كبير متمركزا حول المشهد وليس حول المشاركة" (سيب، ص. 197). إن قيمة الديمقراطية والنقاش العمومي تكمن في المشاركة السياسية وليس في التماهي مع لذة الافتراضي، وإن التغيير والمشاركة يتحققان إذا ما توفرت في التلفزيون أو في شبكة الإنترنت فرصة لذلك. ختاما، يجدر بنا التساؤل ما إذا كان المجال العمومي العربي قد أصبح أسير وسائل الإعلام، التي بدورها تتجاذبها السياسة والمال، وأن بقية مكونات المجال العمومي العربي من فضاءات تقليدية غير الوسائط التقنية، باتت غائبة أو مغيبة أو انقرضت. وهل علينا، بالإضافة إلى التحرر السياسي الذي عاشه المجال العمومي العربي مع الربيع العربي تحريره اليوم أيضا من هيمنة وسائل الإعلام التي ساهمت قناة الجزيرة في تأسيس لبناته (هاشكي (Haschke)، 2012).

المراجع

المراجع العربية

عبد المولى، عزالدين (إشراف): **دليل البحوث الأكاديمية حول الجزيرة: 1996- 2012**، مركز الجزيرة للدراسات، الدوحة 2012.

البرنامج الأميركي لدعم الإعلام في شمال إفريقيا والشرق الأوسط، وهو تحت إشراف وزارة الخارجية الأميركية ويعرف باسم MEPI وغيرها من البرامج التي يمولها الاتحاد الاوروبي.

زرن، جمال: "الإعلام الجديد والإيكوميديا بعد الربيع العربي: المراجعات"، **المجلة العربية الأوروبية لعلوم الاتصال**، مارس 2015.

ماتلار، أرمان وميشال، **تاريخ نظريات الاتصال**، ترجمة نصر الدين لعياضي والصادق رابح، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2006، ص. 112.

زرن، جمال، **تدويل الإعلام العربي: الوعاء ووعي الهوية**، دار صفحات، دمشق، 2007، ص. 256.

زرن، جمال، (إشراف وتنسيق)، **تاريخ الصحافة في بلدان المتوسط**، منشورات معهد الصحافة وعلوم الإخبار ومعهد تاريخ الحركة الوطنية، تونس 2014، ص. 39.

زرن، جمال، "البيئة الجديدة الاتصال أو الإيكوميديا عن طريق صحافة المواطن"، **مجلة الباحث الإعلامي**، كلية الإعلام، جامعة بغداد 2013، ص. 25. تاريخ الزيارة: 2016/08/20.
http://www.iasj.net/iasj?func=fulltext&aId=65911

زرن، جمال، الإعلام العمومي والتعددية من أجل شبكة مؤشرات التعددية الإعلامية": أعمال ملتقى معهد الصحافة وعلوم الأخبار عن "**الإعلام العمومي في العالم العربي: رؤى وتجارب**" تونس، 2012، ص. 20.

تقارير الرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الانسان لعام 2004، تاريخ الزيارة: 3 سبتمبر 2016.
http://www.arabtimes.com/Arab%20con/tunisa/doc13.html

زرن، جمال، "الثقافي في تكنولوجيات الاتصال والفضاء العام"، من كتاب جماعي يجمع أشغال **ملتقى نورالدين سريب عن "أنسنة التكنولوجيا"**، تونس، 2006.

خليل أحمد خليل، **سوسيولوجيا الجمهور السياسي والديني في الشرق الأوسط المعاصر**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت **2005**.

زرن، جمال، "من العزل إلى الانقلاب إلى التداول: المحددات السوسيوثقافية للاتصال السياسي في العالم العربي"، في كتاب جماعي، أشغال ملتقى علمي عن **الاتصال السياسي في إفريقيا والعالم العربي**، تونس، 2014. ص. 25.

عبد المولى، عزالدين، **العرب والديمقراطية والفضاء العام: بحث في دور الجزيرة**، مركز الجزيرة للدراسات، 2015، ص 144.

العبد الله، مي، "دور الاعلام الفضائي العربي في الثورات العربية"، ورقة قدمت في مؤتمر جامعة فيلادلفيا بالأردن سنة 2012. تاريخ الزيارة: 10 سبتمبر 2016.
www.philadelphia.edu.jo/arts/17th/day_two/session.../mai.doc

سيب، فيليب، **تأثير "الجزيرة": كيف يعيد الإعلام العالمي الجديد تشكيل السياسة الدولية**، ترجمة عز الدين عبد المولي، مركز الجزيرة للدراسات، 2011، ص. 197.

المراجع بلغات أجنبية

Dahlgren, P. et al: *L'Espace Public et les Medias: Une Nouvelle Ere?* Revue Hermès, C.N.R.S. Editions, 1994/1 No 13-14, pp. 243-262 (Retrieved: 01/09/2016).
file:///D:/Users/jz15278/Downloads/HERM_013_0243.pdf

Guaaybess, T. *Télévisions Srabes sur Orbite: Un Système Médiatique en* Mutation (1960-2004), France, CNRS Editions, 2005. p. 74.

Guaaybess, T. "Les Bouquets Satellitaires et le Développement du Dystème Télévisuel Arabe" *l'Institut National de l'Audiovisuel*, 04/11/2011 (Retrieved: 13-09-2016).
http://www.inaglobal.fr/television/article/les-bouquets-satellitaires-et-le-developpement-du-systeme-televisuel-arabe

Kent, G. et Palmer, J. "Mondes Arabophones et Médias, Questions de Communication, No 5, 2005, pp. 7-16 (Retrieved: 11/09/2016).
https://questionsdecommunication.revues.org/3837

Noëlle-Neumann, E. *La Spirale du Silence: Une Théorie de l'Opinion Publique*, Hermès C.N.R.S. Editions, 1989/1 No 4, pp. 181-189.

El-Oifi, M: "Al-Jazeera: Les Ressorts Incertains de l'Influence Médiatique", CERISCOPE Puissance, 2013 (Retrieved: 15/07/2016).
http://ceriscope.sciences-po.fr/puissance/content/part2/al-jazeera-les-ressorts-incertains-de-l-influence-mediatique

Flechy, P. *Une Histoire de la Communication Moderne, Espace Public et Vie Privée*, Paris, La Découverte, 1991, p. 12.

Hroub, K. "Les Médias dans le Monde Arabe: de la Construction de l'Etat à la Revolution", Rapport Collectif, Institut Panos, Paris et Observatoire Méditerranéen de la Communication (Retrieved: 15/08/2016). http://www.med-media.eu/wp-content/uploads/2014/07/PSB_raport_regional_FR-bd-libre-4.pdf.

Wolton, D. "Pour le Public", *A la Recherche du public, Réception, Télévision, Médias* Revue HERMÈS, No 11-12 (Retrieved: 15/09/2016).
http://documents.irevues.inist.fr/handle/2042/15086

Segur C. "La Réception Télévisuelle en SIC. Histoire Cognitive et Appropriation", (Retrieved: 10/09/2016).
http://www.sfsic.org/congres_2008/spip.php?article31

Nye, J. S. "Soft Power: The Means to Success in World Politics", *Foreign Affairs,* May/June 2004 Issue.

Guaaybess, T. "Les Bouquets Satellitaires et le Développement du Dystème Télévisuel Arabe" *l'Institut National de l'Audiovisuel*, 04/11/2011 (Retrieved: 13-09-2016).

http://www.inaglobal.fr/television/article/les-bouquets-satellitaires-et-le-developpement-du-systeme-televisuel-arabe,

Dacheux, E. "TIC et Espace Public: les Enseignements Théoriques du Printemps Tunisien", 2015 (Retrieved: 15/09/2016).
http://archivesic.ccsd.cnrs.fr/sic_01180402

Cathaudrey, J. "De l'Influence des Médias à la Notion d'Espace Public, (Habermas-Luhmann Interactionisme et Palo Alto), WordPress.Com, 2011, (Retrieved: 15/09/2016).

https://juliecathaudrey.wordpress.com/2011/11/30/de-linfl/

Haschke, P. "La Scène Médiatique au Moyen-Orient à la Lumiere du Printemps Arabe", Mars 2012 (Retrieved: 10/09/2016).
http://www.ceri-sciences-po.org

التغطية الإخبارية في عالم مضطرب:
هل تعيد الجزيرة صياغة قواعد الصحافة العالمية؟

نور الدين ميلادي
أستاذ الإعلام والاتصال بجامعة قطر

اكتسبت الجزيرة شهرة واسعة على الساحة العالمية بعد فترة وجيزة من انطلاق بثها في العام 1996. وعلى مدار عشرين عامًا، التي هي عمر الجزيرة حتى الآن، نما مشروع الجزيرة متحولًا من القناة العربية الأصلية إلى شبكة متطورة من القنوات التلفزيونية والمنصات الإلكترونية ومراكز البحث والتدريب. ولاقت الجزيرة منذ ذلك الحين اهتمامًا واسعًا وجذبت الانتباه العالمي بالمدح تارة وبالنقد أخرى. وبالرغم من كثرة الدراسات والتقارير التي تناولت الشبكة بالتحليل من زوايا مختلفة، إلا أن معاييرها وقيمها الجديدة المثيرة للاهتمام في إعداد التقارير الإخبارية، تُشكِّل اهتمامًا بالغًا لجميع المعنيين في عالم الصحافة. يتناول هذا الفصل بالتحليل القيم الإخبارية الجريئة التي تتبناها شبكة الجزيرة، وبالتالي فلن يتعمق في النقاشات النظرية حول الحيادية والموضوعية في حد ذاتها، وإنما سيحلل هذه القيم على المستوى العملي انطلاقًا من ممارسات الجزيرة الصحفية.
يتجلى الموقف الإخباري للجزيرة بوضوح في تغطية القناة للحروب والصراعات، وفي تقاريرها حول الفساد المتفشي في أجزاء من سياسات بعض البلدان العربية، لاسيما دول الربيع العربي. وقد كان العقدان الماضيان متخمَيْن بأحداث مثيرة أظهرت الشبكة، في التعاطي معها، مستوى عاليًا من المعايير الصحفية المهنية، لكنها تعرضت كذلك للنقد من قبل البعض في حالات عديدة. وقد كانت تغطية الحرب في أفغانستان عام 1992 وما تلاها، والحرب على العراق عام 2003، والحرب على غزة عام 2009، وثورات الربيع العربي في تونس وليبيا ومصر واليمن وسوريا منذ العام 2011، كانت تلك المناسبات لحظات تاريخية حاسمة في تاريخ الشبكة. لقد كانت تلك الأحداث متنوعة للغاية، من حيث أماكنها الجغرافية وأنواع الصراعات وتطوراتها وتحدياتها، حتى إنها قدمت لجميع المؤسسات الإخبارية العالمية فرصًا غير مسبوقة كي تحقق نجاحًا باهرًا أو تُمنى بفشل ذريع. وإلى حد ما، كانت هذه الأحداث بمثابة اختبارات صعبة لحيادية الجزيرة وموضوعيتها واستقلاليتها.
ومن الضروري، قبل الشروع في تحليل السمات المبتكرة للتقارير الإخبارية لدى الجزيرة، أن توضع هذه الحالة في سياقها التاريخي والجغرافي المناسب. لذا سوف أبدأ بالحديث بإيجاز عن مشهد الصحافة العربية قبل ظهور القناة الأم، أعني قناة الجزيرة الفضائية الناطقة بالعربية.

البث التلفزيوني في العالم العربي قبل ظهور الجزيرة

غدت الجزيرة، بعد عشرين عامًا من انطلاقها، أيقونة التميز في مجال البث التلفزيوني على مستوى العالم العربي، حتى صار من الإجحاف ألا نُقر بأن الجزيرة هي من دشن حقبة جديدة للبث التلفزيوني في المنطقة العربية خلال التاريخ المعاصر. فقد رفعت القناة عاليًا الحدَّ الذي رسمته لنفسها وكذلك كان الشأن أيضًا بالنسبة إلى المعايير المهنية والقيم الإخبارية التي اختارتها. كما يتوق الصحفيون، من مختلف المنابر الإعلامية، إلى العمل في الجزيرة لما لها من مكانة كبيرة في نفوسهم.
عانت أنظمة البث في المنطقة العربية من قيود عديدة قبل ظهور تقنية الأقمار الاصطناعية، فرداءة محتويات برامجها كانت تعزى في المقام الأول إلى الرقابة التحريرية المحكمة التي فرضتها وزارات الإعلام والاتصال (ميلادي، 2003). كما جرت العادة على توجيه الجزء الأكبر من المخصصات المالية نحو الدعاية السياسية، مع تخصيص القليل منها لخدمة المحتوى البرامجي الشامل والمتنوع، مثل البرامج الإخبارية والبرامج المعنية بأحداث الساعة والوثائقيات.
قبل انطلاق الجزيرة عام 1996، الذي فتح الباب لنمو متسارع للقنوات الفضائية العربية عبر المنطقة وخارجها، اعتادت الحكومات ممارسة رقابة مشددة على البث التلفزيوني والإذاعي، ما جعل من محتواه مجرد دعاية فجة للحكومة، مع إفراد مساحة محدودة للغاية للبرامج الحوارية والبرامج ذات المحتوى التعليمي أو المتعلق بالأحداث الجارية.

لقد نجحت الجزيرة، على مدار السنوات العشرين الماضية، في تحقيق الريادة في مجال البث التلفزيوني في العالم العربي، فجذبت انتباه المشاهدين من جميع أنحاء العالم، لاسيما خلال الحرب على أفغانستان التي أعقبت هجمات 11 سبتمبر/أيلول 2001؛ حيث تفردت القناة بنقل تطورات الحرب من مسرح الأحداث. فأكدت تغطية الجزيرة لتلك الحرب اختلافها الواضح مع الاتجاه السائد في التغطية التلفزيونية في المنطقة العربية، نظرًا لما تميزت به سياستها التحريرية ومحتوى برامجها من جدة وجرأة غير مسبوقتين، وهو ما شكَّل تحديًا بالغًا أمام قنوات التليفزيون العربية.
ولهذا السبب تحديدًا، وقع حظر قناة الجزيرة في عدد من البلدان العربية لعدة سنوات. على سبيل المثال، لم تستطع الجزيرة فتح مكتب لها في تونس إلا بعد ثورة 14 يناير/كانون الثاني 2011؛ إذ كان نظام ابن علي يرى في القناة تحديًا لاستراتيجيات التواصل لديه، والتي كانت تميل إلى رسم صورة وردية عن "قصة نجاح" نظامه في تحقيق الرخاء الاقتصادي والحرية والعدالة الاجتماعية. ورغم ذلك، فقد تمكنت الجزيرة من خلال نهجها الصحفي الجريء من الاستحواذ على عقول وقلوب الملايين من المشاهدين العرب، لاسيما في ظل عجز قنوات التليفزيون العالمية الأخرى عن تحقيق ما أنجزته الجزيرة لاسيما خلال العقد الذي تلا تغطيتها للحروب والصراعات الكبرى في المنطقة مثل غزو العراق في العام 2003 (تاثام (Tatham)، 2006).

منظور جديد للحيادية والموضوعية

أدى ظهور الجزيرة إلى استحداث ثقافة جديدة في مجال البث العربي؛ فمنذ البداية جاءت القناة العربية (الجزيرة العربية) بقيم محددة وجديدة لترسيخ مبدأ الحيادية متحديةً بذلك وسائل الإعلام المحلية والإقليمية، بل والصحافة العالمية أيضًا. فجرأة القناة ونقدها اللاذع، في بعض الأحيان، للسياسات العربية والعالمية لم يكن أمرًا معهودًا في العالم العربي، ولم تكن تمارسه الشبكات الإعلامية الراسخة عالميًّا في المجال الإخباري. في ما يلي، سأستعرض الطريقة التي يفهم بها محرِّرو الجزيرة الحيادية ويطبقونها في تقاريرهم الإخبارية سواء أكان ذلك في الأخبار العالمية أم في أخبار العالم العربي والشرق الأوسط.

الحيادية في الأخبار مفهوم معقد يصعب تطبيقه بإطلاق في التقارير الإخبارية العالمية. ويختلف هذا المفهوم في بعض الأحيان تبعًا للخلفية الثقافية أو الأيديولوجية، أو ما يعبَّر عنه برؤية العالم، التي يتبناها الصحفي، وكذلك حسب البيئة التي تعمل فيها مؤسسته. هناك عدد هائل من الأدبيات التي بحثت في هذا الموضوع، إلا أن الجدل حوله لا يزال مستمرًّا خاصة في ظل التباينات التي نشهدها في دراسة الممارسات الصحفية على مستوى العالم؛ فمسؤولو "بي بي سي"، حسب روبن مارش (Robin Marsh)، المحرر السابق لبرنامج بي بي سي الإذاعي (العالم نهاية هذا الأسبوع)، "لم يفهموا معنى الحيادية بشكل تام ووجدوا أنه من الصعب تطبيق هذا المفهوم على صعيد الممارسة" (2012، ص. 70). فلا عجب إذن في وجود اختلافات شديدة في بعض الأحيان بين التقارير الإخبارية التي تبثها المؤسسات الإعلامية حول حدث بعينه. فتغطية الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي، والحرب في سوريا، وغيرهما من الصراعات العالمية يمكن أن تشكِّل نقطة خلاف بين مختلف المؤسسات؛ ذلك أن ثقافة التغطية الإخبارية تختلف من بلد لآخر تبعًا للثقافة الإخبارية والسياسة التحريرية التي تحدد الإطار الفكري للصحفيين. ومع ذلك، وبالرغم من هذا التباين في التغطية الإخبارية بين مختلف القنوات، فإن "... قيمًا مثل الحيادية، على اختلاف توصيفاتها وتعريفاتها، يمكن أن تشكِّل معايير واضحة تميز الصحافة الجادة عن الضجيج الذي يملأ مواقع الإنترنت" (مارش، 2012، ص. 71).

على امتداد العقدين الماضيين، وفي إطار سعيها لتكريس مفهوم الحيادية، قطعت الجزيرة شوطًا كبيرًا بشأن استقلاليتها عن الحكومة القطرية، وإن كان البعض لا يزال ينتقد سياستها المنهجية في تجنُّب

توجيه أي انتقاد لقطر أو التعليق على سياستها الخارجية. بوجه عام، تُدار شبكة الجزيرة على نحو يحافظ على استقلاليتها التحريرية على الرغم من أن الكثير من مواردها يأتي في شكل رعايات من كبرى المؤسسات القطرية، مثل: قطر للبترول، وقطر غاز، وقافكو، والخطوط الجوية القطرية، كما أن عجز موازنتها يتم دفعه من قبل الحكومة القطرية مباشرة.

أما سياستها الجريئة في إفساح المجال للرأي الآخر، فقد لاقت هي الأخرى انتقادات شديدة خاصة من قبل الحكومات العربية التي رأت في ذلك تحريضًا ضدها، وسعيًا لنشر "الفتنة" داخل المجتمعات العربية، كما رأت فيها أطراف أخرى تعبئة للرأي العام ضد الولايات المتحدة وإسرائيل. وليس من الصعب العثور في تغطية القناة الإخبارية والبرامجية على ما يمكن اعتباره مؤشرات ودلائل تسند تلك الانتقادات، وتؤكد انحياز القناة لحركات سياسية بعينها مثل جماعة "الإخوان المسلمون" في مصر، أو اتساقها مع أهداف وسياسات قطر الخارجية.

يمكننا أن نحاجج مواقف الأنظمة العربية وأولئك الذين ينتقدون الممارسة الصحفية للجزيرة في الغرب بأنهم لم يتمكنوا من استيعاب ثقافتها الجديدة القائمة على التحدي في نقلها لأخبار العالم. كما أنهم لم يكونوا منفتحين بما يكفي للتعامل معها على أنها بديل محتمل لصحافة التيار السائد في الصحافة الغربية. فعلى سبيل المثال، لا يعني إفساح الجزيرة المجال لأسامة بن لادن، وغيره من زعماء تنظيم القاعدة، للتعبير عن آرائهم أنها أصبحت "ناطقًا بلسان ابن لادن"، تمامًا كما أن منْح جورج دبليو بوش وإدارته وقتًا مطولًا على الهواء لشرح أسباب غزو العراق، عام 2003، لا يجعل القناة ناطقة بلسان الإدارة الأميركية. كما أن ظهور شخصيات بارزة من الحكومة الإسرائيلية وحركة حماس على شاشتها للدفاع عن وجهة نظرهم لا يجعلها أداة لأي من الطرفين.

وعلى الرغم من أن القيم الإخبارية للجزيرة، كما يبيِّنه ميثاق الشرف الصحفي الذي تتبناه، يختلف قليلًا عن مواثيق كبرى المؤسسات العالمية، إلا أن تغطيتها الإخبارية تختلف اختلافًا كبيرًا عن غيرها من القنوات الإخبارية؛ فأي تحليل لتغطية الجزيرة مقارنة بتغطية "سي إن إن" أو "بي بي سي" على سبيل المثال، سيكشف عن اختلافات واسعة، لدرجة أنك ربما تعتقد في بعض الأحيان أن الخبر الذي تبثه القنوات الثلاث لا يتعلق بنفس الحدث وأن سياقه مختلف تمامًا (ميلادي 2006؛ بارخو 2011).

حرية التعبير وسياسة الجزيرة التحريرية

ثمة قيمة رئيسية ومميزة حققتها الجزيرة على مدار السنوات العشرين الماضية، وهي أنها جعلت من نفسها "صوت من لا صوت له". كما أن نهجها، فيما يتعلق بالحيادية، يخضع للمساءلة بكل سهولة من قبل الجمهور. فمنذ العام 1996، وعدت القناة العربية بفتح منابرها لصوت الجمهور العربي الذي طالما كتمته وسائل الإعلام الوطنية؛ فقبل ظهور الجزيرة وحلول ثورة المعلومات، كان التضييق على حرية التعبير من قبل الأنظمة العربية السمة الأبرز في المشهد الإعلامي العربي. ولم يكن يتاح للرأي المخالف التعبير عن نفسه إلا ضمن مساحات ضيقة وفي مناسبات محددة. وفي بعض البلدان العربية، كان المقهى والحرم الجامعي يشكِّلان مساحة غير خاضعة للرقابة حيث تدور الحوارات الحرة والنقاشات المغلقة في بعض الأحيان. وحين برزت "ظاهرة الجزيرة" أطلقت العنان لصوت الجمهور العربي ومنحته حياة جديدة (عبد المولى، 2015). وبانتهاجها سياسة "صوت من لا صوت له"، وفرت القناة مجالًا رحبًا لجماهيرها للتعبير عن آرائهم بكل حرية، فتحولت إلى منصة تعكس مخاوف الجمهور العربي وتطلعاته، وتنقل الصراع الذي يعانيه خلال حياته اليومية. ونتيجة لذلك، أصبحت البرامج الحوارية للجزيرة بديلًا عن المقاهي والنوادي وأماكن التجمع الخاصة التي ينفِّس فيها الناس عن إحباطهم فيما يتعلق بالقضايا الشائكة في المنطقة. وقد ظل برنامج "الاتجاه المعاكس"

لصاحبه فيصل القاسم، يحظى بجماهيرية واسعة في الشارع العربي سواء داخل المنطقة العربية أم في المهجر بسبب طابعه النقدي والجريء في تناول الشؤون الجارية.

لغة الأخبار وخطاب الجزيرة حول "الإرهاب"

ظل اختيار الجزيرة واستخدامها للمصطلحات والمفردات في تغطيتها الإخبارية موضوع نقاش وجدل لا ينتهي؛ فالاختيار الفريد للمفردات الملائمة ثقافيًا عند تغطية أخبار من مناطق مختلفة بالشرق الأوسط على سبيل المثال، يشكِّل مكونًا أصيلًا في آلية التغطية الإخبارية للقناة. وبالتالي فإن القيمة البديلة التي تشكل الأساس لتغطيتها الإخبارية تعد التزامًا واضحًا بانحيازها للأصوات المحلية التي تسعى لتمثيلها وهي تنغمس معهم في واقعهم اليومي.

ولتكريس ذلك الالتزام اختارت القناة توجهًا استراتيجيًّا تَمَثَّل في استخدام مراسلين محليين؛ ففي مكاتبها المتعددة في جميع أنحاء العالم تعتمد الجزيرة اعتمادًا رئيسيًّا على مراسلين محليين، يفهمون اللغة واللهجة والخصوصيات الثقافية لسكان المناطق التي يغطون أخبارها. والأهم من ذلك، قرب أولئك المراسلين من الجمهور الذي تستهدفه الجزيرة وفهمه ومعرفة اهتماماته بشكل جيد. يأتي اعتماد الجزيرة على الصحفيين والمراسلين المحليين في إطار رؤيتها النقدية لسياسة العديد من القنوات الإخبارية العالمية التي تستعين في تغطيتها بما يُعرف بـ"الصحفيين المظليين". والمقصود بصحافة المظليين هو أن ترسل القنوات الإخبارية مراسليها المقيمين في المراكز العالمية لتغطية الأحداث وإعداد التقارير عن مناطق لا يعرفون عنها أي شيء تقريبًا. وتعتبر التغطيات الإخبارية للحرب في أفغانستان منذ العام 2011، وغزو العراق عام 2003، والصراع الفلسطيني-الإسرائيلي خير مثال على تلك الممارسة الصحفية. فعلى سبيل المثال، يميل العديد من الصحفيين الذين يعملون لصالح قنوات إخبارية عالمية إلى تقديم أخبار عن الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي من أماكنهم المريحة في فنادق القدس أو تل أبيب. وقد مثَّلت الحرب على غزة سواء في العام 2009 أو 2014 النموذج الأحدث لصحافة المظليين حيث كان العشرات من الصحفيين الغربيين يعدون ويرسلون تقاريرهم اليومية عن القصف الجوي والدمار الذي ألحقه القصف الجوي الإسرائيلي بالقطاع دون أن يدخلوا إلى غزة. كما اكتفت بعض القنوات الإخبارية خلال تلك الحرب، مثل "سي إن إن"، بتركيز تغطيتها على تقدم سلاح الجو والمدفعية الإسرائيلي وفاعليته وهي تتابع الأحداث على بعد عشرات الأميال.

إن المفردات المستخدمة في لغة التغطية الإخبارية ليست إلا مناطق شائكة تعكس مدى التحيز في صناعة الأخبار؛ فقد أصبح استخدام عبارتي "إرهاب"/"إرهابي"، على سبيل المثال، من الأمور التي تثير جدلًا واسعًا في التغطيات الإخبارية بين وسائل الإعلام المختلفة. وقد أظهر تحليل طولي لتغطية للجزيرة، في العشرين سنة الماضية، أن القناة نأت بنفسها منذ البداية عن استخدام مثل تلك الصفات في الإشارة إلى الجماعات المتمردة أو الجماعات التي تقاتل من أجل الحرية، أو حتى الجماعات التي تستخدم القوة كوسيلة للتغيير الاجتماعي مثل تنظيم القاعدة وداعش (ما يُعرف بتنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام/أو تنظيم الدولة). وسواء أكان ذلك في البرامج الإخبارية أم الوثائقية أم الحوارية، فإننا نجد أن الخط التحريري للقناة يتقيد دائمًا بالاسم الذي تُعرِّف به كل جماعة نفسها. فبدلًا من قول: "تنظيم القاعدة الإرهابي" أو "تنظيم الدولة الإسلامية الإرهابي"، تصفهما الجزيرة بعبارتي: "تنظيم القاعدة" و"تنظيم الدولة الإسلامية". وعلى غرار ذلك، تنأى القناة بنفسها خلال تغطيتها للصراع الفلسطيني-الإسرائيلي عن استخدام صفة "الإرهاب" لنعت الفصائل الفلسطينية المختلفة، بما في ذلك حركتا حماس والجهاد الإسلامي وحركة فتح وكتائب الشهيد عز الدين القسام والجبهة الشعبية. وتشير أخبار القناة باستمرار إلى تلك الحركات بكونها مجموعات فلسطينية شرعية تناضل من أجل الحرية وتقاوم الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية.

الاستفادة من الخدمات الرقمية والخدمات الإلكترونية

اكتسبت الثقافة الإخبارية التي تتبناها شبكة الجزيرة في تغطية أحداث العالم شعبية واسعة على الصعيد الدولي، بفضل نوعية المحتوى الإخباري الذي تبثه شاشة الجزيرة الإخبارية (الناطقة بالعربية) في المقام الأول، ثم قناة الجزيرة الدولية (التي تغيَّر اسمها لاحقًا إلى "الجزيرة الإنجليزية"). وقد لقي المحتوى الإخباري الذي يُبَثُّ عبر المنصات الإلكترونية للشبكة قدرًا مماثلًا من النجاح والشعبية، لاسيما أن الجزيرة تمكنت، منذ وقت مبكر، من مواكبة التطورات التكنولوجية المتسارعة، والوصول إلى الجمهور عبر مختلف المنصات الإلكترونية.

لقد استفادت شبكة الجزيرة، شأنها شأن الشبكات الإخبارية العالمية الأخرى، من التطور التكنولوجي السريع لشبكة الإنترنت؛ ففي العام 2001، أطلقت الجزيرة موقعها الرسمي على شبكة الإنترنت (Aljazeera.net) كمنصة جديدة لتقديم خدماتها الإخبارية وتعزيز تواصلها مع عدد أكبر من الجمهور في مختلف أنحاء العالم. بالإضافة إلى التقارير الإخبارية، يتيح الموقع خدمة البث المباشر وإمكانية التفاعل مع الجمهور، في توظيف واضح للإمكانات الهائلة التي توفرها المنصات الإلكترونية. كما نجحت القناة أيضًا، في كسر حواجز الرقابة، لاسيما في البلدان التي لم تسمح لها بفتح مكاتب، أو تلك التي قامت بحجب إشارة بثها؛ وبذلك استطاعت الجزيرة تكريس نهج جديد للتأثير وممارسة النفوذ الإعلامي بشكل غير مسبوق.

تجدر الإشارة إلى أن الجزيرة رعت منذ وقت مبكر مبادرة لدمج وسائل الإعلام الاجتماعية في عملية جمع الأخبار ونشرها عُرفت بمنصة "الجزيرة توك". أطلقت تلك المنصة في العام 2005، في شكل مبادرة مستقلة عن قناة الجزيرة ولكنها حظيت برعايتها وتشجيعها، وكان هدفها إشراك الناشطين الشباب من مختلف أنحاء المنطقة العربية في نقل الأخبار وقت حدوثها. وقد منحت "الجزيرة توك" الكثير من المدونين المشاركين مساحات متفاوتة على المنصات الرقمية لشبكة الجزيرة، حيث كان يشار أحيانًا إلى المواد التي يرسلونها بأنها "مصادر هامة" للتقارير الإخبارية (النواوي وخميس 2014). وقد ظلت تلك المنصة لسنوات منبرًا حيويًّا للكثير من المدونين الشباب الذين أصبح بعضهم في وقت لاحق مراسلين لقناة الجزيرة. ومن المبادرات الأخرى التي تميزت بها شبكة الجزيرة عن غيرها خدمة "شارك" (sharek.aljazeera.net) التي انطلقت عام 2008 واحتوت قرابة مئة ألف مقطع فيديو تم تحميلها بواسطة ناشطين من دول مختلفة في المنطقة. وتضمنت تلك المشاركات تغطيات إخبارية خاصة وتعليقات ومقابلات وأخبار عاجلة غير محررة وأحداث ثقافية واحتفالات ومظاهرات واحتجاجات.

لقد خلقت الثورة التي شهدتها وسائل الإعلام الاجتماعية دينامية جديدة في تدفق المعلومات من جميع أنحاء العالم، ولم يكن العالم العربي ومنطقة الشرق الأوسط استثناء من تلك الظاهرة. وقد بلغت منصات الإعلام الإلكترونية التابعة للجزيرة ذروة تأثيرها خلال أحداث الربيع العربي، حيث استُخدمت شبكات التواصل الاجتماعي لنقل الأخبار على نطاق واسع؛ فأثناء الثورات التونسية والمصرية والليبية، بثت الجزيرة الكثير مما كان يرد إليها عن طريق تلك الوسائط من أخبار ومشاهد حية، بعد توثيقها والتحقق من صدقيتها. وبذلك تحولت القناة وسيط بين الناشطين على الأرض والرأي العام الدولي.

علاوة على ذلك، شكَّلت منصة "الجزيرة بلس" (AJ+) الإنجليزية، ثم العربية في وقت لاحق، أحدث إضافة إلى منصات الجزيرة الرقمية. وقد بدأت الجزيرة بلس الإنجليزية، على حداثة تجربتها، في تقديم خدمة غير مسبوقة للجمهور الأميركي، وخاصة الشباب منهم والمهتمين بالعمل الصحفي. ويبدو أن هذه المنصة الجديدة قادرة على ملء الفراغ الذي تركه مشروع "الجزيرة أميركا"، الذي لم يُكتب

له الاستمرار. فقد أطلقت "الجزيرة بلس" في العام 2015، أي قبل اتخاذ الشبكة قرارها بإغلاق "الجزيرة أميركا"، وكان ذلك ضمن استراتيجية جديدة لزيادة حصة الشبكة في السوق الأميركية وتوسيع نطاق توزيع محتواها من خلال منصات رقمية مختلفة. وقد شكَّل تطوير "الجزيرة بلس" إضافة إلى موقعها الإنجليزي الحيوي على شبكة الإنترنت (Aljazeera.com) مصدرًا جديدًا لنفوذ الشبكة وانتشارها في سوق مغلق بطبيعته. وقد أثبتت "الجزيرة بلس" أن لها تأثيرًا، ليس فقط في الولايات المتحدة الأميركية، بل وعلى مستوى العالم أجمع أيضًا؛ إذ فازت بعد عامين فقط من إطلاقها، بجائزة التميز الصحفي من الجمعية الأميركية لأخبار الإنترنت. وليس هذا بغريب، فقد تجاوز حجم مشاهدتها في سبتمبر/أيلول 2016 خمسة مليارات مشاهدة واحتلت بذلك المركز السابع بين المنصات الإعلامية على فيسبوك، والمركز الثاني بين المصادر الإخبارية على شبكة الإنترنت.

"الجزيرة مباشر": بث حي للأخبار غير المحررة

شكَّلت قناة "الجزيرة مباشر" هي الأخرى منعطفًا جديدًا في تقديم البث التلفزيوني الفضائي للأحداث الحية دون تدخل تحريري؛ فـ"الجزيرة مباشر" فضائية مستقلة عن القناة الإخبارية تقدم لمشاهديها تغطية مباشرة للأحداث على مدار الساعة من جميع أنحاء العالم. وفي حين يتشكل محتوى هذه القناة، بدرجة أولى، من الأخبار وتغطية الشؤون الجارية، فإنه يشمل أيضًا المؤتمرات والملتقيات العلمية والخطب الدينية والسياسية والندوات الصحفية لكبار المسؤولين من مختلف أنحاء العالم. وقد تشمل التغطية الإخبارية أيضًا نقلًا مباشرًا لأحداث الحروب والصراعات والكوارث الطبيعية والمظاهرات والاعتصامات أو أي حدث آخر ترى القناة أن له أهمية صحفية. قد لا يبدو هذا النموذج من البث التلفزيوني المباشر مكلِّفًا من حيث الإنتاج والتوزيع، ولكن المحتوى الذي تقدمه قناة "الجزيرة مباشر" أثبت أهميته خاصة خلال السنوات القليلة الماضية على صعيد المنطقة العربية.

بعد النجاح الذي لقيته قناة "الجزيرة مباشر"، أطلقت الشبكة قناة "الجزيرة مباشر مصر" في العام 2012، وخصصتها لتغطية الشأن المصري الذي كان يشهد حينذاك تطورات متسارعة بعد ثورة 25 يناير/كانون الثاني 2011 التي أطاحت بنظام الرئيس مبارك. واستمر بث القناة إلى أن أغلقتها سلطات الانقلاب العسكري الذي أطاح بالرئيس محمد مرسي، يوم 3 يوليو/تموز 2013، على يد وزير دفاعه الجنرال عبد الفتاح السيسي.

الجزيرة الإنجليزية والدفق العكسي للأخبار

انطلقت قناة الجزيرة الإنجليزية في 15 نوفمبر/تشرين الثاني 2006، وهي تبث الأخبار والشؤون الجارية على مدار 24 ساعة من مقرها في الدوحة، إضافة إلى ثلاثة مراكز بث عالمية أخرى موزعة توزيعًا استراتيجيًّا لتغطي العالم برؤية مبتكرة، وهي على التوالي: كوالالمبور ولندن وواشنطن. وخلال وقت قصير وسَّعت القناة دائرة انتشار مكاتبها لتشمل أغلب أنحاء العالم. وبحلول سبتمبر/أيلول من العام 2016، أعلنت قناة الجزيرة الإنجليزية أن بثها أصبح يصل إلى 270 مليون بيت في أكثر من 140 بلدًا[7]. كما حصدت قناتها على موقع "يوتيوب" أكثر من 2.5 مليون مشاهدة في شهر واحد.

---

[7] انظر "حقائق وأرقام" على موقع الجزيرة الإنجليزية:

http://www.aljazeera.com/aboutus/2010/11/20101110131438787482.html;%20http://www.aljazeera.com/watchaje/

وفي حين تركز قناة الجزيرة العربية على الشؤون العربية والشرق الأوسط، فإن قناة الجزيرة الإنجليزية تتميز بتغطيتها لجنوب العالم بمختلف مناطقه. وقد أكسبها تأثيرها على الصعيد العالمي العديد من الجوائز خلال السنوات القليلة الماضية؛ ففي العام 2011، حصدت القناة جائزة جمعية الصحافة الأجنبية عن تقاريرها الإخبارية المميزة بشأن ثورات الربيع العربي (الجزيرة 2013).

ثورات الربيع العربي وقوة البث المباشر

كانت تغطية ثورات الربيع العربي لحظة تاريخية حاسمة في ما يتعلق بنزاهة شبكة الجزيرة. ورغم الانتقادات التي تعرضت لها قناة الجزيرة العربية من عدَّة أطراف بشأن دعمها الواضح للمتظاهرين ضد الأنظمة في كلٍّ من تونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا، إلا أن موقف الشبكة بكل قنواتها ومنصاتها ظل حاسمًا في تأييد نضال تلك الشعوب من أجل الحرية والديمقراطية. وقد كان واضحًا منذ بداية الاحتجاجات، التي انطلقت شرارتها في تونس في 17 ديسمبر/كانون الأول 2010، أن الجزيرة ستكون صوتًا للشعب/الشارع الذي ثار من أجل تغيير نظام استبدادي حَكمه لأكثر من عقدين متتاليين. ومع توالي الاحتجاجات في بقية عواصم ومدن دول الربيع العربي، ظلت موجات الإرسال مفتوحة أمام المحتجين أفرادًا ومجموعات وخبراء وسياسيين للتعبير عن آرائهم وانتقاد أنظمتهم التي بدأت تتهيأ للسقوط. فعلى سبيل المثال، في ساحة التغيير بالعاصمة اليمنية صنعاء يوم الجمعة 18 مارس/آذار 2011، وفي تمام الساعة 2.15 ظهرًا كانت السيدة سمية خواص، وهي أحد شهود العيان، على الهاتف في مداخلة هاتفية مع الجزيرة:

مقدِّم البرنامج: "سمية، أطلعينا على الوضع لديكِ".

سمية: "السلام عليكم، لا أعرف ماذا أقول، ولكن المكان من حولي يبدو كالمذبح. الناس يركضون من حولي وهم يحملون الجرحى وجثث القتلى. لا أعرف ماذا أقول ولكن علي عبد الله صالح (الرئيس اليمني آنذاك) لم يعد رئيسنا بعد الآن، هو مجرم، نحن لا نطالب بأن يتنحَّى ولكننا نطالب بأن يُحاكَم في محكمة العدل على جميع الجرائم التي ارتكبها. يجب على الشعب اليمني أن يأخذ موقفًا وأن يوقف إراقة الدماء. لا توجد سيارات إسعاف، والمصابون يُحمَلون في بطانيات وشاحنات وعلى دراجات نارية، كما أن الناس يؤخذون من المستشفيات إلى السجون ويتم تعذيبهم".

وفيما كانت تلك المداخلة الهاتفية تجري على الهواء، كانت شاشة الجزيرة تنقل صورًا لجرحى يُهرَع بهم إلى المستشفى الميداني الذي أقامه المتظاهرون، كما نقلت صورًا للقتلى وصورًا لهجوم على المعتصمين بالغاز المسيل للدموع.

في مقابلة أخرى، علَّق الناشط السياسي مروان الحرازي، على تلك الأحداث قائلًا: "هذا النظام قد أفلس وفقد كل مصداقيته بقتل الناس. الشعب الآن يهتف "الشعب يريد إسقاط النظام" ولن يرضى بأقل من ذلك".

مقدِّم البرنامج: خديجة بن قنة (الساعة 3.25 عصرًا): "الحكومة تقول إنكم تستخدمون القوة".

مروان الحرازي: "هذا غير حقيقي. نحن مدنيون ولا نستخدم أي أسلحة. النظام يشنُّ حربًا دعائية ضد المدنيين المسالمين. هم ينشرون الأكاذيب حتى يتمكنوا من إيجاد أعذار لأعمالهم الوحشية. هذه ثورة سلمية وستظل كذلك. الشرطة النظامية و"البلاطجة" والقناصة يستهدفون المدنيين الأبرياء العزل، ويُستهدَف الناس تحديدًا في الرأس والقلب. يجري هنا تنفيذ سياسة إطلاق النار بقصد القتل".

جدير بالذكر أن الثقة التي اكتسبتها الجزيرة لم تنحصر في الشارع العربي وفي ملايين المشاهدين عبر العالم فقط، بل شملت أيضًا الصحفيين المبهورين بموقفها الجريء؛ ففي 25 فبراير/شباط

2011، دخل صحفيو القناة التونسية في إضراب عن العمل وبسبب ذلك لم تُذَع نشرة الأخبار الرئيسية المقرر لها الساعة 8 مساءً. وفي برنامج "الحصاد المغاربي" الذي تبثه الجزيرة، أُجريت مقابلة مع إحدى صحفيات القناة التونسية لتعبِّر عن خيبة أملها من الطريقة التي يتم بها تشغيل المحطة واستمرار ما أسمته ثقافة السيطرة واستمرار نفس الممارسات الديكتاتورية. وعلى إثر ذلك، قدم خالد نجاح، محرر الأخبار آنذاك، استقالته وأرسلها إلى قناة الجزيرة لعرضها على الجمهور. كان ذلك حدثًا بارزًا ودليلًا مباشرًا على فقدان ثقة الصحفيين في مؤسستهم العمومية حتى بعد ثورة 14 يناير/كانون الثاني 2011.

كاميرا الجزيرة شاهدة على صناعة التاريخ

في الوقت الذي كانت كاميرا الجزيرة تؤدي فيه دور المراسل الحاسم لما حدث في ساحة التغيير في اليمن، كان لكاميرتها أيضًا نفس القدر من الأهمية في تسجيل اللحظات الدموية للثورة المصرية بما في ذلك مجزرتا ميدان التحرير ورابعة العدوية. وفي تصريح لوضاح خنفر، المدير العام السابق لشبكة الجزيرة، بيَّن كيف كانت الكاميرا أداة حاسمة لحماية المتظاهرين في ميدان التحرير في مصر: "تربط الجزيرة صراحة جهودها الإعلامية بالنضال من أجل الديمقراطية وحرية التعبير. إنها صوت من لا صوت له. كانت الثورة في ليبيا تتصدر الأخبار، ووُصفت بأنها حرب أهلية. ومن وجهة نظر القذافي، كان الغرب يستخدم الإنسانية كغطاء للسيطرة على الثروة النفطية في ليبيا. قُتِل حسن الجابر في ليبيا، على الأرجح في جريمة قتل عمدي. وانتشرت الأخبار بين موظفي الجزيرة بأن القذافي قد رصد مكافأة لمن يقتلهم".

لقد خصصت قناة الجزيرة وقتًا حصريًّا من بثها المباشر وأرسلت العديد من الصحفيين لتسجيل اللحظة التاريخية التي كانت الثورة التونسية بصدد صناعتها. وبالمثل، عندما بدأ الشارع المصري يتحرك ضد نظام مبارك، خصصت الجزيرة جزءًا كبيرًا من بثها اليومي المباشر لتلك الأحداث. ومع تواصل التجمعات الاحتجاجية، أصبحت التظاهرات المنتشرة في شتى أرجاء مصر ذات أولوية قصوى بالنسبة إلى القناة، ففتحت بثها المباشر لجميع المتظاهرين من كافة الاتجاهات. وأتاحت الفرصة للنشطاء الشباب والمحللين السياسيين وجميع مكونات المعارضة السياسية المصرية للتعبير عن حالة الغضب والإحباط الواسعة التي كانت تخيم على الشارع المصري. وقد نتج عن ذلك شنُّ حملة مضايقات ضد صحفيي الجزيرة وإغلاق مكتبها بالقاهرة وإيقاف بثها على القمر الاصطناعي نايل سات. ومع ذلك، استمرت الجزيرة في تقديم الدعم لنشطاء شبكات التواصل الاجتماعي في دول الربيع العربي، وأصبح المواطن الذي يحمل الكاميرا أو المواطن الصحفي هو الشاهد على التاريخ المعاصر بل وأحيانًا صانعه. وقد أثبتت الثورات العربية على الأقل أن التاريخ لم يعد يُكتب بأيدي المسؤولين، وإنما بأيدي أناس عاديين. فبات بإمكان أي شخص يحمل كاميرا ويستطيع الوصول إلى الإنترنت أن يصنع فارقًا وأن يصبح جزءًا من عملية التغيير. وقد تجاوز ذلك النشاط حدود الجنس والطبقة الاجتماعية ومستوى التعليم والوضع المادي.

في تونس، بدا أن هناك عملًا جماعيًّا بين قناة الجزيرة وشبكات التواصل الاجتماعي؛ فعلى سبيل المثال، أثناء الثورة التونسية، تضاعف عدد المجموعات التي أُنشئت على فيسبوك، ووصل عدد المشتركين في مجموعات مثل "Tunis" و"Tunisia" إلى أكثر من 600 ألف مشترك. واعتاد النشطاء في تلك الأيام انتظار برنامجي "حصاد اليوم" و"الحصاد المغاربي" المسائيين على قناة الجزيرة لمتابعة الأخبار التي يصنعونها هم بالنهار. ونتيجة لذلك، تضاعف أثر تلك البرامج الإخبارية، ولم تتمكن حكومة ابن علي من مجاراة نسق التطورات الجارية على صعيد بث الأخبار وتبادل المعلومات، فكانت خسارتها فادحة. يظهر تاريخ السياسة العربية على مدى الستين عامًا الماضية أن الثورات السياسية كانت تُنفَّذ بالقوة العسكرية والسيطرة على إعلام الدولة سواء

التلفزيوني أو الإذاعي. واليوم، يبدو أن نجاح الثورات لا يستلزم بالضرورة السيطرة على المباني، وإنما من خلال العمل عن بُعد على منصات مثل يوتيوب وفيسبوك وتويتر والقنوات التلفزيونية الفضائية.

خلال ثورات الربيع العربي، كانت قناة الجزيرة تجمع المواد الإعلامية والصور التي يلتقطها النشطاء من مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي في الميدان وتفحصها وتنتقيها لتعزيز تغطيتها الإخبارية، لاسيما في المناطق التي لا يكون لها فيها مراسلون منتظمون. فكانت تستفيد من محتوى شبكات التواصل الاجتماعي ومقاطع الفيديو التي يرسلها النشطاء والمواطنون الصحفيون إلى غرفة الأخبار. وكانت قنوات الجزيرة الإخبارية تحصل على تلك المواد، وتعرضها على شاشتها، حتى وإن كانت جودتها غير مطابقة لمعايير البث التلفزيوني ، فتحولها إلى أخبار موثوقة تلفت بها انتباه العالم لما يجري في المنطقة. فعلى سبيل المثال، قامت قناة الجزيرة الإنجليزية، على حدِّ تعبير سارنللي (Sarnelli)، (2013، ص. 157) "بالترويج لنمط جديد من العلاقة ببين الإعلام "الكبير" والإعلام "الصغير" في بلدان الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، بناءً على ما كان قد بدأ يترسخ في المنطقة من تقارب وتلاق بين وسائط إعلامية مختلفة".

في هذا السياق، شجعت القناة على مشاركة النشطاء الميدانيين في تغطيتها بشكل مباشر من خلال صفحة خصصتها لجمع الأخبار باسم "إعلامك أنت" (yourmedia.aljazeera.net). وقد أثبتت تلك المساحة أهميتها في جمع معلومات لم تبذل القناة في سبيل الحصول عليها أي موارد مالية أو خدمات لوجستية. من جهة أخرى، مثَّلت تلك المساحة فرصة نادرة للنشطاء لبث مادتهم الإعلامية على شبكة ذائعة الصيت كالجزيرة. وكان من نتائج مثل تلك المبادرات الإعلامية ظهور التعدد في وجهات النظر والانفتاح على روايات مختلفة عن ثورات الربيع العربي. ومن خلال نقل تلك الأصوات المتعددة من داخل العالم العربي وخارجه، كانت الجزيرة بمثابة المنبر الذي يوحِّد الاختلاف ويصنع التقارب ويمنح تلك الروايات المتباينة معنى منطقيًّا.

استفادت غرف الجزيرة الإخبارية كذلك من المواد المنشورة على مدونات النشطاء والمتاحة للجميع. مثال ذلك صفحات شهيرة من قبيل مدونة (*Live Blog – Egypt*) التي كانت مصدرًا لتدفق إخباري مستمر عن الحياة اليومية في مصر خلال ثورة 25 يناير/كانون الثاني. فقد استمر النشطاء في تزويد تلك المدونة بالتعليقات وروايات شهود العيان والتسجيلات بالصوت والصورة على امتداد أيام الثورة. وظلت تلك المساحة الإعلامية تبث الأخبار والتعليقات من نشطاء التواصل الاجتماعي لمدة خمس سنوات بعد الثورة، وإن كان ذلك بحماسة أقل من خلال تناقص عدد المنشورات في سنتي 2014-2015. وتعليقًا على أهمية المدونة، يلاحظ سارنللي أنها "تملك المصداقية كما لو كانت قناة تليفزيونية، وتتمتع في ذات الوقت بالصفة غير الرسمية وبالطابع التفاعلي للمدونة. لقد أصبحت مرجعًا للعديد من المتابعين من غير العرب، لاسيما في البلدان التي لا تستقبلها عبر البث الأرضي أو الفضائي، وإنما عبر تدفق أقل سيولة من التليفزيون وأغنى منه بالمراجع والإحالات إلى غيرها من وسائل الإعلام؛ ما يجعلها أقرب إلى البيئة الثقافية والتكنولوجية للمتظاهرين" (سارنللي، 2013، ص. 167).

الجزيرة والجمهور المهجري

نقطة أخيرة عن نجاح الجزيرة، ألا وهي وصول القناة إلى المهاجرين العرب، في أوروبا والولايات المتحدة على وجه الخصوص؛ فمع التوجه التجاري الذي اتخذه التليفزيون العربي في تسعينات القرن الماضي وتوسع البث الفضائي، برزت شريحة جديدة من الجمهور العربي وغيَّرت نظرة أصحاب المؤسسات الإعلامية والمعلنين والسياسيين لذلك الجمهور. وقد وسعت التعددية التي بدأت تميز

الوسط الإعلامي الجديد بمختلف قنواته الفضائية على غرار الجزيرة، من نطاق الخيارات أمام المشاهد العربي رغم الضوابط الحكومية الصارمة بشأن المحتوى الذي يمكن بثه على قنوات التليفزيون الأرضية. يضاف إلى ذلك الروابط والعلاقات التي نسجها إعلام المهجر بمختلف أنحاء العالم؛ ما ساعد المهاجرين العرب على إعادة اكتشاف الذات وإدراك الغير. لقد أصبح بإمكان العرب البريطانيين أو الفرنسيين المشاركة في برنامجٍ حواري يناقش أوضاع اللاجئين الفلسطينيين أو يتناول الديمقراطية في العالم العربي، يُنتَج في مكتبِ القناة بلندن ويُبث عبر الأقمار الاصطناعية إلى بقية بلدان العالم.

وقد جاء في تقرير خاص لرويترز أن "الجزيرة كانت أول من استوعب حجم الثورة التونسية وتداعياتها على المنطقة، وكانت هي من ظل يركِّز على، أو "يؤجِّج" بحسب قول بعض النقاد، الاضطرابات اللاحقة في مصر. فاستجابت لها الجماهير من جميع أنحاء العالم، وتضاعف الجمهور العالمي المتابع للقناة بسرعة صاروخية. ففي خلال أول يومين من الاحتجاجات المصرية، ارتفع عدد مشاهدي البث المباشر للقناة عبر الإنترنت إلى نحو 4 ملايين مشاهد، بزيادة قدرها 2,500 بالمئة، منهم 1.6 مليون مشاهد بالولايات المتحدة فقط" (رويترز، 2011).

لقد نبَّهت الجزيرة العديد من الدراسات الأكاديمية إلى تغطية "بي بي سي" المتحيزة والمثيرة للجدل للانتفاضة الفلسطينية، والحرب على غزة عامي 2009 و2014، والصراع الفلسطيني-الإسرائيلي عمومًا. فقد أشارت دراسة أجرتها "غلاسغو ميديا غروب" (فيلو (Philo) وبيري (Berry)، 2004) إلى أن التليفزيون البريطاني فشل في إعلام الناس بما يجري في الأراضي المحتلة. وقد أسفرت نتائج دراسة فيلو وباري عمَّا يلي: "ركَّزت الأخبار على الآراء الإسرائيلية التي زعمت أنهم مضطرون للدفاع عن أنفسهم ضد الإرهاب. وكان الضوء مسلَّطًا على وجهات النظر الإسرائيلية في العناوين الرئيسية، وغالبًا ما يتم التركيز عليها إلى درجة إقصاء وجهات النظر البديلة. كما أن إحصاء مدى تكرار الحوارات الصحفية والتصريحات المنقولة عن المسؤولين أظهر هيمنة إسرائيلية على التغطية الإعلامية للقناة. وأحيانًا، كان الصحفيون يتبنون لغة التصريحات الإسرائيلية ويقتبسونها في التقارير الإخبارية بنفس صيغتها دون أي تصرف في النص (2004، ص. 259).

من الواضح أن قدوم الجزيرة بنهجها البديل في تغطية شؤون المنطقة، كان السبب الرئيس الذي أسهم في تشكيل هذا الوعي الجديد بين المهاجرين العرب وجعلهم يهتمون أكثر بالأخبار. وهو ما مكَّنهم كذلك من المقارنة بين المضامين الإخبارية من مختلف المصادر، فضلاً عن نقد تغطية الإعلام الغربي ونظرته النمطية للعرب والمسلمين.

وكما حدث في تغطية الشأن الفلسطيني، شكَّلت الحرب الأفغانية في العام 2001 لحظة حاسمة بالنسبة إلى الجزيرة؛ إذ لجأت مجتمعات المهاجرين إليها بحثًا عن محتوى إخباري غير متحيز وتغطية مباشرة لما كان يحدث بالفعل. وقد تحدى مراسلو القناة في مختلف مواقعهم كافة الصعوبات التي فرضتها اللحظات التاريخية الفارقة، خاصة في مناطق الخطر حيث احتمال فقدان أرواحهم وارد بقوة، كما نجحوا في نشر أكثر مشاهد الصراع ترويعًا بصور قوية واضحة أظهرت حجم الضحايا المدنيين والعسكريين بين كلا الجانبين.

ربما نتذكر شبكة "بي بي سي" في تغطيتها للحرب العالمية الثانية، عندما "وقف مراسلوها جنبًا إلى جنب مع الجنود البريطانيين، يشاركونهم الخطر والزي والرتب الشرفية والولاء لقيادة المؤسسة العسكرية والاستعداد التام لتشكيل الحقيقة أو إرجائها" (مارش، 2012، ص. 72). وبنفس الطريقة، يرى اليوم صحفيو الجزيرة أنفسهم مدافعين عن "الحقيقة"، ولذلك وقفوا كالجنود البواسل يدافعون عن موقفهم بحثًا عن النقل الحصري أثناء تغطية الحروب والصراعات.

المراجع

Abdelmoula, E. *Al Jazeera and Democratization: The Rise of the Arab Public Sphere*, London, Routledge, 2015.

Al Jazeera, “Corporate Profile”, 2016, www.aljazeera.com, (Retrieved: 29/08/2016).

Barkho, L. “The Discursive and Social Paradigm of Al-Jazeera English in Comparison and Parallel with the BBC”, *Communication Studies*, 62:1, London, Routledge, 201, pp. 23-40.

El-Nawawy, M. and Khamis, S. “Governmental Corruption through the Egyptian Bloggers’ Lens: A Qualitative Study of Four Egyptian Political Blogs”, *Journal of Arab & Muslim Media Research*, 7:1, 2014, pp. 39–58.

Marsh, K. “On Issues of Impartiality in News and Current Affairs”, *Journal of Applied Journalism and Media Studies*, 1:1, 2012, pp. 69-78.

Miladi, N. “Satellite TV News and the Arab Diaspora in Britain: Comparing Al Jazeera, the BBC and CNN”, *Journal of Ethnic and Migration Studies* (JEMS), Vol. 32:6, London, Routledge, 2006,

Miladi, N. “Mapping the Al-Jazeera Phenomenon”, in Thussu and Des Freedman, *War and the Media*, London, Sage Publications, 2003.

Philo, G. and Berry, M. *Bad News from Israel*, London, Pluto, 2004.

Reuters “Special Report: Al Jazeera's News Revolution” Feb. 17, 2011, (Retrieved: 29/08/2016). http://www.reuters.com/article/2011/02/17/us-aljazeera-idUSTRE71G0WC20110217.

Sarnelli, V. “Tunisia, Egypt and the Voices of the Revolution in Al Jazeera English”, *Journal of Arab & Muslim Media Research*, 6:2, 2013, pp. 157–176.

Tatham, S. *Losing Arab Hearts and Minds: The Coalition, Al Jazeera and Muslim Public Opinion*, London, C. Hurst and Co., 2006.

سياسة "التمثيل" في ثقافة الجزيرة الإخبارية

محمد الزياني

أستاذ الإعلام والاتصال بجامعة جورجتاون

بعد عقدين على انطلاقها، تظل الجزيرة أيقونة في إعلام الشرق الأوسط. فلم ينحصر إنجازها في تحديث الإعلام العربي في منطقة حساسة من العالم حيث حرية التعبير كانت تعتبر تاريخيا من قبيل المغامرة، بل أدخلت إلى عالم الصحافة ثقافة مختلفة وروحا جديدة ساعدت في إعادة صياغة العلاقة بين الإعلام والسياسة في المنطقة الشرق الأوسط. هذا لا يعني أن الجزيرة لا تخلو من النواقص والإخلالات والضبابية، وهي مسائل وإشكاليات ما فتئ الكثير من نُقاد الشبكة ومعارضيها يثيرونها، وإنما تدفعنا تجربة القناة بما لها وما عليها للاشارة إلى إرثها المتداخل مع الواقع الجيو- سياسي المركب للمنطقة.

ورغم أن الجزيرة تطورت من قناة إخبارية متواضعة ناطقة بالعربية إلى شبكة واسعة متعددة القنوات، متعددة المنصات، ومتعددة اللغات، لها جمهور عالمي ومكاتب تغطي أغلب أنحاء العالم، إلا أن القناة العربية تحديدا تظل بوصفها القناة الأم، تمثل روح الجزيرة ونوعية الصحافة التي تتبناها. وتتضح جرأة القناة أساسا في قدرتها على تحديد القضايا وتشكيل التصورات والتأثير في النقاشات. ورغم الاستياء وأحيانا العداء الذي تكنه لها الحكومات العربية بدعوى تقويضها لسلطاتها، ورغم الانتقادات التي وجهها لها الغرب خاصة في الفترة التي أعقبت أحداث الحادي عشر من سبتمبر بدعوى إثارتها للشعور المعادي للغرب، ورغم توقف قسم من الجمهور العربي عن متابعتها مع تعمّق الصراعات والشعور بالاحباط والخيبات الذي تلا انتفاضات الربيع العربي، لم تكفّ الجزيرة أبدا عن كونها مصدرا للجدل.

أحد أبرز الخصائص التي تميز الجزيرة هو انتهاجها أسلوبا مباشرا يتسم بالجرأة في ممارسة الصحافة، وهو ما يحدد إلى درجة كبيرة سياسة "التمثيل" التي تتبناها القناة (Representation). جدير بالملاحظة هنا على وجه الخصوص، استخدام القناة غير المتحفظ للصور كخطاب "تمثيلي" يتجاوز الحدث والخبر. ويبرز هذا الاستخدام بشكل أساسي في الطريقة التي تتوخاها القناة في نقلها المستمر للعديد من مشاهد الدمار التي تبرز معاناة الإنسان العادي. فشاشة الجزيرة تزخر بالصور القاتمة والمشاهد الدموية واللقطات العنيفة، ولا تتردد في إبراز مشاهد الموت ومعاناة الضحايا. فالقناة لا تستنكف من عرض صور مؤثرة عادة ما تحجم عن بثها وسائل الإعلام الغربية لاعتبارات تتعلق بحساسية المشاهدين أو لكونها، ببساطة، غير ملائمة.

وخلافا للتغطيات التي تقوم بها وسائل الإعلام السائدة، والتي توصف بكونها سريعة وسطحية وفي أحيان كثيرة "نظيفة"، لا تعتمد الجزيرة أسلوب انتقاء العينة الخبرية حسب درجة ملاءمتها. ففي خضم الأزمات تحديدا، تسعى القناة إلى بسط نفوذها كشاهد على العصرعبر تغطية مرئية صريحة وصارمة، مستخدمة الصور المعبرة والمؤثرة بهدف نقل الواقع بجرأة وبكل مأساوية.

إن تغطية الجزيرة الواسعة لعدة أزمات وحروب وصراعات شهدتها المنطقة في السنوات الماضية، ونقلها الحي لانتفاضات الربيع العربي وما أعقبه، وتغطيتها لأحداث العنف المستمر في الشرق الأوسط، بما في ذلك أفغانستان وباكستان، وبشكل أوسع تصويرها لمحنة العالمين العربي والإسلامي، كشفت على مدى السنين عن حقيقة التوتروعدم الاستقرار الذي تعيشه المنطقة. بهذا المعنى، فإن صور العنف الأهوج التي نشاهدها على شاشة الجزيرة، تعكس الخصائص المميزة لهذه المنطقة المضطربة. فمن العراق الذي تعصف به الصراعات الطائفية إلى لبنان الذي يعيش تفككا سياسيا، ومن غزة المحاصرة إلى السودان المنقسم، ومن سوريا التي تمزقها الحرب إلى

ليبيا التي تقف على حافة الانهيار، تواكب الجزيرة الصراعات والحروب والأزمات والانتكاسات، من خلال تغطياتها المكثفة لمنطقة تعتبر أكثر مناطق العالم صناعة للأخبار.

وبصرف النظر عن الطبيعة السياسية لهذه الأحداث التي تقع تغطيتها إعلاميا، فإن نجاح الجزيرة يكمن في قدرتها الكبيرة على التقاط مشاهد مؤثرة للقتل والدمار والخراب الذي تتعرض له المنطقة. فباستخدامها صورا صادمة وغير معالجة تحريريا تجسد بوضوح العنف الذي ترزح تحته المنطقة، تصنع الجزيرة رمزيتها التي تميزها عن غيرها من الشبكات الإعلامية. ولا يعني ذلك بأي حال أن القناة تستثمر في أي نوع من أنواع العنف الثقافي الموروث أو تقر بوجود هذه النزعة، وإنما توظف صور العنف الذي تشهده المنطقة إلى حدها الأقصى حتى يكون لها تأثير عميق ورمزية كبيرة. وحين يتعلق الأمر بـ"تمثيل" معاناة الإنسان، فالجزيرة لا تدخر جهدا، إذ إن شاشتها لا تترك مجالا للخيال.

وخلافا لوسائل الإعلام المؤثرة أو السائدة، والتي كثيرا ما تحجم عن تصوير المعاناة الإنسانية، وتقديم الألم والحرمان في صور "نظيفة" أو "معقّمة"، تبني الجزيرة قصة تلك المعاناة في صورة تجربة أقرب ما تكون للمشاهدين. وبتلك الطريقة، تولّد القناة مشاعر التعاطف لدى المشاهدين. وعلى عكس التغطية الإعلامية الغربية "النظيفة" التي تخفي، في كثير من الأحيان، الوجه الحقيقي للموت والدمار، تعرض التغطية "الجريئة" للجزيرة الوجه القبيح للواقع كما تعيشه المنطقة.

ليس واضحا تماما كيف يتفاعل الجمهور مع تلك الصور التي يشاهدها. فقد أفادت بعض البحوث التي أجريت حول تأثير الإعلام على الجمهور أن أحد عوامل الجذب لدى الجزيرة هو ميلها إلى عدم التهوين من قيمة الأحداث. وحسب تلك البحوث، فإن العديد من المشاهدين يرون أن حجب صور العنف وتقييد استخدام اللقطات الجريئة يعني إعطاءهم صورة مجتزأة ومنقوصة عما يجري في الواقع (فهمي، 2007). وقد أدّى تحوّل الشبكة أحيانا إلى مصدر وحيد للتغطيات المصورة التي يتطلع لها الجمهور، إلى التركيز على البعد الدرامي للتغطية الإخبارية. وهذه الديناميات التي تشد انتباه المشاهد يمكن أن تكون لها آثار عكسية. وإذا كانت هذه الأساليب في "تمثيل" المعاناة قد أثارت الغضب الشعبي وغذت الحراك الميداني، خاصة في أوقات الحرب وفترات الأزمة، فإنها يمكن أن تؤدي كذلك، مع مرور الزمن، إلى تبلد الإحساس والتسليم بالواقع وسيطرة الخوف.

إن ممارسة الجزيرة لأسلوب "الصحافة الواقعية" (فهمي، 2007، ص. 248) يقتضي بالضرورة اختيارات تحريرية تفرضها سياسة "التمثيل". ولا تكتفي الجزيرة في عملها بتأكيد أهمية نقل معاناة أولئك الذين لا يجدون حظهم في التغطية الإعلامية وحسب، بل هي تعلن انحيازها لهم وتربط نفسها بقضيتهم وتتماهى مع معاناتهم. وهذه الديناميات تحدد بالضرورة تصور القناة للموضوعية الصحفية كقيمة أساسية. فقناة الجزيرة ترغب في تقديم نفسها باعتبارها صوت المجموعات المهمشة، ونافذة على الكثير من مناطق العالم التي لا تحظى باهتمام الإعلام. وعلى ذلك الأساس، فهي تفاخر بكونها "صوت من لا صوت له". فهي تهتم، بشكل خاص، بالفئات المهمشة والجهات المحرومة، والقوات الفاعلة من غير الدول، واللاعبين السياسيين غير التقليديين.

وسواء تعلقت تغطيتها بطالبان في أفغانستان، أو حزب الله في لبنان، أو حماس في قطاع غزة، أو الإخوان المسلمين في مصر، أو الحوثيين في اليمن، أو الشيعة في البحرين، أو الروهينغيا في ميانمار، فإن الجزيرة باستمرار تضع "الآخر" في قلب سياستها. وهذا يجعل القناة أكثر من مجرد منصة للفاعلين غير الرسميين واللاعبين السياسيين البدلاء. فقد نجحت في ضخ الواقع

الجيوسياسي للمنطقة بديناميات جديدة وتعزيزه بمؤشرات إضافية ما كانت لتبرز لولا انتهاج القناة منحى جديدا في التعامل مع الأحداث.

ثمة خيط ناظم ورسالة مبطنة لتغطية الجزيرة الإخبارية يمكن استقصاؤها من خلال العديد من برامجها، وهو أن موازين القوى ليست ثابتة ويمكن أن تتغير، وأن لعبة السلطة لا تخضع بالضرورة لإملاءات اللاعبين التقليديين. في هذا السياق، لا تكتفي الجزيرة بنقل أخبار المجموعات غير التقليدية واللاعبين غير الرسميين. إنها تبرزهم وتقوم بإدراجهم ضمن سرديات فعّالة للأحداث، غالبا ما تشكل سرديات بديلة تقوّض أو تقوم بتفكيك السرديات المهيمنة وتعيد صياغة فهمنا وتصورنا للأحداث.

إذا نظرنا إلى ذلك من زاوية صحفية بحتة، نجد أن اهتمام الجزيرة بـ"الآخر"، وهذا التركيز على "الآخر" الذي يميز خطها التحريري، يجعلها تواجهه عدة تحديات، أكثرها إلحاحا الاعتبارات المهنية وخاصة ما يتعلق منها بقيمة "الموضوعية". ففي حين تسعى القناة إلى التشكيك في انتقاد بعض الآراء السائدة والسرديات المتداولة، فإنها بالضرورة تمنح بعض الأفضلية لآراء وسرديات أخرى. وبالتالي، فلا نستغرب وصف العديد من النقاد لتغطية الجزيرة بأنها إما متحيّزة أو تنقصها الموضوعية، وذلك تحديدا لتبنيها أسلوبا "دفاعيا" (قلندر، 2013). ورغم أن الجزيرة أكدت مرارا وتكرارا أن تغطيتها منحازة فقط "للحقيقة"، إلا أنه على صعيد الممارسة، ظلت تلك التغطية مصدرا للجدل. ففي حين دافع بعض الدارسين عن أسلوبها الصحفي الخاص وعن حماسها للتعبير عن وجهة النظر العربية، انتقدها آخرون بسبب ما رأوا أنه انحياز في مواقفها. وبالفعل، فإن حماس الجزيرة في الدفاع عن "الرأي والرأي الآخر"، وهو أيضا شعار القناة، يعني الاعتراف بالآخر باختلاف ألوانه، سواءًا أكان ضحية أم مقموعا أم معارضا، أم عنصرا هامشيا. ولذلك، فلا غرابة أن تحولت الجزيرة إلى نافذة نطل من خلالها على المناطق التي لا يغطيها الإعلام السائد، كما أصبحت منصة تعبّر من خلالها عديد الأطراف والأفراد والمجموعات عن آرائها ومواقفها المختلفة والمخالفة للرأي السائد، بعد أن كانت فرصها في الظهور إعلاميا، ومن ثم الوصول إلى الجمهور العربي الواسع محدودة جدا.

وإذا كانت قناة الجزيرة الناطقة بالعربية، التي تخاطب جمهورا محددا وتدعي تمثيله، تسلك تلك السياسة التحريرية، فإن شقيقتها قناة الجزيرة الإنجليزية التي تقدم منظورا أكثر انفتاحا على العالم، وتخاطب جمهورا أوسع، تتبنى مقاربة دقيقة جدا في درجة اختلافها. هنا تكمن أهمية "المنظور الجنوبي" الذي تدعي القناة تقديمه. إن أحد أهداف الجزيرة الإنجليزية المعلنة هو إحداث توازن في تدفق المعلومات وتوفير رؤية أخرى وقراءة بديلة للأحداث والمستجدات. وبإيلائها الجنوب العالمي أهمية خاصة، تسعى القناة إلى موازنة وإثراء تيار المعلومات العالمي المهيمن، أحادي البعد. كما تسعى إلى عرض خطابات تختلف عن تلك التي تعرضها وسائل إعلام في الغرب مثل بي بي سي وسي أن أن، ولكنها تهم جمهورا عالميا أوسع. تفعل ذلك من خلال موازنة الأخبار الصادرة عن المركزية الغربية بأخبار المناطق قليلة التمثيل، وتزويدها بتعدد المناظير.

هذا النموذج من الصحافة البديلة الذي تفتخر الجزيرة الإنجليزية بتقديمه، يتجاوز مجرد الوصول إلى مختلف المناطق في العالم وتغطيتها، إلى تقديم رؤية عالمية حقيقية. ولتحقيق تلك الرؤية، تنأى القناة بنفسها عن ممارسات ما يعرف بـ"الصحافة المظلية"، التي تعتمد على إرسال صحفيين قد لا تكون لديهم المعرفة العميقة والضرورية بالميدان الذي يراسلون منه أو الصراع الذي يغطونه. فهم يُرسَلون في مهمات قصيرة المدى إلى مناطق الصراعات كلما كانت هناك حاجة لتغطية حدث أو قصة خبرية. أما الجزيرة الإنجليزية، فتستثمر في الصحفيين المحليين، الموجودين في الميدان، ويتمتعون بفهم جيد لتعقيدات المناطق التي يراسلون منها. كما يتمتعون

بمعرفة عميقة بلغاتها ومجتمعاتها، ولا يعتمدون في تقاريرهم بشكل كامل على أخبار وكالات الأنباء والمصادر الرسمية.

رغم جسامة التحديات التي تقف في وجه أهدافها الطموحة وحرصها على تقديم تغطية عميقة للأحداث، خاصة حينما يتعلق الأمر بنقل الأخبار من مناطق متأثرة بالصراعات والأزمات خارج دائرة الشرق الأوسط، فقد نجحت الجزيرة في تطعيم وتعزيز ثقافة التغطية الإخبارية. كما نجحت على مدى السنوات الماضية، في بناء قدرات تمكنها من تغطية الأحداث والمستجدات التي لا تركز عليها أو تغطيها القنواة الإخبارية المهيمنة. وهنا لا يساعنا إلا أن نشير إلى أنه إذا كانت تجربة الجزيرة توحى بشيء فإنها توحى بأنه من الصعب الفصل بين الواقع الذي تغطيه القناة والطريقة التي يقع بها تقديم وتمثيل ذلك الواقع، أو بالأحرى، الفصل بين مسألة التمثيل وسياسة التمثيل.

المراجع

Fahmy, S. “Show the Truth and Let the Audience Decide: A Web-Based Survey Showing Support among Viewers of Al Jazeera for Use of Graphic Imagery”, *Journal of Broadcasting And Electronic Media* 51.2, 2007, pp. 245-64.

Galander, M. “Al Jazeera and Media Value Determinism: Reconceptualizing the Network’s Coverage of the Arab Spring”, *Global Media Journal*, Spring 2013, Available at: http://www.globalmediajournal.com/open-access/aljazeera-advocacy-and-media-value-determinism-reconceptualizing-the-networks-coverage-of-the-arab-spring-of-revolutions.pdf/

الفصل الثاني

من تغيير الإعلام إلى التأثير في السياسة

من تحرير الإعلام إلى تحرير المجال السياسي العربي

مدخل نظري

يحيى اليحياوي
أستاذ الإعلام بجامعة محمد الخامس، الرباط

مقدمة

1. منذ أواسط تسعينات القرن الماضي، عرف المشهد الإعلامي العربي حركية بنيوية كبرى، ليس فقط على مستوى بناه التحتية وسعة مجال فعله، بل أيضًا على مستوى ما ترتَّب على ذلك من تنوع في المضامين، وجدة في الأداء، ونجاعة في تصميم وتقديم المادة الإعلامية على مستوى الشكل والإخراج.

وعلى الرغم من أن دور الطفرة التكنولوجية (اليحياوي، 1995)[8] التي طالت ميدان الإعلام والمعلومات والاتصال كان حاسمًا ومفصليًّا في أكثر من جانب، واستطاع أن يفرز "بنيانًا إعلاميًّا عربيًّا جديدًا"، بمقياس الانفتاح والأخذ بمختلف زوايا النظر والرأي والتعبير، على الرغم من ذلك أقول: فإن ذات الواقع (المترجم لذات البنيان) لم يكن واردًا فما بالك أن يكون ممكنًا أو متيسرًا، إلا بفضل وفي ظل حراك مجتمعاتي (بخلفيات سياسية واقتصادية وثقافية) تزايدت من بين ظهرانيه القناعة المقتسمة بضرورة مواكبة تلك الطفرة، ومجاراة "حتمية" نقل الرسالة الإعلامية من فضائها المحلي، القُطري والإقليمي الضيق، إلى فضاءات جديدة تتجاذبها إكراهات العولمة والتحرير والانفتاح والدمقرطة والنفاذ الحر للمعلومات.

وإذا كان عنصر الطفرة التكنولوجية قد أسهم بقوة في تخليص الفضاءات الإعلامية القُطرية من إكراهات الندرة المزامنة لعصور ما قبل الثورة الرقمية، فإنه قد أسهم في الآن ذاته، في تقويض مفاصل احتكار الدولة لمختلف وسائل الإعلام، لاسيما المسموع منها والمرئي، ناهيك عن تعريته لمحدودية التدبير العمومي لقطاع باتت المبادرة الخاصة من بين ظهرانيه حاضرة، ومتوفرة على قابلية متقدمة لتقديم مُنتَج إعلامي بمواصفات جديدة، وبآليات تسويق مبتكرة، وبقدرة على التأقلم مع المستجدات غير مسبوقة.

بصلب "المحدِّد" التكنولوجي هذا، وإعادة تموقع الدولة ذاك، عرف البنيان السياسي القائم هنا وهناك بالعالم العربي، مطالبات حادة بالإصلاح، إذا لم يكن بغرض فتح المجال الإعلامي (ضمن مجالات أخرى) لفاعلين جدد لم يعد عرض الدولة لهم مقنعًا ومغريًا، فعلى الأقل بأفقٍ خلق مسالك جديدة تضمن للأفراد والجماعات هامشًا للتعبير أوسع وأضمن. ولذلك، فإن مسلسلات "الانتقال الديمقراطي" التي تم تدشينها بالعديد من البلدان العربية ابتداء من تسعينات القرن الماضي، إنما كانت تتغيَّا ليس فقط إعادة الهيكلة السياسية للنظم القائمة من منظور مؤسساتي صرف، بل أيضًا إفراز ترسانة قوانين ولوائح وتشريعات في أفق إقامة نظم تعددية مرتكزة على صيانة حرية التعبير

[8] نفضِّل استخدام عبارة "الطفرة" في هذا المقام، لأنها لا تضمر أي شكل من أشكال القطيعة الإبستمولوجية، بل تحيل على التراكم والاستمرارية في تاريخ تطور تكنولوجيا الإعلام والمعلومات والاتصال.

وضمان استقلالية وسائل الإعلام والاتصال بكل أشكالها وتلاوينها وتوجهاتها (العبدلاوي وآخرون، 2005، ص.ص. 12-33).

بيد أن إنهاء احتكار الدولة للمجال الإعلامي (الإذاعي والتليفزيوني على وجه التحديد) لم يكن قرارا سياسيا طوعيا من لدنها، بقدر ما أتى تحت ضغط عنصر الوفرة الذي مكنته التكنولوجيات الجديدة، وكذا انتهاء النظم الكليانية بالاتحاد السوفياتي سابقا وبأوروبا الشرقية، وتزايد مد السياسات الليبيرالية وتقدم منطق المنافسة والسوق والاحتكام إلى منطق العرض والطلب وما سوى ذلك.

2. إن تحرير الإعلام (تخليصه من ربقة الاحتكار والرقابة يقول البعض (لم يكن، بداية الألفية الثالثة، مطلبا دونه ودون الحق في النفاذ للمعلومات والاطلاع على الأفكار والآراء من خلال مختلف وسائل الإعلام المتاحة، بل نظر إليه باعتباره مدخلا أساسيا لولوج مجال الحريات الإعلامية، باعتبارها رافدا من روافد المشاركة السياسية، ومن ثمة متراسا صلبا لتكريس الممارسة الديمقراطية في الزمن والمكان.

لقد عانت معظم البلدان العربية حقًّا من احتكار السلطة السياسية لوسائل الإعلام والاتصال، والإمعان في توظيفها لترويج منظومة الفكر الواحد، فكرها هي لا فكر غيرها، وتوجيه الرأي العام بجهة تنميطه وحشده وقولبة أنماط تمثلاته وتعبيراته. وعلى الرغم من الضغوط الممارَسة من الداخل والخارج لإنهاء عهود احتكار الدولة لوسائل الإعلام وإطلاق الحريات الإعلامية، فإن الحكومات العربية لم تتجاوب مع ذات المطلب بما فيه الكفاية، وأبقت في معظمها على شتَّى ضروب الرقابة حتى وإن غلَّفتها أحيانًا بلبوس ناعم على مستوى القوانين والتشريعات. ولذلك، نجد أن القواسم المشتركة بين كل "التجارب" التي نهجت سلوك الإصلاح الإعلامي، من تلقاء نفسها أو تحت بعضٍ من ضغط الداخل والخارج، بقيت في مجملها رهينة ثلاثة توجهات أساسية:

- التوجه الأول: ويكمن في تعذر تنزيل ما أفردته الدساتير القُطرية للمجال الإعلامي من ضمان لحرية الإعلام كتجسيد لحريات الرأي والتعبير. لا، بل قل: إنه قد تم إفراغ البنود الدستورية ذات الصلة من مضامينها، وصبها في قوالب تشريعية وقانونية مجافية في العديد منها للضمانات التي أفردتها الدساتير لذوات الحريات.

- التوجه الثاني: ويتمثل في استمرار (حتى بالدول التي تدَّعي إصلاح منظومتها في الإعلام) المضايقات والقيود المفروضة على حرية الإعلام وعلى حرية التعبير بوجه عام. لا يقتصر الأمر هنا على استمرار البنود القانونية والتشريعية السالبة للحريات، بل يتعداه إلى صياغة مواد مطاطة، هلامية، قابلة لأن تُؤَوَّل قضائيًّا بجهة مصادرة وسائل الإعلام، أو التضييق على تداول المعلومات والآراء والأفكار.

- التوجه الثالث: ويكمن في غياب قوانين تضمن الحق في النفاذ إلى المعلومات، وإن تسنَّى لها أن توجد هنا أو هناك من البلدان العربية، فغالبًا ما تكون عامة، غير ملزمة للإدارة وغير شاملة بحكم تضمنها لبنود توسع من نطاق السرية المفروضة على الوثائق والمستندات والمعلومات، إما بدعوى حماية أسرار الدولة أو تحت مسوغ صيانة مقتضيات الأمن الوطني أو ما سواها. إنها ثلاثة توجهات أساسية تؤشر بقوة ليس فقط على محدودية سياسات التحرير المعتمدة بهذا البلد العربي أو ذاك، بل أيضًا على سلوك إعادة إنتاج احتكار المجال الإعلامي، حتى وإن بدا الأمر غير ذلك ظاهريًّا، أو على ألسنة وزراء الإعلام.

3. لو تسنَّى لنا أن نصنِّف التجارب العربية في مجال تحرير الإعلام وفق ما أشرنا إليه من معطيات تكنولوجية ومؤسساتية وسياسية، لوقفنا عمومًا عند ثلاثة مشاهد كبرى:

- المشهد الأول: ويتعلق بالنظم السياسية التي تماهت سياساتها الإعلامية مع الطفرة التكنولوجية وتوسع هامش الحريات، والتي عمدت إلى فتح أسواقها المحلية بوجه فاعلين خواص في المجال الإعلامي، مع الإبقاء على احتكار الدولة لقطاع التليفزيون لهذا الاعتبار أو ذاك.

- المشهد الثاني: ويحيل على "نموذج" النظم السياسية التي أبقت على طبيعة إعلامها المحلي في سكونيته ورتابته والمتاريس القانونية والتشريعية المفروضة عليه، لكنها أقامت بموازاة ذلك محطات فضائية (إذاعية وتليفزيونية) تكاد تكون صورة طبق الأصل لما هو قائم على مستوى واقع الحال المحلي، بمقياس طبيعة الرسالة المروَّجة شكلًا ورُوحًا.

- المشهد الثالث: ويعبر على "التجارب" التي عمدت إلى تحرير جزء من مجالها الإعلامي المحلي، لكنها فسحت في المجال لفاعلين آخرين بغاية ركوب ناصية البث الفضائي على مستوى بث وتوزيع الرسالة الإعلامية.

في المشاهد الثلاثة، لا يبدو أن ثمة تمايزًا جوهريًّا يُذكر، اللهم إلا في بعض التفاصيل والجزئيات التي لا تبني للقاعدة بقدر ما تؤسِّس للاستثناء. ولذلك، فإننا نزعم بهذه الورقة، أنه على الرغم من الحراك السياسي القوي الذي واكب طفرة البث الفضائي للعقود الثلاثة الأخيرة، فإن ذلك لا يعود برأينا، إلى انفتاح ما في النظم السياسية بجهة مزيد من الدمقرطة أو نزوع نحو تكريس مزيد من الحريات الإعلامية، بقدر ما هو إفراز لتموجات سياسية محلية وإقليمية ودولية، لا يمكن للمنطقة العربية أن تسلم من أمواجها، ولا أن تبقى بمنأى عن مجرياتها.

إن القول بأن تحرير الإعلام هو سبيل لتحرير المجال السياسي العربي هو قول سليم من الزاوية النظرية الخالصة، لكنه قد لا يستقيم دائمًا من وجهة نظر الممارسة الإعلامية؛ إذ تحرير الإعلام رافد ضروري من روافد تحرير المجال السياسي، لكنه غير كاف إذا لم يكن مصحوبًا بتوافر شروط أخرى، لعل أحدها القبول بالتعددية السياسية، وبالحريات الإعلامية كاملة، وقبل كل هذا وذاك بجدوى الآلية الديمقراطية في التداول على السلطة، وتدبير الاختلاف بين الفرقاء السياسيين فيما بينهم، وفيما بينهم وبين الفاعلين الإعلاميين باعتبارهم الرافعة الثانية للواء العملية الديمقراطية في شكلها كما في جوهرها.

تحرير الإعلام كسبيل لتأثيث "الفضاء العام" العربي

قبل عقد التسعينات من القرن الماضي، كانت معظم وسائل الإعلام والاتصال بالبلدان العربية في ملكية الدولة، وتشتغل تحت رقابتها المباشرة أو بإشراف من لدنها، قد يتسع وقد يضيق حسب الوسيلة وطبيعة الرسالة المراد نشرها وترويجها. فلم تكن الدولة لتعدم السبل في تبرير وضعية الاحتكار هذه؛ إذ غالبًا ما كانت تتذرع بأطروحة "بناء الدولة الوطنية"، أو بادِّعاء "إعادة بناء اللُّحمة الوطنية" التي نجحت عقود الاستعمار أو الحماية في تقويض بعض مفاصلها، أو زرع بذور الفتنة بين مكوناتها (اليحياوي، 2006).

وإذا كانت طفرة تكنولوجيا الإعلام والمعلومات والاتصال قد حملت في طياتها مستجدات إعلامية واتصالية جديدة، من خلال ما مكَّنته الرقمنة وتقنيات البث الفضائي، فإنها قد أفرزت في سياق ذلك أيضًا إرهاصات استنبات "فضاء عام" لم تزده تقنيات الإعلام الجديد إلا سعة ورحابة وبُعد أفق.

1.1 تحرير الإعلام كنتيجة لجدلية علاقته بالسياسة

ليس من الوارد، لا نسبيًّا ولا في المطلق، تصور عملية سياسية بدون عملية إعلامية قائمة بصلبها أو بموازاتها. والواقع أن العلاقة بين طرفي المعادلة هي علاقة جدلية بكل المقاييس، تختلف دائرة التأثر والتأثير بينهما باختلاف طبيعة النظم السياسية القائمة. لا يقتصر الأمر، في هذا الطرح، على الإعلام كمضامين ومحتويات، بل يتعداه إلى مسألتي الاتصال والنظام الاتصالي. إن "النظامين، أي: التواصل والسياسة، كليهما يتأثَّر بالآخر ويؤثِّر فيه، وإن كان التأثير الذي يمارسه النظام السياسي على نظام الاتصال في البلدان النامية بشكل خاص، أكبر من تأثير الاتصال على النظام السياسي" (ماك ناير، (McNair) 2003). من هنا، تتمظهر عملية استقطاب وسائل الإعلام من لدن السلطة السياسية، إمَّا بغرض توظيفها للدعاية، أو من خلال اعتمادها كوسيلة لتجميل صورة هذا النظام السياسي أو ذاك.

يقول راسم الجمَّال عن هذه العملية في السياق العربي: "تتجه السياسات الاتصالية كلها إلى دعم سُلطة النظام القائمة وتوجهاته في المجالات المختلفة، وخدمة مصالحه الحقيقية والمتصورة، على النحو الذي يخدم تماسك النظام وديمومته؛ مما نجم عنه أن اصطبغ مضمون الاتصال في معظم أشكاله في بعض الأقطار بالصبغة الدعائية المباشرة، التي تعزِّز مصالح النظام وأهدافه وتعزِّز المصالح القُطرية وتغرس الولاء لها في عقول الجماهير" (الجمَّال، 1991، ص. 33). في المقابل، أو على النقيض من ذلك، نجد أن وسائل الإعلام (لاسيما الجماهيرية منها كالصحافة المكتوبة والإذاعة والتليفزيون) في البلدان الديمقراطية غالبًا هي التي تمارس ضغطها على النظام السياسي، خاصة عندما يتعلق الأمر بالقضايا ذات البعد الداخلي، في حين أن الأمر يختلف نسبيًّا فيما يخص القضايا الدولية؛ حيث نجد أن النظم السياسية هي التي تمارس ضغطها على وسائل الإعلام، من حيث وظائفها ومضمونها وحجم ما يُفرَد لها.

وعلى هذا الأساس، يرى بعض الباحثين أنه ليس هناك في العديد من الدول العربية، أيديولوجية واحدة للدولة وأخرى لوسائل الإعلام، بل هناك أيديولوجية واحدة وموحَّدة، تحدد الخط السياسي والاقتصادي والاجتماعي للدولة، وتحدد موقف الدولة من الإعلام وأدواره ووظائفه، والمكانة التي من المفروض إيلاؤها إيَّاه في صلب، أو على هامش البنيان العام (زاكي، 2004، ص. 105). بيد أن ثمة من يرى أن العلاقة ما بين الإعلام (ومن ثمة الاتصال) والسياسة يجب أن يُنظر إليها من زاويتين: من زاوية أن وسائل الإعلام هي أداة رقابية وتوجيهية مؤثِّرة في سياسات وقرارات المستويات السياسية، استنادًا إلى المقولة الديمقراطية الشهيرة بأن الإعلام هو السُّلطة الرابعة في الدولة. ومن زاوية أن "السلطة السياسية تمارس الرقابة والتأثير على وسائل الإعلام، لتصبح ضمن أدواتها في تحقيق أهدافها السياسية" (البور، 2012، ص.ص. 7-10). لذلك، فإن العلاقة بين الإعلام والسياسة تبدو وثيقة ومتداخلة إلى حدٍّ بعيد، لدرجة قد يتعذر معها فصل العملية السياسية عن الأنشطة الإعلامية القائمة من بين ظهرانيها أو بموازاة لها. يبرز جانب التأثير والتأثر هنا جليًّا على

مستويين أساسيين اثنين: مستوى فردي خاص يتصل بالقيم والسلوك والإقناع أو التعبئة، ومستوى جماعي عام، يحيل في شكله وفي مضمونه، على التكامل السياسي والالتحام أو التفكك الاجتماعي. من جهة أخرى، وبصرف النظر عن نجاعة وقوة المقاربة "المجتمعية"، فإنه بالإمكان تلمُّس العلاقة بين الإعلام والسياسة من خلال أشكال وأنماط التواصل التي تتم بينهما في الزمان والمكان:

- فالتواصل الشخصي في مجال السياسة "يتيح للفرد إمكانيات اتخاذ قراراته السياسية، كالتصويت مثلًا، بناء على المعلومات والأحاسيس والتأثيرات التي يتلقاها من الخارج، وعلى مدى تأثره بالزخم الإدراكي والتجارب السابقة عن الأشخاص والرموز والأفكار والأحداث من حوله. كما أن وسائل الإعلام والاتصال تلعب دورًا مهمًّا في التوعية والتثقيف السياسيين، من خلال تلقين الأفراد السلوك المرئي والمسموع، وكيفية استجابتهم وتفاعلهم مع ما يدور حولهم من أحداث وقضايا" (اليحياوي، 2015، ص.ص. 68-69).

- ثم إن مَوْسَطة الإعلام من لدن السياسة تمكِّن السياسيين من التواصل مع جمهورهم مباشرة ووجهًا لوجه؛ إذ على الرغم من تحبيذ هؤلاء لوسائل الإعلام الجماهيرية، ذات الصدى الواسع، فإنهم لا يترددون في التواصل عن قرب وبشكل مباشر وحيٍّ لتصريف مشاريعهم أو برامجهم السياسية.

- وهناك الاتصال عبر وسائط الإعلام الجماهيري، والذي يتم من خلال قنوات وسائل الإعلام التقليدية (ومن خلال الشبكات الرقمية في السنوات الأخيرة). تكمن قوة هذه الوسائط في قدرتها على "إيصال الرسائل والخطابات في آن واحد لجمهور واسع، غير معروف، مشتَّت ومتباين. ورغم ما يمكن أن يبدو وكأن هذا الشكل من التواصل الممسوط، هو اتصال خطي في اتجاه واحد، حيث تنعدم التغذية الراجعة، فإن التطور التكنولوجي ألزم هذه الوسائل بتعديل طرقها في توصيل الرسائل، حيث برز ما يسمى بالتواصل التفاعلي، وذلك ضمانًا لمشاركة أكثر وتأثير أقوى" (اليحياوي، ص. 70).

ومع أن هذا النمط من الإعلام هو الطاغي في الممارسة السياسية، فإنه لا يمكن أن يؤتي أكله إلا إذا كان مندمجًا في إطار استراتيجية إعلامية شاملة، يكون على السياسي أن يحددها قبلما يعمد إلى اختيار هذا الحامل أو ذاك.

1.2 الإعلام والسياسة من منظور طبيعة النظام السياسي

ثمة عوامل عدَّة لعبت ولا تزال تلعب دورًا كبيرًا في التأثير على فاعلية العلاقة بين الإعلام والسياسة وعلى طبيعة ذات العلاقة نفسها. ترتبط العوامل إياها بنوعية النظام السياسي وطبيعته وشكل نظام التواصل والإعلام السائد فيه، بالإضافة إلى العوامل العامة التي تؤثر في كل بنية مجتمعية، وأخيرًا العوامل الخارجية، المتمثلة بالأساس في طفرة تكنولوجيا الإعلام والمعلومات والاتصال، وتحديدًا في الطفرة التي طالت الشبكات الرقمية منذ ظهور الإنترنت وإلى حين انتشار شبكات التواصل الاجتماعي.

يجب التذكير، بخصوص هذه النقطة، بأن العالم قد شهد، بعد سقوط جدار برلين و"انتصار الليبرالية"، ثورة ديمقراطية واسعة، تجلَّت في "اندحار معظم الأنظمة الشمولية وانعزال المتبقي منها، وتبنت دول العالم، بما فيها الدول النامية، الممارسة الديمقراطية من خلال اللجوء إلى الانتخابات وصناديق الاقتراع، وكثر الحديث عن الديمقراطية الحزبية ونهاية حكم الحزب الواحد،

والحديث عن حرية وسائل الإعلام والتواصل، من خلال توجه بعض الدول لتوسيع مجال حريتها، فيما فضلت دول أخرى البدء بتنظيم المؤسسات السياسية لديها على أسس ديمقراطية" (زاكي، 2004، ص. 40).

ولذلك، فقد كان لهذا المناخ السياسي الجديد (منذ بداية تسعينات القرن الماضي تحديدًا) أثر كبير على وسائل الإعلام، بنى تحتية وفاعلين وطبيعة أداء. وقد تجلّى ذلك في "رؤية السلطة السياسية لدور المواطن ومدى توافر التنظيمات الشعبية والمجالس النيابية المختلفة ورؤية السلطة للنظام الإعلامي. أما المشاركة التي تمارَس في المجتمعات الغربية، فترتبط بالإطار الدستوري والمؤسسي، الذي يشمل التعدد الحزبي والجماعات المصلحية والبرلمان وأجهزة الحكم المحلي" (دهماني، 1991).

وقد تكرس ذلك على النقيض من فلسفة النظم الشمولية حيث الدولة، ممثلة بنظامها السياسي وتحكمها في وسائل الإعلام والتواصل، هي التي تعمل على إخضاع هذه الأخيرة لتوجهاتها وأهدافها، فيصبح الصحفيون والإعلاميون مجرد موظفين في دوائر الدولة، يعملون على تنفيذ كل ما يطلب منهم، من خلال الدعاية للنظام السائد وإنجازاته، وتجميل صورته أمام الجماهير الداخلية. فـ"الأنظمة غير الديمقراطية في دول العالم الثالث، باستثناءات قليلة، تكون وسائل الإعلام فيها خاضعة للسلطة، ومنفِّذة لتوجهاتها وملبية لأوامرها، وساعية باستمرار لخدمة أهدافها. ولهذا، فإن مثل هذه العلاقة أحادية الجانب، لا تمكِّن وسائل الإعلام من أن تقوم بأي دور أو تسهم في أي حدث، وهو ما ينعكس سلبًا على اتجاهات الجمهور نحوها وتصوره لأدوارها" (عبد الرحمان، 2009). يترتب على ذلك فقدان الجماهير للثقة في السلطة وفي وسائل الإعلام معًا؛ مما يؤدي إلى العزوف السياسي، أو اتجاه الجمهور إلى قنوات التواصل الخارجية الأخرى، للبحث عن المعلومة واستقاء الخبر.

الخلاصة الأولية مما سبق هي القول بأن تنوع الأنظمة السياسية ونظرتها إلى وسائل الإعلام والتواصل، واتساع قاعدة المشاركة السياسية أو ضعفها، والإيمان بالديمقراطية أو انعدامه، واختلاف القوانين الضابطة لوسائل الإعلام والاتصال، كل هذا وغيره يؤثِّر وبشكل مباشر في وعلى الإعلام والتواصل السياسييْن. من جهة أخرى، يُلاحَظ أن أهمية وظائف التواصل السياسي تتأثر بشكل كبير بعوامل تحددها حصرًا طبيعة التنظيم الإعلامي السائد في هذا البلد أو ذاك:

- فهناك تمييز بين نمط الملكية السائد لوسائل الإعلام والتواصل، يتراوح بين مؤمَّم، خاضع للسلطة، وآخر مستقل، تطور مع الزمن إلى إمبراطوريات إعلامية ضخمة، راهنت على البُعد الاقتصادي والربحي على حساب الجوانب الأخرى.

- وهناك تمييز على أساس مصادر التمويل، والتي تؤثِّر على سياسات وسائل الإعلام والاتصال وتوجهاتها العامة والأيديولوجية. ومن هذه المصادر، نجد موارد الإشهار والمساعدات الرسمية وغير الرسمية. أما بالنسبة لوسائل الإعلام التجارية، فإنها تحرص فيما تطرحه من مواضيع وقضايا على عدم معاداة جماهيرها ومعلنيها، كما تتحاشى أن تُظهر تأييدًا قويًّا لسياسة معينة أو أخرى، وبالتالي، تكون متوازنة، بينما تعمل وسائل الإعلام الحكومية على الترويج لسياسات الدولة الداخلية والخارجية.

- وهناك تمييز ينطلق من شكل العلاقة بين وسائل الإعلام ومصادر المعلومات، لاسيما في ظل النظم التي لا تتوفر على قوانين للولوج إلى المعلومات، أو النفاذ إلى مصادرها.

- ثم هناك التمييز القائم على دور الرقابة؛ إذ هي في الدول الغربية، رقابة ذاتية تمارسها المؤسسات الإعلامية على نفسها، دونما حاجة لتدخل مقص الرقيب، عكس الدول النامية حيث يسود التعتيم وإعلام السلطة. إلا أن المؤسسات الإعلامية بالدول الديمقراطية هي في الغالب الأعم، ملك كبار الرأسماليين، هم من "يقرر سياستها وفقًا لخطهم السياسي، وليس هيئة التحرير، وهذا بحدِّ ذاته نوع من أنواع الرقابة المستترة والمفروضة ضمنًا على هذه الوسائل؛ مما يحد من التنوع في الفكر والمحتوى" (شامباني، (Champagne) 1995، ص.ص. 215-229).

1.3 تحرير الفضائيات وتحرر الإعلام من ربقة الحكومات

ليس مهمًّا التوقف هنا عند كيفية تحرر الإعلام من ربقة الحكومات، فقد ألمحنا إلى بعض من أسبابه وأبعاده بمدخل هذه الدراسة. لقد أكدنا على أن العامل التكنولوجي والسياق الدولي كان لهما الدور الأكبر في الدفع بالحكومات بكل دول العالم، بما فيها الدول العربية، إذا لم يكن لرفع يدها مطلقًا عن الإعلام، فعلى الأقل لسَنِّ تشريعات تصب في خانة فتح المجالات الإعلامية أمام فاعلين جدد، وتخفيف الرقابة على وسائل الإعلام المرئية والمسموعة التي عاشت ولعقود طويلة مضت، تحت ضائقة الاحتكار.

لقد لعبت الفضائيات العربية، العمومية والخاصة، الجامعة والمتخصصة، أدوارًا كبيرة ومتزايدة في توجيه الرأي العام العربي، لاسيما بخصوص القضايا القومية الكبرى. لقد بات تأثيرها، بنظر البعض، أكبر من تأثير الحكومات والأحزاب والنقابات وهيئات المجتمع المدني وما سواها، والتي تراجع مدُّها أو انحسر الإقبال عليها، أو تم تطويعها أو تقوضت القدرة من بين ظهرانيها على التجنيد.

إن تحرر الإعلام العربي (معبَّر عنه بانفجار عدد القنوات الفضائية) قد أسهم في اتساع وانتشار وشيوع المضامين الإعلامية، العام منها والمتخصص، بما يفوق قدرة أيِّ حزب سياسي بمقياس ترويج الخطاب ونشر المواقف وإدراك مبتغيات التأثير. بيد أن وظيفة الإعلام في هذه الحالة كما في تلك، تختلف عن تلك المنوطة بالسياسة، ليس فقط من زاوية أفق الاشتغال وطبيعة الرسالة، بل أيضًا بحكم طبيعة الغايات المرتجاة من هذا كما من تلك .ثم إن زمن السياسة ليس بالضرورة هو زمن الإعلام؛ فللأولى الاشتغال بجوهر المنظومة في حين أن للثاني الإخبار العابر، الذي قد لا يترك أثرًا كبيرًا في البنية أو تأثيرًا معتبرًا في السياق.

إن تحرر الإعلام، كنتيجة لطفرة تكنولوجية جامحة ثم لسياق دولي ضاغط، لم يسهم فقط في إفراز هامش من الحرية الإعلامية التي لطالما صودرت على خلفية من هذا الاعتبار أو ذاك، بل أسهم بقوة في استنبات فضاء يستطيع المرء أن يميز في صلبه بين الخطاب السياسي للحكومات أو للأحزاب، وبين الخطاب الإعلامي الذي تمرر له هذه المحطة التليفزيونية أو تلك. لقد بدا الأمر، بهذه الجزئية، كما لو أننا بإزاء توزيع جديد للوظائف بين المجالين، حتى وإن كانت لهما نفس الوظائف ونفس التطلعات: التأثير ثم إعادة بناء الرأي العام وفق هذه الزاوية أو تلك. وهو ما بدا واضحًا في البدايات الأولى للحراك العربي الذي انطلق في بداية العام 2011؛ حيث تم تثبيت حقيقة أن الديمقراطية (أو الانتقال الديمقراطي) يستوجب توافر "فضاء عام" تُطرح من بين ظهرانيه وتُناقش المشاكل والقضايا الجوهرية (اليحياوي، (2015، ص.ص. 107-118).

2. الإعلام والمجال السياسي والفضاء العام

لو سلَّمنا فرضًا بأن ثمة علاقة جدلية بين الإعلام والسياسة، فإننا سنسلِّم حتمًا بأن أي فعل على أحدهما سيترتب عنه تأثير مؤكد ومن نوع ما على الآخر. ولذلك، فإن توسيع مجال الفعل الإعلامي من شأنه أن يفرز سعة على مستوى الفعل السياسي والعكس بالعكس. بيد أن هذا الاستنتاج لا يمكن أن يقوم، فما بالك أن يستقيم، إلا بتوافر حدٍّ أدنى من الاستقلالية من بين ظهراني المعادلة، أي: الإعلام والسياسة، باعتبارهما حقلين متمايزين حتى وإن كانا متداخليْن بهذا الشكل أو ذاك. إنهما يصبان معًا في معين سعة الفضاء العام، باعتباره ذاك المجال "المادي" الذي يتبارى من بين ظهرانيه الفاعلون على أساس من تدافع الآراء والأفكار والتمثلات والتصورات.

وإذا كان الفضاء العام، في تشكلاته الأولى، مقتصرًا على نخبة محدودة، متنورة ومتناسقة على المستوى الاجتماعي والثقافي، تتناقش فيما بينها بفضل توافر صحافة مكتوبة نخبوية، فإنه قد بات، زمن انتشار وسائل الإعلام الجماهيرية، مؤشرًا حقيقيًّا على تقدم أشكال الديمقراطية الجماهيرية؛ حيث حرية الانتخاب والتوسع المستمر للحقل السياسي، ومأسسة وظائف الدولة الكبرى والقدرة على تدبير الاختلاف والتدافع وإمكانية مَوْسَطة وسائل الإعلام والاتصال كأداة لمخاطبة الجماهير... إلخ.

2.1 الإعلام والفضاء العام الإعلامي

إن إحدى ميزات "ديمقراطية الجماهير" التي ترتبت على تراجع النظم الكليانية وتَقَوِّي السُّلَط المضادة بكل أنواعها وأشكالها، هي المكانة المتميزة التي تعود لوسائل الإعلام والاتصال في صلبها. لا، بل إن وجود هذه الأخيرة هو من الشروط الأساسية لتشكيل مفاصل الممارسة السياسية وتأثيث المشهد الديمقراطي بوجه عام.

يعبِّر دومينيك فولتون عن هذه العلاقة من خلال توظيفه لمفهوم "الفضاء العام الإعلامي" (فولتون، (Wolton) 1991)، باعتباره مكمن تقدم العلاقات الرمزية بالمقارنة مع العلاقات المادية المباشرة. إنه يحيل، في نظره، على "مجتمع مفتوح، مدني، تتميز العلاقات الاجتماعية بداخله بالقيمة المركزية للفرد، سواء على مستوى العمل أو على مستوى نمط الاستهلاك" (فولتون، 1991، ص. 97).

التناقض الجوهري الذي يبرز هنا، لاسيما في ظل الأنماط السياسية التي تراهن على الفرد، يكمن في الأولوية المعطاة للأدوات التي تسهِّل مبادئ التعبير وتخليص الفرد وتقييم الهوية من ناحية، ومراهنة المجتمع اقتصاديًّا وثقافيًّا وسياسيًّا على العدد (مواطنين، مستهلكين أو مشاركين في النقاش العمومي)، من ناحية أخرى. لذلك، نجد أن فولتون يلح على ضرورة توافر فضاء عام موسع، لكي لا تتحول هذه التناقضات البنيوية إلى احتقان، ثم إلى احتراب، ثم إلى تدافع يكون العنف خيطه الناظم. بالتالي، فإن هذا الفضاء العام المموسَط إعلاميًّا، يمنح الصحافة ووسائل الإعلام المسموعة والمرئية، دورًا بارزًا باعتبارها أداة إخبار وتواصل، ومن ثمة رافعة لتأثيث أبعاد النقاش الذي يدور بين أضلعه.

عندما يكون هذا الفضاء العام واسع الجنبات، مكتنزًا بمختلف أنواع وأشكال المعلومات والآراء، فإنه يؤسس بذلك لبنية تحتية تدفع بجهة توسيع المجال السياسي ذاته، لا على مستوى أعداد الفرقاء المتواجدين به، بل أيضًا على مستوى تيارات الأفكار والرموز والتمثلات التي تُطرح ويتم التداول بشأنها. وعلى هذا الأساس، فإن هذا الفضاء العام المموسط إعلاميًّا، إنما يحمل ميزات ومميزات

"المجتمع الفرداني"، حيث الحرية والتعددية الإعلامية من جهة، ثم القيمة الموكولة للفرد من ناحية ثانية، باعتباره محور العملية السياسية، أداتها ومصبها بالمحصلة النهائية. بيد أننا نلحظ أن هذا الفضاء العام المموسط إعلاميًّا غالبًا ما تخترقه بعض المفارقات عندما يُستقرأ على ضوء الممارسة السياسية (فولتون،1991، ص. 99):

- أول مفارقة جوهرية تتمثل في سطوة الخبر واختزال الزمن في كل ما هو آني ومباشر وعابر. لقد قلنا، بهذا الخصوص: إن هذا المعطى الجديد هو نتاج مزدوج للطفرة التكنولوجية ولاتساع المجال السياسي بعد تراجع المنظومة الكليانية و"انتصار" المرجعية الليبرالية في الاقتصاد والسياسة. المفارقة هنا، لاسيما في حال تحرر "السوق الإعلامية"، تكمن في أن السياسة مطالَبة، كي لا نقول مجبرة، بمجاراة منطق السرعة والآنية، وفي أن الفاعلين السياسيين مطالَبون، هم بدورهم، بالتكيف مع غزارة في المعلومات لا تتماشى دائمًا وما يحتاجه الفضاء العام لضمان التدافع الديمقراطي. ولذلك، فإن التحرير الذي يطول مجال الإعلام هنا، على محك المعطيات المتحدَّث عنها سابقًا، قد لا يفرز بالضرورة اتساعًا في المجال العام، حيث تتم الممارسة السياسية، لأن هذه الأخيرة تراهن على الزمن الطويل ولا تتماهى دائمًا مع سطوة المعلومة وغزارتها.

- ثاني مفارقة للفضاء العام المموسط إعلاميًّا مع الممارسة السياسية، وتحيل على التمثل الذي تمرر له وسائل الإعلام والاتصال في فضاء عام ما ويلتقطه الفاعلون السياسيون ويحولونه إلى أداة من أدوات فعلهم اليومي. القصد، بخصوص هذه المفارقة، هو القول بأن توافر أحجام ضخمة من المعلومات، متأتيًا من مجال إعلامي محرَّر، لا يعني أنه سيكون من شأن هذه المعلومات تزويد الفاعلين السياسيين بالمعرفة الضرورية لفهم الواقع. المعرفة تستوجب بدورها مدى زمنيًّا بعيدًا حتى يكون بإمكان المعلومات أن تختمر في ظل صيرورتها وتتحول إلى معارف قارَّة، ويكون بالإمكان البناء عليها لتأثيث فضاء النقاش والتداول.

- ثالث مفارقة ومفادها حقيقة أنه بقدر سعة اطِّلاع النخب السياسية (والثقافية والاقتصادية) بفضل وفرة المعلومات، بقدر بعدها عن ملامسة الواقع مباشرة. يبدو الأمر هنا كما لو أن ضخامة حجم المعلومات وارتكان النخب للبناء عليها، تخفي على هذه الأخيرة مجريات ما يقع بأرض الواقع. بالتالي، فإن كل أشكال النقاش والتداول تبقى حصرًا وحكرًا على هذه النخب، ولا تتعداها إلا نسبيًّا لتطول كل مفاصل الفضاء العام.

2.2 الفضاء العام والمجال السياسي و"الديمقراطية الجماهيرية"

بقدر ما يكون المجال السياسي مفتوحًا وواسعًا ووسائل الإعلام متعددة ومتنوعة، بقدر انفتاح وسعة الفضاء العام الذي تتقاطع فيه الرؤى والأفكار والتمثلات، وبقدر اتساع المجال الذي يعتمل فيه الفعل السياسي باعتباره رافدًا من روافد الديمقراطية.

تلتقي المستويات الثلاثة (الفضاء العام والمجال السياسي والديمقراطية الجماهيرية) في أكثر من نقطة بحكم طبيعة الوظيفة وآليات الاشتغال، لكنها قد تتنافر بقوة عندما يتسع مجال كل واحد منها كثيرًا أو يقتص لنفسه فضاءات إضافية على حساب الآخرين. ولذلك، فإن تحرير الإعلام في ظل مجال سياسي مفتوح وواسع إنما يستوجب حدًّا أدنى من التنظيم والتقنين والتأطير؛ فإذا كان الفضاء العام هو المجال المركزي للديمقراطية على مستوى تداول وتبادل الرسائل والمعلومات، فإنه بحاجة إلى

تنظيم وتوزيع للأدوار (بين وسائل الإعلام العمومية والخاصة من ناحية، وبين وسائل الإعلام العامة والمتخصصة من ناحية ثانية)، وذلك للحيلولة دون عدم توازن التواصل بداخل ذات الفضاء.

لا يرتبط الأمر هنا فقط بضمان الحدِّ الأدنى من النسقية بين سوق إعلامية محررة و"سوق سياسية" مفتوحة، بل أيضًا بضرورة صيانة القواعد الأساسية التي تضمن سريان مبادئ المصلحة العامة، وتحول دون هيمنة فاعل أو سطوة مستوى من المستويات؛ فالمحطات العمومية مثلًا قد لا تكون دائمًا وفية لمبادئ المرفق العام، تمامًا كما أن المحطات الخاصة قد لا تكون بالضرورة مؤسسات تجارية تتغيَّا الإنتاجية والربح. بالتالي، فليس من الدقة في شيء أن نستبعد اعتبارات المصلحة العامة عندما نتحدث عن الدور المحوري لوسائل الإعلام وللرأي الحر في الفضاء العام.

القصد هنا يحيل على الحق في التعبير، وذلك كي لا يتم الخلط بين التعبير والاتصال، وهما مستويان مختلفان. إن حرية الاتصال، يقول فولتون، "تُختزل دائمًا في مطلب التعبير دونما أخذ رأي الآخر بعين الاعتبار. إن الذي نسميه تواصلًا لا يعدو كونه مطالبة بالحق في التعبير. بيد أن التعبير لا يمكن أن يقوم دون الآخر، وهذا الآخر قد يكون لديه شيئ يقوله وليس فقط يسمعه... إن حرية الاتصال يجب أن تكون مصحوبة بهذ الشرط: يجب ألا نقتصر على الحق في التعبير، بل أن نعترف بأنه في أي مسلسل اتصال، ثمة على الأقل مخاطبون، وأن للآخر دائمًا شيئًا يودُّ قوله وليس دائمًا تلقيه. الإكراه هنا هو شرط من شروط الحرية" (فولتون، 1991، ص. 102).

وعلى هذا الأساس، فإن تحرير المجال الإعلامي (كما تحرير المجال السياسي سواء بسواء) لا يمكن أن يقوم أو يستقيم دون إعادة تقنين أو تنظيم أو تأطير، أي دون إكراه حسب منطوق فولتون؛ إذ إن حرية الإعلام -ومن ثمة حرية الاتصال- ستفرز بالقطع تعددية في الصناعات الإعلامية وفي آليات المعالجة والمقاربة، بيد أن خلف هذه الصناعات يثوي مواطنون وقيم ورهانات كبرى، تتجاوز الصناعات إياها، لا بل إنها من خاصيات أخرى. بالتالي، فإن الإعلام والاتصال ليسا دائمًا تقنيات ورسائل تُبعث وتُستلم، بل هما بالأساس أداتان لربط المواطنين والمجموعات البشرية التي تتداول وتناقش وتتقاسم الأفكار والرؤى والتصورات. إنها "كائنات" تتواصل في إطار فضاء عام يتقاطع بصلبه السياسي، بالاقتصادي، بالثقافي، بالديني بالعقائدي. هو فضاء تتقاسمه تناقضات جمة، لا يمكن أن تتعايش وتتساكن إذا لم يتم إعمال مبدأ الإكراه للجمها وتحديد سقفها ومداها بدقة. غير أن الحالات التي يتحول تحرير الإعلام بمقتضاها إلى هيمنة إعلامية متقدمة غالبًا ما تحد من هذا التنوع، لأنها لا تتماهى معه بقدر ما تتماهى مع التنميط والقولبة والصهر في إطار منظومات "موحدة". ولذلك، فحتى وإن لم يذهب هذا التنميط لحد فرض قيم وتمثلات وسائل الإعلام والاتصال، فإن هذه الأخيرة لا تعكس إلا نادرًا ما يموج بالمجتمع ولا تعمل هذه الوسائل، أو لا تجد مصلحة في عكسها أو تقييمها أو طرحها بالفضاء العام.

2.3 المجال السياسي كآلية إعلامية

ليس ثمة، في الديمقراطية، فاصل بين الفعل والاتصال؛ إذ على رجال السياسة أن يفسِّروا ويبرروا قراراتهم ليس فقط لإعطائها الشرعية الشعبية المرجوة، بل أيضًا لضمان سبل انتخابهم أو إعادة انتخابهم. هو معطى جوهري قديم، لكن انتشار وسائل الإعلام الجماهيرية أعطاه بُعدًا أكبر لدرجة تم معها وضع تماهٍ تام بين الفعل السياسي والاتصال. لقد بات ثابتًا، وإلى حدٍّ ما، أن توظيف وسائل الإعلام والاتصال (التليفزيون تحديدًا وشبكات التواصل الاجتماعي بالوقت الحاضر) هو مدخل

ضروري لإقناع الجماهير والتأثير على الرأي العام، لا بل إن وسائل الإعلام والاتصال ذاتها لا تمل من التشديد على رجال السياسة بأن "يتكلموا أكثر" على خلفية من الإيمان بحق المواطنين في المعرفة والاطِّلاع. ولذلك نجد أن العديد من رجال السياسة (بالغرب تحديدًا) يخصصون ما بين 20-40 بالمئة من أوقاتهم لصياغة استراتيجيات لهم في الإعلام والاتصال، إذا لم يكن بغرض تهيئة حملاتهم الانتخابية، فعلى الأقل لتحسين صورتهم لدى الرأي العام.

إن شعار رجال السياسة، لدى ولوجهم المجال الإعلامي، هو "الكلام بكثرة" أو تفويض آخرين للحديث بالنيابة عنهم. إنه السبيل الأنجع لولوج فضاء عام يتجاذبه "كلام" كثير ويتقاذفه العديد من الأفكار والآراء والرسائل. إن الفعل في المجال السياسي يستوجب إعمال خطاب بمفاتيح واضحة، وذلك كي تُحل التجاذبات على أساس تواصلي، وليس على خلفية من استحضار وإعمال العنف. ولذلك، فإن الانتقال من العنف إلى المواجهة السلمية هو دليل نضج سياسي؛ إذ يقاس التطور الديمقراطي، من بين ظهرانيه، من خلال ما يُطرح ويناقش بالفضاء العام، لا بما سواه من فضاءات. ولذلك، فإن وظيفة الإعلام والاتصال، لاسيما عندما تتزامن مع توسيع المجال السياسي، التخفيف من المواجهات المرتكِزة على العنف والتطاحن الماديْن وإعمال مبدأ التدافع بفضاء عام، من المفروض أن يعكس مجرياته إعلام محرَّر وحر.

3. استنتاجات وعبر بالنسبة إلى الإعلام العربي

جدلية العلاقة بين الإعلام والسياسة بالوطن العربي لا تختلف عن تلك التي قدمنا لها بخصوص تموجاتها بالدول الديمقراطية، أو كما بدت لنا من الناحية النظرية الخالصة. قد يختلف السياقان من حيث الدرجة، لكنهما لا يتمايزان كثيرًا من حيث الطبيعة والخاصيات. ولذلك، فإننا نزعم أن إشكالية تحرير الإعلام المحيلة صوبًا على تحرير المجال السياسي، إنما تفيد بداهة بوجود روابط موجبة وأخرى سالبة، حسب السياق الذي تعتمل فيه تلك الروابط:

- أولًا: لكي تكون العلاقة موجبة، فإنه لابد من توافر بنيان عام (أشرنا إليه بالفضاء العام في هذه الورقة) يتبارى من بين أضلعه فرقاء بمجالات فعل مفتوحة ومحررة، ولا يأتيها الإكراه إلا من باب إعادة التقنين والتنظيم والتأطير، أو لنقل: من باب تحديد قواعد اللعب. إن وجود سوق إعلامية حرة، وفق هذه الصيغة، يمكن أن يسهم (أقول: يسهم) في انفتاح "السوق السياسية"، حكومات وأحزابًا ونقابات، كشرط ضروري، لكنه لن يكون كافيًا إذا كان ذات الانفتاح عصيًّا أو مراقَبًا أو لا تتوفر القابلية لدى الثاوين خلفه لفتح مجاله بما يكفي.

- ثانيًا: لو سلَّمنا بقدرة تحرير الإعلام على تحرير المجال السياسي (العربي وغير العربي)، فهذا يستوجب منَّا التسليم باستقلالية المستويين معًا، وإلا لما استقام الحديث عن فعل وعن فاعل. فالمستوى السياسي هو العنصر الأساس لتأثيث الفضاء العام، وهذا الأخير لا يمكن أن يكون بنيانًا للنقاش والتباري إذا لم "يَسْقِهِ" المستوى الإعلامي بالمعلومات والبيانات والمعطيات والمعارف وما سواها. إن طفرة تكنولوجيا الإعلام والمعلومات والاتصال لم تسهم فقط في توفير ما يحتاجه الفضاء العام من معلومات، بل أسهمت أكثر في سهولة النفاذ إليها، على النقيض من وضعية زمن الندرة الذي كان يثوي خلف لا توازنات كمية ونوعية بين الفاعلين.

- ثالثًا: عندما يكون المجال السياسي مفتوحًا والفضاء الإعلامي محررًا، فإن دور الرأي العام يكون وازنًا وذا قيمة تأثيرية كبرى. لا يستطيع الفاعل السياسي ولا الإعلامي والحالة هاته، أن يعمدا إلى استراتيجيات التنميط والقولبة. توفُّر المعلومات يتيح لمكونات الرأي العام أن تميز وتقارن وتختار. وبقدر وجاهة الروابط الموجبة، فإن ثمة بالوطن العربي، عناصر سالبة تحول دون أن تأخذ الجدلية إياها شكلها ومضمونها:

- فالمجال السياسي العربي لا يزال، بوجه عام، إذا لم يكن مغلقًا تمام الإغلاق، فهو محاصَر من لدن هذا المستوى المادي أو الرمزي أو ذاك. بالتالي، فحتى بالتحرر النسبي للفضاء الإعلامي، فإن الجدلية تبقى مرتهنة ورهينةَ اعتبارات لا يستطيع الفاعلون تجاوزها. لذلك نجد بدول عربية عديدة مجالًا إعلاميًّا مفتوحًا، لكنه لا يستطيع الإسهام في "تحريك "سكونية المشهد السياسي. يعطي هذا الأمر انطباعًا باستقلاليةٍ ما بين المجالين، لكنها استقلالية سلبية ما دامت لا تصب في خانة التأثير والفعل.

- ثم إن المجال السياسي لا يزال يشكو من تعذر سبل استتبات فضاء عام تُخصَّص مساحاته للتباري الحر، والتدافع بالارتكاز على تباين الأفكار والرؤى والتصورات والتمثلات، دون أن يذهب الأمر لحد تناقضها وتنافرها. لذلك، نجد أن ما يسميه فولتون بالإكراه (وهو معطى موجَب بنظره) يتحول إلى تضييق للخناق على الفرقاء، الإعلاميين والسياسيين سواء بسواء، وذلك من خلال تجميد بنود الدساتير الدافعة بذلك وتصريفها على شكل قوانين وتشريعات تضيِّق المجال وتعمد إلى إعمال لوائح الرقابة والحصار.

- أما الرأي العام، فيبقى "ظاهرة" هلامية، ومفردة سوسيولوجية مجردة وغير ذات معنى كبير. قد نُسلِّم بكونه بات أكثر اطلاعًا على مجريات الأمور، بفضل وفرة المعلومات ويسر بلوغها، لكنه يبقى مقابل ذلك، مستوى من المستويات التي لا يُرتكَن إليها إلا نادرًا عند اتخاذ القرار.

نعود ونؤكد أن تحرير الإعلام لا يمكن أن يكون سبيلًا لتحرير المجال السياسي العربي إلا إذا تم الوعي بأن المستويين معًا هما المدخل لتأثيث الفضاء العام وفسح المجال أمام تكريس القيم الديمقراطية؛ إذ المأمول شيء وواقع الحال شيء آخر.

المراجع

المراجع العربية

العبدلاوي، عبد الكريم، محمد حسن، عصام الدين وآخرون، **الإعلام في العالم العربي بين التحرير وإعادة إنتاج الهيمنة: دراسات في البث الإعلامي في الأردن ومصر والمغرب،** مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، القاهرة، 2005، ص.ص. 12-33 .

اليحياوي ، يحيى، **حصار الإعلام،** منشورات عكاظ، الرباط، 2006.

الجمال، راسم محمد، **الاتصال والإعلام في الوطن العربي،** مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991، ص. 30.

اليحياوي، يحيى، **في الإعلام والسياسة والأخلاق،** منشورات عكاظ، الرباط، 2015، ص.ص. 68.

المصدر السابق، ص. 70.

عبد الرحمن، عواطف، **العلاقة بين الإعلاميين والسياسيين في الوطن العربي،** سلسلة عالم الفكر، المجلد 23، العدد 1-2، الكويت، 2009.

اليحياوي، **في الإعلام والسياسة والأخلاق،** ص.ص. 107-118.

المراجع بلغات أجنبية

El Yahyaoui, Y, *Les Télécommunications à l'Epreuve des Mutations: Etat, Monopole, Déréglementation et Concurrence*, Okad, Rabat, 1995.

McNair, Brian, *An Introduction to Political Communication,* Routledge, London, 2003.

Zaki, A, *Aspects de la Communication Politique au Maroc*, Okad, Rabat, 2004, p. 105.

El Bour, Hamida, *Introduction à 'Médias Publics Arabes et Transitions Démocratiques'*, Actes du Colloque International du 26-27 Avril, Tunis, 2012, pp. 7-10.

Zaki, *Aspects de la Communication Politique,* p. 40.

Dahmani, B. *La Médiatisation de la Communication Politique*, Mémoire DES en Sciences Politiques, Université Sidi Mohamed Ben Abdellah, Fès, 1991.

Champagne, P. *La Double Dépendance: Quelques Remarques sur les Rapports entre les Champs Politique, Economique et Journalistique,* Hermès, 17-18, 1995, pp. 215-229.

Wolton, D. *Les Contradictions de l'Espace Public Médiatisé*, Hermès, 10, 1991.

الربيع العربي:

كيف نقرأ تأثير الجزيرة على مجرياته؟

منجي المبروكي
باحث في علوم الاتصال والإعلام بجامعة سوسة، تونس

مقدمة

إنّ العلاقة بين قناة الجزيرة الإخباريّة وثورات الربيع العربي علاقة ذات خصوصية لا شبيه لها مقارنة بأي فضائية أخرى عربية كانت أو غير عربية؛ ذلك أنّ تلك الثورات هي نتيجة ما تحمّلته الشعوب الثائرة من تعسّف واستبداد وغبن وحرمان، شمل فئات اجتماعية واسعة طيلة عقود. ولم تكن الجزيرة منذ نشأتها بعيدة عن تلك المشاغل والمظالم، بل كثيرا ما كان اهتمامها جوهره تلك المشاغل، وهو ما كان سببا لشنّ حملات متواصلة ضدّها، وصلت حدّ التنسيق بين الأنظمة العربيّة من أجل استصدار تشريعات واعتماد آليات تضيّق منسوب حريّة تناول الجزيرة لمظاهر الفساد والتعدّي على حقوق الشعوب العربيّة. لتلك الاعتبارات كانت الجزيرة مرشّحة قبل أي منبر إعلاميّ آخر لأن تكون قريبة من أي تحرّك احتجاجي أو انتفاضات اجتماعيّة، خاصّة إذا اتّسع نطاقها وشهدت مشاركة شعبيّة واسعة؛ وليس أدلّ على ذلك من أنّه عند بداية أحداث سيدي بوزيد أواخر ديسمبر 2010، وانتشارها سريعا في الولايات المجاورة لتتّسع خلال ثلاثة أسابيع نحو أغلب ولايات (محافظات) البلاد، عندها كانت تغطيات الجزيرة رغم حظر عمل مراسليها في تونس من أنشط التغطيات التي استقطبت اهتمام الرأي العام المحلّي والعربي العالمي (زخور (Zakhour)، 2011، ص. 216). ولم يكن أداؤها مختلفا فيما تتالى من انتشار للاحتجاجات بتاريخ 28 ديسمبر 2010 في الجزائر و14 يناير 2011 في الأردن و17 يناير في كلّ من موريتانيا وعُمَان و 18 يناير في اليمن و 21 يناير في العربيّة السعوديّة و24 يناير في لبنان و25 يناير في مصر و26 يناير في سوريا وفي 28 يناير في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة بالضفّة الغربيّة و30 يناير بالسودان و1 فبراير في جيبوتي و4 فبراير في البحرين وغيرها (غيدار (Guidère)، 2012، ص.ص. 13-14).

لقد سجلّت مواكبة الجزيرة لتطوّر مجريات الربيع العربي جدلا واسعا، تراوح ما بين التنويه باحتضانها النوعي لتلك الثورات، عبر إفرادها ببرمجة خاصّة تتفرّغ لها نشراتها الإخباريّة وبرامجها الحواريّة، وما بين اتهامها بالنفخ في تلك الأحداث ومحاولة نشر عدواها بين المناطق والدول، والنّظر لها على أنّها قناة تصنع الانتفاضات والثورات بدل الاكتفاء بتغطيتها. إنّ استقراء تأثير الجزيرة على مجريات الربيع العربي لا تتّضح دلالاته إلاّ عبر استعراض كرونولوجي لكيفيّة تعاطيها مع الثورات العربيّة، عبر تتبّع الأطوار الثلاثة الكبرى التي مرّت بها (ما قبل وأثناء وما بعد):

- الطور الأوّل: دور الجزيرة في التمهيد لثورات الربيع العربي.
- الطور الثاني: أشكال تغطية الجزيرة لمجريات الثورات العربيّة.
- الطور الثالث: تداعيات تلك الثورات وما ارتدّ منها على دور الجزيرة ومكانتها.

وسنعتمد في استقرائنا لتلك الأطوار الثلاثة على ما تتيحه الدراسات المختصّة من معطيات، وشهادات وإحصائيات؛ كما نستثمر بعض نتائج مقابلات شخصيّة أجريناها مع عدد من الفاعلين في قناة الجزيرة خلال زيارتنا للعاصمة القطريّة الدوحة سنتي 2011 و2013.

1- دور الجزيرة في التمهيد لثورات الربيع العربي:

يعتبر مارك لييننش (Marc Lynch) أنّ تطوّر الحقل الإعلاميّ في الشّرق الأوسط، مكّن من بداية تشكيل فضاء عامّ عربيّ، نتج عنه تدريجيّا نوع من الوعي المشترك، وتبلور اتّجاهات ترفع من انتظارات الجمهور نحو مطالب التّغيير، وتضغط من أجل أن يستجاب لتلك الانتظارات فتُؤْخَذ بعين الاعتبار في رسم سياسات الحكومات وخياراتها (لينش، 2006، ص. 3).

وقد كان للجزيرة دور فاعل في عمليّة التطوير التي أشار إليها "لينش"، فهي لم تمتثل لكلّ التقاليد والضّوابط الخليجيّة والعربيّة في نمط خطابها الإعلاميّ. إذ أنّها رفعت منسوب حريّة التّعبير بشكل أزعج كلّ الأنظمة العربيّة، وليس الخليجيّة فحسب، كما أنّ اختياراتها ركّزت على الشّأن العربيّ والعالميّ. ثمّ إنّ شعارها كان استفزازيّا للنّمط الإعلامي السّائد، حين بنت خطابها على "الرّأي والرّأي الآخر"؛ لأنّ ذلك أفضى عمليّا إلى فتح منبر الجزيرة للمعارضات العربيّة التي كانت دوما محاصرة ومعزولة، (سيب (Seib)، 2011، ص. 169)، بما في ذلك التيّارات الإسلاميّة التي كان حظرها يجد مسوّغات عربيّة وغربيّة.

لقد كانت قناة الجزيرة الإخباريّة سبّاقة في إنتاج البرامج الحواريّة السياسيّة التي نوّعت في أشكالها لتستوعب الحوار المبني على الاستضافة الواحدة (monologue) مثل برامج "لقاء خاص" أو "بلا حدود"، والحوار بين شخصيتين (dialogue) مثل برنامج "الاتجاه المعاكس"، والحوار بين ثلاث شخصيات مثل برنامج " أكثر من رأي"، والحوار بين أكثر من ثلاثة ضيوف مثل برنامج "حوار مفتوح". كما أنّ أهمّ برامجها لا تُبَثّ بالضرورة من استوديوهاتها المركزيّة، بل أُعطِيَت فيها المبادرة لمكاتبها في عواصم أخرى (واشنطن، ولندن، وبيروت، وباريس وغيرها) ، مع انتقال برامج أخرى خارج الدوحة كلّما اقتضت طبيعة الأحداث أو الشخصيات المستضافة ذلك (من القاهرة أو الرباط أو موسكو أو أنقرة أو طرابلس أو غيرها). كما أنّها تعتمد استقبال ضيوفها عبر الأقمار الصناعيّة، علاوة على انتشار مراسليها في أهم العواصم العالميّة، وعلى مقربة من أهم المناطق الساخنة حيث النزاعات أو الأحداث الهامّة، وهو ما يسمح لها بتعزيز نشراتها وبرامجها بالنّقل المباشر للأحداث، وتحقيق السبق في الوصول إلى مناطق وقوعها، وتأمين شهادات حيّة حولها، قبل تناولها بالتفسير والتحليل والتعقيب من طرف الخبراء والمختصّين والمحلّلين (غريب ومنصور، 2000، ص.ص. 24-25).

فبعد أن احتكرت CNN تغطية حرب الخليج الثّانية على العراق سنة 1991، غيّرت الجزيرة ومن بعدها العربيّة وأبو ظبي وغيرها من القنوات العربيّة موازين استخدام وسائل الإعلام في الحروب سواء في العراق أو أفغانستان، أو في حرب تحرير جنوب لبنان، أو في ردّ المقاومة على استهداف غزّة، أو تغطية الانتفاضات الفلسطينيّة المتعاقبة. فأصبح للعرب عيون يرون بها الحروب والأحداث الكبرى، حتّى إنّهم حقّقوا كفايتهم من مصادر المعلومات العربيّة عن الأحداث الكبرى في المنطقة، بدليل أن أهم عمليات سبر الآراء تضع الجزيرة كمصدر أوّل للأخبار لدى عشرات الملايين من العرب (الحويّك، 2013، ص. 78). وهو ما يفسّر تنافس أهم العواصم العالميّة على بعث قنوات ناطقة باللغة العربيّة، وهو تنافس لا يخفي حرص تلك العواصم على التّقليص من نفوذ الجزيرة ومن تأثيرها على الرّأي العام العربي (لملوم، 2004، ص. 134)

لقد استفادت علاقة الجزيرة بجمهورها، من خصوصيّة الإرسال الفضائي وما طرأ عليه من تطورات يسّرت عبور الحدود، وهو ما جعل منها منذ نشأتها، وبناء على اختيار القيادة القطريّة الراعية لها، قناة عربيّة في توجّهاتها واختياراتها، وفي امتداد جمهورها في أوصال المنطقة العربيّة، وحتّى لدى المغتربين من جالياتها في المهجر. فقد سعت إلى "التقاط المشاعر السياسيّة العابرة للوطن العربي، عبر الاهتمام بالقضايا العربية المشتركة كالقضية الفلسطينية، والهيمنة الأميركية على المنطقة، والفساد السياسي والاقتصادي المستشري في جلّ الأقطار العربيّة إن لم تكن كلّها" (العويفي، 2013). وقد عرّت الجزيرة، وعاضدتها فضائيات عربيّة أخرى، ما كان

مخفيّا ويعتّم عليه الإعلام العربيّ الرّسمي من غبن تعيشه الشعوب العربيّة، ليس فقط بسبب تسلّط حكّامها، وامتهان شعوبهم وعدم احترام إرادتهم ولا إشراكهم في الشأن العام فحسب، بل بسبب الانتهاكات التي تمارسها القوى الاستعماريّة قديمها وجديدها، واستغلالها لثروات المنطقة وكلّ مقدّراتها، واستمرار الاستعمار المباشر لفلسطين وهضبة الجولان، كحالة استعماريّة نشاز في العالم.

وقد كانت الحرب الأميركية على العراق بعد الحصار والاستنزاف في أواخر التسعينات، ثمّ توسّع مقاومة الاحتلال الإسرائيلي من جنوب لبنان فالانتفاضات الفلسطينيّة وحروب غزّة أهم الأحداث التي أبرزت هوية الجزيرة وتوجّهاتها الإخباريّة المنفردة في المنطقة العربيّة. كما مثّلت أحداث 11 سبتمبر 2001 منعرجا في تاريخ المنطقة العربية وفي بروز الجزيرة، فقد اكتشفت الولايات المتحدة، بمناسبة تلك الأحداث، مدى فشل الحكومات العربية التي تتحالف مع حكّامها وتسندهم، في رصد وضبط الرأي العام في دولهم؛ خاصّة إزاء موجة العداء الشعبي للسياسة الخارجية الأميركية تجاه العرب. وكانت المفاجأة الصادمة للإدارة الأميركية حين اكتشفت أنّ منفذي تلك الأحداث ينتمون إلى ثلاث دول عربية هي الأكثر ولاء لها وتحالفا معها، ولم يمنع ذلك تورّط رعاياها في تلك العمليات (العويفي، 2005، ص.ص. 45-47). لقد كان الدرس شديد الوضوح، فبقدر ما تتحكّم الولايات المتحدة في عدد هامّ من الحكّام العرب وتمارس عليهم الضغوط فيستجيبون لمصالحها، بقدر ما تفقد السيطرة على الرأي العام الساخط عليها (رايس (Rice) 2005). وقد كان خطاب الجزيرة يزيد ذلك السّخط استعارا بما تبرزه من استمرار تدهور الوضع العربي سواء عبر التّعديات الخارجيّة (الأميركية والصهيونيّة وغيرها)، أو عبر تفاقم الفساد والاستبداد الذي يسم علاقة الأنظمة العربيّة بشعوبها.
تمثّل عمليّة إدارة الرأي العام الوطني، من قبل الحكومات العربية أو الفاعلين الخارجيين، موضوع استعصاء وصعوبة تتفاقم باستمرار، خاصّة مع بداية تشكّل رأي عامّ عربيّ مشترك يكتسح جميع البلدان العربية، بفضل ظهور الفضائيات العربيّة العابرة للحدود القُطْريّة وتطوّرها بريادة الجزيرة (شليفر (Schleifer)، 1999). لقد أصبح التأثير في الرأي العام العربيّ، وتبلور فضاء عامّ نشيط موضوع تحدّ للقوى المهيمنة في المنطقة، لذلك استعر تنافس استراتيجيات إعلاميّة-عبر فضائيّات ناطقة بالعربيّة- من أجل منافسة نظيراتها العربيّة، وخاصّة الجزيرة (العويفي، 2005)، التي لعبت دورا مهمّا في بلورة ذلك الفضاء العامّ العربيّ المشترك.

ضمن هذا السياق، غالبا ما يستخدم مصطلح "الشارع العربي"، كمفهوم ودلالة رمزية (إيكلمان (Eickelman)، 2002، ص.ص. 39-40)، لتسليط الضوء على فوضى وعاطفية الاحتجاجات الشعبية في المنطقة العربية، دون أن تكون لها فعالية. ومع ذلك، يجدر الانتباه إلى أنّ المصطلح يختزن بنية تحتيّة غير مرئية، تعتمل في ضمائر الشعوب وفي وعيها المشترك. لذلك كثيرا ما يكون ذلك الفضاء هو الوعاء التنظيمي لـلمقاومة ليس فقط ضدّ الولايات المتحدة، كلّما تمادت في استخفافها بحقوق العرب، ولكن ضدّ بعض الحكومات العربية أيضا، خاصّة تلك التي كانت شريكة أو متواطئة بصورة من الصور في تنفيذ سياسات القوى المهيمنة. وعادة ما يكون التعبير عن ذلك "الغضب الشعبي"، عن طريق وسائل إعلام قريبة من "نبض الشارع" (العويفي، 2005، ص. 45). وقد نجحت الجزيرة في ذلك الدّور أيّما نجاحٍ، في تغطيتها للانتفاضات الفلسطينيّة، وحروب المقاومة ضدّ الاستعمار الصهيوني في غزّة وفي جنوب لبنان، وفي المسار الطويل لحصار العراق وتدميره، وأخيرا في تغطيتها للثورات العربيّة وما يستتبعها من مخاض عسير تعيشه المنطقة العربيّة.

إنّ ظهور الجزيرة غيّر قواعد عمل وسائل الإعلام العربية غير القُطْرِيّة، وخالف الوصفة القائمة على تفضيل وظائف الإعلام الترفيهي، وتقييد وظيفة الإخبار بما لا يعرّي سوءات الواقع العربي؛ إنّ إستراتيجية تلك القناة بنيت على تمايز تامّ عن نموذج الإعلام الفضائي العربي السائد

(العويفي، 2004، ص.ص. 653-655)، وخاصّة مقاربته في الإخبار. فقد فسحت منابرها لكلّ التيّارات السياسيّة العربيّة، بما فيها التيارات المحظورة عربيّا وغربيّا، مثل الإسلاميين وقوى المعارضة الراديكالية (فندي، 200، ص. 379)، كما أنّها فتحت باب الانتداب للعمل فيها لكلّ الكفاءات العربيّة من أردنيين فلسطينيين، وسوريين ومغاربيين، فكانت فضاء للإبداع المشترك والتكامل بين أجيال من الإعلاميين بعضهم تكوّن في المهجر، وبعضهم الآخر أُنْتُخِب من مؤسّسات إعلاميّة عربيّة، غير الذين فسحت لهم الجزيرة فرصة الانطلاق معها والتمرّس لديها.
تلك الشروط مجتمعة جعلت قناة الجزيرة مؤهّلة للتعامل مع طفرة الربيع العربي، دون حسابات الربح والخسارة التي حكمت أداء جلّ منظومات الإعلام العربي. فكيف تعاطت مع تطورات الأحداث حينها؟ وهل اختلف أداؤها في تغطية زخم الأحداث التي شهدتها هذه الدولة العربيّة أو تلك؟

2- أشكال تغطية الجزيرة لأحداث الثورات العربيّة:

إنّ الجزيرة بقدر ما وسّعت قاعدة استقبالها عند المشاهدين العرب، وأوجدت جمهورا وفيّا يتابع جانبا من تغطياتها الإخباريّة، وبرامجها الحواريّة، بقدر ما فاقمت عداوة جلّ الأنظمة العربيّة تجاهها، حتّى اضطرّتهم للتنسيق فيما بينهم لاستصدار تشريعات ، تسمح بكبح تيّارها من خلال تجريم المسّ بالرموز الوطنيّة والدينيّة (وزراء الإعلام العرب، 2008). وعند اندلاع أحداث "الثورات العربيّة"، كان تعاطي الجزيرة في تغطياتها ونقلها للأحداث، أقرب لنبض الشّارع وحالة الاحتقان التي كان عليها، من موقف الحكّام وروايتهم للأحداث على أنّها شغب يقوده مندسّون أو ملثّمون أو مهلوسون أو متآمرون وفوضويون على حدّ تعبير القادة الذين انتفضت ضدّهم شعوبهم وأبعدت أغلبهم.

لذلك هنالك من وصف تفاعل الجزيرة مع تلك الأحداث، بأنّه كمن كان يجني ثمار جهد حان وقت حصاده، بعد أن قضّت أكثر من عقد في تعرية مفاسد الأنظمة، وتعدّيهم على حقوق شعوبهم. إنّ الرأي الأرجح لدى المختصّين والمهتمّين، أنّ أداء الجزيرة كان يغالي في التحيّز لأجندات الحراك الثوري حدّ الترغيب فيه والتبشير به، من خلال تخصيص شاشتها للمتظاهرين في شارع الحبيب بورقيبة وميدان التحرير وساحات اليمن، لدرجة أن "جوليان أسانج" (Julian Assange)، مؤسس موقع ويكيليكس، صرّح لصحيفة "لوموند" الفرنسيّة في 11 مارس 2011 قائلا: "لقد لعب الفيسبوك وتويتر دورا جيدا، ولكن دورهما ليس مماثلا لدور الجزيرة". وهو بذلك يشير إلى قوّة فاعليّة هذه القناة، رغم أنّه يصعب الجزم بتفضيل دورها مقارنة بفاعليّة الإعلام الجديد ودوره؛ فقد أبدع الشباب العربيّ خاصّة في الحالتين التونسيّة والمصريّة في استخداماته له، بين التعبئة حينا، والتنظيم والتوجيه حينا آخر، وتغطية الأحداث ونشرها، ثمّ معاودة الدورة نفسها في يوم نضاليّ جديد.

لقد أظهرت الثورة المصرية، ومن قبلها نظيرتها التونسية، "مكانة وسائل الإعلام الجديدة وأهمّيتها، إذ تبيّن أنّه يصعب مواجهتها بالطرق التقليدية للسيطرة والقمع، خاصّة بتفاعلها الفوري مع وسائل الإعلام التقليدية" (بنيلد (Bénilde)، 2011)، كما أثبتت تلك التجربة أنّ وسائل الإعلام الجديدة والقديمة، تربط بينها صلات وثيقة. لأنّ تدفّق المعلومات دون انقطاع، وطريقة الالتفاف على آليات الرقابة، يعود فيها الفضل للإنترنت ولتبادل الروابط ونشرها عن طريق الشبكات الاجتماعية، غير أنّ إعطاء الزخم لتلك المعلومات، وجعلها تخرج من "المجتمع الفيسبوكي" نحو المجتمع الأوسع مثّل القيمة المضافة التي أمّنها الإعلام التقليدي، واستثمرتها الجزيرة أيّما استثمار في كسر الطوق عن ثورات الربيع العربي.

صحيح أن الشبكات الاجتماعية عموما، والفايسبوك تحديدا، قد أسهمت في الزيادة من منسوب تواصل الشباب المنتفض، وتدعيم التنسيق فيما بينهم، في اختيار أماكن الالتقاء وأوقاتها، وصياغة محاور الاحتجاج وترجمتها إلى شعارات يفترض رفعها. كل ذلك صحيح، لكن يجب عدم المبالغة واعتبار الفايسبوك أو الجزيرة هي صانعة الثورات، بدليل أن قطع الحكومة المصرية لشبكة الإنترنت، على سبيل المثال، لم يقلّل من حجم المتظاهرين ولا من حدّة شعاراتهم ومطالبهم، وأنّ التشويش على إرسال الجزيرة أو حتّى قطعه، لم يضعف عزائم الشباب وإصرارهم على أهدافهم. فتلك الوسائل، على أهميّة الخدمات التي قدّمتها للحراك الشبابي والزّخم والقيمة المضافة التي أضفتها على تلك الأحداث، لكنّها تبقى وسائط ووسائل. وهي نفسها حين تستعمل مع مجتمعات أخرى، أو حتّى مع تلك المجتمعات نفسها، لكن في سياقات سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة مختلفة، فهي حتما لن تحقّق نفس النتائج.

وبما أنّ "الثورات العربيّة" ليست متجانسة، وهي لا تعدّ استنساخا عن بعضها البعض، رغم بعض جوانب الإلهام والتأثير، فإنّ أشكال تغطية الجزيرة، ومنوالها اختلف من واحدة إلى أخرى. وهو اختلاف تأثّر بالتباين بين الأحداث ومزاج الشعوب ومستوى تنظمّها، وطبيعة الأنظمة ومدى شراسة أجهزتها الأمنيّة، ومدى تغلغلها في بنية المجتمع، وحجم نجاحها في استيعاب زخم الاحتجاجات، أو تحويلها إلى نزاع مسلّح يتحوّل إلى حرب أهليّة مدمّرة للدولة ولوحدة المجتمع. وتوجد قراءة مغايرة لأسباب تنوّع تغطيات الجزيرة بين ثورة وأخرى لا تأخذ بعين الاعتبار العوامل المؤثّرة التي كنّا بصدد تعدادها، بقدر ما ترجع ذلك التباين لأجندات الجزيرة وحرصها على الحضور القويّ حين يتعلّق الأمر بالأنظمة الجمهوريّة، ويبهت ذلك الحضور حين يكون موضوعه أنظمة ملكيّة (الميلي، 2012). إنّ تأويل أداء الجزيرة وتفسيره استنادا للفرضيّة الأولى (اختلاف طبيعة كلّ ثورة عربيّة عن الأخرى)، أو ترجيح التفسير وفق الفرضيّة الثانية (أجندة الجزيرة) هو ما سنحاول الاستدلال عليه من خلال عرض متدرّج ومنفرد لأشكال ومستويات تغطية الجزيرة لأهمّ محطّات الربيع العربي واستقراء أوجه الاختلاف بينها.

الحالة التونسيّة:

لم يكن للجزيرة حضور منظّم ومعترف به في تونس حتّى مطلع سنة 2011، فقد حرص نظام بن علي على عدم السماح بوجود تلك القناة في تونس، حتّى أنّ لطفي الحجّي، أقدم مراسليها هناك، حرم لأكثر من عقد من الترخيص له للعمل بصفته تلك، إلاّ بعد فرار بن علي. لذلك فحين اندلعت الأحداث في سيدي بوزيد بتاريخ 2010/12/17، لم يكن للقناة وجود مباشر للتغطية، وكانت متابعتها لتسارع الأحداث كما أشار أحمد الشيخ، رئيس تحرير سابق بالجزيرة، "بتخصيص غرفة لمتابعة المستجدات عبر الهاتف، والفايسبوك، ووسائل الإعلام الأخرى، وأصبح فريق يتناوب العمل ويتابع لحظة بلحظة ما يقع في تونس" (أحمد الشيخ، 2011). كما أضاف وضّاح خنفر، المدير العام السابق للجزيرة،أنّ القناة كانت "أوّل وسيلة إعلام تقليديّة، تعتمد بطريقة شبه كليّة على صور الشبكات الاجتماعيّة، من أجل مواكبة أطوار ومستجدّات الثورة التونسيّة" (خنفر، 2011). على أنّ ما اعتبره خنفر، عامل تميّز للجزيرة، يراه نوفل الميلي، "تنازلا عن الأعراف المهنيّة وتحايلا على أحداث احتجاجيّة عاديّة من أجل صياغة سرديات تستعمل للتعبئة والإيهام بما تريد الجزيرة الوصول إليه" (الميلي، 2012). ينسجم الميلي في تقديره مع التيّار الذي يصنّف الجزيرة صانعة للأحداث ومنحازة للثائرين بدل أن تكون مسافتها منهم مساوية للمسافة التي تفصلها عن الأنظمة التي قامت الثورات ضدّها، وهو تيّار لا ينسجم مع طبيعة الوظيفة النّقديّة للفضائيات الإخباريّة المستقلّة، التي لا تبني خياراتها التحريريّة على درجة الانسجام مع توجّهات الأنظمة الحاكمة، شأن الإعلام العربي الذي كانت تلك التوجهات تحدّد بوصلته التحريريّة. فقد حرصت قناة الجزيرة على التعبير على هموم المواطنين ومشاغلهم ولو كان ذلك غير منسجم مع الرواية الرسميّة التي يقدّمها النظام للأحداث، مثلما كان عليه الحال في الثورة التونسيّة (حجاوي، 2011، ص. 94).

إنّ قراءة السلوك الإعلامي للجزيرة، في تعاطيها مع الأحداث التي هزّت الشارع التونسي، وطالت شوارع عربيّة عديدة، كثيرا ما يخرج من دائرة التحليل الإعلامي الذي ينضبط إلى قواعد تحليل الخطاب، نحو نوع من إسقاط المواقف السياسيّة؛ يرى بموجبها أنصار "الثورات العربيّة"، أنّ الجزيرة قامت بجهد إعلاميّ مميّز، لنقل أحداث بمثابة زلزال حوّل المنطقة إلى رمال متحرّكة، في أسابيع معدودات.بينما يرى المناهضون لتلك الثورات ومخرجاتها، أنّ أداء الجزيرة ليس إلاّ مؤامرة حرّكتها قَطَر نيابة عن القوى المهيمنة عالميّا.

إنّ هامش الحياد لدى الطبقات السياسية والثقافية العربيّة، يضيق يوما بعد آخر منذ مطلع سنة 2011؛ لذلك نلاحظ اصطفافا سياسيا وثقافيا بغلاف إيديولوجيّ سميك، يقرأ كلّ الأحداث من زوايا الاصطفاف، ويعتبر الحقيقة كاملة قريبة من زاوية نظره، وما عداها النقيض إن لم يكن المؤامرة. والنّظر في تونس إلى دور الجزيرة وموقعها ممّا حدث في تونس، محكوم بتلك الثنائيّة فإمّا هي نصير مطلق للشعب التونسي، أو هي عدوّ متآمر عليه. والحقيقة في نظرنا، ليست حديّة نجدها عند هذا الطّرف أو ذاك؛ فالجزيرة لا اختلاف في أنّها كانت منحازة للشعب التونسي، إذا اعتبرنا أنّ الشعارات التي رفعت كانت تعبيرا على إرادته، وأنّها لم تنحز للنّظام التونسي رغم أنّ شاشتها فسحت المجال للأصوات المعبّرة عنه حتّى يوم 13 يناير 2011. والجزيرة لا تمثّل بدعا في منهج تغطيتها تلك للثورة التونسيّة، لأنّ وسائل الإعلام العالميّة حين احتفت قبل ذلك بثورة أوكرانيا وجلّ ثورات أوروبا الشرقية، لا نجد تثريبا عليها في الدراسات التي عالجت التغطيات الإعلاميّة لتلك الثورات، ولا اتهاما لها بأنّها كانت أقرب لنبض الشعوب الثائرة من الأنظمة التي ثارت عليها.

ومع ذلك فإنّ سجلّ الجزيرة قد لا يخلو من إخلالات قد تمسّ المعايير المهنيّة، من ذلك أنّ تكافؤ الفرص بين الأصوات الممثّلة للنظام مقارنة بمعارضيهم، كانت تميل للأخيرين. كما أنّ دقّة الأخبار وصحّتها لم تقع مراعاتها في كلّ الحالات، كالحديث عن مواجهات مسلحة قرب القصر الرأسي دون ثبوتها، وشبه تغييب لحالات النّهب والحرق والاعتداء على الأملاك الخاصّة والعامّة بعد انسحاب الأمن التونسي، دون إخبار كاف عن تلك التجاوزات، ولا إخضاعها للتحليل والنقاش، في العدد الكبير من البرامج التي خصّصتها القناة لتونس في النصف الثاني من يناير 2011.

هناك هفوات في التقدير عند التركيز على الجوانب الاحتفاليّة بنجاح إسقاط بن علي، دون التركيز على أحداث النّهب والإتلاف التي نغّصت على التونسيين فرحتهم وأرعبتهم. ومع المؤاخذات الموجّهة للجزيرة، إلاّ أنّه لا يمكن أن ننكر أنّها كانت قبلة أكبر عدد من المشاهدين التونسيين، لتتبّع آخر مستجدّات الأحداث ببلادهم، بما أنّ الإعلام المحلّي، حينها، فقد مصداقيته برهانه على استمرار نظام بن علي حتّى اللحظات الأخيرة. ومن مظاهر الاحتفاء بالجزيرة، فتح مكتبها بتونس لأوّل مرّة، وحلول أبرز وجوه الجزيرة، وتقديم برامجهم من قلب العاصمة التونسيّة بعد أن كانت محظورة عليهم لسنوات، وتوافد أبرز السياسيين التونسيين من كل التيارات السياسية ومشاركتهم في منابرها، ولم تبرز أصوات حينها تطعن في حياديّة الجزيرة، وتجرّم انحيازها لمنجز الشعب التونسي في إسقاط أحد أعتى الدكتاتوريات بصورة سلميّة؛ بل وقع الانتظار زهاء السنة لتنطلق الأصوات الناقدة لأداء الجزيرة بتزامن مع موجة التشكيك في أهداف الثورات العربيّة وفي مآلاتها.

لعلّ فجائيّة الثّورة التونسيّة، وعدم وجود مكتب للجزيرة ولا مراسلين لها في البلاد قد طبع شكل تغطياتها للأحداث وأثّر فيها، فكيف يكون الأمر في الحالة المصريّة حيث تنتفي تلك المبرّرات؟

الحالة المصريّة:

تختلف تغطية الجزيرة للأحداث في مصر عن نظيرتها في تونس لعدّة اعتبارات لعلّ أبرزها أنّ مكتبها في مصر يشتغل منذ سنوات، وأنّ الفريق العامل هناك منتشر في أهمّ المدن المصريّة، وله العتاد والدربة وشبكة العلاقات التي تيسّر مواكبته لنسق الحراك الثوريّ. ثمّ إنّ الأحداث في تونس كانت دون سابق إنذار، في حين أنّ ما يقع في مصر يستلهم النموذج التونسيّ حتّى وإن لم يستنسخه، وتلك معطيات استفادت منها فرق الجزيرة للتغطية والمتابعة، سواء في الميادين، أو في المقرّات المركزيّة بالدوحة.

لقد انطلقت الجزيرة في تغطية الأحداث بمصر، وهي في أتمّ شروط الجاهزيّة، إذ تعلّمت من التجربة التونسيّة أخذ الاحتياطات اللازمة لكلّ الطوارئ، بما في ذلك احتمال إغلاق مكتبها، وتعطيل تحرّك مراسليها. كما إنّ وجودها على عين المكان، جعلها أكثر توازنا في نقل الأحداث خلال الأيّام الأولى؛ لكن مع تصاعد الأحداث والاقتراب من ذروتها، لوحظ ترجيح بيّن لصوت ساحة التحرير، مقارنة بالنّاطقين باسم النظام. حتّى أنّه وقع تحميل قناة الجزيرة، وبدرجة أقل قناة العربيّة، مسؤوليّة الإسهام في زعزعة أمن واستقرار الشعوب، واتهامها بأنّها بالغت في تغطية هذه الثورات بخلاف الواقع الذي يجري في الميدان وانحرفت عن الالتزام بالحياد والموضوعية. فالموالون لمبارك، والمتخوّفون من عدوى الثورات العربيّة، يؤكّدون "أنّ الجزيرة لعبت دورا كبيرا في انهيار نظام مبارك وإسقاطه إعلاميا قبل انهياره سياسيّا" (بن حمادي، 2013).
لقد مثّلت الأيام الأخيرة قبل تنحّي مبارك عن الحكم، أياما عصيبة لمراسلي الجزيرة بمصر، إذ قضت السلطات المصريّة بغلق مكتبها، وإلقاء القبض على رئيسه عبد الفتاح فايد والصحافي احمد يوسف، كما ضيّقت الخناق على تنقّل المراسلين وسحبت منهم كلّ التراخيص، ووصل الأمر حدّ إيقاف بثّ القناة على القمر الصناعي المصري "نايلسات"- وبعد تنحّي مبارك، عادت الجزيرة لنشاطها في مقرّاتها بمصر رغم التلف الذي لحق مكتبها بأغلب معداته (الجزيرة نت، 2014)، وساهمت في احتفاليات سقوط مبارك من ساحة التحرير، ومن ساحات عدد من المدن المصريّة.
ولم تكن ملاحظات تحيّز الجزيرة لفائدة ثورتي تونس ومصر، على حساب رأسي النظام اللّذين عزلا، صادرة عن أنصار النظامين فقط، بل نجد متخصّصين غربيين يحملون نفس الانطباع، مثل "ماتيو غيدار" الذي اعتبر في برنامج للفضائية الفرنسية فرنسا 24، أنّ بعض القنوات العربية لم تقف عند حدود تغطية الأحداث بل عملت على صناعتها وتغذيتها، من خلال المبالغة في تلوين الخبر واختيار التعاليق التي تعقب عليه في اتجاه واحد، وهي بذلك تبتعد أحيانا عن الحيادية (غيدار، 2011). لكنّ هذا الموقف يفنّده التحاق جلّ الفضائيات الغربيّة (BBC , F24, CNN,...) بتغطية الثورات العربيّة بأسلوب لا يقطع مع ما انتهجته الجزيرة، خاصّة حين لاحت علامات سقوط الأنظمة، وتأكّد النسق التصاعدي لتلك الثورات.
أمّا في حالة الثورة اليمنيّة، فنسجّل توافقا عجيبا في نقد تغطية الجزيرة لفعالياتها، بين أنصار الثورة والمعارضين لها، مع اختلاف المنطلقات والمبرّرات، كما سنوضّح ذلك في الفقرات الموالية.

الحالة اليمنيّة:
انطلقت الفعاليات الأولى "للثورة اليمنيّة" حين كانت كلّ الأنظار تتجّه لساحة التحرير المصريّة، لذلك لم تلق من الاهتمام الإعلامي ما حظيت به نظيرتيها في تونس ومصر، أو حتى في ليبيا وسوريا. لأنّ من خصائص "الثورة اليمنية" أن حضور الإعلام الجديد فيها كان باهتا وضعيفا، فالفيسبوك ذو الفاعليّة في تونس ومصر، لم يكن منتشرا ولم يلعب دورا بارزا في تحريك الشباب اليمني وتنسيق تحرّكاته. وفي هذا الصدد، قالت الإعلامية الشابة صفاء كرمان لـ "swissinfo.ch": "إن من يملك حاسوبا في المجتمع اليمني ينتمي بالضرورة لأسرة برجوازية، وهو ما يفسّر ضآلة عدد المنخرطين في الشبكات الاجتماعية" (رشيد خشانة،

2012). وقد انقسم الإعلام المحلّي إلى إعلام داعم لعلي عبد الله صالح، وبالتّالي معاد لتلك التحرّكات، ومعنيّ بتشويهها وإرباكها، وإعلام منتصر لإرادة التغيير ومنخرط في التبشير به.
أمّا عن الفضائيات العربيّة، وخاصّة الجزيرة، فقد انتقد اليمنيون ضعف حضورها في البداية وعدم الاهتمام بالتحرّكات في بلادهم، على نفس منوال ما وقع في مصر وتونس، بالرّغم من أنّ الاحتجاجات التي شهدتها البلاد كانت في تصاعد مطّرد، وقد شاركت فيه الفئات الشبابيّة بإرادة في التغيير، تستند إلى حجم الفساد الذي سبّبه نظام الحكم، وعدم فاعليّة تمثيل المعارضة بسبب تقاطع التوازنات القبليّة، وسيطرة عائلة علي عبد الله صالح على المؤسسات الأمنيّة والعسكريّة، وهيمنة أتباعه على أوصال الإدارة وهياكل الدولة. كما اتّهم محتجّون في أحاديث متفرقة لـ"المصدر أونلاين" قناة الجزيرة "بالتواطؤ مع النظام اليمني بسبب ما اعتبروه تعتيما على الاحتجاجات الكبرى التي تشهدها البلاد للمطالبة بإسقاط نظام صالح" (المصدر أونلاين، 2011). ولم يكن الاتّهام موجها للجزيرة فحسب، بل شمل كلّ الفضائيات التي سجّلت حضورا قويّا في مصر وتونس وليبيا وسوريا.
وقد فنّد مراسل الجزيرة في صنعاء أحمد الشلفي رواية تقصير قناته تجاه الثورة اليمنيّة أو احتمال تعتيمها عن البعض من فعالياتها معتبرا أنّ "منع السلطات اليمنية الموفدين عبد الحق صداح وأحمد زيدان من مواصلة العمل في اليمن ليس مبررا، وأنه يأتي في سياق سلسلة إجراءات اتّخذتها السلطات ضدّ مكتب القناة وطاقمها في صنعاء". لافتاً إلى أنّه سبق وأن أوقفا قبل أسبوع ولم توجّه لهما أي تهمة، مع التعرّض لمضايقات كثيرة، وضغوط أمنية، وان هناك حديث من قبل السلطات الأمنية حول جملة اعتراضات على تغطية الجزيرة (أحمد الشلفي، 2011).
لكنّ تطوّر الأحداث، بعد ذلك، أظهر أنّ دول جوار اليمن، المكوّنة أساسا من دول الخليج العربيّ، كانت تخطّط لمخرجات محدّدة للحالة اليمنيّة، تجعلها مخالفة لدول شمال إفريقيا العربيّة (تونس، ومصر، وليبيا)، عبر فرض نموذج للحلّ التوافقي، الذي يبعد صالح ظاهريّا من صناعة القرار، عبر التخويل لنائبه، مع الإبقاء على الحزب الحاكم مهيمنا على مراكز السلطة، ودون تحرير الجيش اليمني من قبضة عائلة الرئيس. وكان ذلك الحلّ فيه امتصاص لبريق "الثورة اليمنيّة"، وتحويلها إلى نوع من الإصلاح الشكلي، الذي يحمي دول المنطقة من رياح التغيير الثوري، التي بدأت تسري في بعض أركان البيت الخليجيّ.
إنّ مخرجات الحلّ الخليجي للثورة اليمنيّة انعكس على أداء الجزيرة في تغطية الأحداث التي بدأ نسقها يتراجع خلافا للتصعيد الخطير الذي شهده الوضع في سوريا أو ليبيا. فهل استدرجت الجزيرة عبر تلك التغيرات نحو الانغماس في الشأن الليبيّ، أو التركيز على الحالة السوريّة باعتبارهما دخلتا حالة المواجهات المسلّحة؟
لا يبدو الجزم متاحا بالرّغم من أنّ إرهاصات العمل المسلّح في اليمن كانت بادية عبر نزول الجيش للشوارع، وانشقاق جانب منه وانتصاره للميادين المنتفضة، علاوة على القصف الذي استهدف مقرّ الرئيس اليمني السّابق فأصابه بعدما آذن بقصف مواقع القادة المنشقّين عنه ومنازلهم (المصدر أونلاين، 2011). لكنّ تهدئة المظاهرات بعد توقيع "المبادرة الخليجية"، التي نصّت على تسليم سلطات علي عبد الله صالح لنائبه عبد ربه منصور هادي، مقابل منح الأوّل حصانة من الملاحقة القانونية، كانت عبر إحكام الضّغط الخليجيّ، وبمباركة أمريكيّة؛ حينها تراجع نسق الأحداث ومعه تراجع تلقائيا اهتمام الجزيرة بالوضع في اليمن قياسا بمناطق أخرى، دون أن يلغي ذلك أنّها كانت الفضائيّة الأقرب لنبض الميادين اليمنيّة حين امتلأت بالثائرين على نظام علي عبد الله صالح والمطالبين بإسقاط حكمه.
يكاد يجمع الدّارسون على أنّ نوعيّة تغطيات الجزيرة للثورات التونسيّة والمصريّة واليمنيّة كانت أقلّ عرضة للنقد، ربّما لأنّ سلميّتها (خاصّة سنة 2011 بالنّسبة إلى الحالتين المصريّة واليمنيّة) كانت عامل تخفيف لتحميل الجزيرة، أوسع الفضائيات تغطية لتلك الثورات، أوزار ما ينجم عن عسكرتها من خسائر تطال الأرواح البشرية (بين قتلى وجرحى ومشردين ومفقودين)، وأخرى

تطال تفكيك مؤسّسات الدولة وتدمير بناها التحتيّة، وهو ما ينطبق على الحالتين السوريّة والليبيّة بعد ذلك.

الحالتان الليبيّة والسوريّة: تشابه المسارات واختلاف المآلات:

لئن كان يعاب على الجزيرة، في الحالة اليمنيّة، إحجامها عن إيلاء ما وقع حقّه في التغطية والاهتمام قياسا على المنوالين التونسي والمصري، فإنّه في الحالة الليبيّة والسوريّة على الأخصّ، بدأت المعادلة تتغيّر تدريجيّا، فسريعا ما أجهضت سلميّة التحرّكات ووقعت عسكرتها من خلال إنزال المدرّعات والمدفعيّة وتحرّك الطائرات لقمع التظاهرات باعتماد القصف بالأعيرة المختلفة. وهو ما وضع الجزيرة أمام خيارات تضيّق هامش الحياد، فإمّا أن تنحاز لجمهور الثائرين فيما تبنوه من مطالب وشعارات لم تكن منفصلة عمّا حدث في مصر وتونس واليمن، أو أن تتقبّل الخطاب التخويني الذي تبنّاه النظامان الليبي والسوري والذي لا يرى في جموع الثائرين غير متآمرين أو مغامرين تحرّكهم أيادٍ خارجيّة.

لم يطل تردّد الجزيرة بين الخيارين، ربّما بفعل التحوّل السريع نحو مواجهة المتظاهرين بدمويّة في الحالتين الليبيّة والسوريّة، وهو ما خلق مناخات مغايرة تماما للحالات السابقة. حينها كان أسلوب الجزيرة في التغطية أقرب إلى الانخراط في الصراع كطرف على حدّ تعبير عبد الباري عطوان بقوله: "نحن فرحنا بدعم الجزيرة للثورة في مصر وتونس، برأيي، كانت تغطيتها عفوية ومهنية، لكن بعد اندلاع الأزمة السورية، بدأ المشاهد يشكك في مهنيّتها ومصداقيّتها" (عطوان، 2014).

في المقابل، يرفض يسري فودة، بعد خروجه من الجزيرة، محاكمتها باتهامات مطلقة، بعضها يتردّد منذ أن تمرّدت تلك القناة على منوال الإعلام الحكومي الموجّه، ويرى أن تكون المحاسبة بالمقارنة مع ما هو سائد، بقوله: "أتفهّم الانتقادات الموجّهة لقناة الجزيرة، وأتّفق مع بعض هذه الانتقادات، لكنّني لا أتّفق (...) مع تكميم الأفواه؛ فقناة الجزيرة قدّمت للمواطن العربي فرصة معرفة ماذا يحدث في دولته، في الوقت الذي لم تقدم له صحفه وتلفزيوناته المحليّة ما ينبغي أن يُقدّم (...) فقبل أن نعيب على قناة الجزيرة، يجب أن نعيب على إعلامنا الذي تركنا لها، لأنّه لم يقدّم شيئا يستحق المشاهدة" (فودة، 2011).

وهنا يشير يسري فودة، إلى أنّ تقييم أداء الجزيرة، لا بدّ أن يخضع لنوع من التنسيب، لأنّ أرفع الأصوات قدحا في موضوعيّة الجزيرة، هي أصوات تنتسب في الغالب إلى أكثر المؤسّسات الإعلاميّة خرقا للضوابط المهنيّة، وهي تقوم بتلك المهمّة في نطاق الدّفاع المبطّن عن الأنظمة التي تواليها، أكثر من حرصها على حياديّة أداء الجزيرة. غير خاف عن المتأمّل في تضاريس المشهد الإعلامي العربي، منذ سنة 2011، أنّ المنتسبين للأنظمة التي أزيحت والموالين لهم خاصّة من الإعلاميين، مثّلوا الصوت الأقوى في نقد خطاب الجزيرة وطريقة تعاطيها مع ثورات الربيع العربي؛ لذلك فكثيرا ما لا يحاسبون الجزيرة على أدائها، بما فيه من هنات محتملة، بقدر ما يحاسبونها انطلاقا من التمثّلات التي تنتجها إسقاطاتهم على الواقع، دون انفصال عن ولاءاتهم القديمة التي لم تتقبّل ما أحدثته الجزيرة من تغيير في المنوال الإعلامي الذي أصبح أقرب لاختلاجات الشعوب العربية ومشاغلها، بدل أن يكون معبّرا عن إرادة الأنظمة وناطقا باسمها. لذلك فلا عجب أن يعيبوا عليها انتصارها لإرادة الشعوب في ثوراتهم بدل الدّفاع عن أطروحات الأنظمة والدفاع عن استمرارها.

كما أنّ الاستنتاج الذي مفاده أنّ كل الدول التي حصل فيها التغيير كانت أنظمتها جمهورية. وهي بالرغم من أنّها دكتاتورية وقمعية، ومع ذلك، فإنّ تجييش الإعلام لعب دوره في الصراع، وفي حسم سقوط تلك الأنظمة (عطوان، 2011). إنّ ترجيح فاعليّة الجزيرة في تأجيج الثورات وصولا إلى إسقاط الأنظمة، يحيل إلى اعتماد نظريّة المؤامرة، والتسليم المطلق بنظريّة التأثير القوي والمباشر لوسائل الإعلام، وهما مقاربتان لهما محاذيرهما المنهجيّة والمعرفيّة. فهذا التفسير يغفل اعتبار إرادة الشعوب التي تتقدّمها فئاتها الشابّة فهي المحرّك الرئيسي للانتفاضات

التي حوّلها استمرارها إلى ثورات، لكي تكون موضوعا لتغطية الفضائيات. تلك الثورات تفاعلت شروط تأجيجها في بعض الجمهوريات العربيّة لتوفّر عناصر التأجيج غير المتاحة بصور مشابهة في أغلب الملكيات خاصّة الخليجيّة، من حيث تبلور المجتمع السياسي ونوعيّة التنشئة السياسية ومستويات التحديث وفاعليّة المجتمع المدني، علاوة على أنّ جلّ الجمهوريات تعيش ترديا في معاش فئات اجتماعيّة واسعة خاصّة الشابة منها، وضعف فرص اندماجها المهني والاجتماعي، وهو وضع غير قابل للمقارنة بما يعيشه نظراؤهم في أغلب الملكيات. ذلك الاستنتاج المقارن في التعاطي مع ثورات الربيع العربي حسب طبيعة النظام السياسي، يجد مثاله الأبرز في حالة الثورة البحرينيّة وهو ما نعنى بتناوله في الفقرة التالية.

الحالة البحرينيّة:

إنّ تعاطي الجزيرة مع الفعاليات الثورية بالبحرين كان محفوفا بمخاطر القرب الجغرافي وبالتهمة الجاهزة حول احتمال تغاضي الجزيرة عن تلك الأحداث، لأنّها تهدّد استقرار دولة جارة، وتنقل الأمواج العاتية للربيع العربي إلى قلب دول الخليج. وهو اتهام ليس جديدا في رصيد القناة لأنّها كانت تُوَاجَه، منذ نشأتها، بتهمة عدم التناول النّقدي للواقع القَطَرِي، بمثل ما تتناول به واقع أقطار عربيّة أخرى؛ وبالرّغم من أنّ المشرفين عليها كانوا يردّون بأنّ القناة ذات هويّة عربية مع اهتمام عالمي بكلّ ما يتداعى على المنطقة العربيّة، وهي ليست قناة قُطْرِيّة تخصِص اهتمامها للدولة الحاضنة لها بصغر حجمها وبرغد عيش مواطنيها ذوي التعداد المتواضع، بما لا يجعلها بؤرة توتّر تفرز قضايا تطفح على مشاغل الوطن العربي بتعدّد همومه ومشاغله.

لذلك فمع اندلاع الأحداث بالبحرين اتجهت الأعين لترصد تعاطي الجزيرة مع تطوراتها، خاصّة أنها الدولة الخليجيّة التي تتقاسم مع قطر عضويّة المجلس الخليجي ويصدق معها معيار القرب. إلاّ أنّ الحراك الذي عاشته البحرين، وبالرّغم من الزخم الذي بدا عليه قبل التدخّل الخليجي، تعرض لعاملين رئيسيين كبحا جماح الأحداث، وجعلاها دون ما وقع في سائر الدول العربيّة التي سبق الحديث عنها.

- يتمثّل العامل الأوّل في طائفيّة الحراك، التي مست شرعيّة كلّ المطالب المرفوعة، بحيث لم تكن موضوع التفاف وطني كسائر الدول الأخرى، بل كانت رافعته الطائفة الشيعيّة البحرينيّة؛ فلم تسجّل وسائل الإعلام بمختلف مشاربها حضورا لفاعلين بحرينيين من خارج وعاء "جمعيّة الوفاق الوطني" الإسلاميّة الشيعيّة. وما كان الشباب البحريني من خارج تلك الطائفة عاجزا على إيصال صوته عبر الشبكات الاجتماعيّة المختلفة، لو كان منخرطا في تلك الأحداث مثله مثل نظرائه خاصّة في تونس ومصر، وبدرجة أقل في سوريا وليبيا واليمن. حتّى إنّ التعبئة الإعلاميّة الإيرانيّة الكبيرة لتلك الأحداث، جعلت قناة العالم تفرد لها ما لم تفرده للثورات العربيّة في تونس ومصر وسوريا واليمن، ولاعتبار اشتعال فتيل الطائفيّة قبل ذلك في العراق، بتدخّل إيراني غير خفي، فإنّ تمدّد الأمر نحو عمق الخليج، حرّك سواكن دول المجلس الخليجي، وجعل تضامنهم على حساب المطالب الطائفية البحرينيّة بما في مطالبها من حقوق وجيهة.

- أمّا العامل الثاني، فيتمثّل في التدخّل الخارجي الذي ساهم في الإسراع بتراجع ذلك الحراك وعدم التفاف البحرينيين حوله دون خلفيات طائفيّة ولا فئويّة. ويمكن تعداد مصدرين صريحين للتدخّل الخارجي، يتمثّل الأوّل في السند الإيراني لشيعة البحرين عبر تعبئة إعلاميّة لا مثيل لها في تعاطي الإعلام الإيراني مع بقيّة الثورات العربيّة رغم تصدّرها للإعلام العالمي لأسابيع؛ ويتمثّل العامل الثاني في تدخّل الدّول الخليجيّة (فيما عدا سلطنة عمان) لمناصرة البحرين، وبالتالي في تطويق الاحتجاجات بذلك البلد. علما وأنّ شكل تغطية الجزيرة لمجريات الأحداث في

البحرين، ينسجم بصورة عامّة مع تغطيات الفضائيات العالميّة وخاصّة الإخباريّة منها، إذا ما استثنينا قناة العالم الإيرانيّة وغيرها من القنوات الإيرانيّة التي أولت ما يقع في البحرين أضعاف ما أولته لكلّ الثورات العربيّة الأخرى.

لقد مثّلت الجزيرة منذ نشأتها ظاهرة إعلاميّة شغلت المختصّين في الحقل الإعلامي، بغضّ النظر عن تقييم كلّ منهم لأدائها بين درجات الرضا أو التشكيك والريبة. وما كانت القناة لتثير حولها كلّ ذلك الاهتمام لولا نجاحها واستحواذها على اهتمام ملايين العرب ومتابعتهم لبرامجها. ولم يمثّل تعامل الجزيرة مع الثورات العربيّة، لا عامل تثبيت لمكانتها، ولا عامل مراجعة له، بقدر ما دفع بحالة الفرز بين الانتصار لتلك الثورات أو معارضتها ولجم امتدادها إلى أقصى درجاته. لذلك فحين علت موجات ارتداد تلك الثورات، كانت من نتائجه المباشرة محاسبة خطّ الجزيرة ونهجها، لا إبّان الثورات العربيّة فقط بل شملت المحاسبة دورها ما قبل الثورات في التمهيد والتأجيج، ودورها ما بعد الثورات (ما بعد سقوط الأنظمة) لتحميلها أوزار هذه الحقبة كما سيتجلّى ذلك في المبحث الموالي.

3- تداعيات الثورات وما ارتدّ منها على دور الجزيرة ومكانتها:

بالرغم من أنّ المنطقة العربيّة هي من أكثر مناطق العالم تداولا لمصطلح "الثورة" منذ خمسينيات القرن الماضي، إلاّ أنّها لم تعش ثورات حقيقيّة، فيما عدا الانقلابات العسكريّة التي أطلقت على نفسها تسمية "ثورة". لذلك فإنّ الثقافة حول سنن الثورات وخصائصها ومساراتها وآلياتها هي ثقافة شبه مفقودة ليس فقط لدى عامّة الشعوب العربيّة، بل حتّى لدى نخبها من الفاعلين السياسيين والاجتماعيين والإعلاميين وغيرهم. وغياب تلك الثقافة هو الذي روّج لسرديات من قبيل "أنّ الجزيرة هي التي أنتجت الثورات وصنعتها"، و"أنّ الثورة اكتملت ساعة فرّ الرئيس بن علي، أو تخلّى مبارك، أو قتل القذافي، أو تنحّى صالح". ولم تكن وسائل الإعلام بريئة إزاء ترويج تلك المفاهيم الخاطئة. بل إنّ الثورة المضادة بنت جلّ استراتيجياتها في إعادة التنظّم والعودة على توظيف جملة من المفاهيم الخاطئة، من قبيل الرفع في سقف كل الانتظارات والعمل على تحقيقها في وقت وجيز، فأصبحت مطالب الحل الجذري للبطالة، وتحسين أجور كل العمال والموظفين، وتطوير البنية الأساسية، وتغيير منوال الاقتصاد، وجبر الفجوة التنمويّة بين الجهات كلها مطالب عاجلة، وعند عدم تلبيتها تصبح قيادات ما بعد الثورة ليست موضع مساءلة عن مدى قدرتها على حلّ تلك المشكلات، بل تُقَدَّم على أنّها المسؤولة عن كل ما تراكم منها لعقود، وهي عاجزة مقارنة بقيادات الماضي التي كان إعلامها يصوّرها دوما على أنّها قادرة، لا على الإنجاز فقط بل على تحقيق الخوارق. بذلك انطلقت عملية "شيطنة" الثورات وإرجاع كل مشاكل المجتمع لها. وقد كانت قوى الأنظمة البائدة والمتحالفين معها من يسار وليبراليين، بعد خيبتهم الانتخابية (خاصّة سنة 2011 في كلّ من تونس ومصر) هي أكثر القوى التي عملت على تيئيس الشعوب من الثورات والتشكيك في انتظاراتهم منها.

وقد بدا الترابط بين التشكيك في الثورات ، والطعن في حيادية الجزيرة ومهنيتها ترابطا إيجابيا دالا للغاية. وانتشر ذلك تدريجيا في جلّ بلدان الربيع العربي، خاصّة مع ارتفاع وتيرة الثورات المضادة، وليس أدلّ على ذلك من أنّه بعد نجاح الانقلاب المصري سنة 2013 وقع غلق مكتب الجزيرة ومنع بثّها من مصر، علاوة على سجن البعض من صحفييها وخنق أصوات من لم يسجن منهم. تزامن ذلك مع بدأ التضييقات على فرق الجزيرة في تونس وليبيا واليمن، من نفس الأطراف التي يقترن لديها التحفّظ على هذه الثورات بالتحفظ على الجزيرة وعلى توجهاتها.

كما بات التأكيد على تراجع شعبيّة الجزيرة في بلدان الرّبيع العربي، وانخفاض نسب المتابعين لها (القدس العربي، 2013) كأنّه حقيقة غير قابلة للمراجعة، علما بأنّ تفسير حالات التراجع إن

وُجِدَت لا تحتمل تفسيره بمعاقبة الجزيرة على تعاطيها مع الثورات العربيّة فقط، بل لعلّ التّفسير الأقرب للواقع، هو أنّ ارتفاع سقف الحريات وخاصّة حريّة التّعبير في البلدان مهد الثورات، هو ما جعل الإعلام المحلّي يسترجع اهتمام مواطنيه، ويتنافس في تطارح مشاغل الشّأن المحلّي، بما لا يمكن أن تجاريه الجزيرة في شموليّة تغطيتها.

وحتّى لئن بدا أنّ نسبة من الشّعوب التي انتفضت على أنظمتها،وكانت مرآتها في أدائها النضالي قناة الجزيرة، لم تستمر في تفضيل تلك القناة، أو تقدير مهنيتها، بل خامرها الشكّ في توجهاتها التحريريّة ؛ فإنّ ذلك في جانب كبير منه كان بمفعول الحرب المفتوحة على الجزيرة من قوى التقت مصالحها من جديد حول الانتقاص من منجز تلك القناة لا فقط في مرافقة أوسع حراك متزامن تشهده الشعوب العربيّة في عصرها الحديث من أجل استشراف مستقبل تخرج فيه من مظلّة أنظمة أخفقت في كلّ المشاريع التي بنت عليها شرعيتها سواء في القطع مع المرحلة الاستعماريّة بكلّ أشكال التمييز التي طبعتها، أو تحقيق التحديث والتطوير والتنمية التي تجعل الشعوب العربيّة تضاهي ما حقّقته شعوب انطلقت معها من نفس خطّ البناء. لم تكن الجزيرة تحاسب فقط على تفاعلها مع شعارات الثورات العربيّة وأهدافها، بل تُحَاسَب قبل ذلك على نقدها منوال الإعلام العربي وإظهار مكامن الخلل فيه، وعلى خروجها من منظومة الإعلام العربي بما رسّخه من ضوابط وتقاليد.

لقد دخل العالم العربي، بمفعول الثورات العربيّة وخاصّة بمفعول الثورات المضادّة التي كبحت امتدادها، مرحلة استقطاب سياسيّ وطائفي ومذهبي، قام فيه الإعلام بدور محوريّ ومباشر، وقد نتج عنه الكثير من الظواهر السياسيّة والفكرية والإعلاميّة والاجتماعيّة الخطيرة، على مستقبل تعايش المجتمعات العربيّة، مع واقع الاختلاف الموضوعيّ داخلها. ولا شكّ أنّ جانبا ممّا يحدث اليوم في سوريا ومصر واليمن وليبيا، هو في جانب منه نتيجة الحشد الإعلامي، والدّفع إلى حالة الانقسام، وبثّ الكراهيّة وروح الانتقام والاستئصال، بدل البحث عن القواسم المشتركة وأسباب التعايش (زهرة، 2014).

والجزيرة ليست في مأمن من مخاض التجاذب، واختبار الإرادات في مرحلة سقطت فيها الأقنعة، وأضحت الشعوب والنخب والأنظمة مكشوفا بعضها لبعض، كما أصبحت التدخلات الخارجيّة سافرة ومكشوفة للعيان، بعضها بتنسيق مباشر لا مع الأنظمة فحسب، بل مع بعض النخب السياسية العربيّة. واليوم لا يمكن التعتيم على تلك المؤامرات والممارسات مثلما مورس ذلك لعقود، لأنّ وسائط الإعلام الجديدة ينخرط فيها مواطنون إعلاميون لا حارس بوّابة يمنعهم من التعبير والمشاركة، لذلك فالجزيرة تتأقلم مع هذه المتغيرات الجديدة، وتدرك أنّ امتحان الثورات العربيّة يمثّل فرصة مناسبة لها لمراجعة حصيلتها، وتقييم مكتسباتها، خاصّة وهي توشك أن تنهي العقدين من تجربتها الثريّة.

خاتمة:

إنّ الثورات العربيّة هي بمثابة زلزال هزّ المنطقة، وحرّك رمالها ورواسيها، وستظلّ ارتداداته المختلفة لعقود قادمة. لذا فإنّ الجزيرة كما كانت المهد الذي هيّأ تحريك سواكن الشعوب العربيّة، وكما كانت أقرب لنبض تلك الشعوب خلال فعاليات الحراك الثوري وارتداداته الصغرى (الثورات المضادة)، فإنّها مدعوة إلى أن تواصل رسالتها تجاه تلك الشعوب، حتى وإن بدر من بعضهم الشك في نهجها أو مقاصدها، وذلك بمواصلة التعاطي مع المشاغل العربيّة دون مواربة، ودون أجندات خفيّة سوى أجندة مصلحة الشعوب، عبر استنفار أنضج ما في فرقها الإعلاميّة من عطاء وفق قواعد المهنيّة التي أعطتها مقوّمات القناة العالميّة، واستدعاء أوسع قاعدة من الخبراء والمختصّين المرموقين. على أن تبقى فعلا قناة الرأي والرأي الآخر، إلى أن يصبح التعدّد

والاختلاف والتعايش معه من المكتسبات والمسلمات التي تسود المنطقة العربيّة، ولا تكون موضوع اختبار أو اختطاف مثلما يتهدّد واقع الحال.

إنّ كلّ قراءة متأنية للمشهد الإعلامي العربي، طيلة العقدين الأخيرين، حين تتعالى على عوامل التجاذب التي تخلّ بالموضوعيّة وبالإنصاف، تدرك أنّ أيّ تراجع للجزيرة هو بمثابة خسارة لكلّ العرب، لأنّها سجّلت حضورهم في أرفع مستويات المنافسة الإعلاميّة العالميّة، وجعلت تدفّق الأخبار والمعلومات يتّجه لأوّل مرّة من الجنوب نحو الشمال، بعد أن كان ينساب دوما في الاتجاه المعاكس. إنّ أفول مشروع الجزيرة الذي يتمنّاه كلّ خصومها الذين انزعجوا من منسوب الحريّة المرتفع لديها، ومن انفتاحها على الآراء مهما اختلفت، يمثّل خسارة لكلّ العرب، لأنّ نجاح تلك التجربة، لم تصنعه فقط إرادة بلد صغير كبر بمفعول الجزيرة، بكل ما ترتّب عن أدائها من ضجر الأنظمة العربية وحلفائها، بل صنعته أيضا همم إعلاميين وقع انتخابهم لكفاءتهم من كلّ الأقطار العربية، فتحمّسوا لمشروع الجزيرة وتألّقوا في جعل قناتهم تكسب رهان المنافسة العربية، وتتمركز ضمن أبرز القنوات الإخبارية العالميّة.

على العرب أن يدركوا أنّهم، طيلة العقود الأخيرة، لم يقدروا على صناعة زعامات فذّة لها مشاريع جامعة تلتفّ حولها شعوبهم، ولم ينجحوا في إنتاج قامات ثقافيّة وعلماء مجدّدين يصلون بفكرهم وإبداعهم لهموم النّاس ومشاكلهم اليوميّة؛ لكنّهم قادرون بوضوح الرؤيا والإرادة والتخطيط على بعث مؤسسات ناجحة تقدر على المنافسة العالميّة، والجزيرة هي أحد أمثلة المشاريع الناجحة، في مجال شديد الحيويّة كالإعلام الذي يلج إلى أمّهات القضايا والأحداث فيغطّيها برؤية تحترم حقوق الأمّة وتاريخها ومستقبلها. إنّ تعامل الجزيرة مع حروب المقاومة العربيّة في جنوب لبنان وفي قلب فلسطين، كانت منحازة لشعوبها وحقوقهم المشروعة. وفي تغطيتها للحرب الأميركية على العراق، وعلى أفغانستان، كانت رواية الجزيرة مخالفة لرواية CNN حدّ التناقض. كما أنّ بوصلة الجزيرة في تغطية ثورات الربيع العربي لم تكن ضدّ إرادة الشعوب ولا مقاصدهام، ويجب ألا تحيد عن ذلك مهما كان حجم الدسّ والارتداد.

ليس معنى الخطاب تقديس تجربة الجزيرة وجعلها، فيما يتّصل بتغطية الثورات العربيّة أو ما يتعلّق بأدائها الإعلامي بصورة عامّة، فوق طائلة النقد والتقييم والمراجعة؛ على العكس من ذلك، تحتاج تجربة الجزيرة أن تخضع للتقييم والمراجعة، كما يقع في منتدياتها باستمرار. وأن يشارك في ذلك خبراء ومختصون يرومون البناء على نجاحها من أجل المواصلة والتطوير، ويتّسع تقييمها لجمهورها العريض من أجل كسب استمراره وتوسّعه.

يحتاج العرب إلى أكثر من مؤسّسة ناجحة على منوال نجاح الجزيرة في الإخبار، والرياضة، فمجالات الإنتاج السينمائي والتلفزيوني، وكلّ مجالات الفنون والتربية هي في أمسّ الحاجة إلى مشاريع عربيّة رائدة تتّسع للمبدعين منهم في كلّ مجال، لأنّ صورة العرب التي كثيرا ما شوّهتها السينما الهوليوودية، ولم يعطها الإعلام العالميّ حقّها بل تجنّى عليها، تلك الصورة لا يمكن أن تقوم عليها إلاّ مؤسّسات عربيّة تستبطن قضايا الأمّة وتذود عنها، وقد قدّمت الجزيرة تجربة يمكن أن تُحتذى ويقاس عليها.

المراجع

المراجع العربيّة:

غريب، إدموند، و منصور، خالد: **الإعلام العربي على مشارف القرن الحادي والعشرين: بين مطرقة ا لعولمة وسندان الدولة**، بيروت، 2000.

الحويّـك، حياة: **الفضائيّات الإخباريّة العربيّة بين عولمتين**، منتدى المعارف، بيروت، 2013.

سيب، فيليب: **تأثير "الجزيرة**: كيف يعيد الإعلام العالمي الجديد تشكيل السياسة الدوليّة، ترجمة عز الدين عبد المولى، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، 2011.

حجاوي، عارف وآخرون: "دور الجزيرة في الثورات العربيّة 2011" في: **الثورات وعالمنا العربي**، بيروت، مؤسسة هاينريش بول، 2011.

الجزيرة. نت، "استهداف الجزيرة... مسلسل لا يتوقّف"، (زيارة بتاريخ 2015/03/15):
http://www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews/2014/7/22/

خشانة، رشيد: "الصحافة في بلدان الربيع العربي: بعض الإعلام خرج من عباءة الأنظمة ليدخل تحت جناح سلطان المال"، **سويس إنفو**، 27 أفريل 2012. (زيارة بتاريخ 2015/03/22):
http://www.swissinfo.ch/ara/32569638

غيدار، ماتيو: "حوار فرنسا 24"، يوليو 2011. (زيارة بتاريخ 2012/05/12):
http://www.france24.com/ar/20110721-mathieu-guidère

"انتقادات لـتجاهل قناة الجزيرة تغطية الاحتجاجات في اليمن والسلطات تمنع موفدي القناة من مواصلة العمل وتطلب منهما مغادرة البلاد فوراً"، في **المصدر أونلاين**، 26 فبراير 2011. (زيارة بتاريخ 2013/08/23):
http://almasdaronline.com/article/16819

الشلفي، أحمد في "انتقادات لـتجاهل قناة الجزيرة تغطية الاحتجاجات في اليمن والسلطات تمنع موفدي القناة من مواصلة العمل وتطلب منهما مغادرة البلاد فوراً" **المصدر أونلاين**، 26 فبراير 2011. (زيارة بتاريخ 2013/08/23):
http://almasdaronline.com/article/16819

عطوان، عبد الباري: جريدة **الأخبار اللبنانية**، العدد 2281، 28 أبريل 2014.

فوده، يسري، جريدة **الشرق الأوسط**، العدد 11853، 12 مايو 2011.

"الجزيرة تسعى للحفاظ على دورها في ظل مشهد إعلامي عربي متغير"، جريدة **القدس العربي**، 4 يونيو 2013. (زيارة بتاريخ 2013/08/23):
http://www.alquds.co.uk/?p=50467

وزراء الإعلام العرب، نص وثيقة **مبادئ تنظيم البث والاستقبال الفضائي الإذاعي والتلفزيوني في المنطقة العربية**، سنة 2008، البند السابع، النقطة الرابعة.

رايس، كوندوليزا، كاتبة الدولة للشؤون الخارجية الأميركية: **خطاب في الجامعة الأميركية بالقاهرة**، 20 يونيو 2005.
http://usinfo.state.gov/fr/Archive/2005/Jun/21-182034.html

وليد حسني، زهرة: **خطاب الكراهية والطائفية في إعلام الربيع العربي**، مركز حماية وحرية الصحفيين، الطبعة الأولى، عمان، الأردن، 2014.
http://www.wasatyea.net/?q=content/

الشيخ، أحمد، رئيس تحرير سابق بالجزيرة، مقابلة مع الباحث، الدوحة، مارس 2011.

خنفر، وضّاح، المدير العام السابق للجزيرة، مقابلة مع الباحث، الدوحة، مارس 2011.

المراجع بلغات الأجنبيّة:

Assange, J. "*WikiLeaks", Le Monde*, 11 March 2011.

Ben Hamadi, S "Al Jazeera en Difficultés dans les Pays du Printemps Arabe", *Huffington Post Magreb*, (Retrieved: 7/11/2013).
http://www.huffpostmaghreb.com/2013/07/10/al-jazeera-difficultes_n_3572469.html/

Bénilde, M. "La Révolution Arabe: Fille de l'Internet?", *Le Monde Diplomatique*, (Retrieved: 25/6/2013).
http://blog.mondediplo.net/2011-02-15-La-revolution-arabe-fille-de-l-Internet/

Eickelman, D. F. "The Arab "Street" and the Middle East's Democracy Deficit", *Naval War College Review*, Autumn 2002, Vol. 40, No 4, pp. 39-48.

El-Mili, N. B. "Comment les Arabes ont été Manipulés", *Le Grand Soir*, 18 Novembre 2012, (Retrieved: 20/7/2014).
http://www.legrandsoir.info/comment-les-arabes-ont-ete-manipules.html/

El Oifi, M. "Al-Jazeera: Les Ressorts Incertains de l'Influence Médiatique", *CERISCOPE Puissance*, 2013, (Retrieved: 21/02/2015).
http://ceriscope.sciences-po.fr/puissance/content/part2/al-jazeera-les-ressorts-incertains-de-l-influence-mediatique/

El Oifi, "Influence without Power: Al-Jazeera and the Arab Public Sphere", *in* Mohamed Zayani, *The Al-Jazeera Phenomenon: Critical Perspectives on New Arab Media*, Pluto Press, 2005.

El Oifi, "L'effet Al-Jazeera", *Politique Étrangère*, Automne 2004, Vol. 69, No 3, pp. 649-660.

El Oifi, "L'Opinion Publique Arabe entre Logiques Etatiques et Solidarités Transnationales", *Raisons Politiques*, No 19,3/2005, p. 45-62.

Fandy, M. "Information Technology, Trust, and Social Change in the Arab World", *The Middle East Journal*, Vol. 45, No 3, Summer 2000, pp. 378-394.

Guidère, M. *Le Choc des Révolutions Arabes*, Paris, Ed. Autrement, Coll. Frontières, 2° ed., 2012.

Lamloum, O. *Al-Jazira: Miroir Rebelle et Ambigu du Monde Arabe,* Paris, La Découverte, 2004.

Lynch, M. *Voices of the New Arab Public: Iraq, Al-Jazeera, and Middle-East Politics Today*, New York Columbia University Press, 2006.

Schleifer, A. "Media Explosion in the Arab World: The Pan-Arab Satellite Broadcasters", *Transnational Broadcasting Studies Journal*, No 3, 1999.

Zakhour, L. "Printemps Arabe: de l'Imaginaire au Réel", *Hermès***,** *La Revue*, No 61, Paris, 2011/3, p.p 212-218.

الفصل الثالث

الجزيرة في المجال الأكاديمي

الجزيرة في الوسط الأكاديمي

شون باورز

مدير مركز الدراسات الدولية للمعلومات،

وأستاذ الإعلام الدولي في جامعة جورجيا ستيت بالولايات المتحدة

مقدمة

مع حلول العام 2000، أي بعد مرور أربع سنوات فقط على إطلاقها، أضحت الجزيرة موضوعًا أساسيًّا للاهتمام والبحث الأكاديمي. في البداية، كان ذلك الاهتمام مدفوعًا، في جزء كبير منه، بجهد يسعى للوقوف على فهمٍ أفضل وتفسير أوضح لأهمية الشبكة وأثرها في تشكيل الخطاب السياسي بمنطقة الشرق الأوسط. وزاد من قيمة الجزيرة بحثياً كونها تتمتع بموقع تتقاطع عنده مجالات دراسية متعددة ومتداخلة؛ من بينها، على سبيل الذكر لا الحصر: صناعة الإعلام، والصحافة، والدبلوماسية العامة، والديمقراطية التداولية. وهكذا، لم ينحصر الاهتمام في تخصص بعينه، بل عمد الباحثون من شتى أنحاء العالم إلى استقصاء أهمية الجزيرة وأثرها داخل كل حقل من هذه الحقول الدراسية وعبرها.

يستعرض هذا الفصل أهم الإصدارات الأكاديمية (كتبًا ومقالات منشورة في دوريات محكَّمة وفصولًا في كتب) التي تناولت الاتجاهات والإسهامات والنتائج المستقاة من البحوث الحالية. وتخلَّل ذلك ترميز المنشورات وتصنيفها بهدف الوقوف على فهم أوفى للكيفية التي تناولت بها تلك البحوث شبكة الجزيرة، مع استقصاء أوجه التكامل والتداخل بين المقاربات والمناهج المستخدمة. كما يُولِي هذا الفصل اهتمامًا خاصًّا لفهم كيفية إسهام الجزيرة في توفير خلفية ميدانية لتطوير عدد من الأطر والمقاربات النظرية حول الإعلام العالمي (وما يتصل به من سياسات)، علاوة على النظر في كيفية إسهام تلك البحوث في بناء مناهج متقدمة لدراسة المؤسسات الإعلامية العالمية. ويقف هذا الفصل أيضًا على بعض أوجه القصور في ما أُنجز من دراسات، كما يُنوِّه بأفضل الممارسات البحثية التي تناولت الجزيرة وغيرها من شبكات الإعلام العالمية العابرة للحدود.

منهجية البحث وإطاره النظري

يتناول هذا الفصل بالتحليل 98 دراسة أكاديمية نشرت حول الجزيرة (تفصيلها في الجدول رقم (1): "عدد الإصدارات التي خضعت للتحليل"). ويدخل ضمنها مقالات منشورة في دوريات أكاديمية، وكتب، وفصول منشورة في مؤلَّفات جماعية. وقد وقع الاختيار على الإصدارات المذكورة وفق المعايير التالية:

(1) أن تكون منشورة (أي ليست مسوَّدة، أو أطروحة، أو رسالة تخرُّج).

(2) أن تكون مُعَدَّة في الأصل للجمهور الأكاديمي.

(3) أن تضم كلمة "الجزيرة" (أو اشتقاقًا قريبًا منها) في العنوان أو في ملخص الإصدار[9].

أمَّا الإصداران المحرَّران الأهم في هذا الاستعراض المركَّز على شبكة الجزيرة فهما: المؤلَّف الجماعي من تحرير "زياني" (2005) بعنوان "ظاهرة الجزيرة"؛ والمؤلّف الجماعي من تحرير سيب (Seib, 2012) بعنوان "الجزيرة الإنجليزية". وقد وقع تصنيف كل فصل في هذين المؤلَّفَين، وتحليله باعتباره إسهامًا منفصلًا في الأدبيات المتعلقة بالجزيرة[10]. تجدر ملاحظة أن المعايير المذكورة أعلاه تستبعد، بالضرورة، العديد من الإسهامات المعروفة ولكن غير المتخصصة (أي غير الأكاديمية) التي تخاطب الجمهور الواسع بغرض تقديم فهم عام للجزيرة وأثرها في منطقة الشرق الأوسط وفي صناعة الإعلام. من بين تلك الإسهامات، "النواوي وإسكندر" (2003) بعنوان "الجزيرة: قصة الشبكة التي أقضَّت مضاجع الحكومات وأعادت تعريف مهنة الصحافة"؛ ومايلز (Miles, 2005) بعنوان "الجزيرة: القصة الداخلية للقناة الإخبارية العربية التي تناطح الغرب"؛ وراشينغ (Rushing, 2006) بعنوان "الجزيرة كمهمة: بناء جسر والبحث عن الحقيقة وتغيير العالم"؛ وتاثام (Tatham, 2006) بعنوان "خسارة قلوب العرب وعقولهم". كما تستبعد تلك المعايير المذكورة الكثير من أطروحات التخصص والبحث المكتوبة عن الجزيرة، علمًا بأن "نصر وعبد المولى" (2013) قد جمعا قائمة شاملة بتلك الأطروحات (وغيرها من الإصدارات) في مصنفهما "دليل البحوث الأكاديمية حول عن الجزيرة".

الجدول رقم (1): عدد الإصدارات التي خضعت للتحليل

	الدراسات الصحفية	الجغرافيا السياسية	التواصل الثقافي	الفضاء العام	المناهج	الإجمالي
عدد الأعمال التي خضعت للتحليل	55	18	15	8	2	98

سعيًا إلى الوقوف على فهم أفضل لمواطن التركيز الأولى والثانية والثالثة للجهد البحثي المتعلق بالجزيرة، فقد تم ترميز كل إصدار من الإصدارات الـ98 المشمولة في هذا العرض باعتبارها مساهمة بالأساس في واحدة

[9] اعتمدنا في البحث عن الإصدارات التي خضعت للتحليل مجموعة من المصادر، من بينها: مكتبة الكونغرس، وخاصية Google Scholar، وخاصية Google Books، وخاصية Amazon للبحث عن الكتب، ومحرك Galileo وEBSCOhost وJSTOR.

[10] هناك إصدار ثالث من مؤلَّف جماعي بعنوان "كوالالمبور تنادي: الجزيرة الإنجليزية في آسيا" (2008)، وقد خضع هو أيضاً للمراجعة. ووجدنا أن فصلين منه (باورز، والنووي وكريدي) يمكن إدراجهما ضمن الأعمال الأكاديمية، وبالتالي فقد خضعا للتحليل في هذا الفصل. أما الفصول المتبقية فكانت قائمة على الممارسة؛ ولذلك لم تدخل ضمن التحليل.

من الفئات الخمس الآتي ذكرها: الدراسات الصحفية (55 إصدارًا)، والدراسات في الجغرافيا السياسية (18 إصدارًا)، والتواصل الثقافي (15 إصدارًا)، والفضاء العام (8 إصدارات)، والمناهج المستخدمة (إصداران). وأعقب ذلك تصنيف الإصدارات ضمن عناوين موضوعات فرعية حسب المبين أدناه. ولم تكن تلك الفئات أحادية الموضوع بطبيعة الحال، بل إنها تناولت أكثر من موضوع من الفئات آنفة الذِّكر، حتى ولو بصورة جزئية. وثمة تداخل بين العديد من الفئات كما سنبيِّن لاحقًا. غير أن تحديد هذه الفئات المتمايزة نوعًا ما، من شأنه تسهيل عملية البحث وتحليل مجموعة كبيرة من الكتابات المعنية بشبكة الجزيرة. ومن شأن ذلك أيضًا، أن يبيِّن بدقة كيف توزَّعت البحوث المتعلقة بالجزيرة على العديد من المجالات والتخصصات البحثية.

جاء استحداث الفئات الخمس المذكورة بناء على تواترها أثناء مراجعتي لجميع الإصدارات الأكاديمية حول الجزيرة. وسعيًا إلى تيسير هذا المبحث، أجريتُ تحليلًا للتكرار اللفظي في جميع النصوص (مجتمعةً) كما هو مبين في الجدول رقم (2) الذي يضم الكلمات الخمس والعشرين الأكثر استخدامًا وتكرارًا. وقد أسهم هذا التحليل في رصد مجموعة متنوعة من الفئات، وفي رصد التداخل فيما بينها.

الجدول رقم (2): الكلمات الأكثر تكرارًا

الكلمة	مرات التكرار	الفئات
الإعلام/وسائل الإعلام	7339	الدراسات الصحفية (JS)، الفضاء العام (PS)
عربي/العرب	6618	التواصل الثقافي (CC)، المناهج (M)، الجغرافيا السياسية (G)
الأخبار/إخباري	6519	الدراسات الصحفية (JS)، الحيز العام (PS)
العالم/عالمي	2878	التواصل الثقافي (CC)، الجغرافيا السياسية (G)
الجزيرة الإنجليزية	2713	الدراسات الصحفية (JS)، التواصل الثقافي (CC)
العامة/العام/شعبية	2617	الدراسات الصحفية (JS)، الفضاء العام (PS)
سياسي	2572	الدراسات الصحفية (JS)، الفضاء العام (PS)

قناة	2189	الدراسات الصحفية (JS)
التغطية	2059	الدراسات الصحفية (JS)
الحرب	1973	الجغرافيا السياسية (G)، الدراسات الصحفية (JS)
دولي/عالمي	1953	الدراسات الصحفية (JS)، التواصل الثقافي (CC)، الجغرافيا السياسية (G)
الإنجليزية	1554	التواصل الثقافي (CC)، المناهج (M)
التلفزيون/متلفز	1481	الدراسات الصحفية (JS)، الفضاء العام (PS)
عالمي	1460	الجغرافيا السياسية (G)، التواصل الثقافي (CC)
الاتصال/التواصل	1373	الدراسات الصحفية (JS)، التواصل الثقافي (CC)، الفضاء العام (PS)
اصطناعي/قمر صناعي	1334	الدراسات الصحفية (JS)
قطر/دولة قطر	1332	الجيوسياسية (G)
صحافة/صحفي	1331	الدراسات الصحفية (JS)، الفضاء العام (PS)
بي بي سي	1317	الدراسات الصحفية (JS)، الجغرافيا السياسية (G)
أميركي	1301	الجغرافيا السياسية (G)، التواصل الثقافي (CC)
شعبي/شعب/جماهيري	1162	الفضاء العام (PS)
غربي	1145	الجغرافيا السياسية (G)، التواصل

		الثقافي (CC)
سي إن إن	1134	الدراسات الصحفية (JS)، الجغرافيا السياسية (G)
دولة/حكومي	1097	الجغرافيا السياسية (G)، التواصل الثقافي (CC)
عربي/عربية	1058	الجغرافيا السياسية (G)، التواصل الثقافي (CC)، المناهج (M)

الاختصارات الإنجليزية: انظر المعاني العربية الواردة وقريناتها بالجدول.

1. **الدراسات الصحفية**: تركِّز هذه الفئة البحثية على علاقة الجزيرة بالتوجهات السائدة في صناعة الصحافة الأوسع نطاقًا، بما في ذلك الممارسات الصحفية، وأخلاقيات المهنة، ومدونات السلوك، واستخدام التقنيات الحديثة في مجال الإعلام ضمن جهود الإنتاج الإخباري، واستراتيجيات الانتشار، والاستعانة بالمواطن الصحفي، ودراسة الجمهور، والتغطيات الخاصة، فضلًا عن علاقتها بسياسات الهوية ذات الأبعاد العربية والإسلامية والنسوية. وقد حددنا من خلال تحليل البيانات الفئات الفرعية التالية وقمنا بترميزها: تغطية الصراعات (14)؛ ودراسات الجمهور (10)؛ والتحليل التنظيمي (9)؛ والجنوب العالمي (8)؛ ودراسات صناعة الإعلام (5)؛ والربيع العربي (3)؛ والمواطن الصحفي (3)؛ وسياسات الهوية (3).

2. **الجغرافيا السياسية**: أي البحوث المتعلقة بالجغرافيا السياسية للمنطقة التي تنطلق منها الجزيرة وتؤثِّر فيها، والتي وقع التركيز فيها على علاقة شبكة الجزيرة بالحكومة القطرية، وأثرها في السياسات الدولية، وقدرتها على تحدي الهيمنة التي تمارسها المؤسسات الغربية سعيًا لتشكيل الأولويات الإخبارية العالمية. وقد تم رصد الفئات الفرعية الآتي بيانها وترميزها رقميًّا ضمن هذه الفئة: الرأي العام (8)؛ والجنوب العالمي (5)؛ وقطر (5).

3. **التواصل الثقافي**: في ظل توسع الجزيرة في عملياتها وشروعها في بثِّ أخبارها باللغة الإنجليزية خارج منطقة الشرق الأوسط، أقدم الباحثون على دراسة إمكانية إسهام الشبكة في تعميق فهمنا للصراعات والمظالم وأوجه التفاوت، لا سيما تلك التي لا تحظى منها بتغطية شاملة دقيقة أو منهجية من جانب المؤسسات الإخبارية الغربية. وقد تم رصد الفئات الفرعية الآتي بيانها وترميزها رقميًّا ضمن هذه الفئة: الجزيرة في الغرب (8)؛ وصدام الحضارات (7).

4. **الفضاء العام**: درس الباحثون أيضًا طبيعة إسهام تغطية الجزيرة الإخبارية في توجيه الجماهير إلى قضايا اجتماعية وسياسية مهمة، لا سيما في العالم العربي. وقد استخدمت تلك الدراسات في الغالب أدوات منهجية من قبيل مجموعات التركيز والمقابلات الشخصية والاستبانات، بهدف الوقوف على مدى شعبية الجزيرة وتأثيرها في تشكيل الأجندة الإخبارية بالمنطقة، فضلًا عن فهم دورها في إدارة النقاش وتعزيز المداولات الديمقراطية (8).

5. **المناهج المستخدمة**: استخدم الباحثون أيضًا الجزيرة كعدسة يمكن من خلالها الوقوف على جدوى مناهج البحث التقليدية وقابليتها للتطبيق على الظواهر الجديدة، بما في ذلك المناهج التي اعتمدها باحثون إعلاميون في دراسة أساليب المؤسسات الإخبارية في عرض وتأطير الأحداث الجارية، وبحث السبل التي تتمكن من خلالها سياسات الهوية من التأثير في المسائل المتعلقة بالوصول إلى البيانات (2).

الدارسات الصحفية

لم يكن مفاجئًا أن يدخل العدد الأكبر من الدراسات الأكاديمية حول الجزيرة ضمن فئة "الدراسات الصحفية"؛ فالجزيرة مؤسسة إخبارية رائدة في نهاية المطاف. غير أن دافع تلك الطفرة في الاهتمام البحثي بشبكة الجزيرة لم يقتصر على كونها أحدث مؤسسة إخبارية دولية فحسب، بل إنه يتسع ليشمل قصة نشأتها، وموقعها، ونموذجها المؤسسي، ونهجها المثير في صناعة غَلَبَ عليها التقليد وحبسها في فَلَكِهِ.

ونقصد بعبارة "قصة النشأة" أن الحكومة القطرية أطلقت الجزيرة في العام 1996 في مسعى منها لتحدي المؤسسات الأخرى المدعومة من دولها، والتي تهدف، بالدرجة الأولى، إلى التحكم في تدفق المعلومات الواردة إلى المنطقة والمتداولة داخلها. وقد وظَّفت الجزيرة عند انطلاقها نحو 120 صحفيًّا كانوا قد فقدوا وظائفهم، إثر وقف بثِّ "بي بي سي العربية"، وقدَّمت لهم منحة سخية من الحكومة القطرية؛ فجاء دخول الجزيرة إلى المشهد الإعلامي العربي فريدًا من نوعه. ولما كانت النظرة إلى الحكومة القطرية، في حينها، مبرَّأة من السعي وراء الهيمنة الإقليمية، فقد تمكنت الجزيرة من إرساء مصداقيتها لدى جمهورها بأساليب تعذَّر على الشبكات الإخبارية الأخرى (المدعومة من الدول) مضاهاتها فيها. بالإضافة إلى الموارد البشرية والمالية المتاحة (وكلاهما أسهم في تقديم منتَج غاية في المهنية)، حظيت القناة أيضًا بحرية كافية لإنتاج محتوى وسَّع من الحدود التي كانت مقبولة حينها في الأوساط الإخبارية في المنطقة.

أمَّا "موقع" الجزيرة فكان له أثره الأكاديمي أيضًا، بشقيه اللغوي والرمزي؛ فقد قدمت القناة الوليدة محتوى برامجيًّا وإخباريًّا باحترافية عالية، من منظور جمالي وتقني، يضاهي المستوى الذي ينتظره المرء من "سي إن إن العالمية" أو "سكاي نيوز". وما زاد من أهمية ذلك المحتوى، كونه يأتي من منطقة لم تكن معروفة من

قبل بإنتاج محتوى إعلامي قادر على منافسة التطور التقني والمهنية العالية لدى الوكالات الإخبارية الغربية. بفضل ذلك، أصبحت القناة بمثابة القلب الرمزي للمواطنين العرب في مختلف أرجاء المنطقة، وبات اسمها دليلًا على النموذج أو المثال الذي يتمنى الكثيرون أن يحذو الإعلام العربي حذوه: أي مؤسسات تنطلق من العالم العربي بقيادة عربية تقتبس عددًا من الممارسات المهنية من المؤسسات الغربية، مع المحافظة على طابعها المتجذِّر في أصالته ومحليته.

علاوة على ما سبق، تتخذ شبكة الجزيرة من مدينة الدوحة القطرية مقرًّا لها، وهو ما أتاح لها سهولة الوصول إلى الصفوف الأمامية في عدد من الصراعات التي من شأنها أن تصبح محورية في الساحة الدولية؛ بما فيها الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني، والحرب في العراق وأفغانستان، وما أعقب ذلك من أحداث الربيع العربي في تونس ومصر واليمن وليبيا وسوريا. أتاح هذا الموقع للشبكة مزايا ثقافية وتكتيكية عند تغطية أخبار المنطقة؛ إذ لم يكن الأمر مقتصرًا على امتلاك مراسلي الشبكة دراية ثقافية أفضل بالواقع المحلي وحسب، بل أتاح لهم ذلك أيضًا إقامة شبكة من العلاقات التي تمكِّنهم من الوصول إلى الأخبار وتحقيق مستوى أفضل من التواصل مع الجماهير المحلية. كما أتاح لهم قربهم من مواقع الأحداث في أحيان كثيرة، تحقيق السبق على غيرهم في الوصول إلى تلك المواقع.

إن بزوغ نجم الجزيرة من حيث الشهرة الإقليمية، ثم توسعها إلى أسواق الأخبار الإقليمية والعالمية بفضل برامجها الناطقة بالإنجليزية والتركية والبلقانية (البوسنية-الصربية-الكرواتية)، جاء في وقت كانت المؤسسات الإخبارية في شتى أنحاء العالم تصارع فيه من أجل المحافظة على وضع مالي مستدام. أما النموذج الاقتصادي للجزيرة، الذي يمزج بين الإعانات من الدولة والعوائد من حقوق البثِّ الحصري للبرامج الرياضية الشهيرة، بالإضافة إلى بعض الخدمات الإعلانية، فقد مكَّنها من تجنب العاصفة، بل وأتاح لها، علاوة على ذلك، فرصة التوسع في فترة شهدت جنوح المؤسسات الإخبارية العالمية لتقليص أعمالها وتكاليفها.

أما النهج "المثير" فنقصد به الأسلوب الصحفي الذي خرج عن العادات المألوفة في عمل شبكات الأخبار الإقليمية والعالمية؛ فلم تشتبك الجزيرة صراحةً مع المسؤولين الحكوميين بالمنطقة فحسب (قصد مساءلتهم عن مختلف الاتهامات الموجهة لهم بالفساد واستغلال النفوذ)، بل عمدت أيضًا إلى بث لقاءات مع مسؤولين إسرائيليين، وهو ما كان مرفوضًا تمامًا وفق المعايير الإعلامية العربية في حينه. في الوقت ذاته، اصطبغت تغطية الجزيرة للصراعات بتحدي المعايير الغربية للصحافة؛ فقد عُرف صحفيو الجزيرة بالقرب من أماكن الصراعات وبالمراسلة الإخبارية الميدانية، وهي ممارسة كفلت للشبكة "الموضوعية السياقية" أو التغطية المستظِلَّة برؤية الأحداث بأعين المجتمع المحلي (النواوي وإسكندر، 2003). بعبارة أخرى، لم تخش الجزيرة من الحديث إلى مجموعات مصنَّفة كأعداء أو كإرهابيين ونقل أخبارها، لا لشيء إلا لأن بعض الحكومات صنَّفها كذلك. فمثلًا، أذاعت الشبكة في العام 1999 حوارًا مدته تسعون دقيقة مع أسامة بن لادن، وكان آنذاك حوارًا فريدًا من نوعه بالنسبة إلى الجمهور العربي.

اتجه كل إصدار من الإصدارات الخمسة والخمسين، التي خضعت للتحليل ضمن فئة الدراسات الصحفية، إلى النظر في أداء الجزيرة من منظور أهميتها في صناعة الأخبار في المقام الأول، ثم أثرها في بيئتها الإعلامية،

وكذلك من زاوية فهمنا لطريقة عمل المؤسسات الصحفية في أجزاء مختلفة من العالم. وقد ركَّز السواد الأعظم من تلك الدراسات على تغطية الصراعات (14 دراسة)، تليها دراسات الجمهور (10 دراسات)، ثم التحليل المؤسسي (9 دراسات)، ثم الجنوب العالمي (8 دراسات)، ثم دراسات صناعة الإعلام (5 دراسات)، ثم الربيع العربي (3 دراسات)، ثم المواطن الصحفي (3)، وأخيرًا سياسات الهوية (3 دراسات).

الجدول رقم (3): الفئات الفرعية للدراسات الصحفية

	تغطية الصراعات	دراسات الجمهور	الدراسات المؤسسية	الجنوب العالمي	دراسات صناعة الإعلام	الربيع العربي	المواطن الصحفي	سياسات الهوية
عدد الإصدارات التي خضعت للتحليل	14	10	9	8	5	3	3	3

1. تغطية الصراعات: يستند جزء من شعبية الجزيرة، بشقيها الإيجابي والسلبي، إلى تركيزها الدائم على تغطية تبعات الحروب على الأوضاع الإنسانية؛ فقد كان أسلوبها المنهجي في تغطية الحرب في العراق وأفغانستان، مختلفًا عن الكثير من الشبكات الإخبارية الغربية. والأمر ذاته ينسحب على كيفية تأطيرها للحرب ولأهدافها. ونتيجة ذلك فقد وجدنا اهتمامًا كبيرًا من قبل الباحثين باختلاف تغطية الجزيرة للحروب عن الشبكات الإخبارية الأخرى، وكذلك باختلاف التغطية بين مكونات الشبكة ذاتها (الجزيرة العربية والجزيرة الإنجليزية).

ركزت خمس دراسات حول تغطية الجزيرة للحرب على العراق و/أو أفغانستان على تغطية الشبكة باللغة العربية، وانتهت إلى أن تغطيتها اختلفت جذريًّا، وربما كانت متناقضة مع تغطية التيار السائد في الإعلام الغربي للحربين (الجنيبي 2010؛ بارخو، 2010؛ بسيسو 2005؛ كولمور وسيميتكو (Kolmer and Semetko)، 2009؛ ساموبل–أزران (Samuel-Azran)، 2012). وفي موضوع متصل، ركزت أربع دراسات على تغطية الشبكة للصراع الإسرائيلي-الفلسطيني، مقارنة، كالمعتاد، بالمؤسسات الإخبارية السائدة الأخرى (المصري والشامي ومانينغ (Manning)، 2013؛ غيلبوا (Gilboa)، 2012؛ نجار ميريمان (Merriman)، 2012؛ زياني، 2005). ركزت تلك الدراسات على طبيعة تغطية الجزيرة للإرهاب والمنظمات المدرجة على قوائم الإرهاب، ورصدت اختلاف التغطية عن الشبكات الأخرى في هذا الصدد (فهمي وعماد، 2012؛ غيرهاردس وشيفر (Gerhards and Schäfer)، 2013؛ زينغ وتاهات (Zeng

and Tahat)، 2012). أما دراسة النواوي (2010) فقارنت بين تغطية الجزيرة الإنجليزية وتغطية "سي إن إن" للانتخابات الرئاسية الإيرانية في 2009، وهي دراسة مدرجة في تلك الفئة نظرًا لأن جوانب كثيرة من تلك التغطية وقع تأطيرها ضمن سياق أوسع للعلاقات الإيرانية-الغربية والطموحات الإيرانية الإقليمية. أمَّا فيغنسكو (Figenschou)، 2011، ص. 233) فقد خرجت عن منهجية البحث الذي يركِّز على تغطية قضية بعينها، وتناولت تغطية الجزيرة الإنجليزية "للمعاناة البعيدة"، لتنتهي إلى أن "القناة تقترب وتعاين وتكشف وتشخصن وتعرض تجربة المعاناة في الصراعات والكوارث"، بصورة تؤدي إلى "توليد مشاعر قوية من التعاطف لدى جمهور المتلقين".

2. دراسات الجمهور: من العناصر المهمة في أداء الجزيرة كيفية تجاوب جمهور متابعيها مع خريطتها البرامجية؛ ففي المنطقة التي تنطلق منها، ظلَّت هي أكثر القنوات الإخبارية الإقليمية شعبية على الإطلاق بين عامي 1996 و2006. وهي تحديدًا، الفترة التي يُشار إليها أحيانًا بعبارة "عشرية الجزيرة" (عبد المولى، 2006). في هذه الفئة، اهتمت الدراسات على وجه الخصوص بفهم سبب انجذاب الجمهور العربي (أو عدم انجذابه) إلى الجزيرة (عرفة وأوتر (Auter) والجابر، 2005؛ أوتر وعرفة والجابر، 2005؛ جمال وميلكوت (Melkote)، 2008). كما اهتمت برأي الجاليات العربية في الغرب وبنظرتها للقناة (ميلادي، 2006؛ سينارديت ومورتلمانز (Sinardet and Mortelmans)، 2006).

تُعتبر دراسات فهمي وجونسون (Johnson) على الجمهور من أكثر الدراسات شمولًا في مجالها، فقد بحثتا في استجابة الجمهور لاستخدام "العنف المصور" (فهمي وجونسون، 2007 أ)، وفي أوجه الترابط بين معدل المتابعة للجزيرة ودعم حرية الصحافة (فهمي وجونسون، 2007 ب)، بالإضافة إلى دراستين منفصلتين عن تقييمات الجمهور لمصداقية الشبكة (جونسون وفهمي، 2008؛ وجونسون وفهمي، 2009). إلى ذلك، بحث عبد المجيد (2008) في كيفية استجابة الجمهور لأخبار الجزيرة من خلال التعليقات الواردة على موقعها الإلكتروني، وقد لاحظ أن أخبارًا بعينها عن الصراعات كانت أقرب إلى حمْل الجمهور على إبداء تعليقات مقارنة بالأخبار ذات الاهتمام الإنساني.

3. التحليل المؤسسي: حظيت الجزيرة، بوصفها مؤسسة، باهتمام كبير تجلَّى في دراسات طالت هيكلها المؤسسي وثقافتها ونموذجها الاقتصادي؛ فقد أجرى "زياني وصحراوي" (2001) بحثًا شاملًا عن الثقافة المؤسسية للجزيرة، وتخلَّل ذلك استقصاء إثنوغرافي كثيف في غرفة الأخبار بالشبكة بغرض النظر في "السبب والكيفية وراء تمكُّن الجزيرة من التفوق على باقي المنصات الإعلامية الأخرى أو منافسة مؤسسة إعلامية في منطقة الشرق الأوسط". وانتهى الباحثان إلى أن نجاح الشبكة يُعزى إلى عدم قيامها على كفاءة أساسية بعينها، بل على مجموعة من العوامل من بينها المرونة والريادة العملية عند الموظفين والتفكير المستقل والتنمية الذاتية؛ فضلًا عن النموذج الاقتصادي الهجين والفريد من نوعه.

في نفس الصدد، يرى كوين ووالترز (Quinn and Walters) (2004)، أن الدفاع المستميت من قبل الجزيرة عن حرية التعبير ومناصرة مبدأ المساءلة ينبعان من هيكلها الفريد والدعم الذي تتلقاه من الحكومة القطرية، علمًا بأن الشبكة أرست أساس الثورة في الإعلام العربي، الذي سرعان ما شرعت وسائله في تقليد مسارها الرائد. أما عايش (2005)، فانصب بحثه على ظاهرة الجزيرة بمزيد من التفصيل، مركزًا على برنامج "الاتجاه المعاكس" من بين بقية البرامج الشهيرة المثيرة للجدل على شاشة القناة، مؤكدًا على بنية ذلك البرنامج المصممة خصيصًا لجذب انتباه الجمهور وتحقيق تجاوب قوي معه. من جهته، يرصد شليفر (2001) الصعود الصاروخي للجزيرة رابطًا إياه بحرب العراق في العام 1991 حين برز الإعلام العابر للحدود بقوة (متجسدًا آنذاك في تغطية شبكة "سي إن إن") وأعطى إشارة الانطلاق لتأسيس إعلام عربي يطمح إلى تغطية أخبار المنطقة استنادًا إلى رؤية ومنظور نابعين منها.

أما برخو (2011 أ، و2011 ب) فتناول أثر التوجيهات والأعراف الداخلية في الطريقة التي يضع بها صحفيو الجزيرة الأطر الإخبارية، بما في ذلك استخدامهم لمصطلحات وعبارات خاصة (من قبيل: متمرد، إرهابي، شهيد). وفي سياق متصل، قدَّم كريدي (2008) تقييمًا مقارنًا للاختلافات بين غرفتي الأخبار في الجزيرة العربية والجزيرة الإنجليزية، مشيرًا إلى الاختلاف بين الغرفتين في التعامل مع المسائل المتعلقة بالخطاب.

من ناحيتهما، تناول بويد-باريت وجي (Boyd-Barrett and Xie) (2008) نموذج الجزيرة الهجين الذي يجمع بين الدعم الحكومي والممارسات النيوليبرالية (مثل استغلال عوائد البرامج الرياضية في دعم التغطية الإخبارية للشبكة)، وبيَّنَا كيف أن ذلك النموذج ينسجم من ناحية مع فهمنا لنظريات الإمبريالية الإعلامية وللتوجهات التحررية، ومن ناحية أخرى، يزيد من تعقيد ذلك الفهم. فيما ركَّز "أشر" Usher (2013) على النموذج الاقتصادي الهجين للجزيرة، مبينًا أن انعدام الضغوط المستمرة التي تفرضها الحاجة إلى عوائد الإعلانات قد أتاح للشبكة تطوير استخدامها لوسائل الإعلام الجديد، كما أفسح لها المجال لمراعاة عادات الجمهور واستخداماته في عملية صناعة القرار بشأن تصميم محتواها الإعلامي.

4. الجنوب العالمي: تخصَّصت هذه الفئة الفرعية من الدراسات في تغطية الجزيرة للأحداث العالمية وكيفية تصويرها لتلك الأحداث وللأطراف الفاعلة فيها، لا سيما أولئك الذين لا يحظون بالاهتمام الكافي من قبل المؤسسات الإخبارية الغربية. وللتوضيح، فإن هذه الفئة الفرعية مختلفة عن الفئة الفرعية الأخرى الخاصة بالجغرافيا السياسية من حيث إن الإصدارات التي تمَّ بحثها هنا تركز بالأساس على الكيفية التي يعكس بها محتوى الجزيرة و/أو صحفيوها الجنوب العالمي، فيما تركز الأعمال المدرجة ضمن فئة الجغرافيا السياسية، بالأساس، على انعكاسات تلك الأجندة على السياسة الدولية والدبلوماسية العالمية.

أجرت تينا فيغنسكو العديد من الدراسات المهمة التي تناولت قدرة الجزيرة على تشكيل "تدفق عكسي" (والتعبير لدايا توسو Daya Thussu (2006)) للأخبار والمعلومات العابرة للحدود. في هذا السياق، تلاحظ فيغنسكو (2010، ص. 85) أن "القناة تبث أخبارًا أكثر عن الجنوب ومن الجنوب مقارنة بالشمال العالمي، كما أن الجنوب يحظى بتغطية عميقة في مختلف القوالب الإخبارية للقناة. وقد تعزز ذلك بعدد كبير من

المراسلين الميدانيين". وأشارت، مع ذلك، إلى اعتماد الشبكة البارز على نخبة ذكورية من "الخبراء" على شاشتها. إلى جانب ذلك، تستعرض فيغنسكو (2011) التحديات التي تواجه مقولة: "اختلاف" الجزيرة، فتقول إنه بالاستناد إلى الملاحظة والمقابلات التي أجرتها في غرفة الأخبار، تَبَيَّن لها أن صحفيي القناة لا يُجمعون على فهم واحد لما يسمى بالمناظير "الأخرى" التي ينبغي لهم إما تبنيها أو الامتناع عن الأخذ بها. في الوقت ذاته، ترى فيغنسكو (2012) أن استخدام الصور القوية في تغطية الشبكة للحروب والنزاعات ليس مدفوعًا برغبة في نقد المجهود الحربي في حدِّ ذاته، بل يرمي إلى إتاحة الفرصة أمام الجنوب العالمي (أي ضحايا عنف الحكومات والعنف غير الحكومي في هذه الحالة) لعرض أخباره وأحداثه على أعين العالم ومسامعه.

بعض الدراسات تطرق إلى مسألة "الجنوب العالمي" من منظور إقليمي؛ فمثلًا، بحث أرسينولت (Arsenault) (2012) في انتشار الجزيرة بإفريقيا وتغطيتها لها، فيما قارن ميليس ومولر (Mellese and Müller) (2012) بين تغطية الجزيرة لإفريقيا جنوب الصحراء وتغطية "بي بي سي" للمنطقة ذاتها. أما كوغيلمان (Kugelman) (2012) فقد ركَّز على انتشار الشبكة في جنوب آسيا، وتغطية شؤون الجنوب الآسيوي لا سيما باكستان.

إلى ذلك، بحث كل من "لوميس" Loomis (2009) والنجار (2009) في طبيعة "الاختلاف" أو معنى "العروبة" في المحتوى البرامجي للجزيرة الإنجليزية. وباستخدام منهج تحليل المحتوى المقارن، انتهى "لوميس" إلى أن خريطة البرامج في الجزيرة الإنجليزية تكاد تتطابق مع نظيراتها الغربية مثل "بي بي سي" و"سي بي إس" و"سي إن إن"، من حيث سُلَّم الأولويات وطبيعة المصادر. أما "النجار" فترى أن محتوى الجزيرة الإنجليزية حَادَ عن نظيره في الجزيرة العربية، وصرف تركيزه إلى الأخبار الأوروبية، لا إلى منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

5. دراسات صناعة الإعلام: ثمة مجال بحثي آخر تمثَّل في كيفية تأثير صعود الجزيرة في صناعتي الصحافة والإعلام بشكل عام؛ ففي حين يُصنَّف الكثير من الإصدارات ضمن فئة "التحليل المؤسسي" (3)، ينبغي الالتفات أيضًا إلى أهمية الجزيرة في صعود قطاع الإعلام العربي على وجه الخصوص، لأن ذلك لم يحظ بما يكفي من الاهتمام أو النقاش. وفي ما يلي سنلقي الضوء على الدراسات التي تنظر للجزيرة في سياق تأثيرها على صناعتي الإعلام الإقليمية والعابرة للحدود، ومدى أهمية ذلك التأثير.

حلَّل ميلادي (2003) الصورة التي أثَّرت بها مخرجات برامج الجزيرة وسياساتها التحريرية في طبيعة البث التلفزيوني لدى قنوات التلفزيون العربية. وانتهى بمناقشة كيفية نجاح الشبكة في تحدي التعريفات السائدة لمفهوم الحياد في التغطية الإخبارية في القطاع الإعلامي. أما زياني (2005، ص. 6) فوجد أن الجزيرة، وخلال سنوات قليلة من إطلاقها، "حفزت حسَّ التنافسية لدى بعض وسائل الإعلام العربية السائدة، وسرَّعت من وتيرة مأسسة التوجهات الجديدة في برمجتها"، مُبرزًا موجة من التوجهات التي ظهرت مثل المقابلات الحية والمكالمات المباشرة والبرامج التفاعلية وغيرها مما نشرته الشبكة وحبَّبته إلى الجمهور في مختلف أنحاء المنطقة. كما يرى زياني أن تأثير الشبكة الإقليمي كان يدور في فلك احتمال واحد هو النمو، لا سيما

بالنظر إلى حجم الاستثمار فيها وفي مرافق التدريب التابعة لها، مثل "مركز الجزيرة الإعلامي للتدريب والتطوير".

أما عوض (2005) فيرى أن حضور الجزيرة الثنائي، أي عبر البث الفضائي والإلكتروني، حطَّم القيود التي كانت تكبِّل صناعة راكدة، وتحدَّى الكيانات الإخبارية الكبرى من حيث انفرادها بتحديد أجندة الأخبار العالمية. في سياق متصل، وثَّق سوليفان (Sullivan) (2001) ثناء "عمالقة" الإعلام على الجزيرة، ومن بينهم "سي إن إن"، من خلال حصولها على حقوق إعادة بث المقاطع المصورة من مناطق معينة في أفغانستان عندما تعذَّر على الصحفيين الغربيين السفر إلى تلك المناطق. بالإضافة إلى ذلك، بحث زياني (2008، ص. 207) استخدام الجزيرة لأساليب العلاقات العامة في التعامل مع النقد ومع المواضيع الجدلية، إذ رأى أن تبني الجزيرة لتلك الأساليب "يعقِّد فهمنا للعلاقات العامة وكيفية ممارستها خارج النموذج الغربي الاعتيادي".

6. الربيع العربي: ثمة إدراك واسع لدور الجزيرة في الترويج للمظاهرات المبكرة في تونس ووضعها تحت المجهر، ما يسَّر جلب الانتباه الإقليمي الواسع للوضع السياسي في ذلك البلد. تركز الدراسات المدرجة ضمن هذه الفئة على دور الجزيرة في تغطية، وربما المشاركة في، ثورات الربيع العربي. ينظر ريناوي (2012)، مثلًا، في الطريقة التي غطت بها الجزيرة سقوط نظام حسني مبارك في مصر مطلع العام 2011، مؤكدًا أن الشبكة لعبت دورًا حاسمًا في عملية التحول السياسي في مصر، أثناء الثورة نفسها وفي الفترة التي أعقبتها. وركزت دراستان من هذه الفئة على تحليل المحتوى المقارن بغية الوقوف على فهم أفضل لأسلوب الجزيرة الإنجليزية في التغطية واختلافه عن كبريات المؤسسات الإعلامية الأخرى مثل "سي إن إن" و"بي بي سي"؛ فقد أجرت بشري ونيتزلي (Netzley) وغراينر (Greiner) (2012)، تحليلًا مقارنًا لتغطية "سي إن إن" والجزيرة الإنجليزية عبر الإنترنت للثورتين التونسية والمصرية، وانتهين إلى أنه في حين اعتمدت "سي إن إن" على المسؤولين والخبراء الأميركيين للتعليق على الثورات، فإن الجزيرة ركزت على مواطنين تونسيين ومصريين كمصادر لها. كما أجرت فورناتشياري (Fornaciari) (2012) تحليلًا إطاريًّا قارنت فيه بين تغطية الجزيرة الإنجليزية و"بي بي سي" وانتهت إلى أن الجزيرة الإنجليزية و"بي بي سي" أبديا ميلًا متشابهًا في تركيزهما على تحميل المسؤولية، وعلى الأطر المحددة للصراع، غير أن "بي بي سي" استخدمت أطرًا مرتبطة باهتمامات إنسانية بمعدل أعلى.

7. المواطن الصحفي: كانت الجزيرة رائدة أيضًا في جهودها لاستخدام تقنيات الإعلام الجديدة في تغطيتها واستراتيجية بثها وانتشارها. هناك ثلاث دراسات ركزت على جهود الشبكة في استغلال تقنيات التواصل المعلوماتية من أجل تحقيق مستوى أفضل من التواصل مع الجمهور وجمع المعلومات منه.

يرى باورز Powers (2012) أن طريقة استخدام الشبكة لوسائط الإعلام الجديدة وقدرتها على المزاوجة بين التقنيات الحديثة وأولويات رسالتها المؤسسية، تشكِّل موضوعًا لدراسة حالة مهمة لنموذج إعلامي يقدم

خدمة عمومية في العصر الرقمي. وعلى وجه التحديد، يرى "باورز" أن النشاط الإلكتروني للجزيرة الإنجليزية يقدم لنا تجربة مميزة تكشف في الوقت ذاته، عن الإمكانات المتاحة والصعوبات التي يطرحها الإنتاج الإخباري في مؤسسات الخدمة العمومية في العصر الرقمي. على غرار باورز، ركَّز دافي (Duffy) (2011) بحثه على نموذج "الصحافة الشبكية" التي تمارسها الجزيرة، ومن أدواتها "تويتر" و"فيسبوك" والمدونات وباقي المنصات التي تستفيد من المحتوى التفاعلي الذي ينتجه جمهور المستخدمين. كما بيَّنت دراسة برونا Bruna (2013) كيف تعتمد الجزيرة الإنجليزية على تعقيبات الجمهور وما يرسلونه من محتوى إخباري لتوسيع تغطيتها الإخبارية البرامجية وتوسيع جمهورها في الآن ذاته.

8. سياسات الهوية: تبحث هذه الفئة الفرعية من البحوث في دور الجزيرة في إذكاء أنواع بعينها من الهويات، مثل الوطنية والإسلامية والأنثوية. في هذا السياق، يحلِّل شرِّيبي (Cherribi) (2006) أساليب الجزيرة في عرض حجاب المرأة على الشاشة وفي أخبارها وبرامجها حول الشؤون الجارية، وبرامجها الدينية كذلك. كما حلَّل أسلوب الجزيرة في تغطية مسألة الحجاب في فرنسا بين أواخر العام 2002 ومطلع العام 2005. ويرى شرِّيبي أن الجزيرة ليست، كما يقال في أحيان كثيرة، "سي إن إن العالم العربي"، مشيرًا إلى أن التركيز الديني فيها يجعل المقارنة أقرب إلى وجود نسخة إسلامية من "شبكة البثِّ المسيحية". ويخلص شرِّيبي إلى أن الجزيرة تستغل مسألة الحجاب في فرنسا للتأثير في المشاهدين في فرنسا وأوروبا، وتعبئة رأي عام مشترك، وبناء مجتمع إسلامي متخيَّل وعابر للحدود.

في مقاربة أخرى، درس (فيليبس) Phillips (2012) تغطية الجزيرة لأولمبياد بكين 2008، ولاحظ أن محتوى البث موجَّه إلى المشاهدين باعتبارهم يشكِّلون جمهورًا عربيًّا واحدًا؛ حيث يقع تشجيعهم في الوقت نفسه على تبني فكرة القومية. وانتهى فيليبس إلى أن ما يسمى بـ"القومية العابرة للحدود" (أو العروبة) لا ينبغي أن تكون متنافية مع المفاهيم التقليدية لـ"الوطنية". أما صقر (2005، ص. 145) فقد انصبَّ اهتمامها أساسًا على كيفية طرح برامج الجزيرة لأوجه التفاوت الجندري (بين الجنسين)، وخلصت إلى أن الجزيرة قد "وسَّعت من مجال التفاعل النقدي والخطابي حول القضايا المتعلقة بتمكين المرأة".

الجغرافيا السياسية:

تأتي دراسة أداء الجزيرة من المنظور الجيوسياسي في المرتبة الثانية من حيث عدد البحوث. وقد ركزت تلك الدراسات على علاقة الشبكة بحكومتها الراعية (الحكومة القطرية)، وقدرتها على تشكيل الرأي العام الأجنبي بطريقة استراتيجية، ودورها في تحدِّي الهيمنة السائدة في مجال صناعة الأخبار وإعادة التوازن إلى التدفق العالمي للمعلومات.وفي ما يلي بيان الفئات الفرعية المحددة والمصنَّفة ضمن هذه الفئة: الرأي العام (8 دراسات)، الجنوب العالمي (5 دراسات)، قطر (5 دراسات).

1. الرأي العام: تمحورت الدراسات المندرجة في هذه الفئة حول كيفية تشكيل الجزيرة للرأي العام الأجنبي، من خلال التركيز على الإصلاح السياسي و/أو تغيير الأنظمة. واستنادًا إلى مجموعة من الدراسات التي تناولت قدرة "سي إن إن" على رسم اتجاه السياسات الدولية (انظر، غيلبوا (Gilboa)، 2005)، فقد طرح بعض الباحثين احتمال وجود "تأثير" للجزيرة، أو تأثير نابع من استخدام تقنيات الإعلام الجديدة، على السياسات العالمية؛ أي الحد من سيطرة الحكومات على المعلومات وتمكين الجماعات التي لم تكن في السابق تحظى بصوت على الصعيد العالمي.

تأتي دراسة "سيب" (2008) بعنوان "تأثير الجزيرة" في صدارة ذلك الاتجاه البحثي[11]. وقد رأى فيها أن الشعبية المتنامية للجزيرة وتأثيرها في السياسات العربية إنما يُبرزان التحول الكبير في العلاقة بين الإعلام والرأي العام والسلطة، فيقول: "لقد استُبدل بالأساليب التقليدية لإعادة تشكيل السياسات العالمية تأثير وسائل الإعلام الجديدة، أي التلفزيون الفضائي، والإنترنت، وغيرهما من الأدوات ذات التقنيات الفائقة". وفي حين لم يستخدم هدسون (Hudson) (2005) ولا بحري (2001) مصطلح "تأثير الجزيرة"، إلا أنهما يتبنَّيان فكرة الدور التغييري للشبكة ودعيا الحكومات الغربية إلى احترام مبادئها الليبرالية، بما في ذلك قوة "حرية التعبير" وإفساح المجال لسوق الأفكار.

أما الإبياري (2011)، فتعارض تلك المقاربة، وتعتقد أن مصطلح "تأثير الجزيرة" يقوم بتضخيم دور الشبكة (والتقنيات التي تستخدمها) في دعم الديمقراطية والتأثير على الرأي العام الشعبي. وتؤكد الإبياري على فكرة أن الشبكة تقوم بخدمة مصلحة وطنية محددة، ولا تشجع الاحتجاجات والانتفاضات الشعبية إلا بصورة انتقائية. وهذا طرح يعارضه "سيب" (2012) الذي يرى أن نجاح الشبكة المتنامي وشعبيتها المتعاظمة، في قطاع الأخبار باللغة الإنجليزية، إنما يثبت قدرتها على تغيير القواعد المؤسِّسة للسياسة الدولية. وجاء "تاوش" (Tausch) (2011) ليعيد صياغة مفهوم "تأثير الجزيرة" بتحويله إلى "ثورة الجزيرة"، مؤكدًا أن الشبكة لديها القدرة على إعادة صياغة الأسس الاقتصادية للنظام الرأسمالي الحالي. وأما "ريناوي" (2006) فقد ركَّز اهتمامه حصرًا على أثر الجزيرة في الوطن العربي، وقال: إن الشبكة أسهمت في تعزيز فكرة "العروبة" باستخدامها التقنيات الجديدة لتلبية حاجة كامنة لدى مجموعة متنوعة من "الهويات القبلية المحلية"، متجاوزةً بذلك الحدود الوطنية والإقليمية. من ناحيتهما، درس "باورز والنواوي" (2008) تأثير الجزيرة الإنجليزية في السوق الإخبارية المحلية في آسيا، مع التركيز تحديدًا على دورها في بلورة ثقافة إعلامية أكثر ديمقراطية في ماليزيا.

2. الجنوب العالمي: ركزت الدراسات في هذا المجال على قدرة الجزيرة على الوقوف في وجه القوة الرقابية التي ما فتئت الحكومات الغربية والمؤسسات الإخبارية الكبرى تمارسها على تدفق الأخبار العالمية خلال أغلب فترات القرن العشرين. فمثلًا، يرى سيب (2005) أن نجاح الجزيرة في استقطاب عدد هائل من المشاهدين كان إيذانًا بانتهاء حقبة التغطيات المنفردة للحرب والتي قادتها الولايات المتحدة، وأن ذلك قد أسهم أيضًا في تمهيد الطريق لظهور صانعين جدد للأخبار على المستوى الإقليمي بإمكانهم تقديم قصص إخبارية

[11] استُخدم مصطلح "تأثير الجزيرة" قبل صدور كتاب "سيب" في 2008؛ فمثلًا يحيل النواوي وإسكندر إلى إمكانية ظهور "تأثير الجزيرة" في كتابهما الصادر في 2003 بعنوان: "الجزيرة: قصة الشبكة التي أقضَّت مضاجع الحكومات وأعادت تعريف مهنة الصحافة".

بديلة. وفي دراسة مقارنة لحالتي الجزيرة ومحطة "تيليسور" (Telesur) القريبة من هوغو شافيز (Hugo Chavez)، قال باينتر (Painter) (2008): إن الشبكة القطرية قد ألهمت شبكات أخرى تنتمي إلى "الجنوب العالمي" لانتهاج أسلوب بث جريء باستخدام أصوات وقصص محلية وأهلية في نقل الأخبار.

هذه الموضوعات نفسها، تناولتها فيغنسكو بالدرس (2013) واستخدمت في ذلك منهجية تحليل السياسات والإنتاج والمضمون؛ فبيَّنت كيف أن عمليات الإنتاج الإخباري في الجزيرة الإنجليزية مصممة بالأساس لتحقيق التمايز عن منافساتها من المحطات الأنجلو-أميركية. وفي نفس الاتجاه، يستخدم بيباوي (2016) أداة تحليل الأطر الإخبارية للتدليل على تحدي الجزيرة الإنجليزية لخطابات التيار الأساسي في الإعلام الغربي، وذلك باستخدام مناظير من الجنوب العالمي. ولكن إسكندر (2005) يرى أنَّ الكثير من عناصر المغايرة في الجزيرة "تنسبه الجزيرة إلى ذاتها، ويجري تأكيده من خلال حملات التسويق الاستراتيجية".

3. قطر: يركز هذا المجال الفرعي الأخير من البحوث الجيوسياسية في المقام الأول على علاقة الجزيرة بالجهة الراعية لها، أعني الحكومة القطرية. وهنا، نشير إلى أن المحرك الرئيس لهذه الدراسات هو الفهم التاريخي لكيفية وأسباب دعم الدول لانتشار وسائل الإعلام الدولية أو ما يوصف أحيانًا بـ"البث الدولي". وبالاستناد إلى دراسات أُجريت عن شبكة "بي بي سي" البريطانية، و"صوت أميركا" وغيرهما، فإن هذه الفئة من البحوث تهدف إلى النظر في مدى مساعدة الجزيرة للحكومة القطرية على تحقيق مصالحها الوطنية عن طريق بث الأخبار إلى دول العالم الناطقة بالعربية والإنجليزية.

يرى دا لاج (Da Lage) (2005) أن الجزيرة تسهم بشكل فعَّال في دعم الدور المتزايد الذي تلعبه قطر في السياسة الإقليمية، ويلاحظ البعد الاستراتيجي في خطها التحريري المناهض لأميركا، موضحًا أن ذلك يساعد الحكومة القطرية على تحقيق التوازن بخصوص تحالفها العسكري غير الشعبي مع الولايات المتحدة. واستنادًا إلى هذا التحليل، يوضح (باورز وغيلبوا، 2008) أن انتقاد الشبكة للأنظمة الفاسدة التي لا تتمتع بتأييد شعبي في المنطقة يؤدي دورًا استراتيجيًّا في تحسين صورة دولة ليست معروفة على نطاق واسع وغير ديمقراطية. ويضيف باورز (2012-2013) أن قرار إنشاء الجزيرة الإنجليزية قد اتُّخذ في المقام الأول بهدف تغيير الصورة التي يحملها الغرب والعالم الناطق بالإنجليزية عن العرب، وعن قطر بشكل خاص.

أجرى صامويل-أزران (2013) تحليل مضمون طوليا حول تغطية الجزيرة للشأن السعودي على مدار ثمانية أعوام، خلص فيه إلى وجود ارتباط وثيق بين النبرة التي تستخدمها قناة الجزيرة العربية في التعاطي مع الشأن السعودي ومدى تطوُّر الخلاف بين قطر والسعودية، مشيرًا إلى أن قطر استطاعت أن تبتكر نموذجًا جديدًا من الدبلوماسية العامة عن طريق استخدام الجزيرة كشبكة هجينة كونها تتمتع برعاية الدولة، وفي الوقت ذاته تعمل كمؤسسة خاصة. وقد أسهم ذلك الوضع في تحويل الشبكة إلى أداة للدبلوماسية العامة بالغة التأثير.

التواصل الثقافي

ركز الصنف الثالث من البحث الأكاديمي على كيفية قيام الجزيرة بتطوير، أو صياغة علاقات تواصل بين الثقافات المختلفة، لا سيما بين العالمين الغربي والإسلامي اللذين تتسم العلاقات بينهما بالتردد وعدم الوضوح. واستنادًا إلى الجهود التي بُذلت في سياق مقولة: "تأثير الجزيرة"، لم تُعِرْ هذه الدراسات قدرًا كبيرًا من الاهتمام للتداعيات الجيوسياسية، وإنما ركزت على الطريقة التي يمكن أن تسهم بها الشبكة في تحقيق "القرية الكونية" التخيلية حسب المفهوم الذي صاغه مارشال ماكلوهان (Marshal McLuhan)، أو تشكيل وعي عالمي مشترك قادر على حشد التعاطف مع قضايا الأشخاص الآخرين، بعيدًا عن المصالح الضيقة للحكومات والشركات. وتقع الأعمال التي اهتمت بالتواصل الثقافي ضمن فئتين فرعيتين، هما: "الجزيرة في الغرب" (8) وأطروحة "صدام الحضارات" (8).

1. الجزيرة في الغرب: بحثت هذه الدراسات في طريقة استقبال المجتمعات الغربية للجزيرة، لا سيما في غرب أوروبا وكندا والولايات المتحدة؛ فقد توقع تاثام (2005، ص. 50)، على سبيل المثال، أن تعاني الجزيرة كثيرًا قبل أن تتمكن من اقتحام سوق الأخبار الأميركية، قائلًا: "من المحتمل أن تواجه هذه الشبكة الجديدة صعوبات في إيجاد موطئ قدم لها في دائرة البث المغلقة والمعقدة بالولايات المتحدة؛ حيث تخضع الساحة الإعلامية لسيطرة محكمة من قبل أباطرة الإعلام والشركات متعددة الجنسيات، وأغلبها على صلات وثيقة بالإدارة الأميركية؛ فهُمْ على الأرجح سيرفضون هذا الوافد الجديد رفضًا قاطعًا. ويؤيد (ألترمان (Alterman)، 2005) هذا الرأي في مجمله، لكنه يرى أن قوة الجزيرة الإنجليزية ستكمن في أوساط الأقليات المسلمة خارج منطقة الشرق الأوسط، والتي تمتد من أميركا الشمالية إلى أوروبا عبر إفريقيا، إلى شبه قارة جنوب آسيا وجنوب شرق آسيا.

درس يومانز وبراون (Youmans and Brown)، 2011، ص. 1) نظرة الغرب لقناة الجزيرة الإنجليزية في أعقاب "الربيع العربي"، لا سيما بعد أن لاقت القناة استحسانًا وتقديرًا بالغيْن من قبل صحفيين أميركيين وسياسيين بارزين. وعلى الرغم من التحول في آراء النخبة بشأن القناة، توصل الباحثان إلى أنه "لا يزال ثمة تحيز كبير ضد قناة الجزيرة الإنجليزية بين قطاعات من الجمهور الأميركي". كما تناول ميلتزر (Meltzer)، (2012) التغطية الإعلامية الأميركية لقناة الجزيرة الإنجليزية خلال الأشهر السبعة الأولى للبث، وخلص إلى أن محاولات القناة تشكيل وتعديل صورتها أمام الجمهور الأميركي كانت في معظمها ناجحة، لا سيما بسبب القبول المتزايد للشبكة في الوسط الصحفي الأميركي. ففي بحثه حول سياسات التوزيع المتغيرة التي انتهجتها القناة في الولايات المتحدة في أعقاب الربيع العربي، لاحظ يومانز (2012) أن اقتران الاهتمام المتزايد بالقناة بين جمهور النخبة، مع هشاشة سوق التوزيع، سواء عبر البث الفضائي أم عبر الكيبل، يعني أن الشبكة تملك فرصة جيدة لتعزيز مكانتها لدى شريحة مهمة من الجمهور في أميركا الشمالية، وخاصة من خلال البث عبر الإنترنت.

من جهته، تناول دكروري (2005) في دراسته استجابة البيئة التنظيمية في كندا لرغبة الجزيرة في البث من داخل البلاد، ملقيًا الضوء على التحديات القانونية التي يمكن أن تواجهها القناة في ظل الخطابات المتنوعة والمختلفة في بعض برامجها المثيرة للجدل. وأشار أمين (2012) إلى أن نجاح الجزيرة الإنجليزية في هذا الصدد مرهون بمدى قدرتها على تكريس مصداقيتها لدى الجمهور الغربي، وهو ما يقتضي بدوره إظهار وتأكيد استقلاليتها عن الحكومة القطرية.

2. صدام الحضارات: ركزت هذه الفئة البحثية الفرعية على كيفية تحدي الجزيرة لأطروحة "صدام الحضارات" لصاحبها صمويل هنتنغتون (Samuel Huntington) (1993)، التي ترى أن هناك خلافًا جوهريًّا بين الغرب والعالم الإسلامي، وأن الأمر سوف ينتهي بدخولهما حتمًا في صراع حضاري. ومن المنطلقات الأساسية التي تربط بين هذه الدراسات هو إمكانية تطوير سبل التواصل بين المجتمعات الغربية والإسلامية للحدِّ من سوء التفاهم، وبالتالي تخفيف حدة التوترات "الحضارية" فيما بين الجانبين.

وقد وضع النواوي وغير (Gher) (2003، ص. 1) أساسًا لهذا الاتجاه البحثي، وقد بيَّنا، في وقت مبكر من الحرب على العراق، أن على الأميركيين أن "يدعموا وسيلة إعلامية من داخل المنطقة، منفتحة وديمقراطية مثل الجزيرة، من أجل المساعدة في سدِّ الفجوة الفلسفية بين الشعوب الغربية والشرق الأوسط". من جانبها، أشارت خميس (2007) إلى أن الشبكات الإخبارية العابرة للحدود، وعلى رأسها الجزيرة، لديها قدرات فريدة على دحض الاعتقاد المتزايد بوجود صدام الحضارات. كما توصلت زهارنة (2005) إلى أن الجهود التي تبذلها الإدارة الأميركية لجذب اهتمام الجمهور العربي، من خلال الظهور على برامج الجزيرة، قد باءت بالفشل نتيجة عدم فهم التقاليد الثقافية المختلفة الراسخة في الممارسات التواصلية المعتادة.

بين عامي 2008 و2010، أجرى النواوي وباورز دراسة حول جمهور الجزيرة الإنجليزية في ست دول، وتوصلا إلى أن مشاهدي الجزيرة كانوا أقل تعصبًا من مشاهدي القنوات الإخبارية الأخرى سواء أكان ذلك على المستوى الدولي أم المحلي. ويؤكد الباحثان أن هذا المؤشر يبرهن عن إمكانية وجود "إعلام تصالحي"، ملمِّحَيْن إلى أن زيادة التوزيع والمشاهدة سوف تسهم بالفعل في تجنب احتمالية وقوع الصدام الحضاري. ولكن، من جهة أخرى، لاحظ الباحثان (باورز والنواوي"، 2009) أن الجمهور ينجذب إلى القنوات الإخبارية التي تؤكد وجهات النظر السياسية والعقائدية الموجودة لديهم مسبقًا، مما يشكِّل تحديًا أمام الجزيرة الإنجليزية (أو أية مؤسسة إخبارية أخرى) لأن تصبح منصة بث "تصالحية". وبالنظر تحديدًا إلى تغطية الجزيرة لمسجد بيت قرطبة أو "بارك 51" في نيويورك، (والذي أثار جدلا واسعًا لقربه من مسرح أحداث 11 سبتمبر/أيلول)، يرى النواوي أن الجزيرة تمتلك القدرة على لعب دور إعلام تصالحي، خصوصًا في مثل تلك الأجواء المشحونة بالتوتر والقضايا المثيرة للجدل الواسع.

الفضاء العام

تناول هذا الصنف من البحوث العلاقة بين الجزيرة والرأي العام العربي وأهمية النقاش والتداول المفتوح؛ ففي حين ركَّزت المقاربات الجيوسياسية ومقاربات الرأي العام على نجاح الشبكة في كسب عقل وقلب الرأي العام الأجنبي، أكدت هذه الفئة من الدراسات على الأساليب التي اعتمدتها الجزيرة في برامجها بهدف التشجيع والإسهام بطريقة ديمقراطية في بلورة خطاب جديد ينبع من داخل المجتمعات العربية. ما يجمع بين هذه الدراسات، هو اهتمامها بنظرية يورغن هابرماس (Jürgen Habermas) حول "الفضاء العام"، والتي ترى أن النقاشات الحرة، التي تجري في كنف الاحترام المتبادل، حول القضايا العامة ذات الاهتمام المشترك تسهم في تشكيل الرأي العام، وتؤثر في الممارسة السياسية.

في هذه الفئة أيضًا نجد دراسة لينش (Lynch) (2005، 2006) التي استند فيها إلى مقابلات أجراها في منطقة الشرق الأوسط، وتحليلات لبرامج الجزيرة، واستطلاعات للرأي العام، وحلَّل طبيعة الفضاء العام العربي الجديد وتطوره وتأثيره. وقد أظهرت نتائج هذه الدراسة أن أيام التجانس ووحدة الرأي العربي قد ولَّت إلى غير رجعة، وأن الطريقة التي تستخدمها الحكومات العربية والولايات المتحدة لتوظيف هذا الفضاء العربي الجديد والمؤثِّر سوف تلعب دورًا محوريًّا في تشكل مستقبل العالم العربي. وفي ذات الاتجاه، تناول عبد المولى (2015) حالة الجزيرة وحلَّل أساليبها لجذب الجمهور وإتاحة منصاتها للنقاش المفتوح والتعبير الحر، وبيَّن كيف أدَّت تلك الأساليب إلى نشأة فضاء عام عربي جديد ينبض بالحيوية. ويلاحظ أن التحولات السياسية التي شهدها في العالم العربي في السنوات الأخيرة، ليست بعيدة عن تأثيرات ذلك الفضاء.

ومن واقع خبرته في برنامج "الاتجاه المعاكس"، سواء باعتباره صاحب الفكرة أم كمقدم له، يؤكد القاسم (2005، ص.ص. 93-104) أن البث الحي للبرنامج بالإضافة إلى تفاعل الجمهور معه بشكل مباشر (من خلال المشاركات الهاتفية على سبيل المثال) قد أدى إلى جعل هذا البرنامج "أشهر البرامج الحوارية السياسية وأكثرها إثارة للجدل على مستوى العالم العربي". فقد "التفَّ حوله جمهور واسع وجد فيه ضالته المنشودة، ألا وهي حرية التعبير وإقامة مجتمعات أكثر انفتاحًا على الصعيدين السياسي والاجتماعي".

يؤكد العويفي (2005) أيضًا، أن الجزيرة لعبت دورًا محوريًّا في تحرير الخطاب الإعلامي العربي، ووضع حدٍّ لسيطرة الأنظمة العربية على وسائل الإعلام، وإطلاق شرارة التغيير لإعادة تشكيل النظم السياسية في منطقة الشرق الأوسط. في السياق ذاته، أوضحت دراسة الهيل (2000) حول أهمية البُعد المحلي للشبكة، أن الجزيرة أسهمت في بروز مجتمع مدني في قطر، من خلال تعميق الوعي بحقوق المرأة وحرية التعبير وأهمية المطالبة بهما. وترى الجنيبي (2010) أن برامج الجزيرة تستند إلى مبدأ إسلامي أصيل في تعزيز حرية الصحافة وحق الوصول إلى المعلومة. أما زياني (2006، ص. 184)، الذي ينتهج منهجًا مختلفًا بعض الشيء، فيؤكد أن الجزيرة ليست مسؤولة عن حشد أو تعبئة ما يُعرف بـ"الشارع العربي"؛ ذلك أن الرأي العام العربي دائمًا ما كان حاضرًا في المشهد، وأن الجزيرة (والقنوات المنافسة لها) "قد جعلت الرأي العام العربي أكثر وضوحًا وأكثر صراحة في التعبير عن نفسه، وأكثر عمومية".

مناهج البحث

هناك دراستان تناولتا قناة الجزيرة كوسيلة لاستكشاف التحديات المنهجية التي تعترض دراسة المؤسسات الإعلامية العابرة للحدود، لا سيما تلك التي تقع خارج البيئات الغربية التقليدية ذات الطابع الحضري. ويمكن أيضًا تصنيف هاتين الدراستين باعتبارهما إسهامًا يدخل في إطار جهد بحثي أوسع يرمي إلى تجاوز الصبغة الغربية للدراسات الإعلامية.

في هذا السياق، تناولت فيغنسكو (2010) في دراستها، التحديات التي تواجه البحوث التي تتناول المؤسسات الإعلامية الكبرى التي تعمل في مجتمعات ترزح تحت أنظمة حكم سلطوي. واستنادًا إلى المقابلات التي أجرتها مع أكثر من 60 موظفًا من موظفي الجزيرة، خلصت الدراسة إلى أن موقع الجزيرة أدَّى إلى تعقيد

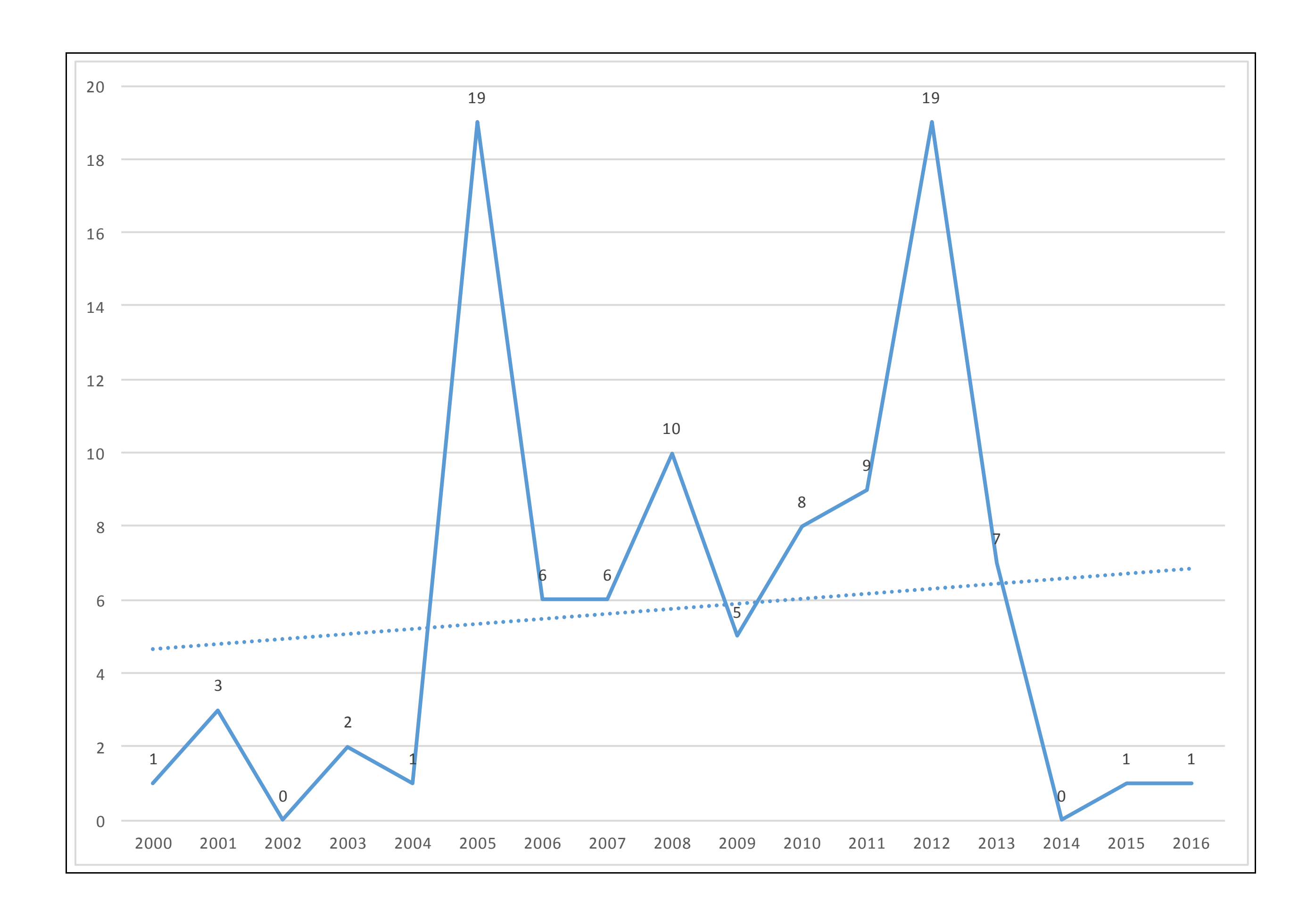
كل مرحلة من مراحل البحث الميداني، بدءًا من إنشاء الاتصال وحتى إجراء المقابلات. وانتهت فيغنسكو إلى أن ثمة حاجة إلى الاهتمام بتحسين مناهج البحث في البيئات الاجتماعية ذات الثقافات المتعددة وتلك التي تخضع للحكم التسلطي. من جهته، تناول فوجيتزاك (Wojcieszak) (2007) التحديات النوعية التي تطرحها الجزيرة على نموذج البحث "التأطيري"؛ فأوضح أن دراسات "التأطير" التقليدية لا يمكن تطبيقها عند تحليل الجزيرة لأنها نابعة من فهم خاص لنظام الإعلامي الأميركي، وبالتالي لا يمكنها التعامل مع التقنيات الناشئة.

خاتمة

إن الهدف من استعراض الأعمال الأكاديمية عن الجزيرة هو تقديم رؤية موسعة وبانورامية لمدى اتساع نطاق البحوث التي أُجريت عن واحدة من أهم المؤسسات الإخبارية في العالم على مدار العشرين عامًا الماضية. وقد اندرجت هذه البحوث في مجموعة من التخصصات، من بينها الدراسات الصحفية والإعلامية، والعلاقات الدولية، والدراسات القانونية، وعلم الاجتماع، ودراسات العولمة، والتواصل بين الثقافات، وغيرها من المجالات. وقد لاحظنا أنه منذ العام 2000 تحديدًا، بدأت الشبكة من خلال برامجها وتغطياتها الإخبارية، تلقى اهتمامًا واسعًا في الأوساط الأكاديمية. يستعرض الشكل البياني (1) عدد الإصدارات المتعلقة بالجزيرة في كل عام، ويحتوي علي خط بياني يغطي الأعوام الستة عشر التي تناولتها البحوث. وقد نُشرت الأغلبية العظمى من تلك البحوث في الفترة بين عامي 2005 و2013 (89 بحثًا من أصل 98 إصدارًا وقع تحليلها). ولعل الزيادة الكبيرة في الإصدارات البحثية خلال العام 2005 جاءت نتيجة للدور الكبير الذي لعبته القناة في تغطيتها للحربين في أفغانستان (2001-) وفي العراق (2003-)، طبعًا مع اعتبار الوقت المطلوب لإعداد متطلبات البحث وصياغته وتحريره ثم نشره. أما التراجع في عدد الإصدارات البحثية حول الجزيرة بعد العام 2013 فهو أمر يصعب تفسيره، خاصة بالنظر إلى الخطط الطموحة للشبكة في التوسع باتجاه السوقين الأميركية والتركية في تلك الفترة. ومن الممكن أن تكون تلك الإصدارات البحثية قيد الإعداد حاليًّا في ظل رغبة الباحثين في دراسة تلك الجهود على مدار فترة زمنية أطول[12]. ومن الممكن أيضًا أن يكون للتغيير في قيادة الجزيرة، بدءًا باستقالة مديرها العام، وضاح خنفر، في العام 2011، دور في تراجع الاهتمام الأكاديمي بالشبكة. فقد خَلَف وضاح خنفر في إدارة الشبكة الشيخ أحمد بن جاسم آل ثاني، وهو أحد أفراد العائلة الحاكمة في قطر، ومن الوارد أن يكون ذلك أحد أسباب تغيير رؤية الباحثين للشبكة على أساس أن أبوابها لم تعد مفتوحة أمامهم كما كانت في السابق، أو أن وجهتها المستقبلية لم تعد واضحة كما كانت من قبل. وعلينا أن ننتظر لنرى ما إذا كانت تلك الصورة ستتغير، علمًا بأن الشبكة حاليًّا تحت قيادة الدكتور مصطفى سواق.

الشكل البياني (1): عدد الإصدارات البحثية حسب العام-الفترة من 2000 إلى 2016

[12] مثال: انظر "ويل يومانز" (تحت الطباعة، 2017) "الجمهور غير المؤكد: صراع الجزيرة في أميركا"، منشورات جامعة أوكسفورد.



يكشف لنا هذا الخط البياني أن عامي 2005 و2012 مثَّلا قمة الإنتاج البحثي حول الجزيرة ويمكن تفسير ذلك جزئيًّا بصدور كتابين من تأليف جماعي، هما على التوالي: "ظاهرة الجزيرة" تحرير محمد زياني (2005)، و"الجزيرة الإنجليزية" تحرير فيليب سيب (2012)[13]. ومع تأكيدنا مجددًا على طول الفترة التي يستغرقها البحث الأكاديمي من لحظة الفكرة إلى لحظة النشر، نلاحظ أن هناك ارتباطًا بين زيادة عدد البحوث في العامين المذكورين وحدوث تطوريْن كبيرين أسهما في تركيز الاهتمام بالشبكة، وهما تغطية الجزيرة لما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، بما في ذلك حربا أفغانستان والعراق (2001-، و2003-)، وإطلاق الجزيرة الإنجليزية (2006) وما مثَّلته من تحد للشبكات الإخبارية الغربية المهيمنة.

عدد الإصدارات البحثية عن الجزيرة وتنوع تلك البحوث أمر يدعو للإعجاب، ومن المهم أيضًا الإشارة إلى أهمية تلك البحوث في المجالات الأكاديمية الأوسع للدراسات الإعلامية والعلاقات الدولية؛ فالبحوث المتعلقة بالشبكة تحظى باقتباس واسع النطاق في مختلف الأوساط الأكاديمية. وقد وقع الاقتباس من الإصدارات التي استعرضناها في هذا الفصل (98 إصدارًا) والإحالة إليها 2427 مرة. أما الإصدارات البحثية المتعلقة بالجزيرة فجرى الاقتباس من كل منها منفردة بمعدل 24.8 مرة في المتوسط؛ أي بمعدل يفوق خمسة أضعاف

[13] كما هو مبين في قسم "مناهج البحث"، تم تصنيف وتحليل فصول من تلك الإصدارات الجماعية من أجل رصد المدى والتنوع في المناظير التي انطوت عليها.

متوسط الاقتباس من الإصدارات البحثية في مجال العلوم الاجتماعية[14]. ويستعرض الجدول رقم (4) الإصدارات العشرة الأكثر اقتباسًا من بين الدراسات التي أُنجزت حول الجزيرة، علمًا بأن أربعة إصدارات من أصل الإصدارات الستة الأكثر اقتباسًا هي كتب، أي إن كلًّا منها احتاج إلى سنوات من البحث والعمل الميداني.

الجدول رقم (4): أهم البحوث الأكاديمية المعنية بالجزيرة من حيث عدد الاقتباسات منها والإحالات إليها

العام	المؤلِّف	العنوان	الاقتباسات
2006	مارك لينش	*Voices of the New Arab Public*	424
2008	فيليب سيب	*The Al Jazeera Effect*	160
2005	فيليب سيب	"Hegemonic No More: Western Media, the Rise of Al-Jazeera, and the Influence of Diverse Voices"	76
2006	خليل ريناوي	*Instant Nationalism*	69
2001	لؤي بحري	"The New Arab Media Phenomenon: Qatar's Al-Jazeera"	66
2007	زياني وصحراوي	*The Culture of Al Jazeera*	61
2006	نور الدين ميلادي	"Satellite TV News and the Arab Diaspora in Britain: Comparing Al-Jazeera, the BBC and CNN"	58
2006	سام شرِّيبي	"From Baghdad to Paris Al-Jazeera and the Veil"	58
2009	كولمر وسيميتكو	"Framing the Iraq War: Perspectives from American, U.K., Czech, German, South African, and Al-Jazeera News"	52
2010	النواوي وباورز	"Al Jazeera English: A Conciliatory Medium in a Conflict-driven Environment?"	50

إن الاكتفاء بالنظر إلى الإصدارت ذات العدد الأكبر من الاقتباسات فقط لن يعطينا صورة دقيقة؛ فمثلًا لا يوجد إصدار واحد من بين العشرة الأوائل منشور بعد العام 2010. ونظرًا لازدياد الاقتباسات والإحالات بمرور الوقت، فإننا سنلاحظ من خلال إطلالة سريعة على الجدول أعلاه أن الإصدارات الأقدم نالت النصيب الأوفر من الاقتباسات. أما الجدول أدناه (رقم 5) فيعرض أكثر الإصدارات اقتباسًا حسب سنة الصدور،

[14] متوسط الاقتباس من بحوث العلوم الاجتماعية والإحالة إليها هو 4.7 لكل بحث، استنادًا إلى البيانات المجمعة من 2000–2010، انظر: تايمز للتعليم العالي، "متوسط الاقتباسات والإحالات، 2000–2010، حسب المجالات والأعوام"، الرابط:
https://www.timeshighereducation.com/news/citation-averages-2000-2010-by-fields-and-years/415643.article

وبالتالي يكشف عن أهمية البحوث الصادرة حديثًا عن الجزيرة. فإذا أخذنا بعين الاعتبار مضمون الجدولين معًا، سنجد أنهما يقدِّمان عرضًا متوازنًا لأهم البحوث الأكاديمية التي صدرت حول شبكة الجزيرة بشكل عام.

الجدول رقم (5): البحوث الأكاديمية عن الجزيرة الأكثر اقتباسًا وإحالةً حسب سنة النشر-الفترة من 2003 إلى 2015[15]

العام	المؤلف	العنوان	الاقتباسات
2015	عز الدين عبد المولى	*Al Jazeera and Democratization*	3
2013	تينا فيغنسكو	*Al Jazeera and the Global Media Landscape*	24
2012	شون باورز	"The Origins of Al Jazeera English"	16
2011	أرنو توش	"On the global political and economic environment of the current Al Jazeera Revolution"	21
2010	النواوي وباورز	"Al Jazeera English: A conciliatory medium in a conflict-driven environment?"	50
2009	كولمر وسيميتكو	"Al Jazeera English: A conciliatory medium in a conflict-driven environment?"	52
2008	فيليب سيب	*The Al Jazeera Effect*	160
2007	زياني وصحراوي	*The Culture of Al Jazeera*	61
2006	مارك لينش	*Voices of the New Arab Public*	424
2005	فيليب سيب	"Hegemonic No More: Western Media, the Rise of Al-Jazeera, and the Influence of Diverse Voices"	76
2004	ستيفن كوين وتيم والترز	"Al-Jazeera: A Broadcaster Creating Ripples in a Stagnant Pool"	9
2003	نور الدين ميلادي	"Mapping the Al-Jazeera Phenomenon"	32

لا شك في أهمية ومتانة الأدبيات التي أُنجزت إلى حدٍّ الآن حول الجزيرة، والتي تناولها تحليلنا في هذا الفصل، إلا أن الكثير من الأسئلة يظل بلا إجابة، وينبغي أن تستمر دراسة الجزيرة باعتبارها مجالًا مهمًّا للبحث في المستقبل. وعلى وجه الخصوص، ينبغي دراسة كيفية أداء الشبكة في الأسواق شرق الأوسطية

[15] يرجى الانتباه إلى استبعاد العام 2014 من هذا الجدول لعدم عثورنا على إصدارات أكاديمية عن الجزيرة فيه.

والعالمية في ظل السياق الحالي الزاخر بالمعلومات. يضاف إلى ذلك وجود أسئلة عن مستقبل الشبكة نفسها، فهل قرار إغلاق "الجزيرة أميركا"، على سبيل المثال، مؤشر على قرارات أخرى قادمة؟ وهل التحديات القانونية التي واجهت مشروع إطلاق الشبكة في تركيا عصية على الحل، أم أنها نذير تحديات مستقبلية قد تكون أكبر؟ وما الدروس المستفادة من تلك التجارب؟ وفي هذا العالم الذي تتزايد فيه تدفقات الأخبار والمعلومات وتُرسَل في كل اتجاه يمكن أن نتخيله، هل لا تزال هناك حاجة لصوت يعبِّر عن "الجنوب العالمي" كما كانت عليه الحال في السابق؟ وكيف تسهم السياسات الإقليمية والصراعات التي لا تتوقف في تشكيل تطلعات الجمهور؟ وهل سيستمر الدعم القطري للشبكة؟ وإذا استمر، فهل سيؤثِّر ذلك في طريقة تغطية الشبكة في المستقبل؟

إن كل إجابة قدمتها البحوث الحالية تطرح العديد من الأسئلة الأخرى التي تحتاج إلى مزيد من البحث والاستقصاء، غير أن شيئًا واحدًا يظل واضحًا: إذا استمرت الجزيرة في تحقيق رسالتها كمؤسسة إخبارية تسعى لإحداث تغيير في أسلوب صناعة الأخبار العالمية وفي صناعة الإعلام بشكل عام؛ وإذا ظلت الشبكة مفتوحة أمام الأكاديميين، فإنها دون شك، ستظل موضوعًا متواصلًا للبحث العلمي، وسيتواصل تراكم المخرجات البحثية الجادة عن تلك الشبكة الإعلامية الرائدة والمؤثرة.

المراجع

Abdelmoula, E. and Nasr, S. *Academic Research about Al Jazeera PhDs, Masters, Books & Research Papers 1996 – 2012*, Doha, Qatar: Al Jazeera Centre for Studies, 2nd ed. 2013.

Abdelmoula, E. *Al Jazeera and Democratization: The Rise of the Arab Public Sphere*, London, Routledge, 2015.

Abdelmoula, E. *The Al Jazeera Decade: 1996-2006*, Alwaraqoon, Bhrain, 2nd ed. 2007.

Abdul-Mageed, M. M. "Online News Sites and Journalism 2.0: Reader Comments on Al Jazeera Arabic", *Triple C: Communication, Culture, and Critique,* 6 (2), 2008, pp. 59–76.

Al-Hail, A. "The Age of New Media: The Role of Al-Jazeera Satellite TV in Developing Aspects of Civil Society in Qatar", *Transnational Broadcasting Studies,* 2000, p. 4.

Al-Jenaibi, B. "The Competition between Al-Jazeera's Arab News Diversity and US Channels: Content Analysis of Iraq War", *Canadian Social Science,* 6 (4), 2010, pp. 81-96.

Al Kasim, F. "The Opposite Direction: A Program which Changed the Face of Arab Television", in M. Zayani (ed.) *The Al Jazeera Phenomenon*, Pluto Press, 2005, pp. 93-105.

Al-Najjar, A. I. "How Arab is Al-Jazeera English? Comparative Study of Al-Jazeera Arabic and Al-Jazeera English News Channels", *Global Media Journal, 8* (14), 2009, pp. 1-36.

Alterman, J. "The Challenge for al Jazeera International", in W. Armburst (ed.) *Culture Wars: The Arabic Music Video Controversy*. Cairo, AUC Press, 2005.

Amin, H. "The Nature of the Channel's Global Audience", in P. Seib (ed.) *Al Jazeera English,* Palgrave Macmillan, 2012, pp. 29-40.

Arafa, M., Auter, P. & Al-Jaber, K. "Hungry for News and Information: Instrumental Use of Al-Jazeera TV among Viewers in the Arab World and Arab Diaspora", *Journal of Middle East Media,* 1 (1), 2005, pp. 21-50.

Arsenault, A. "Covering and Reaching Africa", in P. Seib (ed.) *Al Jazeera English*, Palgrave MacMillan, 2012, pp. 79-96.

Auter, P. J., Arafa, M. & Al-Jaber, K. "Identifying with Arabic Journalists: How Al-Jazeera Tapped Parasocial Interaction Gratifications in the Arab World", *International Communication Gazette,* 67 (2), 2005, pp. 189-204.

Awad, G. "Aljazeera.net: Identity, Choices and the Logic of the Media", in M. Zayani (ed.) *The Al Jazeera Phenomenon,* Pluto Press, 2005, pp. 80-90.

Ayish, M. "Media Brinksmanship in the Arab World: Al Jazeera's the Opposite Direction as a Fighting Arena", in M. Zayani (ed.) *The Al Jazeera Phenomenon,* Pluto Press, 2005, pp. 106-126.

Bahry, L. Y. "The New Arab Media Phenomenon: Qatar's Al-Jazeera", *Middle East Policy,* 8 (2), 2001. 88-99.

Barkho, L. *News from the BBC, CNN, and Al-Jazeera: How the Three Broadcasters Cover the Middle East*, Cresskill, NJ: Hampton Press, 2010.

Barkho, L. "The Discursive and Social Paradigm of Al-Jazeera English in Comparison and Parallel with the BBC", *Communication Studies,* 62 (1), 2011a, pp. 23-40.

Barkho, L. “The Role of Internal Guidelines in Shaping News Narratives: Ethnographic Insights into the Discursive Rhetoric of Middle East Reporting by the BBC and Al-Jazeera English”, *Critical Discourse Studies,* 8 (4), 2011b, pp. 297-309.

Bashri, M., Netzley, S., & Greiner, A. “Facebook Revolutions: Transitions in the Arab World, Transitions in Media Coverage? A Comparative Analysis of CNN and Al Jazeera English’s Online Coverage of the Tunisian and Egyptian Revolutions”, *Journal of Arab & Muslim Media Research,* 5 (1), 2012, pp. 19-29.

Bebawi, S. *Media Power and Global Television News: The Role of Al Jazeera English,* London, IB Tauris, 2016.

Bessaiso, E. “Al Jazeera and the War in Afghanistan: A Delivery System or a Mouthpiece?”, in M. Zayani (ed.) *The Al Jazeera Phenomenon,* Pluto Press, 2005, pp. 153-170.

Boyd-Barrett, O. and Xie, S. “Al-Jazeera, Phoenix Satellite Television and the Return of the State: Case Studies in Market Liberalization, Public Sphere and Media Imperialism”, *International Journal of Communication,* 2, 2008, pp. 206-222.

Brown, K., & Youmans, W. L. “Intermedia Framing and Intercultural Communication: How Other Media Affect American Antipathy toward Al Jazeera English”, *Journal of Intercultural Communication Research,* 41 (2), 2012, pp. 173-191.

Brown, L. C., & Miles, H. Al-Jazeera: “The Inside Story of the Arab News Channel That Is Challenging the West”, *Foreign Affairs,* 84 (2), 2005, p. 167.

Bruna, S. N. “Participation in Al Jazeera English: Integrating Witnesses and Users to Broaden the Reach of the News”, *Comunicación y Sociedad*, 26 (1), 2013, pp. 1-21.

Cherribi, S. “From Baghdad to Paris: Al-Jazeera and the Veil”, *The Harvard International Journal of Press/Politics,* 11 (2), 2006, pp. 121-138.

Dakroury, A. “Whose Right to Communicate: Al-Jazeera or CRTC?”, *Global Media Journal,* 4 (7), 2005.

Da Lage, O. “The Politics of Al Jazeera or the Diplomacy of Doha”, in M. Zayani (ed.) *The Al Jazeera phenomenon*, Pluto Press, 2005, pp. 49-65.

Duffy, M. “Networked Journalism and Al-Jazeera English: How the Middle East Network Engages the Audience to Help Produce News”, *Journal of Middle East Media*, 7 (1), 2011.

El-Ibiary, R. “Questioning the Al-Jazeera Effect: Analysis of Al-Qaeda's Media Strategy and its Relationship with Al-Jazeera”, *Global Media and Communication,* 7 (3), 2011, pp. 199-204.

El-Nawawy, M. “AJE's Conciliatory Role: Covering the Ground Zero Mosque Controversy”, in P. Seib (ed.) *Al Jazeera English,* New York, Palgrave Macmillan, 2012, pp. 163-185.

El-Nawawy, M. “The 2009 Iranian Presidential Elections in the Coverage of CNN and Al-Jazeera English Websites”, in Y. Kamalipour (ed.) *Media, Power, and Politics in the Digital Age,* Rowman & Littlefield, 2010, pp. 3-14.

El-Nawawy, M. & Gher, L. “Al Jazeera: Bridging the East-West Gap through Public Discourse and Media Diplomacy”, *Transnational Broadcasting Studies,* 10, 2003.

El-Nawawy, M., & Iskandar, A. *Al-Jazeera: The Story of the Network that is Rattling Governments and Redefining Modern Journalism*, Boulder, CO, Westview, 2003.

El-Nawawy, M., & Powers, S. "Al-Jazeera English: A Conciliatory Medium in a Conflict-driven Environment?", *Global Media and Communication,* 6 (1), 2010, pp. 61-84.

El-Nawawy, M. & Powers, S. "News Influence and the Global Mediasphere: A Test Case of Al-Jazeera English", in S. Allan (ed.) *The Routledge Companion to News and Journalism Studies,* London, Routledge, 2009, pp. 439-449.

Elmasry, M. H., Shamy, A. E., Manning, P., Mills, A., & Auter, P. J. "Al-Jazeera and Al-Arabiya Framing of the Israel-Palestine Conflict during War and Calm Periods", *International Communication Gazette*, 75(8), 2013, pp. 750-768.

El-Oifi, M. "Influence without Power: Al Jazeera and the Arab Public Sphere", in M. Zayani (ed.) *The Al Jazeera Phenomenon*, Pluto Press, 2005, pp. 66-79.

Fahmy, S. & Emad, M. "Al-Jazeera vs Al-Jazeera: A Comparison of the Network's English and Arabic Online Coverage of the US/Al Qaeda Conflict", *International Communication Gazette,* 73 (3), 2011, pp. 216-232.

Fahmy, S., & Johnson, T. J. "Show the Truth and Let the Audience Decide: A Web-Based Survey Showing Support among Viewers of Al-Jazeera for Use of Graphic Imagery", *Journal of Broadcasting & Electronic Media,* 51 (2), 2007a, pp. 245-264.

Fahmy, S., & Johnson, T. J. "The Caged Bird Sings: How Reliance on Al Jazeera Affects Views Regarding Press Freedom in the Arab World", in P. Seib (ed.) *New Media and the New Middle East,* New York, Palgrave MacMillan, 2007b, pp. 81-100.

Figenschou, T. U. "A Voice for the Voiceless?: A quantitative Content Analysis of Al-Jazeera English's Flagship New", *Global Media and Communication,* 6 (1), 2010a, pp. 85-107.

Figenschou, T. U. "Content: The Messages of AJE's News", in P. Seib (ed.) *Al Jazeera English,* Palgrave MacMillan, 2012, pp. 41-56.

Figenschou, T. U. "Suffering up Close: The Strategic Construction of Mediated Suffering on Al Jazeera English", *International Journal of Communication,* 5, 2011a, pp. 233-253.

Figenschou, T. U. "The South is Talking Back: With a White Face and a British Accent – Editorial Dilemmas in Al Jazeera English" *Journalism,* 13 (3), 2011b, pp. 354-370.

Figenschou, T. U. "Young, Female, Western Researcher vs. Senior, Male, Al Jazeera Officials: Critical Reflections on Accessing and Interviewing Media Elites in Authoritarian Societies, *Media, Culture & Society,* 32 (6), 2010b, pp. 961-978.

Figenschou, T. U. *Al Jazeera and the Global Media Landscape: The South is Talking Back*, London, Routledge, 2013.

Fornaciari, F. "Framing the Egyptian Revolution: A Content Analysis of Al Jazeera English and the BBC", *Journal of Arab & Muslim Media Research Journal of Arab & Muslim Media Research,* 4 (2), 2012, pp. 223-235.

Gerhards, J. & Schafer, M. S. "International Terrorism, Domestic Coverage? How Terrorist Attacks are Presented in the News of CNN, Al Jazeera, the BBC, and ARD", *International Communication Gazette,* 76 (1), 2013, pp. 3-26.

Gilboa, E. “Covering Gaza, 2008-2009: An Israeli View” in P. Seib (ed.) *Al Jazeera English* Palgrave MacMillan, 2012, pp. 143-162.

Gilboa, E. “Global Communication and Foreign Policy: Debating the CNN Effect”, *International Studies Perspectives*, 6 (3), 2005, pp. 325–41.

Hudson, M. “Washington vs. Al Jazeera: Competing Constructions of Middle East Realities”, *Transnational Broadcasting Studies,* 14, 2005, pp. 121-142.

Huntington, S. *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order*, New York, Simon & Schuster, 1996.

Iskandar, A. “Is Al Jazeera Alternative? Mainstreaming Alterity and Assimilating Discourses of Dissent, *Transnational Broadcasting Studies,* 15, 2005.

Jamal, A., & Melkote, S. R. “Viewing and Avoidance of the Al-Jazeera Satellite Television Channel in Kuwait: A Uses and Gratifications Perspective”, *Asian Journal of Communication,* 18 (1), 2008, pp. 1-15.

Johnson, T. J., & Fahmy, S. “See no Evil, Hear no Evil, Judge as Evil? Examining the Degree to which Users of Al-Jazeera English-language Website Transfer Credibility Views to its Satellite Network”, in Golan, Johnson, and Wanta (eds.) *International Media in a Global Age*, London, Routledge, 2009, pp. 241-260.

Johnson, T. J., & Fahmy, S. “The CNN of the Arab World or a Shill for Terrorists?: How Support for Press Freedom and Political Ideology Predict Credibility of Al-Jazeera among its Audience”, *International Communication Gazette*, 70 (5), 2008, pp. 338-360.

Khamis, S. “The Role of New Arab Satellite Channels in Fostering Intercultural Dialogue: Can Al Jazeera English Bridge the Gap?”, in P. Seib (ed.) *New Media and the New Middle East* Palgrave, 2007, pp. 39-52.

Kolmer, C., & Semetko, H. A. “Framing the Iraq War: Perspectives from American, U.K., Czech, German, South African, and Al-Jazeera News”, *American Behavioral Scientist,* 52 (5), 2009, pp. 643-656.

Kraidy, M. “Al Jazeera and Al Jazeera English: A comparative institutional analysis”, in M. Kugelman (ed.), *Kuala Lumpur calling: Al-Jazeera English in Asia,* Washington, DC: Woodrow Wilson International Center for Scholars, 2008, pp. 23-30.

Kugelman, M. “Covering and Reaching South Asia”, in P. Seib (ed.) *Al Jazeera English*, Palgrave MacMillan, 2012, pp. 97-119.

Kugelman, M. *Kuala Lumpur Calling: Al Jazeera English in Asia: Essays*”, Washington, DC, Asia Program, Woodrow Wilson International Center for Scholars, 2008.

Loomis, K. “A Comparison of Broadcast World News Web Pages: Al Jazeera English, BBC, CBS, and CNN”, *Electronic News,* 3 (3), 2009, pp. 143-160.

Lynch, M. *Voices of the New Arab Public: Iraq, Al-Jazeera, and Middle East Politics Today,* New York, Columbia University Press, 2006.

Mellese, M. A., & Müller, M. G. “Mapping Text-Visual Frames of Sub-Saharan Africa in the News: A Comparison of Online News Reports From Al Jazeera and British Broadcasting Corporation Websites”, *Communication, Culture & Critique,* 5 (2), 2012, pp. 191-229.

Meltzer, K. “The US Launch of Al Jazeera English in Washington, DC: An Analysis of American Media Coverage”, *Journalism*, 14 (5), 2012, pp. 661-677.

Miladi, N. “Mapping the Al-Jazeera Phenomenon”, in D. Thussu & D. Freedman (eds.) *War and the Media: Reporting Conflict 24/7*, London, Sage, 2003, pp. 149-160.

Miladi, N. “Satellite TV News and the Arab Diaspora in Britain: Comparing Al-Jazeera, the BBC and CNN”, *Journal of Ethnic and Migration Studies*, 32 (6), 2006, pp. 947-960.

Miles, H. *Al Jazeera: The Inside Story of the Arab News Channel that is Challenging the West*, Grove Press, 2005.

Najjar Merriman, R. “Covering Gaza, 2008-2009: A Palestinian View”, In P. Seib (ed.) *Al Jazeera English,* Palgrave MacMillan, 2012, pp. 121-142.

Painter, J. *Counter-hegemonic News: A Case Study of Al-Jazeera English and Telesur*, Reuters Institute for the Study of Journalism, 2008.

Phillips, C. “Team Arab: Al-Jazeera and the Flagging of Everyday Arabism during the 2008 Beijing Olympics”, *Nations and Nationalism,* 18 (3), 2012, pp. 504-526.

Powers, S. “From Broadcast to Networked Journalism: The Case of Al-Jazeera English”, in Brugger & Burns (eds.) *Histories of Public Service Broadcasters Online,* New York, Peter Lang, 2012a pp. 207-219.

Powers, S. “Media, Diplomacy and Geopolitics”, in Cooper, Heine and Thakur (eds.) *Oxford Handbook of Modern Diplomacy,* Oxford University Press, 2013, pp 209-225.

Powers, S. “The Origins of Al Jazeera English”, in P. Seib (ed.) *Al Jazeera English,* Palgrave Macmillan, 2012b, pp. 5-28.

Powers, S. & El-Nawawy, M. “Al-Jazeera English and Global News Networks: Clash of Civilizations or Cross-cultural Dialogue?”, *Media, War & Conflict*, 2 (3), 2009, pp. 263-284.

Powers, S. & El-Nawawy, M. “New Media and the Politics of Protest: A Case Study of Al Jazeera English in Malaysia”, in M. Kugelman (ed.), *Kuala Lumpur Calling: Al-Jazeera English in Asia*, Washington, DC: Woodrow Wilson International Center for Scholars, 2008, pp. 65-82.

Powers, S. & Gilboa, E. “The Public Diplomacy of Al Jazeera”, in P. Seib (ed.) *New Media and the New Middle East*, Palgrave, 2007, pp. 53-80.

Quinn, S. and Walters, T. “Al Jazeera: A Broadcaster Making Ripples in a Stagnant Pool”, *American Journalism Review*, *25* (1), 2004, pp. 53-69.

Rinnawi, K. “Cyber Uprising: Al-Jazeera TV Channel and the Egyptian Uprising”, *Language and Intercultural Communication*, 12 (2), 2012, pp. 118-132.

Rinnawi, K. In*stant Nationalism: McArabism, Al-Jazeera and Transnational Media in the Arab World*, University Press of America, 2006.

Rushing, J. & Elder, S. *Mission Al Jazeera: Build a Bridge, Seek the Truth, Change the World*, Palgrave Macmillan, 2007.

Sakr, N. “Women, Development, and Al Jazeera: A Balance Sheet, in M. Zayani (ed.) *The Al Jazeera Phenomenon,* Pluto Press, 2005, pp. 127-150.

Samuel-Azran, T. *Al-Jazeera and US War Coverage*, New York, Peter Lang, 2010.

Samuel-Azran, T. “Al-Jazeera, Qatar, and New Tactics in State-Sponsored Media Diplomacy”, *American Behavioral Scientist*, 57 (9), 2013, pp. 1293-1311.

Schleifer, S.A. “The Sweet and Sour Success of Al-Jazeera”, *Transnational Broadcasting Studies,* 7 (Fall/Winter), 2001.

Seib, P. *Al Jazeera English: Global News in a Changing World*, Palgrave Macmillan, 2012.

Seib, P. “Hegemonic No More: Western Media, the Rise of Al-Jazeera, and the Influence of Diverse Voices”, *International Studies Review,* 7 (4), 2005, pp. 601-615.

Seib, P. *New Media and the New Middle East*, Palgrave Macmillan, 2007.

Seib, P. *The Al Jazeera Effect: How the New Global Media Are Changing World Politics*, Potomac Books, 2008.

Sinardet, D. & Mortelmans, D. “Between Al-Jazeera and CNN: Indicators of Media Use by Belgian Ethnic Minority Youth, *Communications,* 31(4), 2006.

Sullivan, S. “The Courting of Al-Jazeera”, *Transnational Broadcasting Studies,* 7, (Fall/Winter) 2001.

Tatham, S. “Al-Jazeera: Can it Make it Here?”, *British Journalism Review,* 16 (1), 2005, pp. 47-52.

Tatham, S. *Losing Arab Hearts and Minds: The Coalition, Al-Jazeera and Muslim Public Opinion*, Front Street Press, 2006.

Tausch, A. “On the Global Political and Economic Environment of the Current Al Jazeera Revolution”, *Middle East Studies,* 5 (2), 2011.

Thussu, D. K. “Mapping Global Media Flow and Contra-flow”, in D. K. Thussu (ed.) *Media on the Move: Global Flow and Contra-flow,* Routledge, 2007, pp. 11–32.

Usher, N. “Al Jazeera English Online”, *Digital Journalism,* 1 (3), 2013, pp. 335-351.

Wojcieszak, M. “Al Jazeera: A Challenge to the Traditional Framing Research”, *International Communication Gazette,* 69 (2), 2007, pp. 115-128.

Youmans, W. “AJE after the Arab Spring: The Politics of Distribution in the United States”, in P. Seib (ed.) *Al Jazeera English*, Palgrave Macmillan, 2012, pp. 57-78.

Youmans, W. & Brown, K. “Can Al Jazeera English Leverage its “Egypt Moment” into an American Audience”, *Arab Media & Society,* 12 (Spring), 2011.

Zaharna, R. “Al Jazeera and American Public Diplomacy: A Dance of Intercultural (Mis)communication”, in M. Zayani (ed.) *The Al Jazeera Phenomenon*, Pluto Press, 2005, pp. 183-202.

Zayani, M. “Al Jazeera and the Vicissitudes of the New Arab Mediascape”, in M. Zayani (ed.) *The Al Jazeera Phenomenon,* Pluto Press, 2005a, pp. 1-46.

Zayani, M. “Arab Media, Corporate Communications, and Public Relations: The Case of Al Jazeera”, *Asian Journal of Communication,* 18 (3), 2008, pp. 207-222.

Zayani, M. “Arab Public Opinion in the Age of Satellite Television: The Case of Al Jazeera”, in

E. Poole and J. Richardson (eds) *Muslims and the News Media,* I.B. Tauris, 2006, pp. 176-187.

Zayani, M. *The Al Jazeera Phenomenon: Critical Perspectives on New Arab Media*. Pluto Press, 2005b.

Zayani, M. Witnessing the Intifada: Al Jazeera's Coverage of the Palestinian-Israeli Conflict", in M. Zayani (ed.) *The Al Jazeera Phenomenon,* Pluto Press, 2005c, pp. 171-182.

Zayani and Sahraoui *The Culture of Al Jazeera: Inside an Arab Media Giant.* Jefferson, McFarland, 2007.

Zeng, L. & Tahat, K. "Picturing Terrorism through Arabic Lenses: A Comparative Analysis of Al Jazeera and Al Arabiya", *Asian Journal of Communication,* 22 (5), 2012, pp. 433-448.

الفصل الرابع

مقاربة جديدة للمهنية الصحفية

سؤال المهنية في صحافة الجزيرة

الأهداف والاستراتيجيات ومعضلات الإنتاج الإخباري في الجزيرة الإنجليزية

تينا فيغنسكو

أستاذ الإعلام والصحافة بجامعة أوسلو، النرويج

شهدت شبكة "الجزيرة" تحولاً ملحوظًا خلال العقدين الماضيين، إذ انتقلت من مرحلة الدخيل الغامض إلى شبكة إعلامية عالمية متعددة اللغات والقنوات والمنصات. كما شهد العقدان الماضيان أيضًا ظهور آراء وسجالات بشأن ما إذا كانت شبكة الجزيرة – بالنظر إلى جمعها النادر بين وفرة الموارد ونموذج الملكية ونهجها المناهض للهيمنة – تنتمي إلى صحافة "التيار الرئيس" أم هي "إعلام بديل" أم "إعلام مهني" أم "إعلام متحيز"؟

وكما سيأتي بحثه في هذا الفصل، فإن "الجزيرة"، ممثلة بقناتها الإخبارية العالمية الناطقة بالإنجليزية، تحمل رسالة تحريرية واستراتيجيات إنتاجية تساند وتعزز المنطق الصحفي المحترف، بالتوازي مع اتجاه القناة المناهض لممارسات الشبكات الإخبارية الإعلامية الأنجلو- أميركية. من هنا يكشف هذا الفصل أن المشروع التحريري للجزيرة الإنجليزية يتجاوز ثنائية "الصحافة البديلة" في مواجهة "صحافة التيار الرئيس"، ويتحدى تلك الثنائية من خلال طرحه نموذجًا مهنيًا بديلا ينطلق من "الجنوب". يبحث هذا الفصل أولا في مفهوم الصحافة المهنية، ثم ينتقل إلى مناقشة "مدونة السلوك" المعتمدة لدى الجزيرة الإنجليزية وما يقترن بها من رسالة واستراتيجيات تحريرية تتعلق بالمُثل الاحترافية من قبيل المهنية والتوازن والحياد. ثانيًا، يتناول الفصل بالتحليل أوجه النقد الذي توجّهه القناة للقيم والممارسات التي تكتنف الصحافة السائدة في ساحة الإعلام العالمي. ويختم الفصل بمناقشة الجزيرة الإنجليزية بوصفها مشروعًا صحفيًا تجاوز الثنائية القائمة بين "صحافة التيار الرئيس" و"الصحافة البديلة".

تعريف الصحافة المهنية

"المهنية" مفهوم له تعريفات ومعانٍ لا حصر لها، ذلك ما يؤكده وايزبورد (Waisbord)، في كتابه عن أصول "الصحافة المهنية" وسماتها والتحديات الماثلة أمامها. ومن ثمّ، فإن أدنى تعريف جامع ينظر إلى هذه المهنة باعتبارها وظيفة الصحفيين أو مهنتهم، وما تنتجه الصحافة، وما تقتضيه من مجموع المهارات والمعارف التي تقرّر حدودها الوظيفية (وايزبورد، 2013: 6 – 13)[1] . ومع ذلك، فغالبًا ما تحوي الصحافة المهنية عناصر النموذج الإيجابي المعياري لجودة التقارير الصحفية وإسهام الصحافة نفسها في إرساء الديمقراطية. وبالنسبة لآخرين، كما سيرد بحثه بمزيد من التفصيل أدناه،

[1] ثمة جدل مستمر حول الصحافة وما إذا كان ينبغي تعريفها بوصفها مهنة تقليدية أم لا، ذلك بأن ممارسة الصحافة غير خاضعة لشروط معرفية رسمية، ولا لمتطلبات توثيقية تقرها الدولة، ولا لعضوية نشطة في المؤسسات أو الاتحادات. كما أن الإحساس بالهوية المهنية لهذا المجال يتسم بالضعف في الغالب الأعم. (انظر وايزبورد، 2013، ص.ص. 80 – 88).

فإن أول مقتضيات المهنية تتمثل في استعراض المشكلات والتحديات المعاصرة التي تواجه الصحافة الاعتيادية (وايزبورد، 2013، ص.ص. 3 – 4).

يستند المقياس المعياري للصحافة المهنية إلى مدى إسهام الصحافة في خدمة الصالح العام عبر سلطتها الاستقصائية، فتيسر بذلك النقاشات النقدية وتسهم في إعلام المواطن (وايزبورد، 2013: 122). واستنادًا إلى النموذج المهني، يتبنى الصحفيون أخلاقيات الخدمة العامّة مشفوعة بقيم المسؤولية الاجتماعية والحياد والإنصاف، مع اعتبار الحياد والإنصاف أساس القيم المهنية لديهم (وايزبورد، 2013: 123 – 124). بخصوص الموضوعية، بحث هاكيت وغورليين (Hackett & Gurleyen)، 2015) في كنهها وانتهيا إلى أنها أول المقاييس المعيارية وأهمها، إذ تؤكد القيم الحاكمة لأسلوب تقديم المعلومة من جانب الصحفيين (اليقين والدقة والتمام)؛ وهو ما يقتضي من الصحفيين الموضوعيين المستقلين المحايدين الأخذ بها (هاكيت وغورليين، 2014: 55). يأتي في المرتبة الثانية في تحديد قيمة الموضوعية موقفان معرفيان متعارضان – فمن ناحية ثمّة اعتقاد بإمكانية "نقل صورة الواقع كما هو"، باعتبار أن الصحافة مرآة كاشفة لذلك الواقع، ومن ناحية أخرى هناك تأكيد على ضرورة التوازن والإنصاف، باعتبار أن الصحافة سلطة ممثِّلة/ مُنشئة. ثم تأتي في المرتبة الثالثة الموضوعية التي تتجلى في مجموعة من ممارسات جمع الأخبار وعرضها، مثل أساليب الاستقصاء النقدي، والملاحظة، والتوثيق، وشبكات المصادر؛ تأتي بعد ذلك القيم الإخبارية مثل أهمية الخبر وتوقيته واختلاف زواياه والعلاقة المكانية به؛ تليها الصيغ المثلى للأخبار، حيث يفضل أن تكون قصيرة وواضحة وأحيانا في شكل حلقات مترابطة كما يفضل أن لا تغطي القصة الخبرية أكثر من حدث واحد (كوك (Cook)، 1998؛ آينغار (Iyengar)، 1991؛ وايزبورد، 2013). ورابع المقاييس هو أن الموضوعية تمثل وسيلة لتقييم الجودة والأداء الصحفيين، سواء في الخطاب العام حول الصحافة أم داخل الجماعة الصحفية ذاتها (هاكيت وغورليين، 2015). خامسًا، تتجسد الموضوعية في الأطر المؤسسية والقانونية الناظمة التي وُضعت لتضمن الاستقلالية المهنية بعيدًا عن المصالح الخارجية، سواء أكانت اقتصادية أم سياسية أم دينية، في المجتمعات الديمقراطية (وايزبورد، 2013: 43 – 54). فحق وسائل الإعلام في الوصول إلى المعلومة، ومساءلة أصحاب السلطة، وكشف الإخفاقات والممارسات الخاطئة، حق معترف به عالميا، وقد وقع التأكيد عليه في كثير من القوانين التي تهم حرية تداول المعلومات في عدد كبير من الدول. وقد ترسخت سلطة ذلك المنطق المهني في المكانة الاحتكارية والسيطرة التامة اللتين حملهما الصحفيون والمحررون على مدار القرنين المنصرمين بغية تقدير القيمة الخبرية والاهتمام العام في أوساط الجماهير (وايزبورد،2013)؛ وهذه مكانة باتت موضع انتقاد واضح في المشهد الإعلامي الراهن.
بدأت عملية إضفاء الصبغة المهنية أو الاحترافية في عالم الصحافة المعاصرة أول ما بدأت في وسائل الإعلام الأنجلو-أميركية على امتداد القرن التاسع عشر، وذلك استجابةً للضغوط السياسية والاقتصادية، غير أنها حازت حضورًا عالميًا واكتسبت تأثيرًا أوسع على مدار القرن الماضي. وقد انتهت الدراسات الدولية إلى أن القيم الأصيلة المتمثلة في الموضوعية والدقة والحقيقة شكّلت لُب الأخلاقيات المهنية على الصعيد العالمي، فضلا عن كونها محورية في الطريقة التي نميّز بها الصحافة الجيدة على مستوى العالم (هانيتزتش (Hanitzsch)، وبليزانس (Plaisance)، وسكيوز (Skewes)، 2013). وبتحليل سمات التطور في مقياس المهنية في السياق الأنجلو-أمريكي، يؤكد وايزبورد (2013) أنه بالرغم من الدراية بمقياس المهنية واستيعابه في أوساط الصحفيين في جميع دول العالم، إلا أن ذلك لا يعني استيعاب هذا المقياس في مختلف الثقافات والسياقات المحلية (انظر أيضًا وارد (Ward)، 2013).

أخلاقيات المهنة

تنطلق إحدى المقاربات في دراسة النماذج المعيارية والرسالة التحريرية للمؤسسات الإعلامية من تحليل مدوناتها الأخلاقية. ونشير هنا إلى أنه لا يمكن اعتبار مدونات السلوك وبيانات المهمة براهين على أداء القناة ومهنيّتها، بل هي مؤشر دال على تطلعات القناة وأهدافها (أي النموذج المعياري). من المعلوم أن للجزيرة الإنجليزية ميثاقا للشرف الصحفي (نُقح في أواخر العام 2014)، يمكن وصفه بكونه وجيزا نسبيًا (في عشر نقاط وصفحة واحدة)، وهو لذلك عام وشامل، غير محدد ولا مفصل. وعلى وجه الإجمال، يعكس هذا الميثاق، في جانب كبير منه، المنطق المهني المعياري المبيّن أعلاه. بحسب ما ورد في هذا النص، فإن القناة تعلن "تمسكها بالقيم الصحفية من صدق وجرأة وإنصاف وتوازن واستقلالية ومصداقية وتنوع، دون تغليب للاعتبارات التجارية أو السياسية على المهنية" (الفقرة الأولى). وينص الميثاق أيضًا على سعي القناة "للوصول إلى الحقيقة وإعلانها... بشكل لا غموض فيه ولا ارتياب في صحته أو دقته" (الفقرة الثانية)، و"التمييز بين مادة الخبر والتحليل والتعليق" (الفقرة التاسعة)، وتقديم تغطية قوامها "التعامل الموضوعي مع التنوع الذي يميز المجتمعات البشرية بكل ما فيها من أعراق وثقافات ومعتقدات" (الفقرة السادسة)، وعرض "وجهات النظر والآراء المختلفة دون محاباة أو انحياز لأي منها" (الفقرة الخامسة). وبالرغم من أن الموضوعية لم يرد لها ذكر صريح في هذا الميثاق، إلا أن الأهداف المنصوص عليها هنا تحيل بصورة غير مباشرة على التزام القناة قيم الإنصاف والموضوعية التي تميّز الصحافة المهنية، وتتجلى في إنتاج مادة صحفية واضحة لا لبس فيها (الفقرة الثانية)، وإنجاز تغطيات محايدة تعكس مختلف المعتقدات والقيم (الفقرة السادسة)، والتزام الشفافية في العمل الإخباري ومصادره (الفقرة الثامنة)، والاعتراف بالخطأ فور وقوعه والمبادرة إلى تصحيحه، وتفادي تكراره (الفقرة السابعة).

وعلى الرغم من التأكيد على قيمة التنوع، فيما يتعلق بوجهات النظر والآراء والقيم والسمات الفردية، إلا أن القيم المهنية الشاملة التي تضمّنها الميثاق تعكس إيمانًا بالصحافة المهنية بوصفها انعكاسًا للواقع. وتؤكد أجزاء أخرى منه على هدف القناة في الإسهام في دعم وتعزيز الجماعة المهنية للصحفيين. ويتجلى ذلك الهدف بوضوح في الفقرة العاشرة التي تنص على "الوقوف إلى جانب الزملاء في المهنة وتقديم الدعم لهم عند الضرورة وخاصة في ضوء ما يتعرض له الصحفيون أحيانا من اعتداءات أو مضايقات، والتعاون مع النقابات الصحفية العربية والدولية للدفاع عن حرية الصحافة والإعلام". وتأتي الفقرة الرابعة من الميثاق بنص أكثر وضوحًا عن العلاقة بالصحفيين من المؤسسات الأخرى، إذ تنص على ترحيب القناة "بالمنافسة النزيهة والصادقة"، مع التشديد على ألا تفضي تلك المنافسة إلى انحدار مستويات الأداء حتى لا يصبح السبق الصحفي هدفا بحد ذاته". إلى جانب ذلك، تنص فقرات أخرى من الميثاق على أن القناة تهدف إلى التعامل باحترام وإنصاف مع جمهورها (الفقرة الثالثة) وزملائها (الفقرة الرابعة) ومصادرها (الفقرة الثامنة). وينص الميثاق بشكل خاص على احترام "مشاعر ضحايا الجريمة والحروب والاضطهاد والكوارث"، ومراعاة "أحاسيس ذويهم والمشاهدين واحترام الخصوصيات في تغطية القناة (الفقرة الثالثة). وكما هو مثبت في الدراسات السابقة حول أخلاقيات المهنة، لا ينبغي النظر إلى تلك المدونات السلوكية نظرة سطحية تجعل منها شهادة موثقة على مهنية المؤسسة الإخبارية؛ بل هي مجرد بيان للمهمة التي تنشد المؤسسة تحقيقها والانتظام في فلكها، أما تفسيرات تلك المفاهيم الأخلاقية وتنفيذها، في صورة ممارسات صحفية على أرض الواقع، إنّما هي مواطن للتباين الكبير بين غرف الأخبار والمؤسسات الإخبارية العالمية (وايزبورد، 2013؛ وارد، 2013). في ما يلي، سنتناول مدونة الجزيرة للسلوك المهني، وهي تعكس، في جانبها الأكبر، أخلاقيات المهنة العامة والكونية. سنناقش ذلك في سياق أبرز القيم الصحفية للقناة واستراتيجياتها التحريرية.

المهنية والقيم والاستراتيجيات التحريرية الأساسية

على الرغم من خضوع الرسالة التحريرية الخاصة بقناة الجزيرة الإنجليزية للتقييم والنقاش المستمر وإعادة الصياغة على امتداد عمرها الذي يناهز عشرة أعوام، إلا أن بعضًا من قيمها الأساسية ظلت ثابتة. سنتناول في ما يلي تلك القيم الأساسية والاستراتيجيات التحريرية التي وُظفت لتحقيقها، وذلك في ما يتصل بالنماذج المعيارية للصحافة المهنية المبينة أعلاه، وفي ضوء النتائج المنبثقة عن الدراسات التي أجريت حول أداء القناة.

أولا، المنظور الجنوبي: أفادت البيانات الرسمية والنصوص الترويجية لقناة الجزيرة الإنجليزية - منذ بدايتها - بأنها تسعى إلى أن تكون قناة عالمية التوجه تقدم تغطيتها من منظور مختلف. وذلك من أجل "إحداث التوازن في التدفّق الحالي للمعلومات، من خلال التغطية النابعة من العالم النامي والموجّهة إلى الغرب، والنابعة من الجنوب مستهدفة مشاهدين في الشمال" (شبكة الجزيرة، 2010). تؤكد المقابلات التي أجريت مع محرري القناة وإدارتها فهمًا سياسيًا لمفهوم "الجنوب" تدخل فيه أنماط القوة والثروة والتنمية والتفاوت بين مختلف المناطق وداخل كل منطقة (فيغنسكو (Figenschou)، 2013، ص. 91). وقد أكد عدد الدراسات التي تناولت أخبار الجزيرة الإنجليزية أن القناة تركز بالفعل في تغطيتها على الجنوب العالمي (إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط) مقارنة بالشمال العالمي (أوروبا وأمريكا الشمالية)، وهي تقدم أخبارًا أكثر عن الجنوب ومن الجنوب[1]، كما تعطي الأولوية في نشراتها وفقًا لذلك (بيغالكي (Bigalke)، 2013)، بل إن تغطيتها للجنوب مطولة وأكثر عمقًا وتفصيلا (فيغنسكو، 2010).

تجسد الجزيرة الإنجليزية ذلك المنظور الجنوبي لغرفة أخبار في استراتيجيات القناة التحريرية: فأولا، كان للقناة هيكل إنتاجي معقّد ولامركزي، يعتمد على شبكة واسعة من المكاتب والمراسلين المتمركزين في دول الجنوب. وخلال الأعوام الخمسة الأولى من بث القناة، تعززت تلك الأولوية بوجود بنية لامركزية لعملياتها، تمثلت في أربعة مقار إقليمية للبث في كوالالمبور والدوحة ولندن وواشنطن، وفقا للترتيب المذكور. وبالرغم من الكلفة الباهضة لهيكلة الحضور الجنوبي للقناة، إلا أن ذلك يعتبر من الاستراتيجيات الضرورية لتحقيق التميز التحريري والمحافظة عليه. كما بات للقناة سياسة نشطة تجابه من خلالها ممارسات وسائل الإعلام الغربية المتعلقة بالمكان (فيغنسكو، 2013). لقد كانت سياسة الجزيرة المكانية وحضورها الميداني المباشر شرطًا حاسمًا في تحقيق القناة اختراقات نوعية في أدائها الصحفي على مستوى العالم، غير أن تلك السياسة كانت محط جدل من ناحية أخرى، فتقارير القناة الصادرة من أراض يسيطر عليها "أعداء" الغرب قد جعلها في مرمى النقد والطعن في استقلاليتها وفي أجندتها التحريرية (فيغنسكو، 2013: ص.ص. 56 – 60).

ثانيًا، المراسلون المحليون: تبنت القناة استراتيجية تحريرية مترابطة المكونات في تغطية الأحداث العالمية من خلال "مراسلين محليين"، لا سيما في النصف الجنوبي من العالم. وثمة اعتقاد شائع في القناة بأن المراسلين المحليين أقدر على فهم الحقائق على الأرض ونقلها مقارنة بالمراسلين

[1] انظر آخرين مثل: النجار (2009)، وبغيالكي (2013) وفيغنسكو (2010) وباينتر (2008) ويوسال (2011).

المحترفين العالميين (الأجانب). واستنادًا إلى منظور الجزيرة الإنجليزية، فإن المراسلين المحليين "الذين يعايشون الأحداث" أقدر على تجسيد القيم التحريرية الأصيلة للقناة. فالمراسل المحلي يتحدث اللغة (أو اللغات) المحلية، وهو عليم بالثقافة والدين ونمط الحياة في محل التغطية الإخبارية، ولديه خبرات شخصية وفهم وافٍ للتحديات التي يواجهها المجتمع. علاوة على ذلك، وبحسب ذات المنظور، فإن المراسلين المحليين يفهمون الأنظمة جيدا ويعرفون كيف يتعاملون مع السلطات المحلية، ولديهم علاقات موسعة وشبكات بديلة من مصادر الأخبار. كما أنهم يحترمون الحساسيات المحلية ويجتهدون لعرض وجهة النظر المحلية بإنصاف وحياد. ويعتقد الضيوف الذين أجريت معهم المقابلات أن المراسلين المحليين في النصف الجنوبي من العالم يمتلكون قدرة أكبر على تغطية الأحداث ونقل القصص الخبرية بطرق مستقلة من زوايا بديلة (فيغنسكو، 2013، ص.ص. 60 – 65). لقد مرت هذه الرؤية الخاصة بالمراسلين المحليين ببعض الاختبارات العملية - إلى جانب التسليم النظري بدرايتهم بالثقافة واللغة المحليتين باعتبار ذلك من المزايا التفضيلية - خلال العديد من تغطيات القناة للأحداث الكبرى (انظر طرح بريدجيز (Bridges)، (2013) ومناقشته لثورات الربيع العربي في العام 2011). وقد انتهى (بيباوي (Bebawi)، 2016) في تحليله للخطابات وطرق التأطير المستخدمة على شاشة الجزيرة الإنجليزية، إلى نتيجة مفادها أن المراسلين غير الغربيين العاملين بالقناة قدموا خطابًا أكثر نقدية ومناهضة للهيمنة مقارنة بزملائهم الغربيين؛ وهو ما يؤكد التأثير الفكري النابع من الخلفية الاجتماعية الثقافية لديهم.

إن التركيز التحريري على المنظور "الجنوبي" يقوم على فهم نقدي للصحافة العالمية، يتحدى الفهم الذاتي المعياري الذي تقوم عليه الصحافة المهنية كما وقع بيانه أعلاه. وهو تركيز يحيل إلى مشروع تحريري صريح في معارضته لدعاوى الكونية والحياد الكامنة في المنطق المهني الأنجلو-أمريكي. والتأكيد على الانطلاق من الجنوب كمكان وخلفية في الوقت ذاته يقابلان النموذج المعياري لدى "الصحفيين المهنيين" في تركيزه على قيم الحياد والاستقلالية والحرية. هناك اعتقاد راسخ في هذه الاستراتيجية الرامية إلى الاستعانة بمراسلين محليين، وهو أن المراسلين ذوي المنظور الجنوبي قادرون على تقديم صحافة أرقى في جودتها باعتبارهم معايشين للأحداث. وبحسب المسوغات التي أبدتها الجزيرة الإنجليزية، فإن هؤلاء المراسلين المحليين يُنظر إليهم باعتبارهم أكفأ من المراسلين الأجانب الذين يمارسون عملهم بمنطق مهني مجرد. وبالرغم من التركيز على الخبرات المحلية للمراسلين في الإعلانات الترويجية وفي المقابلات التي أجريتها مع المحررين، إلا أن ضيوف المقابلات في الجزيرة الإنجليزية ركزوا أيضًا على تعويض نقص الخبرة العالمية لدى المراسلين المحليين بضمهم إلى منتجين ذوي سجلات مهنية دولية عامرة، فضلا عن إرسال المواهب المحلية إلى مقر القناة في الدوحة لتلقي التدريبات اللازمة (فيغنسكو، 2013). وكما تشير بيغالكي، فإن استراتيجية التوظيف اقتضت الجمع بين الصحفيين المحليين وذوي الخبرات العالمية، وهو ما ورد مرارا في إجابات ضيوف المقابلات الذين يعتبرون أن مفهوم "المهنية" لطالما أثار أسئلة مغلوطة حول موضوع الأصالة (المفترضة) (فيغنسكو، 2013، ص. 216). تجدر الإشارة هنا إلى أن بيغالكي رصدت في دراستها مظهرا غير متوقع لهذا التمييز بدا جليا في بيانات الدراسة التي أجرتها حول الجزيرة الإنجليزية وأظهرت بعض جوانب القصور في استراتيجية التوظيف المذكورة أعلاه.

وهو قصور يعكس، فيما يعكس، تحيزا متأصلا في ساحة مهنية أوسع محكومة بمبدأ عدم التكافؤ: فقد تبين أن هناك تناسبا عكسيا قويا واضحا يتعلق بالنوع الاجتماعي. ففي حين تشكل النساء أغلبية ضمن المراسلين ممن يظهرون على الشاشة من ذوي الخلفية غير الغربية، فإن أكثر من 95% من المراسلين الذين يظهرون على الشاشة من ذوي الخلفية الغربية من الرجال. لقد اعتمدت الجزيرة سياسة توظيف واعية بشأن المراسلين المحليين الجنوبيين، بينما يبرز التحيز القائم على النوع (بسبب انعدام استراتيجية واعية لذلك) كنتاج ثانوي لاختلالات أعم وأكبر (بيغالكي، 2013، ص. 185). علاوة على ذلك، هذا التنوع الذي نجده على الشاشة لا يحضر بنفس الدرجة خلف الشاشة؛ فقد تبين أنه من الصعب العثور على مراسلين ومنتجين ومحررين محليين جنوبيين مستوفين للشروط المهنية الضرورية للعمل في تلفزيون عالمي (مثل إتقان اللغة الإنجليزية، وامتلاك الخبرة والمعرفة اللازمتين لشغل تلك الوظائف حسب مقتضيات المنطق المهني). ونتيجة لذلك، فإن مناصب المستويات التنفيذية منحصرة في مجموعة محدودة من المهنيين من ذوي الخلفيات والسير المهنية العامرة ممن عملوا في مؤسسات التلفزيون الأنجلو-أمريكية المهيمنة على "التيار الرئيس" في الصحافة العالمية (فيغنسكو، 2012). أما الجهد الجهيد الذي بُذل للجمع بين المنظور الجنوبي ومنطق الصحافة المهنية فسنتناوله بمزيد من التفصيل في الجزء الختامي من هذا الفصل.

ثالثا: صوت من لا صوت لهم: تعكس هذه العبارة إحدى القيم التحريرية الأساسية التي طالما كانت حاضرة بقوة في أداء الجزيرة الإنجليزية منذ انطلاقها – أي أن تكون صوتًا للمهمشين والمحرومين والمنبوذين ولمصالحهم البعيدة عن دوائر صنع القرار والنخب المجتمعية ووسائل الإعلام المهيمنة. في هذا السياق، تُفهَم كلمة "الصوت" على أنها تعبير عن الرأي أو عن منظور مغاير للعالم (كولدري (Couldry)، 2010). وبذلك اعتمدت القناة رسالة تحريرية صريحة للتعامل مع الهيمنة النخبوية وإعادة توجيهها في الأخبار العالمية من خلال تحويل الاهتمام عمدًا من "أروقة القوة" إلى "الهوامش" (الجزيرة الإنجليزية، 2009). أي أن الهدف كان "إبراز القصة الإنسانية" (الجزيرة الإنجليزية، 2014) وأن تكون القناة "صوت الناس" (الجزيرة الإنجليزية، 2016) – وهو منظور صريح برز في إحدى الحملات الترويجية الحديثة للقناة. ينطوي هذا التوجه على إعطاء المجال في البث لأناس عانوا نسبيا من الحرمان بفعل مظالم تعود لأسباب جيو-ثقافية وسياسية واقتصادية واجتماعية. إنها قيمة أساسية ولكنها فُهمت بطريقة فيها كثير من المرونة داخل القناة "فهي تنسحب على أي جماعة من الناس ذات تمثيل متواضع في وسائل الإعلام الأخرى" (بيغالكي، 2013، ص. 96)، وهو ما فسح المجال مجددا للتأويلات المتباينة والنقاشات الداخلية المحتدمة في أوساط شبكة الجزيرة (انظر بيغالكي، 2013 وفيغنسكو 2012). بصفة عامة، تُرجمت تلك القيمة الأساسية إلى استراتيجيتين اثنتين في ما يتعلق بالمصادر:

الأولى: تجسيدا للروح المناهضة للأنظمة الرسمية التي اتسمت بها شبكة الجزيرة بشكل عام (زياني وصحراوي، 2008)، تعتمد قناة الجزيرة الإنجليزية على مصادر تميل بشكل منهجي إلى نقد السلطة والنخبة، كما تقوم بدعوة جميع الأطراف ذات العلاقة بالخبر إلى الاستوديو، بما في ذلك أصحاب "الرأي الآخر" الذين غالبًا ما يُحرمون من الظهور في وسائل الإعلام العالمية التي تمثل التيار الرسمي (فيغنسكو، 2013). أما مسألة نجاح القناة في إظهار الرأي الآخر من عدمه، أي الرأي الذي

يمثّل مواقف مغايرة ويُعتبر فاقدا للشرعية (متشددا جدا)، فقد ظلت لوقت طويل موضوعا للنقاش التحريري الداخلي خلال السنوات الأولى لانطلاق القناة (فيغنسكو، 2012). في هذا السياق، ترى مجموعة من موظفي الجزيرة الإنجليزية – وجُلهم من ذوي الخبرات المهنية لدى المؤسسات الإخبارية العربية والجنوبية الأخرى – أن القناة كانت مفرطة في الحذر الذي يصل أحيانا إلى حد الجُبن حين يتعلق الأمر بدعوة ضيوف مثيرين للجدل، ناقدين للهيمنة الغربية، لمقابلتهم واستطلاع آرائهم والسعي لفهم مواقفهم ورؤاهم. إن التأويل الجذري لتلك القيمة التحريرية (إفساح المجال للآخر الذي لا صوت له) يعني توسيع نطاق تعريف "المصادر المشروعة" ليشمل أولئك الفاعلين الذين يصنفهم المجتمع الدولي كخارجين على القانون (مثل المستبدين ومجرمي الحرب وأمراء الحروب والإرهابيين والقادة المتطرفين). وهو ما يشكل تحديا للقيم المهنية السائدة حيال أنواع الآراء المشروعة التي تستحق السماع وبالتالي الظهور في وسائل الإعلام.

ثمة نقص في التقصّي المنهجي لحقيقة تلك الادعاءات، غير أن بعض الدراسات تشير إلى اتباع الجزيرة الإنجليزية استراتيجيات مختلفة نسبيا عن منافِساتها العالمية بشأن مصادرها. فقد بينت دراسة فيغنسكو (2013، ص.ص. 118 – 138) حول تغطية الحرب على غزة في العام 2012 أن الجزيرة الإنجليزية اعتمدت مصادر من حماس أكثر من "بي بي سي العالمية" و"سي أن أن الدولية"، كما لاحظت أن صحفيي الجزيرة الإنجليزية كانوا أكثر حدة في مقابلاتهم مع المسؤولين الإسرائيليين مقارنة بالضيوف الفلسطينيين. هناك دراسات كيفية أخرى بحثت في مدى اختلاف خطاب الجزيرة الإنجليزية عن خطاب كل من "بي بي سي العالمية" و"سي أن أن الدولية"، وانتهت إلى نتائج أكثر تباينا. فقد وجدت فروقًا بسيطة بين الجزيرة الإنجليزية ومنافساتها، غير أنها رصدت أيضًا أوجهًا من عدم الانسجام في عينات من تغطية الجزيرة الإنجليزية مع استراتيجياتها التحريرية (بباوي، 2015؛ بيغالكي، 2013).

الثانية: منذ انطلاقها، كان من الأهداف التحريرية المعلنة للجزيرة الإنجليزية السعي لإيجاد "وسائل تمكّن الناس في الميدان من نقل أخبارهم بأنفسهم" (فيغنسكو، 2013، ص. 56). ويعنى ذلك تقديم القصة الخبرية من وجهة نظر أصحابها الذين هم موضوع تلك القصة (انظر مناقشتنا لموضوع أصالة المراسلين المحليين وفق ما سبق بيانه). أما مدى تجسيد تلك الاستراتيجية في أداء القناة الإخباري – بعيدًا عن فواصلها الترويجية – فهو أمر غير محسوم. فقد بيّن تحليلنا لمصادر أخبار الجزيرة الإنجليزية أن تمثيل الناس العاديين، غير المنتمين إلى أية جهة (فيغنسكو، 2010) وكذلك المصادر الإخبارية النسائية (فيغنسكو، 2013) ضعيف بشكل منهجي في البرامج الإخبارية. وفي أحيان كثيرة يقع التعاطي مع تينك الفئتين بتعريف ومعجم تواصلي نمطي ضيق، بما يضعهما خارج دائرة السلطة (بيغالكي، 2013). في الوقت ذاته، انتهت دراسات مقارنة أخرى إلى أن القناة أفسحت المجال لعامّة الناس في تغطياتها للجنوب العالمي أكثر مما فعلت في تغطياتها للشمال (وفي ذلك تجسيد لاستراتيجيتها إزاء المراسلين المحليين والحضور الجنوبي) (بيغالكي، 2013، ص. 191؛ فيغنسكو، 2013، ص. 116).

طالعتنا الجزيرة الإنجليزية منذ وقت مبكر بصيغ جديدة لقصص إخبارية يرويها "مراسلون

مواطنون". ولا شك أن تمكين غير الصحفيين المحترفين من "رواية الأخبار بأنفسهم"، في إطار عمليات منهجية تشاركية وتعاونية لجمع الأخبار، يمثل إعادة تعريف للمهنية الصحفية (سينغر (Singer)، وآخرون، 2011)، كما ينطوي على إمكان إعادة توزيع السلطة السياسية والتواصلية (تشادويك (Chadwick)، 2013). بصفة عامة، ظلت البرامج والأخبار التلفزيونة على شاشة الجزيرة الإنجليزية محكومة في جانبها الأكبر بتوجه نخبوي، عدا عن أجزاء قليلة نسبيا من إنتاج "غير احترافي". في هذا السياق، يلاحظ أن أداء خدمة الأخبار الإلكترونية التابعة للقناة نفسها كان مختلفًا بعض الشيء، إذ كان أكثر إبداعًا وتوظيفا للأدوات التفاعلية الجديدة. كملا يلاحظ، خلال الأحداث الإخبارية الكبرى، أي اعتبارًا من حرب غزة 2008 – 2009 فما بعدها، أن القناة أصبحت تُبرز أكثر المعلومات التي تصدر عن المستخدمين، وكذلك التفاعلات المباشرة مع المدونات الإلكترونية، كما تركز الخرائط وبيانات سير الأحداث، بغية تقديم تقارير محدّثة صادرة عن المتأثرين بالأزمات (باورز ويومانز (Powers & Youmans)، 2012)، والحروب (بريدجيز، 2013)، والانتخابات (يومانز، 2014) والاحتجاجات الشعبية (أوراغ وألكسندر، 2011).

بالنسبة إلى الجزيرة، تجسدت القوة الكامنة لذلك النمط من التغطية الإخبارية بواسطة تلك الشبكات المترابطة خير تجسد خلال الثورات العربية في العام 2011، حين تفاعل المحتجون في الميادين وتعاونوا بشكل وثيق مع الشبكة (بوسيو (Bossio)، 2014). فقد احتوى بث الجزيرة الإنجليزية جرعة مرتفعة نسبيًا من مصادر وسائل التواصل الاجتماعي (وإن ظلت دائرة تلك المصادر ضيقة نسبيا)، كما ركزت تركيزًا صريحًا على أهمية وسائل التواصل الاجتماعي ودورها في تلك الثورات (روبرتسون (Robertson) 2013، سارنيلي (Sarnelli) 2013). من جهة أخرى، عمدت القناة إلى تلخيص أحدث التطورات وعرضها بكل متواصل، عبر شبكة مترابطة من منصاتها الإعلامية الإلكترونية (أوراغ وألكسندر، 2011؛ بريدجيز، 2013)، وأنشأت موقعًا إلكترونيًا خصّصته لتيسير تحميل مقاطع الفيديو والصور تحميلا مباشرًا (سارنيلي، 2013). وفي الوقت الذي كانت شبكة الجزيرة تتحقق من صدقية المحتوى الوارد من وسائل التواصل الاجتماعي وتدمجها في نشراتها وبرامجها الإخبارية، كانت منشورات وسائل التواصل الاجتماعي حول الثورات العربية تحيل إلى شبكة الجزيرة وترتبط بها (أداي (Aday) وآخرون، 2013).

على وجه الإجمال، أفادت الدراسات التي تناولت بالتحليل مصادر الجزيرة الإنجليزية بأن القناة – ورغم توجهها النخبوي المهيمن– إلا أنها تمكنت من توسيع نطاق أصوات النخبة، فقدمت آراء المستقلين والمعارضة وممثلي المجتمع المدني، بالإضافة إلى ممثلين عن الجهات الرسمية من سياسيين واقتصاديين وعسكريين (فيغنسكو، 2013، ص. 114). علاوة على ذلك، يلاحظ أن عدد النخب المستقلة التي تظهر على شاشة الجزيرة الإنجليزية أكثر من عددهم على القنوات العالمية المنافسة (بيغالكي، 2013). ويتجسد ذلك في زيادة عدد الاقتباسات عنهم، وتمكينهم من الظهور لأوقات بث أطول، وإسباغ سلطة أكبر على المحتوى الذي يقدمونه، ودعوتهم للتحدث أكثر في قوالب إخبارية ذات طابع تحليلي (بيغالكي، 2013؛ فيغنسكو، 2013). فعلى سبيل المثال، خلصت بيغالكي (2013، ص. 273) في تحليلها للخلفية الثقافية والاجتماعية لضيوف الأخبار، إلى أن أغلب

الضيوف الغربيين يمثلون مؤسسات رسمية، فيما كان نظراؤهم من غير الغربيين يمثلون نخبا مستقلة وعامة الناس. هذه الهرمية البديلة في التعامل مع المصادر لا تُحدِث تغييرًا جذريًا في توزيع النخبة مقابل العامّة، ولا في مفهوم الاستخدام الهرمي للمصادر، ولا في طبيعة العلاقات مع تلك المصادر، ولا حتى في مفهوم النخبة حين يتعلق الأمر بالمصادر. ولكن التغيير الذي تُحدثه يطال بالأساس "ماهية النخبة" التي تُمنح صفة المصداقية على شاشة الجزيرة الإنجليزية. ثمة نتيجة أخرى متواترة من تلك الدراسات مفادها أن الحضور على الأرض يؤثر في تنوع المصادر الإخبارية للقناة. فالأخبار التي تأتي من فرق مراسلي الجزيرة الميدانيين تبذل فيها القناة جهدا أكبر في العثور على أفراد من عامّة الناس ولقائهم وفسح المجال أمامهم لإبلاغ صوتهم، كما تفسح المجال لدائرة أوسع من النخب (بيغالكي، 2013، ص.ص. 200 – 203؛ فيغنسكو، 2013، ص. ص. 133 – 138).

أما الحواجز اللغوية – التي تقتضي أن تكون المصادر طليقة في حديثها باللغة الإنجليزية، بموجب السياسة التحريرية للقناة – فقد أشار إليها ضيوف المقابلات، مؤكدين أن تلك الحواجز تمثل العقبة الأهم أمام التوسع في تنويع المصادر (بالرغم من مناقشة تلك السياسة داخليًا وإقرار استثناءات للمراسلين إذا قدّروا أن الخبر ينطوي على أهمية خاصة) (فيغنسكو، 2013). علاوة على ذلك، فإن الخبرات العملية، والكفاءة والتدريب الإعلامي، والقدرة على الوصول إلى المعلومة، وعنصري الوقت والموارد، كلها عوامل تسهم في تحديد نوعية المصادر المستوفية لشروط القالب الإخباري المقبول عالميا. كما أن غياب التوازن على صعيد المصادر غالبا ما يعكس اختلالات هيكلية في الميدان، وهو إشكال يصعب على المؤسسات الإعلامية التغلب عليه. يجدر التنبيه هنا إلى أن هناك وعيا حادا داخل غرفة أخبار الجزيرة الإنجليزية بتلك الاختلالات الهيكلية سواء على المستوى العالمي أم على صعيد الأخبار المتعلقة بأحداث جارية بعينها. ولذلك، فإن محاولات القناة للبحث في ما وراء البيانات الرسمية والدعاية التي تنتهجها مؤسسات العلاقات العامة بما يلوي عنق الحقيقة، نجدها تتكرر في المقابلات وفي بيان المهمة (فيغنسكو، 2013). وفي غرفة الأخبار نفسها نجد آراء متباينة بشأن معنى "صوت من لا صوت له". هل يعني ذلك السعي إلى التوازن في التمثيل النسبي لمن لا يجدون حظهم في التمثيل في أماكن أخرى؟ (وهذا موقف أقرب صلة بالمفاهيم التقليدية للمهنية الصحفية)، أم أن التحيز التاريخي الراسخ في المجال الأوسع يعني أن التوازن الحقيقي والشامل لا يكون إلا بمواجهة ضعف التمثيل المنهجي مع التركيز المتعمّد الذي يتجاوز مسألة نسبية التمثيل؟ وهذا الموقف الثاني يتجاوز النموذج المعياري للممارسات المهنية الذي يقوم على مبادئ الحرية والاستقلالية وعدم التحيز، ويقتضي من المراسلين إفساح مجال غير تناسبي للمجموعات المحرومة والمصالح المهمشة. ويعني ذلك بالأساس، تخصيص وقت أطول على الهواء وإعطاء صوت أقوى لتلك الفئات التي كُممت أفواهها في وسائل الإعلام الدولية التي تمثل صحافة التيار الرئيس. فمثلا، وجهت الإدارة التحريرية للقناة إبّان حرب غزة (2008 – 2009) بضرورة مجابهة الاختلال في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي (فيغنسكو، ص. 118)، وذلك في مسعى لمواجهة التفوق الإسرائيلي في مجال المعلومات واستقطاب فئات متنوعة من الأصوات الفلسطينية. وقد انعكست تلك الاستراتيجية في الدراسات المقارنة التي تناولت التغطية الإعلامية لتلك الحرب والتي أكدت وجود تنوع أكبر في المصادر على شاشة الجزيرة الإنجليزية مقارنة بنظيراتها الأنجلو-أميركية (التي كانت

أكثر اعتمادًا على المصادر الإسرائيلية الرسمية) (فيغنسكو، 2013، ص. 133).

مناقشة

من نحن... محل ثقة واحترام وتقدير... وقع اختيار الجزيرة الإنجليزية على تلك السمات المهنية الأساسية لعرضها على الموقع الإلكتروني للقناة في إطار التعريف بها وبالشبكة (الجزيرة الإنجليزية، 2016)، تأكيدًا على الموثوقية وصلابة الخط التحريري بدلا من تقديم نفسها في صورة تقدمية راديكالية. حفّزت هذه القيم التحريرية الأساسية المعقدة والشاملة بل والمتناقضة أحيانًا، التي تقود مشروع الجزيرة الإنجليزية الكثير من النقاشات الداخلية بشأن كيفية تنفيذ القناة أجنداتها الإخبارية المختلفة دون أن تفقد جدواها أو تفقد موقعها في المنافسة الإخبارية العالمية. وقد أتاح الحضور الجنوبي للجزيرة الإنجليزية بث أخبار هامة وإيلاء الأولوية لها دون أن تجد تلك الأخبار لنفسها مساحة في غرف الأخبار العالمية. أما الأخبار التي تنسجم مع القيم الإخبارية الراسخة والتي تحظى بانتشار واسع على وسائل الإعلام العالمية، فكانت تحظى باهتمام أقل في كثير من الأحيان، وبالتالي لا تحظى بأولوية كبيرة في ترتيب عرض الأخبار (بيغالكي، 2013، ص. 273). إضافة إلى ذلك، يقتضي الوفاء بالأهداف التقدمية التي رسمتها القناة تخطيطًا أكبر وموارد أكثر لتجاوز أساليب التأطير ونوعية المصادر والقصص الإخبارية التي تحظى بتغطية متكررة في المؤسسات الإخبارية الأخرى. في الوقت ذاته، قد يؤدي الاعتماد كلّيا على التخطيط بعيد المدى في عملية الإنتاج إلى انخفاض نسبة الجرأة، وفقدان غريزة البحث عن الأخبار العاجلة، وغياب المرونة، وتراجع دينامية الإنتاج وتقلص مجال الحرية الشخصية، وقد كانت كلها عوامل حاسمة في نجاح الشبكة (فيغنسكو، 2012؛ زياني وصحراوي، 2007، ص.ص. 35 – 42). بصفة عامة، لم تكن الجرأة وإثارة الجدل اللتان ميّزتا قناة الجزيرة الناطقة بالعربية (كينغ وزياني، 2008) من السمات الأساسية للجزيرة الإنجليزية طيلة عمرها البالغ عشر سنين. ومع ذلك، من الجدير بالملاحظة أن القرارات التحريرية – التي تحرك طواقم التحرير وفي الوقت ذاته توسّع من دائرة الممارسات المقبولة – كانت حيوية في بعض تغطيات القناة للأحداث العالمية الكبرى، رغم ما أثارته من جدل. ولعل المثال الأبرز على ذلك هو التغطية الجريئة التي قامت بها القناة للثورة المصرية عام 2011، والتي تمكنت بفضلها من تحقيق اختراق هائل على صعيد الساحة الإعلامية العالمية، على الرغم من أنها أثارت العديد من الانتقادات داخليًا وخارجيًا (انظر بريدجيز (2013) وتحليله الرائع في هذا الشأن).

لقد كشفت الدراسات التطبيقية التي بحثت في مدى التطابق بين ما تعلنه الجزيرة الإنجليزية نفسها بشأن اختلافها عن غيرها ومناهضتها للهيمنة، وبين مخرجاتها وإنتاجها الإعلامي (بباوي، 2013؛ بيغالكي، 2013؛ فيغنسكو، 2013)، عن وجود اختلافات ضئيلة لا ترقى إلى تميزها كمشروع صحفي مختلف جذريا. فالدراسات المعنية بالعمليات الإنتاجية بوجه خاص – تلك التي لم تجد حظها بين أدبيات التدفق الخبري العالمي والتدفق العكسي (هانوش وأوبيجيفور (Hanusch & Obijiofor)، 2008؛ هجافارد (Hjarvard)، 2002؛ باترسون (Paterson)، 2011) – تلقي

الضوء على التوازن الدقيق الذي تتوخاه القناة بين حدّي "ما يكفي من الاختلاف" لتحقيق التميز، و"ما يكفي من التشابه" لنيل الاعتراف (بيغالكي، 2013؛ فيغنسكو، 2013). بهذا الشكل، يبدو الهدف متمثلا في تعديل الأخبار العالمية في حدود ضرورات منطقها المهني، لا في الثورة عليها أو إبدالها أو تغييرها تغييرًا جوهريًا. واستنادًا إلى دراسة بيغالكي عن العمليات الإنتاجية (2013، ص. 274)، "فإن قيادة الجزيرة الإنجليزية لم يتطرق إليها شك مطلقًا في أن الهدف لم يكن مواجهة، بل محاكاة مقومات المهنية التي تمارسها المؤسسات المهيمنة في مجال البث الإخباري. وقد كان واضحا تمام الوضوح منذ وقت مبكر من تطور القناة أن الجزيرة الإنجليزية لم تكن تريد إحداث تغيير جذري في المسلّمات التي قام عليها البث الإخباري العالمي باللغة الإنجليزية، بل اهتمّت بالصراع من أجل تغيير بعض القواعد في حدود ذلك المجال الصحفي (الفرعي). لقد مكّنها موقف "المشابهة" هذا – كما ترى بيغالكي – من تأسيس مجالات الاختلاف مع القيم الإخبارية الغربية السائدة التي حظيت تاريخيا بفرصة أفضل للحضور والتأثير في المجال المهني الأوسع. ويرجع الفضل في ذلك تحديدًا إلى تصميم القناة على اختيار موقعها ضمن حدود ذلك المجال (2013، ص. 275). أما التركيز على المهنية والمجتمع العالمي للصحفيين فنجده حاضرا في مدونة القناة السلوكية التي تطرقنا إليها سابقا. من ناحية أخرى، وثقت المقابلات التي أجرتها فيغنسكو (2013) وجود مجموعات من المحررين والمنتجين والمراسلين الذين يعبرون بصوت مرتفع عن تأويلات أكثر راديكالية لرسالة الجزيرة الإنجليزية التحريرية، ويعترضون على المنطق المهني للأخبار العالمية ويعملون على مواجهته. مثل ذلك الخطاب الراديكالي رصده أيضا بباوي (2016) في تحليله لبعض القصص الإخبارية، مبيّنا أن حامليه هم في أغلب الأحيان مذيعون أو مراسلون من خلفيات غير غربية.

يتجلى هذا الالتباس ذاته في علاقات صحفيي الجزيرة الإنجليزية بزملائهم ومنافسيهم في القنوات الإخبارية الأخرى. فقد تكرر انتقاد بعض المحررين من ضيوف المقابلات لمنافسيهم في القنوات الأنجلو-أميركية على اعتبار أن ما يقودهم هي الدوافع التجارية البحتة[1]، كما ينتقدونهم على إغلاق بعض مكاتبهم وتقليص حضورهم العالمي، فضلا عن تجاهلهم الدائم للمناطق المهمشة من العالم (فيغنسكو، 2013، ص.ص. 61 – 62). وسعيًا إلى تمييز مشروع الجزيرة عن وسائل الإعلام الغربية المهيمنة، حرص ضيوف المقابلات على تمييز رسالتهم بتصوير ساخر ونمطي لمن يسمونهم "المراسلين المظليين" – أي المراسلين الذين يعدون نجومًا أهم من الأخبار ومن الناس الذين تشملهم التغطية الإخبارية. فهم "يطيرون" إلى مناطق التغطية من أماكن بعيدة، ويقضون أوقاتًا محدودة للغاية في ميدان التغطية، ويبسّطون الأحداث التي تجري على الأرض، وينقلون أخبارهم من منظور المركزية الغربية للعالم مخاطبين جمهورهم الداخلي في بلدانهم. إن ذلك التموقع الفاعل المقترن بالتحدي ومعارضة الإعلام المهني وصحافة "التيار الرئيس"، يعدّ سمة مميزة للإعلام البديل (انظر، من بين آخرين، أتون (Atton)، (2002، 2015) وكولدري وكوران (Couldry & Curran)، (2003). هذه النزعة التي تجعل بعض صحفيي الجزيرة الإنجليزية يضعون أنفسهم في مواجهة صورة "المراسل المظلي" ذات البعد الواحد تعكس، في وجه من وجوهها، التصور الأحادي والمبسط لإعلام التيار الرئيس في أوساط الإعلام البديل (هاجيك وكاربنتر (Hájek & Carpenter)، 2015).

[1] انظر التحليل المفصل لتأثير الاعتبارات التجارية على الرسالة التحريرية للجزيرة الإنجليزية، في مناقشة بيغالكي لما أسمته "تكلفة الاختلاف" (2013، ص.ص. 236 – 265).

تجدر الإشارة إلى أن أغلب ضيوف المقابلات ينحدرون من خلفيات مهنية متميزة وكلهم حصلوا سابقا على تدريبات في القنوات الإخبارية الأنجلو-أميركية (وجُلهم إما من "آي تي إن" و"بي بي سي" البريطانيتين، أو من "سي أن أن" و"أي بي سي" و"سي أن بي سي" الأميركية). وقد أكدوا في مقابلاتهم على مسألتين: من ناحية، كان على المراسلين والمحررين والمنتجين الغربيين أن يمروا بمرحلة "تعلم عكسي" يتخلون بموجبه عما تعلموه في إطار المنطق المهني المعتمد في إعلام "التيار الرئيس"، باعتبار ذلك شرطا أساسيا لنجاح المشروع التحريري الجديد (فيغنسكو، 2013، ص. 70؛ بيغالكي، 2013، ص. 225). ومن ناحية أخرى، لاحظت بيغالكي (2013) أن ضيوف المقابلات أفادوا بأنهم، في ممارستهم الصحفية، غالبًا ما يقومون بعملهم بنفس طريقة زملائهم الغربيين، وهو ما يعكس صراعا مستمرا بين عادات مهنية تندرج ضمن المجال الأوسع للمهنة وبين قيم صحفية مختلفة تندرج ضمن هدف القناة في مناهضة الهيمنة. لقد كان ذلك التماثل في الممارسات الصحفية لازما لنجاح القناة عالميًا، إذ أدرك مدراء الجزيرة الإنجليزية منذ البداية أن "دخول الساحة العالمية على قدم المساواة – من حيث الممارسات الصحفية – كان شرطًا مسبقا ليُحدِث الاختلاف التحريري التأثير المرجو منه" (بيغالكي، 2013، ص. 221). بعبارة أخرى، كان هذا التكيف في المنطق المهني المعياري هو ما مكّن الجزيرة الإنجليزية – بوصفها قناة جديدة ذات منظور جنوبي – من إحداث تأثير فعلي عالمي. لكن ذلك التكيف هو ذاته ما قيّد نطاق الاختلاف في الجزيرة الإنجليزية من جوانب عدة مهمة.

إن النقاش الأكاديمي في جمع الجزيرة الإنجليزية بين التماثل (المهني) والاختلاف (التحريري) قد حدا بالباحثين إلى توصيف الجزيرة الإنجليزية بأنها بديل مهني (جنوبي) (فيغنسكو، 2013) أو أنها تقدم نمطا "هجينا"من الصحافة (بباوي، 2016). وتكشف تلك السمات المتناقضة ظاهريًا عن مدى الصعوبة في تصنيف الجزيرة الإنجليزية ووضعها إما ضمن فئة الإعلام البديل أو ضمن نموذج إعلام التيار الرئيس. وقد تعرض الباحثون، الذين تناولوا في دراساتهم وسائل إعلام أخرى، إلى تلك المشكلة التصنيفية وانقسموا بين قائل بالحاجة إلى تحليل "البدائل" *في* إطار إعلام "التيار الرئيس" على أساس أن هناك مستويات متزايدة من الاختلاف والتماثل يمكن تصنيفها جميعا داخل منطق الإعلام المهني (هاجيك وكاربنتر، 2015، ص. 378)؛ وقائل بضرورة مقاربة المسألة من واقع أدبيات الإعلام البديل مع التأكيد على جوانب التأثير والحجم والمهنية في المؤسسات الإعلامية البديلة. مع ملاحظة أن هناك ميلا لدى أصحاب هذا الرأي إلى النظر إلى المشاريع صغيرة الحجم، التي تعمد الهواية بدل الاحتراف، بطريقة مثالية (فاكس، (Fuchs) 2010).

في الختام، إن المناقشات المتعلقة بأهداف قناة الجزيرة الإنجليزية وسياساتها التحريرية التي استعرضناها في هذا الفصل، تسهم في النقاش الأكاديمي الأوسع حول ثنائية "إعلام التيار الرئيس – الإعلام البديل"، وتدعو إلى إعادة التفكير فيها بما يعزز من منطق المهنية في المجال الصحفي وتطوير مفاهيمه، وفهم التطورات الجارية على صعيد مؤسسات البث العالمية، في إطار المشهد الإعلامي الراهن الذي يتسم بالتشاركية وتعددية الاتجاهات والسير نحو مزيد من التهجين.

المراجع

Aday, S., Farrell, H., Freelon, D. et al. “Watching from Afar: Media Consumption Patterns Around the Arab Spring”, *American Behavioral Scientist*, 57(7), 2013, pp. 899–919.

Al-Najjar, A. “How Arab is Al-Jazeera English? Comparative Study of Al- Jazeera Arabic and Al-Jazeera English News Channels”, *Global Media Journal*, 2009.

Atton, C. “Introduction: Problems and Positions in Alternative and Community Media”, In C. Atton (ed.) *The Routledge Companion to Alternative and Community Media* London & New York, Routledge, 2015. pp. 1-18.

Atton, C. “News Cultures and New Social Movements: Radical Journalism and the Mainstream Media”, *Journalism Studies* 3(4), 2002, pp. 491–505.

Aouragh, M. & Alexander, A. “The Egyptian Experience: Sense and Nonsense of the Internet Revolution”, *International Journal of Communication* 2011(5), pp. 1344-58.

Bebawi, S. *Media Power and Global Television News: The Role of Al Jazeera English.* London & New York: I. B. Tauris, 2016.

Bigalke, N. *Al Jazeera English: Margins of Difference in International English-language News Broadcasting.* Ph.D thesis, Department of Media and Communications, London School of Economics, 2013.

Bossio, D. “Journalism During the Arab Spring: Interactions and Challenges”, in Bebawi, S. & Bossio, D. (eds.). *Social Media and the Politics of Reportage,* New York, Palgrave MacMillan, 2014, pp: 11-32.

Bridges, S. *18 days: Al Jazeera English and the Egyptian Revolution.* Braddon: Editia, 2013.

Chadwick, A. *The Hybrid Media System: Politics and Power.* Oxford & New York: Oxford University Press, 2013.

Cook, T. E. *Governing with the News: The News Media as a Political Institution.* Chicago: University of Chicago Press, 1998.

Couldry, N. *Why Voice Matters: Culture and Politics After Neoliberalism.* Los Angeles, SAGE, 2010.

Couldry, N. & Curran, J. “The Paradox of Media Power” in N. Couldry & J. Curran (eds.) *Contesting Media Power: Alternative Media in a Networked World*, Oxford, Rowman & Littlefield Publishers, 2003, pp. 3-15.

Figenschou, T. U. *Al Jazeera and the Global Media Landscape: The South is Talking Back.* New York, Routledge, 2013.

Figenschou, T. U. “The South is Talking Back: With a White Face and a British Accent – Editorial Dilemmas in Al Jazeera English”, *Journalism: Theory, Practice & Criticism* 13(3), 2012, pp. 354-370.

Figenschou, T. U. “A voice for the Voiceless? A Quantitative Content Analysis of Al-Jazeera English's Flagship News”, *Global Media and Communication* 6(1), 2010, pp. 85-107.

Fuchs, C. “Alternative Media as Critical Media”, *European Journal of Social Theory* 13(2), 2010, pp. 173-

192.

Hackett, R. A. & Gurleyen, P. “Beyond the Binaries? Alternative Media and Objective Journalism”, In C. Atton (ed.) *The Routledge Companion to Alternative and Community Media,* London & New York, Routledge, 2015, pp. 54-65.

Hájek, R. & Carpentier, N. “Alternative Mainstream Media in the Czech Republic: Beyond the Dichotomy of Alternative and Mainstream Media”, *Continuum* 29(3), 2015, pp. 365-382.

Hanizsch, T., Plaisance, P. L. & Skewes, E. A. “Universals and Difference in Global Journalism Ethics”, in S. J. A. Ward (ed.) *Global Media Ethics: Problems and Perspectives,* West Sussex, Wiley-Blackwell, 2013, pp. 30-49.

Iyengar, S. *Is Anyone Responsible? How Television Frames Political Issues,* Chicago, University of Chicago Press, 1991.

King, J. M. & Zayani, M. “Media, Branding and Controversy: Perceptions of Al

Jazeera in Newspapers around the World”, *Journal of Middle East Media*, 1(4), 2008, pp. 27–43.

Painter, J. *Counter-hegemonic News: A Case Study of Al-Jazeera English and*

Telesûr, Reuters Institute of the Study of Journalism, University of Oxford, 2008.

Powers, S. M. & Youmans, W. “A New Purpose for International Broadcasting: Subsidizing Deliberative Technologies in Non-transitioning States”, *Journal of Public Deliberation,* 8(1), 2012, Article 13.

Robertson, A. “Connecting in Crisis: ‘Old’ and ‘New’ Media and the Arab Spring”, *The International Journal of Press/Politics*, 18(3), 2013, pp. 325–341.

Sarnelli, V. Tunisia, “Egypt and the Voices of the Revolution in Al Jazeera English”, *Journal of Arab & Muslim Media Research,* 6(2/3), 2013, pp. 157–176.

Singer, J. B., Hermida, A., Domingo, D., et al. (eds.) *Participatory Journalism: Guarding Online Gates at Online Newspapers*. Chichester, UK, Wiley-Blackwell, 2011.

Uysal, A. “The New Frontier in International Politics: The Nature of Al- Jazeera’s Prime-time Broadcasting in Arabic and English”, in M. Zweiri & E.C. Murphy (Eds.) *The New Arab Media; Technology, Image and Perception,* Ithaca Press, 2011, pp. 1–18.

Waisbord, S. *Reinventing Professionalism: Journalism and News in Global Perspective,* Cambrigde/Malden, Polity Press, 2013.

Ward, S. J. A. “Global Media Ethics: Utopian or Realistic?” in S. J. A. Ward (Ed.) *Global Media Ethics: Problems and Perspectives,* West Sussex: Wiley-Blackwell, 2013, pp. 295-314.

Youmans, W. “Al Jazeera English’s Networked Journalism During the 2011 Egyptian Uprising”, in S. Bebawi, & D. Bossio (eds.), *Social Media and the Politics of Reportage,* New York, Palgrave Macmillan, 2014, pp. 56–78.

Zayani, M. & Sahraoui, S. *The Culture of Al Jazeera: Inside an Arab Media Giant.* Jefferson, NC & London: McFarland & Company, 2007.

الجزيرة وتطوّر تمثّلات النساء وأدوارهن في المجال العام

دراسة في مضمون برنامجي "للنساء فقط" و"رائدات"

حسناء حسين
أستاذ الاتصال والإعلام والنوع الاجتماعي بمركز إميل دوركايم، بوردو، فرنسا

يبحث هذا الفصل في الدور الذي لعبته قناة الجزيرة الفضائية، منذ انطلاقتها في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1996، في تحوّل تمثّلات النساء في الفضاء التلفزيوني العربي العابر للحدود، وفي عرض أدوارهن في المجال العام، من خلال دراسة الحضور الجندري وتلمّس مواقع وأدوار النساء كمرسلات وضيفات وكموضوع، وخصوصية هذا الحضور ودلالاته وتبيان تداعياته في المضامين التي توجّهت لهن بشكل رئيسي. ويركّز الفصل بصورة رئيسية على الآليات التي اعتمدتها القناة في تأسيسها لنهج جديد ومتفرّد في التعاطي مع حضور النساء وأدوارهن ومعالجة قضاياهن، ما عزّز مساهمتها في طوفان صور جديدة وإيجابية للنساء بصفتهن فاعلات نشيطات وصاحبات أدوار هامّة في المجال العام، لتقف في وجه الصور المنمّطة والأدوار التقليدية التي روّجت لها الفضائيات الترفيهية التي وظّفت جسد المرأة لأغراض دعائية وتجارية من ناحية، والبرامج الموجّهة لهن في الفضائيات العمومية والتي حصرت أدوارهن في المجال الخاص كزوجة وأم وربّة منزل من ناحية أخرى. وإذا كانت نتائج الدراسات السابقة عن صور النساء في الإعلام خلال العقود الأخيرة قد ركّزت على النواحي السلبية أكثر من الإيجابية (القادري، 2008 و2015)، فإن هذا البحث ينطلق من إشكالية محدّدة قد تكون أكثر تفاؤلية، مع الأخذ بعين الاعتبار القدرات النسبية لوسائل الإعلام على إحداث التأثير الخاضع لعوامل متعدّدة، من بينها اتجاهات الأفراد وأطرهم المرجعية وولاءاتهم.

وقد وقع اختيارنا لدراسة هذا الحضور على العيّنة المكوّنة من برنامجي "للنساء فقط" و"رائدات" نظراً لأهمية المادّة التي قدّما لها وغِناها وتنوّعها والتي بثّت في 172 حلقة بين عامي 2002 و2005 بالنسبة لبرنامج "للنساء فقط"، وبين آذار/مارس 2007 وشباط/فبراير 2008 لبرنامج "رائدات"، وخاضت تلك المادة في مجموعة من المواضيع الجندرية حول مشاركة النساء في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والمشاكل والمعوقات التي تواجهها في المجالات الخاصة والمهنية وفي المهجر، بالإضافة لتطرّقها لخصوصيات النساء العربيات والمسلمات بشكل عام بحسب السياقات والأوضاع التي تعيشها هؤلاء. ونظراً لضخامة حجم المادّة الاعلامية التي بين أيدينا، والتي تجاوزت مئات الساعات من البث التلفزيوني، ارتأينا التركيز على عيّنة من ثلاثين حلقة اختيرت من البرنامجين المستهدفين بنسبة قاربت ال 20 بالمئة لتكون بذلك ممثّلة لهذا النوع من المضامين التلفزيونية[19]. وقبل الخوض في إشكالية الدراسة ومسارها المنهجي وأقسامها، سنعرض فيما يلي للمحة مختصرة عن البرنامجين بغية التعريف بهما.

انطلق البرنامج الحواري الأسبوعي "للنساء فقط" في شهر كانون الثاني/يناير من العام 2002 واستمر لغاية شهر حزيران/يونيو 2005 أي على مدى ثلاث سنوات ونصف السنة بثّت خلالها 160 حلقة على مدى ساعة من الزمن تقريباً لكل منها (أي ما يفوق 200 ساعة من البث التلفزيوني لمجمل السلسلة) توالت على تنشيطها ثلّة من مقدّمات برامج قناة الجزيرة الفضائية من بينهن خديجة بن قنّة ولونة الشبل ومنتهى الرمحي ومنى سالمان، وأعّدتها الباحثة المتخصّصة في مجال الدراسات النسوية من أصول جزائرية أسماء بن قادة[20] وشارك في إخراجها كل من رمزان راشد النعيمي[21] وعماد بهجت. يمكن تصنيف برنامج "للنساء فقط" على أنه برنامج حواري تفاعلي يهدف الى إثارة النقاش والحوار المتبادل

[19] للاطلاع على الحلقات التي شملتها العيّنة، انظر إلى الملحق المرفق في آخر الفصل.
[20] وهي أيضاً كاتبة وباحثة متخصّصة في مجال العلوم السياسية والعلاقات الدولية ولها منشورات أكاديمية عديدة أيضاً لاسيما في مجال الدراسات النسوية الإسلامية.
[21] حالياً مدير قطاع الإبداع في شبكة الجزيرة الإعلامية.

بين مختلف ضيوف وضيفات الحلقات من الخبيرات والخبراء والمتخصّصات والمتخصّصين في القضايا المطروحة من داخل العالم العربي وخارجه ومن مختلف الجنسيات والانتماءات والتوجّهات من المتواجدين في استديو البرنامج أو عبر الأقمار الاصطناعية وبينهم وبين الجمهور المتلّقي من النساء والرجال على حدّ سواء عبر وسائط عدّة كالتقارير الخاصة أو استطلاعات الرأي أو المشاركة المباشرة المتوافرة عبر الوسائط الاتصالية المختلفة كالهاتف أو الفاكس أو عبر البريد الإلكتروني.

أما برنامج "رائدات" فيندرج ضمن سلسلة البرامج الوثائقية التي حملت توقيع الإعلامية والمنتجة والمعدّة والمخرجة الشابّة روان الضامن التي سلّطت فيها الضوء على "نماذج" من النساء العربيات "الرائدات" في مجال تخصّصهن ومن مختلف الفئات العمرية والخلفيات الجغرافية في "قالب فني جاذب وجديد، كون الضيفات لم يكنّ غالباً من النساء المعروفات، ومسلّ من حيث غناه بالمعلومات والصور والعمل الميداني"، بحسب تعبير روان الضامن[22]. بثّت هذه السلسلة الشهرية التي شملت 12 حلقة على مدى ساعة من الزمن تقريباً لكل منها (أي ما يفوق المئة ساعة من البث التلفزيوني المسّجل لمجمل السلسلة) مع عشر "رائدات" جميعها متوافرة في الأرشيف المخصّص للبرنامج على موقع الجزيرة الإلكتروني ضمن حيّز البرامج المتوقفة في الفترة ما بين شهري آذار/مارس من العام 2007 وشباط/فبراير من العام 2008. قدّم البرنامج "التجارب الاجتماعية" (دوبيه (Dubet)، 1995) لهؤلاء النساء "الرائدات" بصيغة الحوار التلفزيوني الموثّق عبر مجموعة من التقارير المسجّلة التي رافقت حلقاته بحيث جرى التركيز على دور البيئة الاجتماعية في تشكيل مسارات هؤلاء النساء وتعزيز قدراتهن على التميّز والريادة في مجالات تخصّصاتهن على اختلافها في الطب والأدب والفنّ والسياسة والبحث العلمي.

وقد استندنا في دراستنا لسمات الحضور الجندري في المضامين التي تناولت قضايا النساء على قناة الجزيرة الفضائية خلال الألفية الثالثة، على مقاربة مزدوجة ومتداخلة بين كل من مقاربة النوع الاجتماعي ومقاربة الدراسات الثقافية. فالمضامين الإعلامية تتغذّى بشكل كبير من صراعات التمثّلات ضمن المجال العام، لا سيما بين الفاعلين الاجتماعيين والسياسيين والثقافيين، ومن تصوّرات عن الجمهور المتخيّل ووجهات النظر فيما يتعلّق باهتمامات الناس وتوجّهاتهم وتصوّراتهم لدى مجموعة كبيرة من الفاعلين المهنيين في المجال الإعلامي (ماسي (Macé)، 2000 و2001). من هنا تصبح دراسة ظاهرة تطوّر تمثّلات النساء في الإعلام التلفزيوني الفضائي في ضوء تطوّرات أخرى في هذا المجال (الحساسية الجندرية وأساليب العمل على وجه التحديد) ضرورية في مقاربة الحضور والأدوار وأشكال المعالجة الجندرية (فلوري وولتر (Fleury et Walter)، 2009).

استندت هذه الدراسة أيضا على مجموعة من التقنيات السوسيولوجية كالمقابلة وتحليل المضمون وفرق النقاش المركّزة (focus groups). ولهذا الغرض استعانت الباحثة بشكل رئيسي بمجموعة البيانات التي جمعتها بين العامين 2009 و2010 أثناء فترة بحثها الميداني في قناة الجزيرة الفضائية، حيث أجرت مقابلات معمّقة مع مجموعة من مقدّمات البرامج، لا سيّما ممن شاركن في تقديم البرنامجين المذكورين أمثال منتهى الرمحي وليلى الشايب وخديجة بن قنة وروان الضامن وسواهنّ، في معرض دراستها للعلاقة بين الحضور الجندري الجديد لنساء الإعلام والمجال العام (حسين، 2012) وللدور الذي لعبته الفضائيات العربية في إعادة تشكيل المخيال والأدوار الجندرية عبر دراسة النشاط الاستقبالي لهذا الحضور في السياق اللبناني (حسين، 2013). استثمرت الباحثة النتائج التي كشفت عنها هذه الدراسة الأولى في الكشف عن مدى تواجد وعي عام أو حساسية جندرية لدى مقدّمات البرنامج، وفي سياسة القناة بشكل عام والبحث في آليات تكوّنها واستثمارها في طريقة المعالجة الإعلامية لقضايا النوع الاجتماعي وتداعياتها على مساهمة القناة في تشكيل خطاب إعلامي جندري. أما نتائج الدراسة الثانية حول النشاط الاستقبالي فقد جرت الاستعانة بها لا سيّما في تدعيم الخلاصات التي توصّلت اليها الدراسة. كما جرت الاستعانة أيضاً بتقنية تحليل المضمون (فيركلاف (Fairclough)، 2003)، لاسيما في عملية رصد كمّية ونوعية

[22] من مقابلة أجرتها معها الباحثة في استوديوهات قناة الجزيرة الفضائية في الدوحة، يوليو/ تموز 2009.

لتمثّلات النساء كضيفات بهدف دراسة تكرار ظهورهن، مقارنة مع تكرارها عند الرجال (أو الفئات المفترض أنها أكثر مرئية في الإعلام) وتبيان ما تحمله من رموز ودلالات وأفكار. ساعدت هذه الأداة الكميّة أيضاً ، علاوة عن التقييم النوعي باعتباره أكثر تيقظاً للدلالات ولرهانات المنتجين وآلية عملهم، في رصد تمثّلات النساء كمواضيع بحيث مكّنت من دراسة توزيع القضايا المتناولة بحسب اهتمامات واحتياجات هؤلاء وطرائق معالجتها. أما بالنسبة لأقسام الدراسة فقد جاءت على الشكل التالي:

في البداية، جرى التركيز على الدور الفعّال الذي لعبته النساء المرسلات في تعزيز مكانة المقاربة الجندرية في الخطاب الإعلامي والوعي العام بقضايا النوع الاجتماعي من خلال تبيان العلاقة بين تواجد حساسية وإرادة والتزام بالقضايا الجندرية وبين المؤهّلات التعليمية والمهنية والاستقلالية المهنية وهامش التحرّك والدعم المتوافر لهنّ من قبل القناة. ثم كان الاهتمام في مرحلة ثانية بدراسة الحضور النسائي المنوّع والجديد للضيفات المشاركات من مختلف المرجعيات العلمية والمهنية والانتماءات الجغرافية والسياسية والأيديولوجية، ومساهمتها في طوفان تيّار جديد من الأصوات النسائية النخبوية المعارضة والإسلاموية النسوية على وجه الخصوص في النقاشات العامّة والمساجلات حول الملّفات الساخنة وتشكيل الآراء والمواقف فيما يخص قضايا النوع الاجتماعي التي تجسّد اهتمامات النساء والرجال على حدّ سواء. من هنا، جرى التركيز في هذه المرحلة أيضاً على موضوع إشراك وجهات نظر الرجال في هذه القضايا عبر المساحة التي أفردت لهم بشكل مقصود أو غير مقصود من قبل القناة. أما المرحلة الثالثة والأخيرة، فقد تناولنا فيها رصد حضور النساء بالعلاقة مع القضايا المطروحة في محاولة لفهم مكتمل لخصوصية المقاربة الإعلامية الجندرية ولتقييم الإضافة التي قدّمتها وإمكانيات الاستفادة منها.

المرسلات والخطاب الإعلامي الجندري

نركّز في هذه المرحلة الأولى من الدراسة على الدور الذي لعبته مقدّمات البرامج كمرسلات في تعزيز مكانة المقاربة الجندرية في الخطاب التلفزيوني الفضائي، في ظل توافر حساسية جندرية لديهنّ ولدى القيّمين على القناة في آن معاً وتداعيات ذلك على الانخراط في قضايا النوع الاجتماعي، وذلك من خلال البحث في آلية تكوّن درجة الوعي بقضايا النوع الاجتماعي لمقدّمات البرامج بالعلاقة مع الخلفية التعليمية والمهنية لهؤلاء وبين نهج التمايز الذي تبنّته القناة في تعاطيها مع فريق التقديم النسائي لديها بشكل عام، والذي تجسّد في فتح المجال أمامه للمشاركة في مختلف البرامج الحوارية دون استثناء ومراحل صناعة الرسالة الإعلامية من فكرة وإعداد وإنتاج وإخراج، ليتناقض مع السمة الطاغية للمشهد الإعلامي العربي والمتمثّلة بالتمييز المستند على أساس النوع الاجتماعي، مما يحصر النساء في برامج الأسرة والموضة والمنوّعات، والرجال بالسياسة. كما يتناقض هذا النهج أيضاً مع النظرة البطريركية للنساء التي تضمر هدراً لمكانتهنّ وقيمتهنّ وحصانتهنّ عبر التعاطي معهنّ كأدوات للإغراء ولخدمة الزوج والأسرة فقط.

التجارب المهنية وسياسة التمايز وآلية تكوّن الوعي بقضايا النوع الاجتماعي

تعاقبت على تقديم وإدارة الحوار في برنامج "للنساء فقط" مجموعة من مقدّمات البرامج والصحفيات من الجيل الأوّل لقناة الجزيرة أمثال خديجة بن قنّة ومنتهى الرمحي وليلى الشايب وسواهن ممن يمتلكن مؤهّلات علمية وخبرات مهنية لا يستهان بها ومن جنسيات عربية متنوّعة (كالجزائر وسوريا والأردن وتونس). فغالبية هؤلاء الصحفيات حاصلات على درجات عالية من التكوين الجامعي والمهني في مجال الإعلام الإذاعي والتلفزيوني من جامعات ومعاهد ومراكز تكوين مرموقة، بالإضافة الى تجاربهنّ المهنية مع مؤسّسات إعلامية غربية في المهجر على وجه الخصوص ما ساهم بشكل رئيسي في تكوّن درجة من الحساسية بقضايا النوع الاجتماعي لديهن.

فالجزائرية خديجة بن قّنة على سبيل المثال، والتي التحقت بالقناة في منتصف العام 1997 أي بعد أقل من عام على انطلاقتها، تحمل في جعبتها شهادتي احتراف من مركز تكوين وتدريب الصحفيين في اللوفر (CFJ) ومركز سيرينيا (CIRNEA) للإنتاج التلفزيوني بباريس تعودان للعامين 1989 و1993

بالإضافة الى حيازتها على بكالوريوس في الاعلام الإذاعي والتلفزيوني من جامعة الجزائر من العام 1988 وخبرة في التقديم الاذاعي والتلفزيوني وإعداد البرامج لحوالى عقد من الزمن في المؤسّسات الإعلامية الجزائرية والقسم العربي لإذاعة سويسرا العالمية : "بعد أربع سنوات على عملي في الإذاعة السويسرية العالمية في العاصمة الفدرالية بيرن، جاء الإعلان، أعتقد في صحيفة الحياة، عن قناة جديدة تبدأ في دولة قطر فأرسلت بطلب وتفاجأت بأنهم اهتموا به [...] إلاّ أنني تريّثت قبل الالتحاق بها حتى يتسنّى لي التأكّد من أدائها المهني، وفي منتصف العام الأول (من انطلاقة الجزيرة) انتقلت الى الدوحة لتبدأ رحلتي مع الجزيرة"[23].

أما التونسية ليلى الشايب، فقد صقلت خبرتها المهنية في استديوهات قناة البي بي سي العربية لمدة عامين قبل انتقالها للعمل في القناة الجديدة التي وجدت فيها " نسخة عن البي البي سي بكل ما تعنيه الكلمة لا سيّما على المستوى المهني" على حدّ تعبيرها[24].

من الواضح أن البحث عن المهنية والاحترافية في مجال التقديم التلفزيوني قد شكّل الدافع الأساسي لهؤلاء الصحفيات، وللقناة الجديدة على حدّ سواء، في بحثها الدائم عن التمايز في الساحة الإعلامية على المستويين الإقليمي والعالمي. وهو ما توصّل إليه الصحفي والكاتب البريطاني هيو مايلز (Hugh Miles)، (2005) في بحثه المطوّل عن الجزيرة، وعن تمايز فريق عملها الذي تشكّل بنسبة كبيرة "ممن تلقوا تعليمهم أو من الذين عاشوا في الغرب" (ص. 234) " ويمارسون الصحافة بدرجة عالية من المهنية" (ص. 338). إلا أن ما يقف وراءهن من تجارب اجتماعية ومهنية قد ساهم بشكل رئيسي في تحسيسهن بأهمية مبدأ تكافؤ الفرص والمساواة بين الرجال والنساء في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والمهنية في التوظيف وتحديد الأجور والتدريب والتكوين المستمر والتكليف بالمهام والترقية لمراكز المسؤولية.

هذا ويمكن إرجاع هذه الحساسية الجندرية لدى القيّمين على القناة الجديدة في بداية انطلاقتها الى الاعتبارات ذاتها. فعدنان الشريف، مؤسّس القناة الجديدة، بريطاني من أصول فلسطينية خرّيج الجامعة اللبنانية وعضو سابق في فريق البي بي سي العربية. حافظت القناة على نهجها الانتقائي وحساسيتها الجندرية في البحث عن المؤهّلات الأكاديمية والمهنية بدون تمايز على أساس النوع الاجتماعي حتى بعد مرور عشر سنوات على انطلاقتها. ففي منتصف العام 2006، انضمّت الشابّة الأردنية من أصول فلسطينية روان الضامن خرّيجة جامعة ليدز البريطانية بدرجة ماجستير في الإعلام التلفزيوني (2003)، صاحبة فكرة ومنتجة ومخرجة برنامج "رائدات"، الى فريق مقدّمات برامج الجزيرة. بدأت روان الضامن مسيرتها الإعلامية، وهي لا تزال على مقاعد الدراسة في مجال الإعلام التلفزيوني والإذاعي في جامعة بيرزيت التي تخرّجت منها في العام 2001، كمعدّة ومقدّمة برامج في التلفزيون الفلسطيني (1998-2001) قبل أن تنتقل للعمل في التلفزيون الأردني (2002-2006): " خضعت قبل التحاقي للعمل في قناة الجزيرة لدورتي تكوين في مجال الاعلام التلفزيوني في كل من السويد والولايات المتحدّة الأميركية [...] أوّل برنامج اقترحته على قناة الجزيرة كان برنامج 'رائدات' وكان ذلك في العام 2006. تقدّمت وقتها بمقترح من ورقتين عن مشروع برنامج عن نساء رائدات في الوطن العربي لأنه في كل مرّة كنت أسأل فيها الفتيات الصغار عن قدوتهنّ في الحياة كانت تأتي الإجابة من بين الرجال أو النساء المتوفيات. وهنا طلبت مني الإدارة توسيع المشروع حتى يتسنى لها اتّخاذ القرار وهذا ما قمت به، وخلال وقت قياسي، كوني لمست شيئاً من الحماس للمشروع من قبل الإدارة. حيث إن المدير العام للشبكة وضّاح خنفر قال لي وقتها معلقاً على مشروع البرنامج الذي تقدّمت به: 'نقلات الزمان والمكان ممتازة والحوار لطيف ولكن أين بقية الحلقة ؟' "[25].

---

[23] من مقابلة أجرتها معها الباحثة في استوديوهات قناة الجزيرة الفضائية في الدوحة، يوليو/ تموز 2009.

[24] من مقابلة أجرتها معها الباحثة في استوديوهات قناة الجزيرة الفضائية في الدوحة، يوليو/ تموز 2009.

[25] من مقابلة أجرتها معها الباحثة في استوديوهات قناة الجزيرة الفضائية في الدوحة، يوليو/ تموز 2009.

وتندرج هذه الحساسية الجندرية ضمن إطار سياسة التمايز التي انتهجتها القناة الجديدة في اختيارها لفريقها الإعلامي من النساء والرجال على حدّ سواء والتي شكّلت عاملاً قوياً في تفرّدها منذ انطلاقتها عن سواها من الفضائيات السعودية التي تبثّ من خارج أراضي المملكة على وجه الخصوص من التي لطالما تبنّت آلية التنميط الجندري في التعاطي مع مقدّمات البرامج لديها عندما حصرت ظهورهّن بشكل رئيسي في البرامج الترفيهية (حسين، 2016). وكان من تداعيات هذه السياسة طوفان أسماء جديدة من الصحفيين والصحفيات المغاربيين على وجه التحديد، من غير اللبنانيين والمصريين، في الحقل الإعلامي القومي" (العويفي، 2010، ص. 75) وإضفاء طابع من "التنوّع والمصداقية على مشروع القناة التحريري" (لوفالوا (Levallois)، 2010، ص. 86) ومن التمثيلية والشرعية الشعبية على ما عداها من الفضائيات الإخبارية الأخرى (النواوي وإسكندر، 2002).

من الوعي إلى الالتزام بإنتاج خطاب إعلامي جندري

تجسّدت هذه الحساسية الجندرية التي تمايزت بها قناة الجزيرة الفضائية في تلك الفترة أيضاً على مستوى التزامها بإنتاج خطاب إعلامي جندري عبر برنامج "للنساء فقط" وطريقة معالجته المبتكرة لقضايا النساء: "ساهم البرنامج في ملء فراغ كبير في المعالجة الإعلامية لقضايا النساء. لأن غالبية البرامج الموجّهة للمرأة آنذاك كانت تركّز على قضايا المرأة والعائلة وشغل البيت وعلاقتها بالزوج والطلاق والعنوسة. البرنامج كان يعالج قضايا أشمل من ذلك بكثير"، على حدّ تعبير ليلى الشايب[26]. وهنا أيضاً كان للنساء، كمشاركات في إنتاج هذا الخطاب الجندري عملاً بأساليب العمل الإعلامية الحديثة، دور لا يستهان به وعلى مستويات عدّة بدءًا من العمل البحثي والإعداد: "الجهد الأكبر في عملية الإعداد يقع على عاتق المذيع [...] لأن المنتج قد يحدّد الموضوع أو يتصل بالضيوف ولكن بقية العمل البحثي وإعداد الأسئلة تقع على عاتق المذيع." (من مقابلتنا مع خديجة بن قنّة) وصولاً الى العمل الميداني: "في العام 2002، شاركت أثناء فترة تقديمي لبرنامج 'للنساء فقط' في إعداد تقرير ميداني من العراق حول موضوع المرأة العراقية في ظل التهديدات بالحرب." (من مقابلتنا مع ليلى الشايب).

حافظت قناة الجزيرة على حساسيتها الجندرية والتزامها بقضايا النوع الاجتماعي حتى بعد مرور عشر سنوات على تأسيسها لا سيّما من خلال توسيع "مشاركة النساء في إنتاج الرسالة الإعلامية" (صقر (Sakr)، 2007، ص. 85) والجندرية على وجه الخصوص:

> "تابعت العمل على الموضوع (مقترح برنامج 'رائدات') بالرغم من كل الصعوبات التي واجهتها كوني صاحبة الفكرة والمنتجة والمذيعة والمخرجة وكل ما يترّتب على ذلك من تحضيرات إضاءة وتوجيه تقنيين وماكياج ولباس واستقبال الضيفات والمونتاج والتقارير الميدانية. إلا أنني قبلت التحدي لأني كنت شديدة الحرص على العمل عن موضوع النساء الرائدات. يترتّب على هذا العمل التزام كامل. فمونتاج الحلقة الواحدة كان يأخذ مني فترة الشهر تقريباً يجب خلالها العمل على تحضير الحلقات القادمة. البحث هو جزء أساسي من الحلقة فأنا كنت المسؤولة عن التواصل مع الضيفة ومع أصحابها لأن التعرّف على المحيط الاجتماعي والبيئة المهنية لكل ضيفة من ضيفاتي كان أساسياً بالنسبة لي في تحضير الحلقات. فمثلاً، لقد واكبت تجربة عالمة الفلك المغربية مريم شديد على مدى ستة أشهر بين تلفونات وبحث وترتيبات تصوير ومونتاج. وهو أمر لازم حتى يتسنّى لي نقل هذه التجربة للمشاهد بأحلى صورها لأن همّي الأوّل هو تقديم برنامج مميّز." (من مقابلتنا مع روان الضامن).

وكان من نتائج سياسة توسيع مشاركة النساء في إنتاج الخطاب الجندري والإعلامي بشكل عام التي انتهجتها القناة أن ازدادت درجة وعي هؤلاء واكتسابهنّ خبرات ومهارات إضافية تمكنهن من المساهمة في آلية إدماج أوسع وأشمل للمقاربة الجندرية، وأهمية تحقيق التنوّع في الصورة وتفعيل مشاركة النساء

[26] من مقابلة أجرتها معها الباحثة في استوديوهات قناة الجزيرة الفضائية في الدوحة، يوليو/ تموز 2009.

في مختلف البرامج، وإبراز أهمية الاستماع إلى وجهات نظرهن وخبراتهن وكفاءتهن والمهارات التي اكتسبنها:

"أنا أحب معالجة المواضيع التي تعالج قضايا النساء ولكن الجزيرة توجّهها سياسي أكثر كونها قناة إخبارية. أنا كإمرأة، حرصت في 'النكبة' (وثائقي للإعلامية) على الحديث عن أوّل معتقلة فلسطينية خلال فترة الانتداب البريطاني وتدعى ساذج مختار وعرضت لصورتها. لقد حاولت أن أتطرّق من خلال المظلّة السياسية الى قضايا نسوية قد لا تلفت إليها انتباه مخرج [...] كنت أودّ أيضاً استضافة مؤرّخة فلسطينية لتشارك في 'النكبة' ولكنني للأسف لم أجد" (من مقابلتنا مع روان الضامن).

وهنا لا بدّ من الإشارة الى أن مثل هذا الالتزام يتطلب مناخاً من الاستقلالية المهنية وهامش الحرّية والدعم المادي من قبل القناة :

" ما يميّز الجزيرة عن سواها هو توافر قدر عال من الحرية مقارنة بالتلفزيونات الرسمية واستقلالية في العمل على البرنامج بدرجة مئة بالمئة فلا أحد يأتي ليتدخّل فيه. بمجرّد الانتهاء من الحلقة كنت أعرضها على الفريق الفني للتأكّد من جودة الصورة والصوت ولا أحد يتدخّل في المضمون أو المعلومات المعالجة وهو ما يرتّب مسؤولية كبيرة على المنتج [...] برنامج كـ 'رائدات' ليس من الممكن إنتاجه بنفس الشكل للتلفزيون الأردني أو الفلسطيني. هناك عاملان أساسيان توفرهما الجزيرة وهما: الحرّية والدعم المالي. عندما عملنا على حلقة الرائدة المغربية على سبيل المثال، وفرّت لنا الجزيرة كل ما يلزم لتصوير التقرير في كل من المغرب وفرنسا وشيلي. ما كانت أي قناة أخرى لتوفر مثل هذا الدعم لإعداد التقرير. أن تتكّفل قناة تلفزيونية أخرى بتغطية تكاليف السفر والإقامة لفريق عمل كامل في عدّة دول لإنتاج ساعتين من البثّ التلفزيوني (على حلقتين) عن عالمة فلك مغربية في الثلاثين من العمر هو من غير الممكن، ولذلك كنت متحمّسة لإنتاجه في الجزيرة." (من مقابلتنا مع روان الضامن).

الأصوات النسائية والرجالية وتفكيك التنميط الجندري

لعلّ من أبرز إيجابيات المعالجة الإعلامية الجندرية الجديدة التي اتّسم بها كل من البرنامجين المدروسين المساهمة في تفكيك النمطية الجندرية الإعلامية التي تحيط بقضايا النساء وصورهنّ وأدوارهن في المجتمعات العربية ذات الأغلبية المسلمة. فمن جهة أولى، ساهمت هذه الصورة التي نقلتها الضيفات، من الخبيرات والأكاديميات والباحثات وسواهن من النساء النخبويات في هذه المجتمعات، في تنوّع صور النساء وأدوارهنّ في الفضائيات العربية لتربك النمطية الجندرية التي أسّست وعمّمت لها غالبية البرامج التي توّجهت اليهنّ كما سبق وأشرنا آنفاً. أما الجديد الذي جاء به هذا التنوّع فيبقى على مستوى طوفان صور جديدة للنساء المسلمات النخبويات الملتزمات و/أو الإسلامويات عبر مجموعة من الباحثات والخبيرات والأساتذة الجامعيات من اللواتي جرت استضافتهن في البرنامجين، وهي أمور لطالما تمّ إغفالها وتغييبها في الفضائيات العربية لاعتبارات عدّة. من جهة ثانية، فتحت هذه المعالجة الإعلامية الجندرية الجديدة التي لم تعتمد على أسلوب تحييد وجهات نظر الرجال، مخالفة مرّة أخرى للتقليد الذي عوّدتنا عليه البرامج النسائية، الباب واسعاً أمام نقاشات ومواجهات وصدامات في بعض الأحيان بين مختلف وجهات النظر النسائية والرجالية حول الأفكار المسبقة والموروثات والمغالطات القائمة على أساس النوع الاجتماعي المسؤولة بشكل كبير عن عرقلة مسيرة تقدّم أوضاع النساء في العالم العربي.

صور متنوّعة وجديدة للنساء

خلال الألفية الثالثة وحدها، استضافت الجزيرة عبر شاشة كل من برنامج "للنساء فقط" و "رائدات" دون سواهما مئات الأصوات النسائية النخبوية من مختلف الشرائح العمرية (مع التنويه بالمساحة التي خصّصت للفئات الشبابية) والانتماءات السياسية (موالاة ومعارضة ومحايدة) والجغرافية (من داخل

وخارج العالم العربي) والأيديولوجية والاختصاصات الأكاديمية كأساتذة جامعيات وباحثات ومحللات وناشطات وخبيرات في مختلف المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية ومعارضات سياسيات ومحاميات وفنّانات وشاعرات وكاتبات وحقوقيات وسواهن من المجالات التي كانت ولا تزال بدرجة كبيرة حكراً على الرجال. بالإضافة الى مئات الأصوات النسائية الأخرى من الطبقات والخلفيات الاجتماعية والتعليمية المتواضعة والمتوسطة ممن شاركن في النقاشات أو في إبداء وجهات نظرهن[27] حول مختلف القضايا التي طرحت، ما ساهم في تحوّل الجزيرة الى منبر للأصوات النسائية فاتحة المجال "أمام استخدامات جديدة للتلفزيون العربي كوسيط اتصالي في منفعة النساء" (صقر، 2007، ص. 88). حيث تجاوز الحضور النسائي، في عيّنتنا التي بلغت نسبتها 20 بالمئة فقط من مجمل الحلقات التي عرضتها القناة في إطار البرنامجين المستهدفين، الـ 250 صوتا كما يظهر في الجدول البياني التالي.

جدول بياني: توزّع حضور النساء والرجال في العيّنة المدروسة[28]

الحضور	التكرار	%
النساء	258	66,5
الرجال	130	33,5
المجموع	388	100

إلاّ أنه يؤخذ على البرنامجين في هذا المجال بالذات، التركيز على النساء الحضريات على حساب الريفيات اللواتي للأسف لم يحظين بمساحة وافرة للتعبير عن أوضاعهن واحتياجاتهن ومشاكلهنّ، بالرغم من المكانة التي يحتللنها في البنية الاجتماعية العربية. فقد جرى تخصيص حلقة واحدة من برنامج "للنساء فقط" حول قضايا هذه الفئات من النساء تحت عنوان "المرأة الريفية"، علاوة على أنّ التقارير التي رافقت البرنامج قد أعطت الكلمة للنساء الحضريات في العواصم العربية الكبرى كالقاهرة وعمّان والدوحة.

بالرغم من ذلك، تبقى المساهمة الأبرز للبرنامجين على مستوى تخفيف حدّة التمييز السلبية إزاء حضور النخبويات الملتزمات و/أو الإسلامويات على شاشات الفضائيات العابرة للحدود بأدوار وقوالب جديدة لم تكن معهودة من قبل. ويمكن إرجاع سياسة التمييز السلبية هذه تجاه هذه الفئات الى المنطق التجاري السائد في التعاطي في صور النساء في الإعلام من جهة وإلى السياسات الإعلامية التي انتهجتها بعض الدول العربية – مصر، على سبيل المثال، التي احتلّت على مدى سنوات طويلة مكانة رمزية في المشهد الإعلامي العربي العابر للحدود بفعل الدور الذي لعبته (ولا تزال) على مستوى إنتاج وتصدير المنتوجات الإعلامية والمسلسلات التلفزيونية على وجه التحديد- والتي حدّت بشكل كبير من ظهور مثل هذه الصور على شاشاتها الصغيرة. أما الجديد الذي جاء به هذا الحضور، فيبقى على مستوى إدماج المقاربة النسوية الإسلاموية التي اتّسمت بها طروحات الضيفات والمشاركات في برنامج "للنساء فقط" من الباحثات والداعيات والجامعيات المؤهّلات في الدراسات الإسلامية والنسويات المنتميات أو المناصرات لهذا التيّار والتي ساهمت في إغناء النقاشات العامّة حول قضايا النوع الإجتماعي في المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة أمثال خديجة مفيد (مستشارة وأستاذة جامعية في الفكر الإسلامي بجامعة محمد الخامس بالرباط) وسعاد الصالح (أستاذة الفقه المقارن بجامعة القاهرة) وعبلة كحلاوي (عميدة قسم الدراسات الإسلامية في الأزهر) وملكة يوسف (أستاذة الشريعة الإسلامية في جامعة القاهرة) وسواهن. وهذا عزّز من دور

[27] لاسيما عبر استطلاعات الرأي أوالتقارير أوالشهادات الخاصة أو البريد الإلكتروني لارتفاع تكلفة المكالمات الهاتفية، ولاسيّما بالنسبة إلى المشاركات من المقيمات خارج الدوحة، بحسب ما أوضحته لنا إحدى مقدّمات برنامج "للنساء فقط"، منى سلمان في مقابلة أجريناها معها في استديوهات الجزيرة بالدوحة، يوليو/ تموز 2009.

[28] وصلنا إلى هذه النتائج من خلال عملية مسح شاملة لكل من الحضورين النسائي والرجالي بين الضيوف، وفي المقابلات الخاصة والتقارير واستطلاعات الرأي والمداخلات عبر التلفون أو الفاكس أو البريد الإلكتروني. وبحسب هذه النتائج، توزّعت نسبة المشاركة الفعلية بين الجنسين في هذه النقاشات بين الثلث للرجال والثلثين للنساء كما يظهر في الجدول البياني أعلاه.

الجزيرة في توفير منظور بديل ليس فقط في القضايا السياسية أو الدينية (النواوي وإسكندر، 2002). ولكن أيضاً في قضايا النوع الاجتماعي، وكمنبر للديمقراطية (سيب (Seib)، 2009) والتعدّدية الفكرية في ظلّ تركيز الإعلام العربي ولفترات طويلة على المقاربة النسوية اللائكية المستوحاة من التجربة النسوية الغربية في معالجة قضايا النوع الاجتماعي عبر حضور فئات نسائية مناصرة لهذا التيار بالذات والتي لم يجر استبعادها في البرنامجين المدروسين. إلّا أن ما يؤخذ على هذه الإضافة للبرنامج في هذا المجال، هو شيء من الاهتمام الزائد بالطروحات النسوية الإسلاموية أو حتى بموقف الدين الإسلامي في مقاربة قضايا النوع الاجتماعي حتى في المسائل التي لا تستدعي بالضرورة ذلك "رأي الدين (الإسلامي) في عمليات التجميل" أو "استغلال الرجل لراتب زوجته من الناحية الشرعية". كما تجسّد ذلك أيضاً في كمّ المفردات والمصطلحات والمفاهيم ذات الطابع، أو التي تنشقّ من الحقل السيميائي، الإسلامي التي طرحت أو جرى تداولها في النقاشات: الإسلام، وجهة نظر الإسلام، رأي الإسلام، وجهة نظر علماء الإسلام، القوامة، النموذج الإسلامي، المجتمع العربي الإسلامي، الشريعة الإسلامية، العالم الإسلامي، وسواها مقابل سواها من المصطلحات الدينية غير الإسلامية أو المدنية أو الحقوقية: الشرائع السماوية، مبادىء حقوق الإنسان، حقوق المرأة. ما قد يفسّر على أنه اهتمام مفرط من قبل البرنامجين والقناة بقضايا النساء المسلمات على حساب بنات جنسهن من الطوائف والانتماءات الدينية والثقافية الأخرى.

أسلوب عدم تحييد الرجال

"برأيي أن قضايا المرأة لا تناقش من قبل النساء فقط. فعندما نتحدث عن الطلاق أو العنف أو حتى مشاركة المرأة في الحياة السياسية يكون الرجل أيضاً معنياً بالأمر. فالرجل هو طرف أساسي يجب إشراكه في النقاش."، خديجة بن قنّة.

بالرغم من تقدّم حضور النساء كمقدّمات، كضيفات، كمشاركات وكمتّصلات، كما أظهرت نتائج الجدول أعلاه، بقي حضور الرجل بارزاً في النقاشات التي أثيرت في البرنامجين المدروسين ما يبعد عنهما سمة التنميط الجندري بحسب ما كشفت عنه نتائج دراسة حضور كل منهما. ومن الواضح أن البرنامجين قد اعتمدا آليات انطلقت من أهمية إشراك الرجل في النقاشات حول القضايا المطروحة بحيث أن 55 % من مجموع الحضور الرجالي قد ارتبط باستطلاعات رأي ذكورية (مواقف الرجال من تبادل الأدوار بين الزوج والزوجة، أو من مرافقة الزوجة التي تعمل في الخارج، أو من مهنة سيّدة الأعمال، أو من نظرتهم للمرأة المطلّقة، "للنساء فقط") أو بمقابلات خاصة مع اختصاصيين وخبراء ومستشارين وناشطين سياسيين في برنامج "للنساء فقط" أو لأهالي ومقرّبين من الضيفات في برنامج "رائدات". فيما تعود النسبة المتبقية أي 45 % للحضور المرتبط بمداخلات هاتفية أو عبر الإنترنت أو الفاكس من رجال ما يشير إلى اهتمام وإرادة ووعي مسبق لهؤلاء بأهمية المشاركة في النقاشات الجندرية.

كما كشف الإطلاع على مضمون مشاركة الرجال في النقاشات المطروحة وعلى طريقة مقاربتهم لقضايا النساء لا سيّما في برنامج "للنساء فقط" عن تنوّع في درجات وعي (أو انعدامه) ووجهات نظر هؤلاء بهذه القضايا قد يصل الى حدّ النقيض ما ساهم في إغنائها بشكل أو بآخر. ومن الأمثلة على هذا التنوّع إزاء هذه القضايا نعرض لجزء من النقاش الذي أثاره موضوع "موقع المرأة الخليجية من القيادة" في البرنامج الذي فتح المجال لحوار عقلاني وموضوعي حول العلاقة بين الموروثات والمقولات والقراءات المتداولة تحت غطاء ديني وتمثّلات ومواقع النساء وأدوارهن في المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة:

> خ. ع. (رجل): أختي ما أعلم بالنسبة للآية التي ذكرتها الأخت (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) هذه ليست لنساء النبي، بل لكل المؤمنات والمسلمات [...] أيضاً والرسول عليه الصلاة والسلام قال: "لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة" وهذا أيضاً عام، يعني لا داعي لتكون المرأة حاكمة أو لها مرتبة وزير أو قاضية، كون فطرتها ولأنها تمر بمراحل معروفة، وغير هذا بعض الأحاديث قالت، والأرجح إن المرأة كلها عورة [...].

الضيفة: [...] في قضية "ما أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة" يعني هذا هو قال الأخ أن هذا ينطبق على جميع النساء بشكل عام، وهذا شيء غير صحيح، لو يرجع الى التاريخ والزمن الذي قيل فيه هذا الحديث لوجد أنه قد قيل بمناسبة معيّنة، في وقت معيّن، لإمرأة معيّنة ولا ينطبق على جميع النساء كلهن [...] أو أن المرأة كلها عورة. وكذا يعني [...] الله -سبحانه وتعالى- خلق المرأة والرجل من نفسٍ واحدة، و.. ولكل منهما نفس الوظيفة الإلهية، وهي إعمار الأرض، والاستخلاف في الأرض، فإذا كان الله -سبحانه وتعالى- أعطى المرأة هذا الدور في إعمار الأرض، وإعمار الأرض لا يقتصر على قضية تربية الأولاد و.. والنشء، وإلى آخره، وإنما عليها دور أيضاً في التنمية وفي التطوير وفي التدريب، وإلى آخره، يجب أن تقوم بدورها كاملاً في هذا المجال. فكيف يكون للمرأة مسؤوليات وواجبات ولا تعطى الحقوق؟! ومن أبسط حقوقها أن تشارك في بناء هذا المجتمع.
منتهى الرمحي (مقدّمة البرنامج): [...] في القرآن الكريم ذكرت بلقيس/ وكانت امرأة قائدة وحكيمة.
[...]
ص. ي. (رجل): [...] إن التاريخ فيه مقولات نسبية، هذه المقولات النسبية جعلها الكتّاب المعاصرون أو السلفيون الجدد مقولات مطلقة. نحن الآن أمام مسألة مهمة جداً، هي إما أن نخترق هذه الأنساق التي أخذت الطابع المقدس، وخاصة في نسق الدين، ونعترف بأن هناك جداراً معيقاً يجب أن نقف أمامه من خلال معاينته عن قرب، من خلال مصادرة الحديث فيه من القوى الظلامية، لأن الحديث في النسق الديني ليس مُلكاً لأحد، إنه ملك للتنويريين والعلمانيين والدينيين معاً [...].

المهم أنّه بالرغم من أن أسلوب عدم تحييد الرجال قد أفسح المجال لمختلف وجهات النظر الرجالية بما فيها تلك التي تروّج لأفكار وآراء وتعابير تمييزية تنمّ عن أشكال عنف مبطّنة، سواء أكانت لفظية أم نفسية أم معنوية أم رمزية، فإن المساحة التي خلقها البرنامج لمعالجة مثل هذه المسائل وإبراز وجهات النظر المختلفة سواء لدى النساء والرجال والاستفادة من الخبرات النسائية للضيفات أو حتى للمرسلات في هذا المجال هو ما يستدعي الانتباه والتنويه. فمثل هذه السجالات والخلافات في وجهات النظر تعمل على "توسيع طيف الأصوات المسموعة في العالم العربي وتغذية عدم التوافقية العامّة"، على حدّ تعبير الصحفية الأميركية كارلا باور (Karla Power)، (2005) حول قضايا النوع الاجتماعي ما يساهم في إعادة تشكيل الحقل الجندري مثلما ساهمت في تلك الفترة البرامج الحوارية السياسية على الفضائيات العربية بإعادة تشكيل الحقل السياسي (لينش (Lynch)، 2005) أو صور مقدّمات البرامج المحجّبات على القنوات التركية بإعادة تشكيل الحقل الديني (غول (Göle)، 2002).

مقاربة شاملة لقضايا النساء

إن أبرز ما يستوقفنا عندما نستعرض مجمل ما صدر عن البرنامجين خلال فترة عرضهما على قناة الجزيرة الفضائية (172 حلقة) عدا عن تنوّع وغنى وشمولية العناوين المطروحة حول قضايا النساء - سواء أكان ذلك بالإضاءة على تجاربهنّ وبالإنجازات التي حقّقنها في العمل (إنعام محمد علي... الإخراج والريادة، "رائدات") أم البحث العلمي (مريم شديد... الخبرة والدراسة في علم الفلك، "رائدات") أو النضال السياسي والحقوقي (فاطمة أحمد إبراهيم... العمل الوطني، "رائدات")، أم بتغطية لمشاكلهنّ ولأشكال عنف تعرّضن لها (العنف الموجه ضد الزوجات في المجتمعات العربية،"للنساء فقط")، أم بتمييز مورس بحقّهن أم بتقييم لمستوى أوضاعهنّ الاجتماعية والحقوقية بشكل عام، أم بمؤتمرات وتقارير ونقاشات عامّة خاضت في قضاياهنّ - هو التركيز على المجالات الاجتماعية والسياسية والحقوقية وأوضاع فئات بذاتها لطالما كانت ولا تزال مغيّبة بشكل كبير من المعالجة الإعلامية كالنساء في المهجر وفي المناطق التي تعرف مواجهات وحروباً أو غيرها من أشكال القمع كما تظهر نتائج الجدول التالي:

النساء والمجالات المطروقة	التكرار	النسبة المئوية
المجال الاجتماعي	47	27،3
المجالان السياسي والحقوقي	41	23،8
المجالان المهني والاقتصادي	23	13،3
المجال الأسري	23	13،3
النزاعات المسلّحة والحروب وأشكال القمع	19	11،04
المجال الرمزي	11	6،3
المحافل والتقارير والنقاشات العامة	8	4،6
المجموع	172	100

- **الثلاثية ومحاكاة احتياجات النساء**

"كل المواضيع التي تناولناها في البرنامج كانت تتطرّق للجانب السياسي والحقوقي للنساء، كحق المرأة في الانتخاب وتوجّهاتها في التصويت وغير ذلك"، ليلى الشايب.

يمكن فهم تصدّر ثلاثية القضايا الاجتماعية والسياسية والحقوقية في لائحة اهتمامات البرنامجين المختارين على أنها تجسّد رغبة القيّمين في تكييّف الخطاب الإعلامي الجندري مع السياق الخاص لأوضاع النساء في المجتمعات العربية ذات الأغلبية المسلمة بشكل رئيسي وإدراج احتياجاتهن الأساسية. ويكون ذلك من خلال إدراج المشاكل والصعوبات والضغوط التي قد تواجههن في حياتهنّ اليومية، ومن بينها العنف الممارس بحقّهن والطلاق والعنوسة ومضايقات العمل، كمدخل أساسي للحديث عن حقوقهنّ السياسية والمدنية التي تفرضها ضرورات الحياة العصرية وتطوّر أوضاعهنّ (بفضل التعليم ودخول سوق العمل) تمهيداً لاستكمال المسيرة نحو المساواة بين الرجال والنساء في مختلف المجالات وفي إطار الخصوصيات الثقافية لهذه المجتمعات. إن التركيز على هذه الجوانب في النقاشات العامّة حول حقوق النساء في القيادة وإسناد الجنسية والانتخاب والوصول الى مراكز القرار في الفضاء الإعلامي والتلفزيوني على وجه الخصوص يحاكي بشكل مباشر احتياجات النساء العربيات اليوم أكثر من أي شيء آخر. خاصّة وأن هذا الفضاء قد وصل الى حدّ الإشباع من آلية التسطيح والاصطناعية والمشهدية المفرطة في معالجة قضايا النساء لاعتبارات تجارية محضة لا سيما في البرامج التي تقدّم نفسها على أنها حوارية اجتماعية حيث يصبح العنف الممارس بحق النساء أداة جذب وترفيه للجمهور (زروق، 2015).

- **زيادة الوعي بأوضاع النساء في المهجر وفي الصراعات المسلّحة**

وفيّةً لنهجها القومي والموضوعي والشامل، حرصت الجزيرة أيضاً من خلال برنامجي "للنساء فقط" و"رائدات" على التطرّق بقدر الإمكان لقضايا النساء العربيات والمسلمات على وجه الخصوص، ليس فقط داخل العالم العربي، وإنما أيضاً في المهجر (وضع المرأة والأسرة العربية في المهجر، صعوبات اندماج المرأة العربية في المجتمع الغربي، حظر الحجاب في المدارس الفرنسية، "للنساء فقط") وفي المناطق التي تعرف مواجهات وحروباً أو غيرها من أشكال القمع كفلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وغيرها (المرأة العراقية في ظل الاحتلال وغياب الأمن، معاناة السجينات الفلسطينيات، واقع ومستقبل المرأة الأفغانية، المرأة العربية والنزاعات المسلّحة، "للنساء فقط"). ولهذه النوعية من المضامين أهمية خاصة لجهة مساهمتها في إعطاء المزيد من المرئية بالصعوبات والنضالات اليومية التي تواجهها هؤلاء الفئات من النساء دون سواهنّ وبزيادة الوعي باحتياجاتهن الخاصة ما يمكن الاستفادة منه على المدى القصير أو البعيد كوثيقة توجيهية قابلة للمراجعة والمقايسة والمكاملة في دراسات تبحث في أوضاع هؤلاء النساء. خاصة وأنها تستند إلى وقائع اجتماعية وتجارب ونماذج عملية جسّدت كل موضوع من المواضيع المطروحة، علاوة عن التطرّق في بعض الأحيان للإطار القانوني ذي الصلة، لا سيّما القواعد

العامة والخاصة التي من شأنها أن تحمي النساء في السياقات المختلفة ما زاد من فهم هذه الاحتياجات الخاصة والمشكلات.

خلاصات

ساهم كل من برنامج "للنساء فقط" و"رائدات" في إعطاء مزيد من المرئية لنماذج جديدة من النساء العربيات، من التي جرى تغييبها في الفضائيات العربية، ولتجاربهنّ ونضالهنّ اليومي والمشكلات التي يواجهنها وبجعل صوتهن أكثر مسموعية في الإعلام وبالتحسيس بقضايا النوع الاجتماعي. ما كان له أيضاً دور بارز في تعزيز الصورة الإيجابية للنساء على الفضائيات العربية وتأثيراتها في الجمهور المتلقي والشبابي على وجه الخصوص، وهو ما أكّدته نتائج دراستنا حول النشاط الاستقبالي لصور النساء على الفضائيات العربية، كما يظهر النقاش التالي بين مجموعة من المراهقين والمراهقات من بيئة ريفية حول صورة خديجة بن قنّة كـ "نموذج للسيّدة الناجحة":

يحيى: خديجة بن قنّة هي مقدّمة البرامج المفضّلة لديّ. أحبّ متابعة البرامج التي تقدّمها لأني معجب بأسلوبها وبثقافتها.
تغريد: هي تمثّل صورة واقعية للمرأة العصرية، القوية والمتعلّمة والناجحة.
أحمد: هي قامت بشيء مبتكر عندما برهنت أن المرأة قادرة في نفس الوقت على الالتزام بدينها والتميّز في المجتمع. في حال اختارت الفتاة أن تحفظ هويتها الدينية فيمكنها حينها أن تعمل في المجال الذي تختاره. أنا لا أقبل لأختي أن تقدّم برامج ترفيهية أو واقعية كستار أكاديمي أو تاراتاتا.
هنادي: البرامج الجدّية تعكس قدرات النساء.
تغريد: أعتقد أنه من الجيّد أن تظهر النساء على التلفزيون بهذه الصور.
أحمد: في حال ظهرت إحدى نساء القرية على التلفزيون في برنامج جدّي ومفيد فسنكون فخورين بها.

وأخيراً يمكن القول بأن برنامجي "للنساء فقط" و"رائدات" يندرجان ضمن لائحة البرامج الحوارية التي قدّمت للجمهور العربي "مجموعة واسعة من وجهات النظر غير التقليدية حول القضايا والمسائل التي تؤثّر في حياتهم" (عايش، 2011، ص. 96) وتجسّد اهتمامات كل من النساء والرجال والشباب على حدّ سواء في داخل وخارج المنطقة العربية. فالعديد من هذه القضايا لا تزال تحتّل حيّزاً هاماً في النقاشات العامّة كتوزيع الأدوار على أساس النوع الاجتماعي أو مفهوم الأنوثة والذكورة أو العنف أو التحرّش وسواها ما يستأهل إعادة طرحها في الفضاء الإعلامي. ويبقى من المؤسف أن هذه التجربة الرائدة للجزيرة والتي ساهمت بطوفان تجارب أخرى على القنوات المنافسة[29] لم تستمرّ حتى اليوم، وعسى "أن تستأنف لاحقاً"، على حد تعبير ليلى الشايب.

[29] يمكننا الحديث مثلاً عن تجربة البرنامج الحواري على قناة أم بي سي الأولى "كلام نواعم" الذي انطلق في العام ذاته لبرنامج "للنساء فقط" في ظل احتدام المنافسة بين القناتين والذي يستمر حتى اليوم برصيد تخطى 500 حلقة.

المراجع

المراجع العربية

حسين ح.، "المرأة والمجال العام: تجربة مقدّمات البرامج في الفضائيات العربية، دراسة ميدانية مقارنة في خمس دول عربية مختارة في لبنان وتونس ومصر وقطر والإمارات العربية المتّحدة"، **أطروحة دكتوراه** أعدّت لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم الاجتماعية، الجامعة اللبنانية، بيروت، 2012.

القادري ن.، "نحو تمكين النساء في الإعلام. من أجل تحقيق التكافؤ بين المواطنين والمواطنات"، بيروت، **تقرير** صادر عن مؤسّسة الحريري للتنمية البشرية المستدامة بدعم من البنك الدولي ومجلس الإنماء والإعمار، 2008.

القادري ن.، "نحو صورة متوازنة للنساء في الإعلام"، بيروت، **تقرير** صادر عن جمعية Fe-Male، 2015.

المراجع بلغات أجنبية

Ayish, M. “Television Broadcasting in the Arab World. Political Democratization and Cultural Revivalism”, *in* Mellor N, Ayish and others, *Arab Media. Globalization and Emerging Media Industries*, Cambridge, Polity Press, 2011.

Dubet, F. *La Sociologie de l’Expérience*, Paris, Éditions du Seuil, 1994.

El-Oifi, M. “Une Sociologie des Journalistes Maghrébins dans le Golfe: Naissance d’une Elite Diasporique”, *in* El-Oifi et Smati, *Médias au Maghreb et en Milieu Migratoire. Etat des Lieux, Production/Réception et Enjeux Politiques, Economiques et Culturels,* Toulouse, Presses Universitaires du Mirail, No 26, 2010.

El-Nawawy, M. & Iskandar A. *Al-Jazeera: How the Free Arab News Network Scooped the World and Change the Middle East*, Colorado, Westview Press, 2002.

Fairclough, N. *Analyzing Discourse: Textual Analysis for Social Research*, London, Routledge, 2003.

Fleury, B. et Walter, J. “Penser le Genre en Sciences de l’Information et de la Communication et Au-delà”, *Questions de Communication*, No 15, 2009.

Hussein, H. “Les Présentatrices dans la Géopolitique des Chaînes d’Information en Continu Panarabes”, *in* Mattelart, T. et Koch, O. (dir.), *Géopolitique des Chaînes d’Information en Continu*, Paris, Editions Mare & Martin, Media Critic coll., pp. 151-167.

Hussein H., *Le Rôle de la Télévision dans les Transformations de l’Imaginaire et des Rôles de Genre dans le Monde Arabe. Programmation et Réception des Chaînes Satellitaires au Liban, en Tunisie, en Egypte, au Qatar et aux Emirats Arabes Unis,* Thèse de Doctorat en Sociologie, Université de Bordeaux, 2013.

Göle N. "Islam in Public: New Visibilities and New Imaginaries", *Public Culture,* Winter 2002.

Levallois, A. “France 24 en Arabe”, *in* El-Oifi et Smati, *Médias au Maghreb*.

Lynch, M. “Assessing the Democratizing Power of Arab Satellite TV”, *Transnational Broadcasting Studies,* 1, 2005.

Macé, E. “Qu’est ce qu’une Sociologie de la Télévision? Esquisse d’une Théorie des Rapports Sociaux Médiatisés. La Configuration Médiatique de la Réalité”, *Réseaux*, n° 104, 2000 et “Les Trois Moments d’une Sociologie des Rapports Sociaux Médiatisés: Production, Réception, Contenus”, *Réseaux,* No 105, 2001.

Miles, H. *Al-Jazeera. The Inside Story of the Arab News Channel that is Challenging the West*, New York, Grove Press, 2005.

Power C. "Look Who’s Talking", *Newsweek International*, 8 August 2005.

Sakr, N. *Arab Television Today,* New York, Tauris & Co, Ltd, 2007.

Seib, P. *The Al-Jazeera Effect: How the New Global Media Are Reshaping World Politics*, New York, Barnes and Noble, 2009.

Zarrouk, H. "Les Violences Conjugales au Prisme de la Télévision Tunisienne: Les Séries Télé et les Talk-shows", *Recherches Féministes*, Vol. 28, No 1, 2015.

ملحق العيّنة

من برنامج "للنساء فقط":

1) تبادل الأدوار بين الرجل والمرأة، 21 يناير/ كانون الثاني 2002.
2) مشاركة المرأة في الحياة السياسية، 25 فبراير/ شباط 2002.
3) التحرّش الجنسي للمرأة، 11 مارس/ آذار 2002.
4) صورة المرأة في الاعلام العربي، أبريل/ نيسان 2002.
5) سيدات الأعمال ودور المرأة العربية في بناء الاقتصاد،13 مايو/ أيار 2002.
6) الصحافة النسائية المكتوبة، 4 يونيو/ حزيران 2002.
7) وضع المرأة والأسرة العربية في المهجر، 15 يوليو/ تموز 2002.
8) المدارس الأجنبية والخاصة، 26 أغسطس/ آب 2002.
9) المرأة العربية وقمة الأرض في جوهانسبرغ، 2 سبتمبر/ أيلول 2002.
10) موقع المرأة الخليجية من القيادة، 14 أكتوبر/ تشرين الأول 2002.
11) حقوق الخدم في منطقة الخليج، 4 نوفمبر/ تشرين الثاني 2002.
12) المرأة والتحوّلات السياسية في العراق، 12 مايو/ أيار 2003.
13) نظرة المجتمع العربي للمرأة المطلّقة، 2 فبراير/ شباط 2004.
14) مستقبل الحركات النسوية في العالم العربي، 27 يناير/ كانون الثاني 2003.
15) مفهوم الجندر.. دعوة للمساواة أم التماثل؟ 17 فبراير/ شباط 2003.
16) ظاهرة المرأة الانتحارية في الشيشان، 2 يونيو/ حزيران 2003.
17) استغلال الرجل لأموال زوجته، 25 أغسطس/ آب 2003.
18) سرطان الثدي في عالمنا العربي، 6 أكتوبر/ تشرين الأول 2003.
19) تعديلات مدوّنة الأحوال الشخصية بالمغرب، 17 نوفمبر/ تشرين الثاني 2003.
20) العنف الموجّه ضد الزوجات في المجتمعات العربية، 15 ديسمبر/ كانون الأول 2003.
21) اتفاقية إلغاء جميع أشكال التمييز ضد المرأة، 26 يناير/ كانون الثاني 2004.
22) المرأة والمسجد، 9 فبراير/ شباط 2004.
23) عمليات التجميل بين الحاجة والهوس بالمظهر، 5 أبريل/ نيسان 2004.
24) الحب قبل الزواج، 3 مايو/ أيار 2004.
25) المرأة العربية في المناهج التربوية، 30 أغسطس/ آب 2004.
26) زواج الخليجيات من عرب والعربيات من خليجيات، 21 فبراير/ شباط 2005.
27) حق المرأة الكويتية بالتصويت والترشّح، 14 مارس/ آذار 2005.
28) وضع الأسرة العربية في القدس، 18 أبريل/ نيسان 2005.

من برنامج "رائدات":

29) فاطمة أحمد ابراهيم... العمل الوطني، 7 سبتمبر/ أيلول 2007.
30) سعاد الصباح... جوائز إبداع الشباب، 8 فبراير/ شباط 2008.

إبستمولوجيا التغطية الإخبارية للقضايا العربية في قناة الجزيرة

محمد الراجي

منسق برنامج الدراسات الإعلامية بمركز الجزيرة للدراسات

مقدمة

في عملية تَمْثِيلِ الأحداث والوقائع تُبْرِزُ وسائلُ الإعلام المختلفة البِنَى الدلاليةَ التي تُشَيِّدُها للفاعلين، سواء أكانوا أفرادًا وجماعات أم مُؤَسَّسَات ومنظَّمات أم دولًا، وتعكس أنماط المعرفة التي تنشرها أو تَبُثُّها للجمهور، وأيضًا النموذج الفكري للخطاب الذي يُحَدِّد رُؤْيَتَها للواقع، لا سيما أن ما يعرفه الجمهور، وما يُفَكِّر فيه، وما يجب أن يُفَكِّر فيه، يَتَشَكَّل عبر عملية الاتصال والتفاعل معها اجتماعيًّا وسياسيًّا. وهنا، تظهر أهمية التأطير الإخباري والمنظور السَّردي في معالجة الأحداث والوقائع وتَمَثُّلِها من خلال وضعها في إطار يمنحها قَدْرًا من الاتِّسَاق والانسجام، وتَبْئِيرِ بعض جوانبها وربما تَجَاهُل بعضها الآخر، ما يُعطي معنى للقصة الخبرية ويكشف بُعْدًا مَعْرِفِيًّا في بنائها قد يكون مُشْبَعًا بالرُّؤَى التي تُبَيِّن أيديولوجيا مُنْتِجِ الخطاب؛ بل إن التأطير الإخباري والمنظور السَّردي يجعلان الخطاب الإعلامي ذاته، والتغطية عمومًا، مَصْدَرًا مَعْرِفِيًّا في عملية بناء الواقع.

وبهذا التلازم بين الخطاب والمعرفة يصبح الخطاب الإعلامي "خِطَابًا مَعْرِفِيًّا" (فان دايك (Van Dijk)، 2014، ص. 5) يَتَشَكَّل من خلال معالجة مصادره المختلفة وفق "نموذج الحالة الخبرية" الذي يَتَضَمَّن قَدْرًا كبيرًا من المعرفة، باعتباره حَامِلًا للمعلومة الجديدة عن الأحداث الجارية المهمَّة والمثيرة (الحَدَثِيَّة)، ويمكن أيضًا أن تكون هذه المعرفة تاريخية مرتبطة بوقائع مُهِمَّة. كما أن الأجناس الصحفية المختلفة تَصُوغُ مَعْرِفَةً عامَّةً حول أحداث وقضايا مُعَيَّنَة بحسب نموذج السياق الخبري (فان دايك، 2014، ص.ص. 159-160)، تمكن دراسة تِيمَاتِهَا وأُطُرِها عبر ما يُصْطَلَح عليه بـ"إبستمولوجيا الأخبار" (جونسون-كارتي (Johnson-Cartee)، 205، ص. 147)، أي المقاربة المعرفية لجوهر الأخبار وطبيعتها للإجابة عن سؤال المعرفة التي تُقَدِّمُها التغطية الإخبارية ومنظورها السَّردي.

وقد كان هذا الخطاب الإبستيمي/المعرفي مُؤَسِّسًا للرؤية الاستراتيجية لقناة الجزيرة منذ نشأتها في الأول من نوفمبر/ تشرين الثاني 1996، ويتجلَّى ذلك في أنواع ووسائل تغطيتها للقضايا العربية والإسلامية والشؤون الدولية؛ حيث تسعى إلى فَسْحِ المجال أمام الجمهور العربي لـ"الوصول الحُرِّ إلى المعلومة وتَمْكِينِهِ من الاطلاع على الحقيقة التي تمنحه القوة وتُسَلِّحُه بالمعرفة والوعي"*، ويُمَثِّل هذا "الغذاء الفكري" عنصرًا هامًّا من عناصر جاذبية الجزيرة التي أَثْبَتَت أن الإعلام العربي يمكن أن يكون مُفِيدًا للحصول على المعلومات بشأن الأحداث الهامَّة (سيب، 2011، ص. 34)، الأمر الذي كان له "الأثر العميق في تَشْكِيلِ وعي المشاهدين عبر عَمَلٍ إعلاميٍّ فَارَقَ الممارساتِ السابقةَ الـمُصَادِرَةَ للرأي الآخر بطبيعتها... وتَعَاظَمَ دورها كمؤسسة إعلاميةٍ مُؤَثِّرَةٍ في الواقع الدولي" (شبكة الجزيرة، 2015، ص.ص. 13-14). وهو تَشْكِيل لـ"العقل الجَمْعِي" لا يمكن أن يَتِمَّ، كما لاحظ المدير العام الأسبق لشبكة الجزيرة الإعلامية، وضاح خنفر، في الذكرى الخامسة عشرة لانطلاق الجزيرة الإخبارية، إلا بـ"أدواتٍ مَعْرِفِيَّةٍ نَابِعَةٍ من اللغة الأم والتاريخ المشترك" (خنفر، 2011، ص. 16) لِتَغْيِيرِ حياة الجمهور وأفكاره وإحداث القطيعة مع الماضي واستشراف مستقبل أفضل (الجزيرة قصة نجاح، 2011، ص. 3).

* يُمَثِّل البُعْدُ المعرفي مُرْتَكَزًا أساسيًّا للخطاب الإعلامي لقناة الجزيرة، وهو يقوم- كما يشير المدير العام لشبكة الجزيرة الإعلامية بالوكالة مصطفى سواق- على "المعلومة الصحيحة والحقيقة ولا شيء غير الحقيقة"، لذلك تُشَكِّل المعرفة بالنسبة إليه قوة؛ لأن الوسيلة الإعلامية عندما تُمَكِّن الجمهور من الاطلاع على الحقيقة ثم تشرح ما يجري في الواقع فهي تمنحه القوة؛ لأنها تُسَلِّحُه بالمعرفة والوعي. انظر: عبد المولى، عز الدين، **العرب والديمقراطية والفضاء العام في عصر الشاشات المتعددة: بحث في دور الجزيرة**، (مركز الجزيرة للدراسات، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2015)، ص 156.

ويَسْتَنِد البعد المعرفي للتغطية الإخبارية لقناة الجزيرة، في تجاربها المهنية بمراحلها المختلفة، على قانون القرب من حقائق المجتمع العربي وقضاياه؛ إذ غَطَّت منذ انطلاقها نبض الحراك السياسي والاجتماعي والنقابي والحقوقي.. من خلال شبكة من المراسلين داخل مجال عربي يَمُورُ بالتجاذب والصراع بين الفاعلين السياسيين وقوى المعارضة وأنظمة الحكم، واستقصت الملفات المسكوت عنها في الإعلام السمعي البصري الرَّسمي، وأَفْسَحَت في المجال للرأي الآخر، ما جعله مُتَكَافِئًا في فرص التعبير مع الصوت الرَّسمي، بل أصبح يتواصل مع قاعدته الشعبية مُرَوِّجًا لأطروحاته وأفكاره وبرامجه (الراجي، 2010، ص.ص. 89-90). كما قامت الجزيرة بتفكيك المجال السياسي ورَفْع الأَسْطَرَةِ عن شخصياته في عيون الناس العاديين الذين باتوا يرون قادتهم على طبيعتهم خارج الأُطُرِ التي تَرْسُمُها لهم آلتهم الإعلامية الدعائية، وكان لهذا النهج في التعامل مع المجال السياسي ورموزه أَثَرٌ في دور الإعلام ووظيفته من ناحية، وفي إدراك المواطنين للسياسة وقدرتهم على التغيير السياسي من ناحية أخرى، مما أضاف لَبِنَةً أخرى إلى الثقافة السياسية الجديدة التي حاولت الجزيرة إرساءها في المنطقة (عبد المولى، 2015، ص.ص. 152-153) بـ"مناصرتها لقضايا الحرية والعدالة وحقوق الإنسان" (حمد بن ثامر آل ثاني، 2011، ص. 10)، وهو النموذج الإعلامي الذي يؤكد الفرضية التي تنطلق منها الدراسة بشأن البُعْدِ المعرفي للأخبار، ومن ثم مقاربته باعتماد المدخل النظري لـ"إبستمولوجيا الأخبار" أو ما سَمَّيْنَاه بـ"إبستمولوجيا التغطية الإخبارية" للقضايا العربية في قناة الجزيرة.

ويبدو من خلال الملاحظة الاستكشافية لتغطية القضايا العربية في قناة الجزيرة أن البُعْدَ المعرفي يُهَيْمِن على أنواعها (التغطية) ووسائلها، بل يُعَدُّ نَاظِمًا لِبِنْيَة خطابها، وهو ما يُثِير إشكالية نمط هذه المعرفة وجوهرها وأُطُرِها، والمنظور السَّردي الذي يُحَدِّد أشكال صَوْغِهَا، لا سيما أن عملية التَّلَقُّظ تُسْهِم في بلورة المَلْفُوظ وتكشف أهدافه ووظائفه. وسيُرَكِّز التحليل الإبستمولوجي للأخبار على ثلاثة ملفات رئيسية*: الأزمة السورية التي دخلت عامها السادس؛ حيث تصاعد الصراع العسكري بأبعاده المحلية والإقليمية والدولية بعد مشاركة روسيا في الحرب دعمًا للنظام السوري، وثانيًا الأزمة اليمنية التي تفاقمت باستيلاء جماعة الحوثي على السلطة، وثالثًا الأزمة السياسية في مصر واستمرار تدهور الأوضاع بعد انقلاب عبد الفتاح السيسي على محمد مرسي، أول رئيس منتخب ديمقراطيًّا في التاريخ المصري.

إبستمولوجيا الأخبار

تَنْبَنِي إبستمولوجيا الأخبار (The Epistemology of News) على نظرتي الأطر الإخبارية والمنظور السَّردي؛ حيث يمكن عبر فرضياتهما تحديد الأطر والمرتكزات المعرفية للتغطية الإخبارية للقضايا العربية في قناة الجزيرة. وهنا، يتعيَّن النظر إلى الأخبار، كما يرى عالم الاجتماع روبرت بارك، باعتبارها مَعْرِفَةً، أو مَصْدَرًا للمعرفة؛ لأن الكثير مما يعرفه الجمهور حول العالم يرتبط بما قرأه أو شاهده من أخبار، كما أن العالم الذي يجب أن يتعامل معه سياسيًّا يظلُّ بعيدًا عن متناوله وأنظاره وأيضًا خارج إدراكه، لذلك يجب اكتشافه، وتغطيته (جونسون-كارتي، 2005، ص. 148). وهو المعنى الذي يؤكده فادن دايك أيضًا؛ إذ يعتبر وسائل الإعلام أَهَمَّ مُؤَسَّسَة ومَصْدَر لنشر المعرفة بالحدث من خلال نموذج الحالة الخبرية، والتثقيف غير الرسمي بالمعرفة العامة حول العالم عبر النموذج الفكري التجريدي (فان دايك، 2014، ص. 320) كما ورد في كتابه "الخطاب والمعرفة: مقاربة اجتماعية معرفية" الذي يُشَكِّل مَرْجِعًا هامًّا في تحليل الخطاب المعرفي.

وفي هذا السياق، تلعب الأخبار دورًا مُهِمًّا، كما يؤكد أستاذ تاريخ سوسولوجيا الإعلام، مايكل شودسون، في البناء المعرفي للجمهور عبر النشر الواسع للمعتقدات المشتركة حول الأحداث العامة والأماكن والفاعلين... وباختصار فإن الأخبار تَنْشُر ما يُسَمِّيه علماء السوسيولوجيا بـ"الثقافة"، بل يعتقد شودسون أن الأخبار نفسها تُمَثِّل "شَكْلًا ثَقَافِيًّا" (جونسون-كارتي، 2005، ص. 148)، ويُقصد بـ"الثقافة" أشكال

* بلغ مجموع وحدات عينة الدراسة 7 نشرات إخبارية تتوزَّع على أيام الأسبوع (أسبوع صناعي)، وتمتد فترة بثها من 7 أبريل/نيسان إلى 25 مايو/أيار 2016.

رمزية متاحة علنًا يكتشف من خلالها الجمهور ويُعَبِّر عن المعاني، وتشمل المعتقدات والممارسات الطقوسية والأشكال الفنية والاحتفالات، وكذلك الأشكال الثقافية غير الرسمية، مثل اللهجة، والثرثرة، والقصص، وشعائر الحياة اليومية (جنسون-كارتي، 2005، ص. 148). إذًا، بهذا المعنى المعرفي/الثقافي للأخبار، فهي تُسْهِم في تشكيل وعي الجمهور باستخدام الوحدات الرمزية المتاحة، كما تُسْهِم، باعتبارها عملية اتصالية، في تكوين ثقافة الجمهور ومواقفه واتجاهاته نحو القضايا المختلفة من خلال بعدها المعرفي مُمَثَّلًا في الأطر الإخبارية والمنظور السَّردي.

وللإطار الإعلامي تَسْميات مختلفة منها: المرجع، والسياق، والتِّيمَة، والزاوية الخبرية، التي تجعل القصة تُقدِّم معنى عبر الإحالة على قيم خبرية تربط حدثًا بوقائع أخرى متجانسة (ماكويل (McQuail)، 2010، ص. 380)، ويَعْتَبِر البعض الإطار الإعلامي هو التِّيمَة نفسها للقصة الخبرية، باعتبارها فكرة تربط العناصر الدلالية المختلفة للقصة في تناسق كامل (جونسون-كارتي، 2005، ص. 164)، وهو أيضًا "تنظيم مركزي للفكرة أو حدود القصة الخبرية لإضفاء معنى تدريجي للأحداث المجرَّدة؛ حيث يُحدِّد الإطار مسار الجدل حول جوهر القضية" (غامسون (Gamson)، 1987، ص.ص. 137-177). وهنا، يصبح الإطار الإعلامي تلك العمليات التي يقوم بها القائم بالاتصال في تصنيف وتنظيم وتفسير الواقع، والتي تُسَهِّل فَهْمَ المعلومات ووَضْعَ الأحداث في سياقها (ويكس (Wicks)، 2001، ص. 78)، ويعني ذلك "اختيار وإبراز بعض حقائق الأحداث أو القضايا، وربطها ببعضها البعض؛ تعزيزًا لتأويلٍ خَاصٍّ، تَقْيِيمٍ، و/أو حَلٍّ" (إنتمان (Entman)، 2004، ص. 5). وتُظْهِر عملية الاختيار والإبراز أهمية السياق في تَمْثِيل الأحداث والوقائع، وتحديد المشكلات وتفسير أسبابها ومعالجة أبعادها المختلفة وتقييمها، بل يصبح السياق هو الذي يُشَكِّل القصة الخبرية نفسها بعد تأطيرها وبناء التوقُّعات التي تُسَهِّل عملية فَهْمِ أجزائها، وقد يكون (السياق) أَهَمَّ من المعاني والدلالات، التي يُشَيِّدُها مُنْتِج الخِطاب للأحداث والوقائع، باعتباره مُحَدِّدًا لسيرورتها. وفي هذا الإطار تعتمد الدراسة النموذج التفسيري لِلأُطُر الإخبارية لـ"روبرت إنتمان"، وهو يقوم على أربعة وظائف أساسية (إنتمان، 2004، ص. 5) تكشف الأبعاد الإبستيمية للتغطية الإخبارية للقضايا العربية:

1. تحديد جوهر المشكلة، 2. تشخيص الأسباب والقوى الفاعلة في القضية أو الحدث، 3. تحديد القيم الأخلاقية للقضية، 3. الحلول المقترحة للقضية ومعالجتها.

أما المنظور السَّردي، الذي يُمثِّل الفعل الخطابي أو الممارسة الخطابية لإبستمولوجيا الأخبار، فهو البناء الشكلي أو البناء التركيبي للقصة الخبرية، ويُسمِّيه فان ديك بـ"نحو القصة" أو "قواعد القصة" التي تشير إلى نسق القواعد الذي يُميِّز مجموع الفئات السردية النمطية ويُعيِّن نظام بنائها في القصة (فان دايك، 1988، ص. 50). ويكشف المنظور السَّردي القدرة الإبداعية للأفكار والتخييل، وأيضًا يُبيِّن القدرة على تحقيق التسلسل، والوحدة، والانسجام، وقوة التعبير، والرؤية إلى الزمان والمكان أثناء تَمْثِيل الأحداث والوقائع (جونسون-كارتي، 2005، ص. 153)، ويبحث في تماسك القصة الخبرية وانتظامها وتَعَالُق وحدات بنائها أو اضطرابها وتَفَكُّكِها، وتناقضاتها وصفات الصدق فيها، ومنطق الأدلة البرهانية (جونسون-كارتي، 2005، ص. 151).

المعرفة العامة بالوقائع والحقائق

تَتَعَدَّد أنماط المعرفة ونماذجها الفكرية، ومنها المعرفة العامة (الحَدَثِيَّة) (فان دايك، 2014، ص. 159)، سواء أكانت مرتبطة بأوضاع الحالة الراهنة أم ذات حمولة تاريخية، والتي يمكن تَسْمِيَتُها أيضًا بـ"معرفة الوقائع والحقائق"، وتتنوَّع وسائطها؛ حيث تُعَدُّ وسائل الإعلام- كما ذُكِر آنفًا- أكثر المنصَّات التي تَبُثُّ أو تُذِيع أو تَنْشُر هذا النمط المعرفي. وهو يعكس نموذجًا فكريًّا لمشاركة الأحداث العامة عبر عملية الاتصال التي تهدف إلى تمكين المتلقي أو المستخدم مما لا يعرفه ولا يستطيع الوصول إليه، ومشاركته معلومات مُحَدَّدَة، والتَّعرُّف على التجارب الشخصية وأدوار الفاعلين أفرادًا وجماعات ومؤسسات وهيئات...إلخ. وهنا، فإن أَهَمَّ ما يُمَيِّز هذه المعرفة هو الحقائق والمعلومات الـمُؤَسِّسَتَيْنِ لخطابها باعتبار أن "المعرفة

ليست فقط معرفة وإنما قضية أخلاقية بالمعنى الذي يجعلها تقول الحقيقة" (فان دايك، 2014، ص. 268)، وهو المعنى الذي كَرَّسَته قناة الجزيرة أيضًا في تجربتها المهنية خلال العقدين الماضيين، وجعلته سياسةً تحريريةً- مُؤَصَّلَةً في كتاب "المعايير التحريرية" الذي يُمَثِّل ثمرة وخلاصة خبرتها الإعلامية ومَرْجِعًا في أداء الصحافيين لعملهم المهني- حيث تُقَدِّم القناة "المعلومات لا النصائح.. ولا تَخْلِطُها بالتَّكَهُّنات أو التحليلات الذاتية..ولا تَدَعُ المشاعر الشخصية تَتَدَخَّل في اختيار الأخبار أو مُكَوِّنَات كل خبر" (شبكة الجزيرة، 2015، ص 22).

وتُبَيِّن الدراسة التحليلية للقضايا العربية في قناة الجزيرة أن المعرفة العامة تُشَكِّل جوهر البنيات الدلالية لخطابها الإعلامي؛ إذ ظلَّت- منذ إنشائها في الربع الأخير من العام 1996- تُقَدِّم حقائق أوضاع الحالة الراهنة، والمعلومة الموثوقة المصادر عن الأحداث التاريخية، وهو ما يُشَكِّل نموذجًا فكريًّا تَنْوِيريًّا يستند، كما سَنُبَيِّن لاحقًا، للوقائع والمشاهدات الميدانية والمصادر المعلومة الموثوقة والوثائق وليس الافتراضات والمصادر الـمُجَهَّلَة... ورغم أن الشأن التركي لا يندرج ضمن هذه الدراسة، فإن التغطية الإخبارية المباشرة لمسار الانقلاب الفاشل بتركيا، في 15 يوليو/تموز 2016، تُعدُّ أَهَمَّ المحطات الحديثة والبارزة في التجربة المهنية للقناة، التي تؤكد نموذج المعرفة العامة، ولا يمكن للباحث أن يتغاضى عنها في بيان أبعاد هذا النموذج؛ إذ إن المعرفة العامة التَّنْوِيريَّة لبعض وسائل الإعلام- وضمنها قناة الجزيرة- كانت عاملًا مُهِمًّا في "تمكين" الجمهور من الحقائق وتسليحه بالوعي، أي "القوة المعرفية" بمسار الأحداث قبل أن يَتَصَدَّى للانقلاب.

ففي الوقت الذي كان بعض القنوات الإخبارية العربية والدولية يُرَوِّج لرواية شبكة الانقلاب وسيطرة الجيش على الحكم ووعوده بالمحافظة على الديمقراطية والالتزام بالاتفاقيات المبرمة مع الخارج، ظلت قناة الجزيرة تَتَحَرَّى بَثَّ المعلومة الدقيقة والصحيحة من خلال شبكة مراسليها في الميدان واستقصاء الأخبار من المصادر المعلومة الموثوقة حول مسار الانقلاب. وفي هذه اللحظة كان بعض القنوات يُرَوِّج إشاعات حول طلب الرئيس التركي رجب طيب أردوغان اللجوء إلى ألمانيا ومغادرة البلاد، وانخرطت أخرى في الدعاية للانقلاب عندما وصفت ما يحدث بـ"ثورة الجيش التركي على ديكتاتورية أردوغان"، وتَعَجَّلَت صحف عربية عريقة في توقُّعاتها وقراءتها لمآل الانقلاب ومساره لِتُعَبِّر ربما عن موقفها السياسي وليس المهني بعد أن أصدرت أحكامًا مُطْلَقَةً تؤكد أن "الجيش التركي يطيح بأردوغان" (الأهرام)، أو "الجيش يحكم تركيا ويطيح بأردوغان" (الوطن)، أو "تركيا في مهب الريح" (المصري اليوم)، (راجع موقع ZDZ، "القنوات الانقلابية العربية والغربية الفرحة بانقلاب تركيا"، 16 يوليو/تموز 2016).

وهنا، يبدو واضحًا أن الدعايةَ للانقلاب وسَيْلَ الإشاعات وتَدَفُّقَ الأخبار الـمُجَهَّلَة حول مصير الرئيس التركي- كما رَوَّجَتْهَا هذه الوسائل- لا يمكن أن تُصَنَّف بأي حال ضمن نمط المعرفة العامة، بل تُعَدُّ تَحْرِيفًا وتَضْلِيلًا إعْلامِيًّا يَقْلِبُ الحقائق، بل ويُجَمِّلُ الانقلاب ويُشَرْعِنُه. وهذا يجعلنا أمام نموذج للدعاية السياسية[30] التي تهدف إلى ترويج أطروحة "الثورة" ضد الحكومة التركية "وأن ما حدث ليس انقلابًا" (راجع قدس برس، "صدمة في الإعلام المصري بعد فشل الانقلاب في تركيا"، 16 يوليو/تموز 2016) وذلك عبر تَشْتِيتِ ذهن المتلقي بتشويه الحقائق وبَثِّ الأكاذيب والتَّلْفِيق المتعمَّد للمعلومات لإحداث تأثير مقصود يخدم أجندة مُنْتِج الدعاية، بينما كانت قناة الجزيرة تهدف إلى تَنْوِيرِ* الرأي العام بمجريات

---

[30]- تُلَخِّصُ الدكتورة منال المزاهرة، في كتابها **"الدعاية: أساليبها ومدارسها"**، خصائص الدعاية في ما تعرضه من معلومات وتنشره من آراء وأفكار بعد إعدادها وتحريفها من حيث المضمون والشكل بطريقة تخدم الأهداف الدعائية، أي أنها لا تُقَدِّم الحقائق كاملة وإنما تُقَدِّم ما يتماشى مع المتطلَّبات الدعائية، كما تَعْمَدُ بعض ألوان الدعاية إلى ذِكْر أكاذيب ومعلومات مُضَلِّلَة وغير صحيحة. وتُعْتَبَر الدعاية تعبيرًا ذاتيًا وليست تعبيرًا موضوعيًّا؛ لأن مادة الدعاية ومضمونها يتأثران بشخصية الداعية الذي يقوم بإعدادها. وتسعى إلى تحقيق أهداف مُدَبَّرَة ومُحَدَّدَة مُسْتَهْدَفة ومحسوبة، تتمثَّل في التأثير المتعمَّد في المعلومات والآراء والاتجاهات والمعتقدات والسلوك في الاتجاه الذي يستهدفه الداعية، خلافًا للإعلام الذي يسعى إلى تنوير الرأي العام وتحقيق أعلى درجات الوعي والمعرفة والإدراك والإحاطة الشاملة لدى فئات الجمهور.

انظر: المزاهرة، منال، **الدعاية: أساليبها ومدارسها،** (دار المسيرة، عمان، 2012)، ط 1، ص 38.

* التَّنْوِير هنا بالمعنى الكانطي (نسبة إلى الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط) الذي يَتَمَثَّل في التفكير المستقلِّ، والتَّحَرُّر من القيود والوصاية التي يمكن أن يمارسها الأفراد أو المؤسسات أو الدول على الجمهور. انظر:

الأحداث وتطوراتها من خلال تغطية إخبارية تجعل شبكة المراسلين تروي تفاصيل الوقائع من مَنْشَئِها وليس عبر المصادر الـمُجَهَّلَة لإدراكها أن "المعرفة قضية أخلاقية" تصبح اعتقادًا صحيحًا بتوافر الشروط المهنية؛ فيُسَلِّم الجمهور بصدقيتها، ويَثِق و"يُؤْمِن" بصحتها. وفي هذا السياق، نلاحظ التقابل بين نموذجين من الخطاب الإعلامي: أحدهما دعائي/تَضْلِيلِي يُشَوِّه الحقائق ويُزَيِّفُها لتوجيه الرأي العام نحو آرائه وأفكاره ومعتقداته السياسية، والآخر مَعْرِفِي/تَنْوِيري يهدف إلى اطلاع الجمهور على الحقائق والمعلومات كما تجري في مسرح الأحداث.

هذا البعد الأخلاقي للمعرفة العامة، الذي يُؤَسِّسُ لنموذجٍ معرفيٍّ تَنْوِيرِيٍّ، نجده في جميع التغطيات الإخبارية للجزيرة، بل وفي أكثرها إثارة للجدل، لا سيما تلك التي ارتبطت بأشرطة التنظيمات الجهادية والجماعات المسلحة؛ مثل القاعدة وأخواتها؛ حيث كانت تُوَجَّهُ للقناة اتهامات ببث مواد دعائية وتحريضية لهذه التنظيمات، بينما ترى إدارة القناة أن مسؤوليتها الإخبارية تجعلها تُقَدِّس "المادة الخبرية"؛ فإذا كان التسجيل يتضمَّن "المادة الخبرية" تقوم بعملية البَثِّ دون أي حسابات أو انحيازات تجاه أي جهة كانت (راجع حوار أحمد الشيخ للجزيرة توك: "صيغة الاستفتاء نعترف به..وقمنا بمساءلة المتسببين"، 22 ديسمبر/كانون الأول 2007).

وقد ساهم هذا النموذج المعرفي التنويري في تجاوز الجزيرة لحدودها الإقليمية ووصلت إلى العالمية منذ العام 2001 بفضل تغطيتها للحرب على أفغانستان؛ حيث مَكَّنَتْها تغطيتها الخاصة لتلك الحرب من جذب جمهور عالمي عبر شاشات قنوات أخرى، مثل: سي أن أن (CNN) وبي بي سي (BBC) وسكاي نيوز (Sky News)، بعد أن فشلت وسائل الإعلام العالمية في البقاء بالميدان ونقل الأحداث باستقلال عن رؤية البنتاغون وتوجيهات القوات الأميركية.. كما أن تغطيتها الشاملة والمتواصلة للحرب على العراق في العام 2003 دَعَّمَت تلك المكانة وتَمَكَّنَت من تحدِّي هيمنة المؤسسات الإعلامية الغربية على الخبر وصناعته (عبد المولى، 2015، ص.ص. 157-158). وترسَّخ هذا النموذج الفكري التنويري في التجربة المهنية للجزيرة في محطاتها المختلفة وبرز بجلاء في حركة التغيير التي عرفتها بعض الدول العربية في نهاية العام 2010 وأوائل العام 2011 وتداعيات ما سُمِّي بـ"الربيع العربي"؛ حيث كانت القناة شاهدة على التحوُّلات السياسية في هذه الدول، بل ومُؤَثِّرَة فيها بخطابها المعرفي التَّنْوِيري الذي كان يهدف إلى "تمكين" الجمهور و"تسليحه بالوعي" بحقيقة أوضاعه السياسية ومعرفة مسار حركة التغيير وتطوراتها ومآلاتها، ولا تزال في مرحلة لاحقة شاهدة على الأزمات السياسية التي عاشتها دول الربيع العربي، خاصة تطورات الحرب في سوريا والصراع العسكري في اليمن والأزمة السياسية المتفاقمة في مصر، وهو ما سيتناوله المحور الذي سَمَّيْنَاه بـ"المعرفة الحَمْلِيَّة" أو "المعرفة القَضَوِيَّة".

المعرفة القَضَوِيَّة*

في تحليلنا لعينة الدراسة يَبْرُزُ النموذج المعرفي التَّنْوِيري بقوة، وسنلاحظ أن التغطية الإخبارية لبعض القضايا العربية، مثل: الأزمة السورية واليمنية والمصرية، تجعل هذا النموذج مُنْطَلَقًا أو مُؤَسِّسًا لمعرفة أكثر عُمْقًا يمكن تَسْمِيَّتها بـ"المعرفة القَضَوِيَّة" التي تُشَيِّد فَهْمًا مُعَيَّنًا للقضايا والوقائع، أو "المعرفة الحَمْلِيَّة" التي تحمل أفكارًا ورؤى حول القضايا التي تعالجها، وتَهْتَمُّ بسياقاتها** وتُحدِّد العوامل الـمُؤَثِّرَة في مساراتها وتُؤَطِّرها في تِيمَات أو بِنَى معرفية مُعَيَّنَة (جوهر المشكلة)، وترصد الفاعلين فيها، وتُعَيِّن

Kant, Immanuel, “An Answer to the Question: What is Enlightenment”, Konigsberg, Prussia, 1784, p. 1.
وفي المجال الإعلامي، يرى الباحث أن التَّنْوِير أساسًا هو المعرفة التي تُقَدِّمُها وسائل الإعلام للجمهور دون التَّحَكُّمِ في مصادرها وتَلْوِينِ مضمونها، أي: ضمان استقلال مصادر المعرفة وحريتها، ومعالجتها دون توجيه مضمونها أو تزييف حقائقها أو أَدْلَجَتِها. وهذه المنطلقات الأساسية للمعرفة التنويرية تجعل الخطاب الإعلامي المعرفي مُنَاقِضًا لنموذج الخطاب الدعائي.

* قياسًا على المحتوى القضوي (الإحالة والحَمْل) للجملة، والقضية الحَمْلِيَّة تلك التي يُحْكَمُ فيها بثبوت شيء لشيء أو نفيه عنه؛ حيث يتصور مُنْتِج الخطاب مفهومًا ثم يُسْنِدُ إليه مفهومًا آخر أو يَحْمِلُه عليه، وبذلك تتبلور أبعاد القضية، ومن ثم سميناه بالمعرفة القضوية.

** يُعَدُّ العمق السياقي مفهوما مركزيًّا في التغطية الإخبارية لقناة الجزير؛ حيث يهتم بتأطير الأحداث والوقائع "ويُسلِّط الضوء على ظروفها وخلفياتها السياسية والتاريخية والجغرافية والاقتصادية". انظر: شبكة الجزيرة الإعلامية، **المعايير التحريرية**، ص 84-152.

أسباب هذه القضايا والأبعاد الأخلاقية التي تطرحها، والحلول أو البدائل المقترحة التي قد تُشَكِّل سبيلًا لتسويتها.

فإذا نظرنا في المعرفة العامة (الحَدَثِيَّة) التي يحملها الخطاب الإعلامي لقناة الجزيرة حول الأزمة السورية، سنجد أن النظام السوري لا يزال مُتَمَسِّكًا بالخيار العسكري الـمُتَوَحِّش حلًّا للصراع، الذي انخرطت فيه قوى إقليمية (إيران وحلفاؤها من المليشيات الشيعية) ودولية (روسيا وأميركا)، وهو يستخدم، أي: النظام السوري، كل أنواع الأسلحة المحرَّمة والمحظورة دوليًّا ضد المدنيين لوأد الثورة السورية، ويرفض كل المبادرات والحلول السياسية التي يقترحها المجتمع الدولي لإنهاء مأساة الشعب السوري الذي خرج، قبل 6 سنوات في 15 مارس/آذار 2011، مُطَالِبًا بالحرية والكرامة ووضع حدٍّ للقمع والفساد والديكتاتورية. إذن، فجوهر المشكلة المباشرة، التي يُبْرِزُها هذا الخطاب، تَتَمَثَّل في استمرار الخيار العسكري للنظام السوري وحلفائه (القَتْل) ضد الشعب السوري الذي قام بالثورة، والسبب هو رغبة هذا النظام في الاستمرار بالحكم الذي لا يرضى عنه بديلًا، وهو ما يتعارض مع إرادة الشعوب في اختيار حُكَّامِها ونظام الحكم الديمقراطي الذي يُحَقِّق آمالها، وهكذا تَتَعَمَّق الأزمة السورية ويستعصي الحلُّ السياسي بِتَدَخُّل القوى الكبرى في الصراع.

وبتفكيك هذا الخطاب وبنياته الدلالية التي يحيل عليها المعجم النحوي والتركيبي، فإن التِّيمَة المركزية الـمُؤَطِّرَة للمعرفة العامة، أو المعرفة الحَدَثِيَّة، تتمثَّل في "الإبادة" التي يَتَعَرَّض لها الشعب السوري بعد ثورته على نظام الأسد الذي يقوم مع حلفائه (الروس وإيران والمليشيات الشيعية التابعة لها مثل حزب الله وأنصار الله) بِحَرْقِ المدن وتدمير جميع مقومات الحياة فيها (المدارس والمراكز التعليمية، المستشفيات، مستودعات الإغاثة، المخابز، الممرات الإنسانية...)؛ حيث يُمْعِن النظام ويُوغِل في القتل الجماعي الـمُمَنْهَج للسوريين في المناطق الثائرة بالبراميل الـمُتَفَجِّرَة ومختلف الأسلحة الـمُحَرَّمَة دوليًّا (الكيميائية، الفسفور، القنابل الحارقة، العنقودية..)، ويَتَّبِع سياسة الحصار والتجويع بمشاركة أطراف إقليمية ودولية، مُنْتَهِكًا كل الأعراف والقوانين الدولية بارتكابه جرائم ضد الإنسانية. وهنا، تُشَكِّل تِيمَةُ "الإبادة" مُرْتَكَزًا أساسيًّا في الخطاب المعرفي للتغطية؛ إذ تصبح جوهر المشكلة التي تواجهها الأزمة السورية، بل إنها تتفاقم بمشاركة إيران وروسيا في الحرب، فـ"لم يَعُدْ الطيران السُّوري القَاتِلَ الوحيد لعشرات السوريين اليوم، كان مُشَارِكًا في القَتْلِ أيضًا الطيران الروسي الرَّاعِي الرَّسْمِي للهدنة..." (قناة الجزيرة، 23 أبريل/نيسان 2016) ، و"أمام الصمت الدولي تَحْتَرِق حلب وتُبَاد. إنها الحقيقة المؤلمة لواقع تُكَبِّلُه حسابات لاعبين كبار يستأثرون القول والفعل..." (قناة الجزيرة، 1 مايو/أيار 2016). هذه الحقيقة تكشف عنها أيضًا اللغة الدبلوماسية لمساعد الأمين العام للأمم المتحدة للشؤون الإنسانية، ستيفن أوبراين، في إحدى جلسات مجلس الأمن بشأن الأوضاع الإنسانية في سوريا، عندما أكَّد أن "مدينة داريا أصبحت العاصمة السورية للبراميل المتَفَجِّرة" (الجزيرة نت: "الأمم المتحدة: داريا عاصمة البراميل المتفجرة بسوريا"، 24 يونيو/حزيران 2016). وكان أنصار الأسد يُرَدِّدُون منذ بداية الأزمة شعارًا لافتًا "الأسد أو نَحْرِق البلد"، وهو ما عَبَّر عنه بشار الأسد في خطاب أمام البرلمان السوري "لا خيار أمامنا سوى الانتصار وإلا فَلَنْ تبقى سوريا ولَنْ يكون لأبنائنا حاضر ولا مستقبل" (موقع الثورة: "خطاب الخيارات الحاسمة..الرئيس الأسد: النصر قادم لا محالة"، 8 يونيو/حزيران 2016).

الشكل رقم 1 يُبيِّن خريطة الحقل المعجمي الذي يحيل على المعرفة القَضَوِيَّة الـمُؤَطِّرَة لِفَهْمِ الأزمة السورية

	جوهر المشكلة	**الأسباب والفاعلون**	**القيم الأخلاقية للقضية**	**الحلول**
	- حلب تحت النار - تحترق حلب وتُبَاد - الأبرياء الذين	- إصرار نظام الأسد على الحل العسكري - المشروع الإيراني في	- رغبة الشعب السوري في التخلُّص من الديكتاتورية والعيش	- مشاركة قوى إقلمية ودولية في الحرب يُعَقِّد

الإبادة	قضوا في محرقة حلب - بعد أسابيع من القتل المتواصل - الضحايا قتلتهم الصواريخ الروسية والسورية - عشرات البراميل المتَفَجِّرَة خلَّفت دمارًا في الممتلكات	المنطقة وأدواته من المليشيات الشيعية - روسيا - فصائل المعارضة السورية - تقاعس أميركا - الصمت الدولي - صمت الجامعة العربية	بحرية وكرامة - أن يختار الشعب السوري نظامه السياسي وحُكَّامَه - محاسبة المسؤولين عن مأساة الشعب السوري - نظام الأسد يرتكب جرائم ضد الإنسانية عبر القتل الـمُمَنْهَج للشعب السوري	الحَلَّ - إدارة القوى الكبرى للأزمة واستنزاف مقدرات الدولة السورية خدمة لمشاريع قوى إقليمية في المنطقة - صمود ومقاومة الشعب السوري

إذن، تُبْرِز التغطية أبعاد الأزمة السورية من خلال تَبْئِير العناصر الأربعة- كما وردت في الجدول وفقًا لنموذج إنتمان- وهي: جوهر المشكلة، وأسبابها والفاعلون، والقيم الأخلاقية، والحلول المقترحة؛ إذ تُمَثِّل البنيات الدلالية الأساسية التي يستقيها المتلقي باعتبارها الأفكار، أو التِّيمَات الجوهرية في التغطية، الـمُحَدِّدَة لنمط المعرفة التي لا تكتفي بسرد الوقائع والحقائق وإنما تُؤَطِّرُها في سياقاتها المحلية والإقليمية والدولية- عبر عملية "التَّسْيِيق" التي يقوم بها مُنْتِج الخطاب- وتكشف الفاعلين فيها وترصد أسبابها والقيم التي تطرحها والحلول الممكنة لها من قِبَل أطراف الصراع، وهو ما يجعلنا أمام نموذج فكري قِيَمِي ليس بالمعنى الأخلاقي الذي يقوم على الثنائيات المتضادَّة، مثل: الحق والباطل أو الخير والشر أو الشرعي وغير الشرعي...إلخ، بل بالمعنى الفلسفي الذي يربط القيم بامتلاك الوعي وإِعْمَال الفكر في أبعاد القضايا وفَهْمِ أسبابها وتفسير نتائجها.

هذا النموذج الفكري نجده أيضًا في تغطية الأزمة اليمنية؛ فهو يُبْرِزُ الحوثيين (جماعة أنصار الله) والرئيس السابق علي عبد الله صالح مُعَطِّلَيْنِ للحلِّ السياسي بعد الانقلاب على الرئيس الشرعي عبد ربه منصور هادي في 21 سبتمبر/أيلول 2014 وسيطرتهم على السلطة. فالتِّيمَة المركزية في التغطية الإخبارية تُظْهِر التَّعْطِيل والعَرْقَلَة- من قِبَل الـمُنْقَلِبِينَ على الشرعية- للجهود والمساعي الإقليمية والدولية لتنفيذ قرار الأمم المتحدة (2216) بشأن تسوية الأزمة، ورفض الحوثيين والرئيس المخلوع صالح النقاش في القضايا الجوهرية خلال مفاوضات الكويت بحسب مقتضيات القرار المشار إليه (كف الجماعة عن استخدام العنف وسحب قواتها من جميع المناطق التي استولت عليها، والتخلي عن الأسلحة التي استولت عليها من المؤسسات العسكرية والأمنية، والتوقف عن جميع الأعمال التي تندرج ضمن نطاق سلطة الحكومة الشرعية في اليمن) (قناة الجزيرة، 9 مايو/أيار 2016).

الشكل رقم 2 يوضح التركيب المعجمي للمعرفة الحَمْلِيَّة الـمُؤَطِّرة للأزمة اليمنية

	جوهر المشكلة	**الأسباب والفاعلون**	**القيم الأخلاقية للقضية**	**الحلول**
	- انقلاب الحوثيين والرئيس المخلوع صالح على السلطة الشرعية	- انقلاب الحوثيين على الشرعية الدستورية والتوافقية - جماعة الحوثي	- إرساء دولة القانون والمؤسسات بدل دولة المليشيات والجماعات المسلحة	- الحوار الوطني - صمود ومقاومة الشعب اليمني

التَّعْطِيل والعَرْقَلَة	- استيلاء الحوثيين على مؤسسات الدولة - قتال الحوثيين وصالح للشعب اليمني - رفض الحوثيين وصالح النقاش في القضايا الجوهرية خلال مفاوضات الكويت بحسب مقتضيات القرار الأممي 2216 - استمرار جماعة الحوثي وصالح في خرق وقف إطلاق النار - تهريب الحوثيين للسلاح إلى اليمن	وصالح - إيران - الحكومة اليمنية - الجيش الوطني والمقاومة - التحالف الدولي - الأمم المتحدة	- مصلحة اليمنيين في الوئام المدني والتعايش السِّلْمِي - المواطنة تُمثِّل المظَلَّة التي تجمع اليمنيين وليس الحكم العائلي أو السلالي/الطائفي - صراع بين مشروعين وطني وآخر سلالي/طائفي	

وهنا، لا يتوقف النموذج الفكري الـمُؤَطِّر لفهم القضية عند الصراع بين مشروع الانقلاب، الذي يبحث عن شرعية سياسية، ومشروع استعادة الشرعية الوطنية، وإنما يبحث في جذور الأزمة السياسية في اليمن والفاعلين فيها؛ ويربط ذلك بانقلاب مليشيا الحوثي على الشرعية وتحالفها مع الرئيس المخلوع صالح والتَّدَخُّل الإيراني لزعزعة استقرار البلاد، وهو ما زاد الأزمة تعقيدًا لارتهان الجماعة للأجندة الإيرانية، بينما يبدو دور التحالف العربي قوة رادعة للانقلاب (مليشيا الحوثي وصالح) وعاملًا مساعدًا لإعادة السلطة الشرعية في اليمن، وتحقيق الأمن والسلم.

وفي دراستنا للخطاب الإعلامي حول الشأن المصري، سنلاحظ أن التِّيمَة النَّاظِمَة لبنياته الدلالية تَرْسُم صورة لنظام حكم بقيادة عبد الفتاح السيسي- أَمْسَك بالسلطة بعد الانقلاب على محمد مرسي أول رئيس مدني منتخب ديمقراطيًّا في التاريخ المصري، وقد حَوَّلَ البلاد بعد مرور عامين على حكمه (8 يونيو/يوليو 2014) إلى سجن كبير للمعارضين للانقلاب والصحافيين وأصحاب الرأي المختلف والفنانين السَّاخرين من السلطة والمتظاهرين حتى بلغ عددهم 60 ألف معتقل سياسي. ويُحْرَمُ هؤلاء السجناء- في ظل النظام الأمني الذي أَرْسَاه السيسي- من أبسط الحقوق الأساسية؛ حيث يُمْنَعُون من الزيارات العائلية ومن الأدوية ويتم رفض إرسال الحالات الطارئة إلى المستشفى، وهو ما أودى بحياة أكثر من 370 معتقلًا منذ الانقلاب.

وفي ظل حكم الانقلاب، أصبح القضاء أحد أدوات السلطة وفاعلًا سياسيًّا خادمًا لنظام الحكم؛ يُصْدِر أحكامه بالإعدام ضد المعارضين السياسيين، والصحافيين أيضًا، وتتم إحالة المتظاهرين الرافضين للانقلاب على المحاكم العسكرية، حيث تُنْتَهَك حريات وحقوق المتقاضين وتغيب إجراءات ومعايير المحاكمات العادلة.

الشكل رقم 3 يوضح خريطة الحقل المعجمي الذي يحيل على المعرفة القَضَوِيَّة لِفَهْمِ جوهر المشكلة في مصر

	جوهر المشكلة	الأسباب والفاعلون	القيم الأخلاقية للقضية	الحلول
الانقلاب	- أكثر من 60 ألف معتقل في مصر منذ الانقلاب - وفاة أكثر من 370 معتقلًا منذ الانقلاب - إحالة رافضي الانقلاب على المحاكمة العسكرية - اتهامات لنظام الحكم بأنه الأكثر دموية في تاريخ مصر - انتهاكات جسيمة ارتكبها النظام ضد الإسلاميين - فشل النظام وسوء إدارته للملفات الخارجية	- السبب هنا هو الانقلاب نفسه، الذي عَطَّل الآلية الديمقراطية، أما الفاعلون الرسميون؛ فالأجهزة والمؤسسات التي تُمَثِّل أدوات السلطة في تنفيذ أجندتها السياسية (وزارة الداخلية والقضاء والإعلام..) - المتظاهرون الرافضون للانقلاب، وقوى سياسية مختلفة - السجناء السياسيون - المنظمات الحقوقية الدولية	- مطالبة الناس بالعيش والحرية والكرامة الإنسانية - رفض فئات واسعة من الشعب المصري للانقلاب ومظاهرات بإسقاط نظام الحكم حتى في صفوف المؤيدين له في 30 يونيو/حزيران 2013 - مطالبة المنظمات الحقوقية الدولية باحترام حقوق الإنسان	- وحدة القوى السياسية المصرية - ضغوط المنظمات الدولية لحقوق الإنسان وغيرها

المنظور السَّردي للمعرفة القَضَوِيَّة

يتناول هذا المحور المنظور السَّردي للتِّيمَات البارزة في التغطية، ويركز على استراتيجيات التَّلَفُّظ وأُطُر صَوْغَ البِنَى الدلالية في الخطاب باعتبار أن مُنْتِج الخطاب يُؤَسِّسُ معالجته للقضية باعتماد رؤية سَرْدِيَّة معينة لجوهر المشكلات وبناء خاص للأحداث وتسلسل الوقائع وأسبابها ونتائجها ودور الفاعلين فيها والحلول المقترحة، ما يعني أن عملية التَّلَفُّظ أو الممارسة الخطابية تُسهم كما ذكرنا في بلورة وإنتاج الملفوظ.

وتُبَيِّن الدراسة التحليلية للنشرات الإخبارية أن هناك استراتيجيات مَخْصُوصَة في بناء الأحداث وتأطير المشكلات في سياق نموذج خبري يُؤَشِّر على النمط المعرفي للخطاب، ويوضح الجدول الآتي (رقم 4) أَهَمَّ هذه الاستراتيجيات:

م	الاستراتيجيات	التكرار والنسبة	
		ك	%
1	الفاعل السلبي والفاعل الإيجابي في المشكلات والقضايا	40	26.66

2	إبراز نتائج المشكلات وتداعياتها	35	23.33
3	الاستشهاد بالأدلة والحجج	25	16.66
4	لغة وصفية تقريرية	50	33.33
	المجموع	150	100

إذًا، يُبْرِز مُنْتِج الخطاب- في سياق المعالجة الإخبارية للمشكلات الثلاث (الأزمة السورية واليمنية والمصرية)- الجوانب السلبية عبر تحديد الخسائر والأضرار الناجمة عنها لتأكيد رؤيته بشأن أهمية هذه القضايا، مثل الإبادة في الأزمة السورية، التي تمسُّ الرأي العام الوطني المحلي وتُؤَثِّر في حاضره ومستقبله، بل تَمَسُّ مصالح الرأي العام الإقليمي والدولي وتُؤَثِّر فيهما أيضًا. ويبدو هذا الإبراز في أول جملة بالقصة الخبرية، بل يَتِمُّ تَبْئِيره في جميع وحدات التَّلَفُّظ ليصبح دالًّا على خطورة المشكلة التي تواجهها الأزمة؛ وقد تنتهي القصة بذلك أيضًا مثلما نجد في أحد التقارير الإخبارية، الذي استُهِلَّ بـ"أمام الصمت الدولي تحترق حلب وتُبَاد"، واخْتُتِمَ بـ"إن حلب تحترق مرتين"، (قناة الجزيرة، 1 مايو/أيار 2016). وفي هذا الإطار يُظْهِر مُنْتِج الخطاب القتل الممنهج الذي يتعرض له الشعب السوري من خلال البراميل المتَفَجِّرَة ومختلف أنواع الأسحلة المحظورة دوليًّا، والدَّمار والخراب الذي يصيب كل مظاهر الحياة الإنسانية.

هذه الاستراتيجية نجدها أيضًا في معالجة الأزمة اليمنية والمصرية؛ حيث يُبْرِز مُنْتِج الخطاب سلبيات الانقلاب في البلدين وتداعياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بعد أن أوقف الحوثيون وصالح في اليمن، ووزير الدفاع عبد الفتاح السيسي في مصر، الآلية الديمقراطية واستولوا على السلطة. وهنا، نلاحظ الاستخدام الواعي والـمُفَكَّر فيه لاستراتيجية إظهار سلبيات المشكلات ونتائجها مَقْرُونَة بالتركيز أيضًا على سلبيات الفاعلين الرسميين (نظام الأسد وروسيا وإيران، جماعة الحوثي وصالح، نظام عبد الفتاح السيسي) التي وردت بنسبة 25.17% من مجموع الفئات الأخرى؛ إذ غالبًا ما يُبَئِّر مُنْتِج الخطاب المتغيرين معًا (سلبيات جوهر المشكلة ونتائجها، وسلبيات الفاعلين فيها) فيبدو نظام الأسد قَاتِلًا سَفَّاحًا مُرْتَكِبًا للمجازر والمحارق ضد السوريين الذين قاموا بالثورة ضد نظام ديكتاتوري، وهو (التَّقْتِيل) أَثَرٌ مُتَرَتِّبٌ بطبيعته على سلبية المشكلة وتداعياتها، أي: الإبادة. كما أن مصر التي حَوَّلَها عبد الفتاح السيسي إلى سجن كبير لمعارضيه السياسيين والمتظاهرين والفنَّانين السَّاخِرِين من حكمه والصحافيين الذين يحملون رأيًا مُخَالِفًا، والنظام الأمني الذي أَرْسَاه لإحكام قبضته على السلطة، ليس ذلك سوى نتجية طبيعية للانقلاب وسلبياته وتداعياته.

إذن، هناك اختيار واع كما ذكرنا لترتيب الأسباب والنتائج مُقْتَرِنَة بسمات الفاعلين وأدوارهم، وتَبْرُز في هذا السياق ملاحظة أساسية؛ حيث تكشف الدراسة عن نسبة ضئيلة لسلبية الفاعلين المعارضين لنظام الأسد وعبد الفتاح السيسي وجماعة الحوثي وصالح؛ إذ لم تتجاوز في مجموعها 2% من مجموع الفئات، أما السمات الإيجابية للفاعلين الرسميين فتبدو مُنْعَدِمَةً أصلًا، بينما بلغت 0.66% بالنسبة للفاعلين المعارضين، وهي نسب طبيعية ومنطقية تتواءم مع النموذج الفكري لخطاب الجزيرة الذي يبحث في جذور المشكلة وجوهرها وأسبابها ونتائجها وتداعياتها، ويُقَدِّم الحجج والبراهن على مسؤولية الفاعلين الرسميين مثلما تُظْهِر نتائج الجدول (رقم 4).

فلا يكتفي الخطاب بالوصف وإنما يُبْرِز حجم المشكلة ونتائجها السلبية بالأرقام المتغيرة حسب الحالات والمواقف؛ ففي المحرقة التي قام بها النظام السوري وحلفاؤه الروس والإيرانيون والمليشيات الشيعية في مدينة حلب نهاية أبريل/نيسان وأوائل مايو/أيار 2016 بلغ عدد الضحايا خلال عشرة أيام أكثر من 235 قتيلًا وأزيد من 1500 جريح سقطوا جراء القصف، وفي مصر التي تَحَوَّلَت بعد الانقلاب إلى سجن كبير

زجَّ النظام بـ60 ألف معتقل سياسي في ردهات السجون، وأودت ظروف الاعتقال السَّيِّئَة بحياة 370 معتقلًا...وفي اليمن تسعى جماعة الحوثي لعرقلة جهود إحلال السلام في البلاد برفضها الاستجابة للقرار الأممي 2216 وخرق الهدنة والاستمرار في تهريب الأسلحة إلى اليمن.

وهنا، يبدو اختيار هذه الاستراتيجيات مقصودًا لخلق الوعي بحجم المشكلات وأسبابها ونتائجها والفاعلين فيها والقضايا الأخلاقية التي تطرحها، وإبراز مدى تأثيرها في الحياة اليومية للمواطنين ومصالحهم، وهو ما يجعل هذا الخطاب نفسه مُؤَثِّرًا في مجريات الأحداث والوقائع لِقُوَّتِه المعرفية في تَنْوِير فئات واسعة من الجمهور بواقعها الذاتي، ما يساعدها على فَهْمِ مسار الأحداث، ومن ثم رَدِّ الفعل.

استنتاجات

في مقاربتنا المعرفية للتغطية الإخبارية للقضايا العربية في الجزيرة تبرز أربعة استنتاجات رئيسية رَسَّخَتْها التجربة المهنية للقناة في محطاتها المختلفة منذ تأسيسها قبل عشرين عامًا:

أولًا: تأثير الجزيرة ودورها الريادي في المشهد الإعلامي العربي والدولي ينبع أساسًا من النموذج المعرفي التَّنْوِيري الذي يُمِّيز سياستها الاتصالية عبر نمط المعرفة العامة بالوقائع والحقائق في تغطيتها لقضايا المنطقة العربية والأحداث الدولية؛ حيث تُقدِّم الحقيقة والمعلومة الصحيحة من مصادرها الموثوقة، لذلك اكتسب خطابها بُعْدًا تَنْوِيرِيًّا كَرَّسَ استقلاليتها عن المصادر الإخبارية أو أي سلطة سياسية أو مالية أو اقتصادية. وهذا النموذج الإعلامي جعل الجزيرة تحظى بالانتشار الواسع بين الجمهور حتى وسط غير الناطقين بلسانها العربي، وتُمَثِّل الخيار المفضَّل في متابعة الأحداث وتطوراتها، بل أسهمت الجزيرة بهذا النموذج في التأثير في مجريات تلك الأحداث؛ لأنها كانت شاهدة عليها، فخلقت المعرفة والوعي بحقائقها ومن ثم كانت تمنح القوة للمتلقي بامتلاكه للمعلومات.

ثانيًا: النموذج المعرفي التَّنْوِيري جعل الخطاب الإعلامي للجزيرة لا يَتَلوَّنَ بالدعاية والمعلومات الـمُضَلِّلَة والتعبير الذاتي غير الموضوعي، أو توجيه الرأي العام نحو مواقف معينة، أو خدمة أجندة أحد أطراف الصراع، كما لم يَسْقُط في الدعاية لتيار سياسي أو حزبي بعينه، ولم يَتَلَوَّن أيضًا بأفكار أو آراء أحد هذه التيارات. وهنا، لا يستعصي على الباحث أن يجد المؤشرات الدَّالَّة على النموذج الإعلامي الذي تُمَثِّله الجزيرة بانحيازها للحقائق وللإنسان معًا.

ثالثًا: تُقَدِّم الجزيرة رؤيتها للواقع من خلال المعرفة القَضَوِيَّة التي تُبَئِّر تِيمَة مُعَيَّنَة، وتُحَدِّد العوامل الـمُؤَثِّرَة فيها ومساراتها، وترصد الفاعلين فيها، والأبعاد الأخلاقية التي تطرحها، والحلول التي قد تُشَكِّل سَبِيلًا لتسويتها، وهو ما يتيح للقناة دَوْرًا مُهِمًّا في تكوين الرأي العام بشأن المشكلات والأزمات التي تواجهها دول المنطقة، والتأثير فيه مَعْرِفِيًّا ووجدانيًّا وسلوكيًّا.

رابعًا: يعتمد مُنْتِج الخطاب في عملية تأطير أبعاد المشكلة مَنْظُورًا سَرْدِيًّا مُفَكَّرًا فيها لإبراز جوانبها السلبية عبر تحديد الخسائر والأضرار الناجمة عنها مَقْرُونَة بالتركيز أيضًا على سلبيات الفاعلين الرسميين لتأكيد رؤيته بشأن أهمية القضايا التي تعالجها التغطية؛ إذ تَمَسُّ الرأي العام الوطني المحلي وتُؤَثِّر في حاضره ومستقبله، بل تَمَسُّ مصالح الرأي العام الإقليمي والدولي وتُؤَثِّر فيهما أيضًا، ما يعني أن عملية التَّلَفُّظ اختيار واعٍ يُسْهِم في بلورة الملفوظ وإنتاجه.

المراجع

المراجع العربية

سيب، فليب، **تأثير "الجزيرة": كيف يعيد الإعلام الجديد تشكيل السياسة الدولية**، ترجمة عز الدين عبد المولى، مركز الجزيرة للدراسات، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2011، ص. 34.

المعايير التحريرية، شبكة الجزيرة الإعلامية، والدار العربية للعلوم، بيروت، 2015، ط 2، ص.ص. 13-14.

خنفر، وضاح، "حسن الصومالي وولي الله الأفغاني"، في **الجزيرة قصة نجاح: 1996-2011**، شبكة الجزيرة الإعلامية، 2011، ص. 16.

"فكرة الكتاب"، في **الجزيرة قصة نجاح: 1996-2011**، ص. 3.

الراجي، محمد، **اتجاهات التغطية الإخبارية للشؤون المغاربية في قناة الجزيرة: دراسة تحليلية لنشرة الحصاد المغاربي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، 2010، ص.ص. 89-90.

عبد المولى، **العرب والديمقراطية والفضاء العام في عصر الشاشات المتعددة: بحث في دور الجزيرة**، ص.ص. 152-153.

بن ثامر آل ثاني، حمد، "الجزيرة..سيرة ومسيرة" في **الجزيرة قصة نجاح: 1996-2011**، ص.ص. 10.

شبكة الجزيرة الإعلامية، **المعايير التحريرية**، ص. 22.

"القنوات الانقلابية العربية والغربية الفرِحة بانقلاب تركيا"، **ZDZ**، 16 يوليو/تموز 2016، (تاريخ الدخول: 10 أغسطس/آب 2016):
https://www.z-dz.com/%D8%A7%D9%84%D9%82%D9%86%D9%88%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%86%D9%82%D9%84%D8%A7%D8%A8%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%A9-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%BA%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%A9/

"صدمة في الإعلام المصري بعد فشل الانقلاب في تركيا"، **وكالة قدس برس**، 16 يوليو/ تموز 2016، (تاريخ الدخول: 10 أغسطس/ آب 2016):
http://www.qudspress.com/index.php?page=show&id=21258

"أحمد الشيخ لـ"الجزيرة توك": صيغة الاستفتاء خطأ نعترف به، وقمنا بمساءلة المتسببين"، **النهار**، 22 ديسمبر/ كانون الأول 2007، (تاريخ الدخول: 10 أغسطس/ آب 2016):
http://www.ennaharonline.com/ar/national/1423-%D8%A3%D8%AD%D9%85%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D9%8A%D8%AE-%D9%84%D9%80"%D8%A7%D9%84%D8%AC%D8%B2%D9%8A%D8%B1%D8%A9-%D8%AA%D9%88%D9%83-":-%D8%B5%D9%8A%D8%BA%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D8%AA%D9%81%D8%AA%D8%A7%D8%A1-%D8%AE%D8%B7%D8%A3-%D9%86%D8%B9%D8%AA%D8%B1%D9%81-%D8%A8%D9%87..-%D9%88%D9%82%D9%85%D9%86%D8%A7-%D8%A8%D9%85%D8%B3%D8%A7%D8%A1%D9%84%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AA%D8%B3%D8%A8%D8%A8%D9%8A%D9%86.html

نشرة الحصاد، **قناة الجزيرة الفضائية**، 23 أبريل/ نيسان 2016.

نشرة الحصاد، **قناة الجزيرة الفضاية**، 1 مايو/ أيار 2016.

"الأمم المتحدة: داريا عاصمة البراميل المتفجرة بسوريا"، **الجزيرة نت**، 24 يونيو/حزيران 2016، (تاريخ الدخول: 16 أغسطس/آب 2016):
http://www.aljazeera.net/news/arabic/2016/6/23/%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%85%D9%85-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AA%D8%AD%D8%AF%D8%A9-%D8%AF%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%A7-%D8%B9%D8%A7%D8%B5%D9%85%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D9%85%D9%8A%D9%84-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AA%D9%81%D8%AC%D8%B1%D8%A9-%D8%A8%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A7

"خطاب الخيارات الحاسمة.. الرئيس الأسد: النصر قادم لا محالة.."، **الثورة**، 8 يونيو/ حزيران 2016، (تاريخ الدخول: 16 أغسطس/ آب 2016):
http://thawra.sy/_archive.asp?FileName=92297957520160608005916

نشرة الحصاد، **قناة الجزيرة الفضائية**، 9 مايو/أيار 2016.

نشرة الحصاد، **قناة الجزيرة الفضائية**، 1 مايو/أيار 2016.

المراجع بلغات أجنبية

Van Dijk, T. A. *Discourse and Knowledge: A Sociocognitive Approach*, Cambridge University Press, Cambridge, 2014.

Johnson-Cartee. K. S. *News Narratives and News Framing*, Rowman and Littlefield Publishers, USA, 2005, p. 147.

McQuail, D. *Mass Communication Theory*, Sage, Los Angeles, 2010, 6th ed, p. 380.

Gamson, W.A., Modigliani, A. "The Changing Culture of Affirmative Action", in Braungart, R.G, Braungart, M.M., (eds), *Research in Political Sociology*, Vol. 3, 1987, pp. 137-177.

Wicks, R. *Understanding Audiences, Learning to Use the Media Constructively*, Lawrence Erlbaum Ascites publishers, 2001, p.78.

Entman, R. *Projections of Power: Framing News, Public Opinion, and U.S. Foreign Policy*, The University of Chicago Press, Chicago, 2004, p. 5.

Van Dijk, T. A. *News as Discourse, Lawrence Erlbaum Associates*, New Jersey, 1988, p. 50.

الفصل الخامس
جمهور الجزيرة العالمي

صعود الجزيرة كلاعب في الإعلام الدولي

مي شيغينوبو

جامعة دوشيشه، اليابان

انقضى عقدان على إطلاق الجزيرة، وقد تحولت خلالهما من مجرد استثمار في مشروع إقليمي رائد إلى مصدر بديل للمعلومات والأخبار، ثم ارتقت إلى أن تحولت إلى لاعب مؤثر في المشهد الإعلامي العالمي. فقد باتت منافسًا قويًّا على كسب الجمهور، إلى جانب كل من "سي أن أن" و"بي بي سي". كما أن البث التليفزيوني من منطقة كانت على الدوام مصدرًا ثريًّا للمحتوى الإخباري، دون أن تكون شعوبها قارئة نهمة للصحف، بل ميالة أكثر للبحث عن مصادر المعلومات عن طريق وسائل الإعلام السمعية والبصرية، قد أتاح للجزيرة، وغيرها من شبكات التليفزيون الفضائية الناطقة بالعربية، أرضًا خصبة للنمو والتوسع.

تغير المشهد الإعلامي الفضائي العربي كثيرًا على مدار العقدين الماضيين؛ فقد أضحى بيئة حيَّة دائمة التطور والنمو والتجديد في المضمون. لقد أحدثت شبكات التليفزيون الفضائية، مثل الجزيرة، أثرًا هائلًا على صعيد إتاحة المعلومات أمام المجتمعات العربية، بل وتركت بصمتها على كيفية أداء الإعلام العربي وطبيعة محتواه في عرض الأخبار والأحداث بالمنطقة. ورغم أن قناة الجزيرة لم تكن أولى الفضائيات العربية التي أُطلقت في تسعينات القرن الماضي، إلا أنها كانت من بين أوليات تلك القنوات التي ظهرت في المشهد الإعلامي العربي، ثم سرعان ما تطورت لتصبح مصدرًا أساسيًّا للمعلومات، خاصة منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول 2011. وخلال الغزو الأميركي للعراق في العام 2003، أثبتت نفسها كمصدر بديل للأخبار على المستوى العالمي. وقد اتسعت قاعدة المتابعة الجماهيرية للجزيرة في كل مناطق العالم حسب مراحل التطور المختلفة التي شهدها عمل القناة، وهو تطورٌ تواكَبَ بدوره مع أحداث جسام هزت العالم بأسره.

تمثَّل الرصيد الأبرز للجزيرة منذ انطلاقها في استقرار مواردها المالية وكذلك في الكفاءة العالية لإطارها الوظيفي، علمًا بأن 250 منهم حصلوا على تدريبات سابقة، وفق المعايير العالمية ضمن مشروع "بي بي سي" العربي الذي لم يدم طويلًا. وفي خضم صناعة تعتمد في بقائها بالأساس على مداخيل الإعلانات، تميزت الجزيرة عن القنوات الفضائية الأخرى في المنطقة باستقرار وضعها المالي من خلال المخصَّصات التي رُصدت لها في شكل قرض إبَّان إطلاقها، وكذلك من خلال الميزانية السنوية التي تخصصها لها دولة قطر المستضيفة.

صاحَبَ ميلادَ الجزيرة الأم واتساع نشاطها، بوصفها لاعبًا أساسيًّا في المشهد الإعلامي العالمي، عددٌ من الأحداث الإقليمية الكبرى، كان أبرزها: حرب الخليج الأولى، والانتفاضة الفلسطينية الثانية، وأحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، والحرب الأفغانية، والغزو الأميركي للعراق، وأحداث الربيع العربي. أما أبرز التطورات المؤسسية التي واكبت الشبكة من خلالها تلك الأحداث العالمية، فتمثلت في إطلاق قنوات الجزيرة الإنجليزية والجزيرة بلقان والجزيرة أميركا.

حرب الخليج و"أثر سي أن أن"

يتفق الكثير من الباحثين على أن حرب الخليج الثانية كانت واحدة من أهم بواعث التغيير في المشهد الإعلامي في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا (أي بعد غزو العراق للكويت في الثاني من أغسطس/آب عام 1990). كان ذلك هو الوقت الذي أطلق عليه بعض الباحثين لاحقًا عبارة: "أثر سي أن أن"، الذي تجلَّى حينها في منطقة الشرق الأوسط بدرجة أولى. قدَّمت "سي أن أن" تغطية إخبارية آنية للأحداث بدءًا باستعدادات قوات التحالف، بقيادة الولايات المتحدة، للهجوم على العراق، وانتهاء بنقل أحداث الحرب وتطوراتها الميدانية نقلًا مباشرًا. لقد أسهمت تلك التغطية في بثِّ وعي جديد في المنطقة إزاء الإعلام ودوره الحاسم في تشكيل الرأي العام.

في ذلك الوقت، كانت الأنظمة العربية الحاكمة تُطبِق سيطرتها على المعلومات وتتحكم في ما يُعرَض منها على الجمهور، وقد استعانت في ذلك بقوانين الرقابة الصارمة التي لم تترك أمام الجماهير العربية نافذة لمواكبة الأحداث سوى عبر وسائل إعلامية مملوكة لتلك الدول أو خاضعة لسيطرتها (باستثناء لبنان). في ظل تلك المناخات، كانت الدول العربية المشاركة في الهجوم العسكري على العراق، تبحث عن وسائل تبرِّر بها تلك المشاركة وفي الوقت ذاته تواجه بها الدعاية التي كانت تبثها إذاعة النظام العراقي (حينها كانت الإذاعة الوسيلة الأشهر بين الجمهور العربي والأكثر انتشارًا في الوطن العربي). كانت كل من مصر والسعودية من الدول العربية التي قدمت الإسناد العسكري لقوات التحالف، وتركزت سياستهما في مواجهة الدعاية العراقية على بث التغطية المتواصلة لشبكة "سي أن أن" لاستعدادات الحرب ومجرياتها.

قامت الدولتان ببثِّ محتوى "سي أن أن" الإخباري ولكن بمقاربتين مختلفتين؛ فقد كانت مصر تبث ذلك المحتوى مباشرة ومجانًا ودون مراقبة على مدار ثماني ساعات يوميًّا (بدءًا من 10 من يناير/كانون الثاني 1991 حتى 31 من مارس/آذار من العام ذاته) عقب اتفاق أُبرم في أكتوبر/تشرين الأول 1989 بين شبكة "سي إن إي" (شبكة مصر الإخبارية، وهي شريك مصري من القطاع الخاص) واتحاد الإذاعة والتليفزيون المصري (فوت (Foote)، 1998). ورغم أن شبكة مصر الإخبارية لم تكن قد استعدت لتسويق الخدمة وتشفير الإشارة وبيع أجهزة فكِّ التشفير وجمع الاشتراكات؛ فقد سارعت "سي أن أن" ببدء البث قبل ستة أيام من اندلاع الحرب؛ حينها أحكمت السلطات المصرية رقابتها على العملية من خلال تمكين اتحاد الإذاعة والتليفزيون من حصة المساهم الأكبر في شبكة مصر الإخبارية (فوت، 1998). أما البث السعودي لمحتوى "سي أن أن" فكان تقليديًّا؛ إذ تم تسجيل المادة المذاعة وإعمال مقص الرقيب فيها ثم بثها عقب ساعات من بثها الفضائي الأول (شلايفر (Schleifer)، 2004).

كان بث "سي أن أن" بالنسبة إلى الجمهور العربي أكثر إثارة مما اعتاد عليه من قنوات التليفزيون المحلية الخاضعة للسيطرة الحكومية، حتى وإن كانت عواطفه مناوئة للهجوم العسكري. بعد ذلك، أدرك القادة العرب ورجال الأعمال الجدوى السياسية والآفاق التجارية الواعدة للتغطية الإعلامية العابرة للحدود في منطقة الشرق الأوسط. كما أدركوا أنه، وعلى بالرغم من تحالفهم ضد العراق، فإن تغطية "سي أن أن" وأسلوب نقلها للحرب كانا منحازيْن للمنظور الأميركي، وقد دفعهم ذلك الإدراك إلى الاهتمام بإنشاء قنوات تليفزيونية عابرة للحدود لبث الأخبار باللغة العربية من "منظور عربي"، أي من منظور كل نظام عربي على حدة. كانت مصر في صدارة الدول العربية التي بدأت البث الفضائي في ديسمبر/كانون الأول 1990، بعد إطلاق قمرها الاصطناعي "نايل سات" (فقد كانت مستبعدة من "عربسات" بسبب المقاطعة المفروضة على نظامها من جامعة الدول العربية ردًّا على إبرامها معاهدة سلام مع إسرائيل في العام

1978). أطلقت مصر قناتها الفضائية لعرض موقفها الرسمي بخصوص القضايا الإقليمية، بدءًا بالأزمة العراقية-الكويتية. بعد المبادرة المصرية، انطلقت في العام 1991 قناة إم بي سي كأول قناة فضائية عربية خاصة (من حيث محتواها وهدفها)، وهي قناة مجانية مخصصة للأخبار والترفيه، مملوكة لمستثمرين سعوديين على رأسهم الشيخ وليد الإبراهيم. انطلقت القناة من لندن، وكانت أول قناة فضائية عربية تنشر مراسلين عرب لتغطية الأحداث من الميدان، وهو ما جعلها تحظى بشهرة في أوساط المشاهدين العرب. بعد إم بي سي، أطلقت مجموعتان من المستثمرين السعوديين شبكتين جديدتين للبث الفضائي، هما: "شبكة الإذاعة والتليفزيون العربية" (إيه آر تي)، و"أوربت" في العام 1994. وخلال الأعوام الثلاثة التالية، أسس مستثمرون لبنانيون فضائيتي "المستقبل" و"إل بي سي"، كما أطلق مستثمر سوري شبكة الأخبار العربية (إيه إن إن). وفي العام 1996، أطلقت قطر قناة الجزيرة الفضائية.

ظهرت الإرهاصات الأولى لقدرة القنوات الفضائية العربية على تشكيل الرأي العام مبكرًا؛ فهي تبث في منطقة يسكنها حوالي 300 مليون نسمة موزعين على 22 دولة عربية، يضاف إليهم أكثر من 46 مليون نسمة بين جاليات عربية في المهجر وأقليات تقطن المنطقة (بناء على تقدير من مصادر مختلفة).

الجمهور العربي، والانتفاضة الثانية، ومناصرة القضية الفلسطينية

بنَت قناة الجزيرة العربية شعبيتها تدريجيًّا وحظيت بولاء المشاهد العربي من خلال بث برامج حوارية تتناول القضايا المسكوت عنها على المستويين السياسي والاجتماعي. فقد كان مجرد متابعة نقاش تليفزيوني مباشر بين آراء مختلفة حول قضايا المنطقة شيئًا جديدًا على المشاهد العربي، وكان واضحًا منذ البداية أن تلك النقاشات وما يواكبها من تحليلات على شاشة الجزيرة يقدمها ضيوف لم يتعود عليهم المشاهد، ستُحدث تغييرًا على مستوى سلطة قيادات الرأي السياسي (شيغينوبو (Shigenobu)، 2011). فقد اعتاد الجمهور العربي على سماع خطاب واحد يصدر عن الحكام والقيادات التقليدية قبل أن تعرض عليهم برامج الجزيرة الحوارية شيئًا مختلفًا؛ إذ كان أكثر من نصف الضيوف من الصحفيين والمحلِّلين السياسيين والأكاديميين والباحثين والكُتَّاب. فعلى سبيل المثال، بلغت نسبة ضيوف البرنامج الأسبوعي "أكثر من رأي" من فئات جديدة من المتخصصين 62% في العام 1999، ثم 58% في العام 2003، ثم 50% في العام 2007. وبذلك أُتيح للجمهور العربي الاستماع لآراء وسرديات لا تحركها بالضرورة دوافع سياسية (شيغينوبو، 2011). أما ضيوف برنامج "الاتجاه المعاكس"، الذي يعد أشهر برامج الجزيرة، من تلك الفئات فقد بلغت نسبتهم 57% في العام 1998، و60% في العام 2003، ثم 62% في العام 2007. جدير بالذكر أن تلك الفئات كان لها في السابق جمهور أقل بكثير مما أصبح لها الآن، لأن حضورها كان مقتصرًا على دوائر النخبة الضيقة دون الانفتاح على الجمهور الواسع. لقد أسهم حضور تلك الفئات الجديدة من قادة الرأي على شاشة الجزيرة والمشاركة في برامجها، في رفع مستوى الوعي السياسي والاجتماعي للجمهور العربي، بالرغم مما يشوب تلك النقاشات أحيانًا من التشنج والانفعال.

انطلقت الانتفاضة الثانية في 28 سبتمبر/أيلول 2000، وكانت أول حدث يجري نقله بشكل مباشر من قِبل محطة تليفزيون عربية، ويقوم بتغطيتها مراسلون يعيشون في قلب ميدان الصراع. تلك التغطية جلبت العرب والمسلمين من شتى أنحاء العالم إلى شاشة الجزيرة، وإلى الفضائيات العربية الأخرى التي حذت

حذوها في تغطيتها الشاملة من داخل الأراضي المحتلة. وبذلك تمكَّن الجمهور، للمرة الأولى، من متابعة تقارير إخبارية ضمن سياق الانشغالات العربية الواحدة التي تطابقت مع مشاعره.

ركَّزت القنوات الإخبارية العربية، وعلى رأسها الجزيرة، على الانتفاضة الفلسطينية من خلال تغطية متواصلة على مدار الساعة للاشتباكات اليومية والمداهمات الإسرائيلية وحوادث الاغتيالات وقصص الضحايا ومعاناة أسرهم. كما اتسع نطاق البث لنقل آراء الفاعلين السياسيين من الجانب الفلسطيني. في هذا السياق، خصصت الجزيرة مواضيع معظم برامجها المميزة للانتفاضة والقضايا العربية، وخلال الشهرين التاليين لاندلاع الانتفاضة الثانية، كانت موضوعات ست حلقات من أصل تسع من برنامج الاتجاه المعاكس حول الانتفاضة. أما برنامج "بلا حدود" فقد تناول الموضوع نفسه في ثماني حلقات من أصل تسع، بينما خصص برنامج "أكثر من رأي" ستَّ حلقات من أصل ثمان للانتفاضة (شيغينوبو، 2011، ص.ص. 106–108). اعتمدت التغطية الإخبارية للجزيرة اعتمادًا كبيرًا على معلومات وتقارير وكالات الأنباء فيما سعى المراسلون لاستقصاء الحقائق والأرقام من مصادر ومنظمات محلية. ونظرًا لأن معظم مراسلي الجزيرة الذين كانوا يغطون الانتفاضة فلسطينيون يعيشون في قلب الصراع، فلم يكن سهلًا عليهم التزام الموضوعية الكاملة. ومع ذلك، نجحت الجزيرة في الأخير في تقديم تغطية مهنية. هذا لا يعني أن الجزيرة كقناة عربية، كانت تخفي انحيازها لأحد طرفي الصراع، وهو الطرف الفلسطيني؛ فقد تجلَّى ذلك الانحياز في المصطلحات التي استُخدمت في توصيف الأحداث؛ ومنها: "العدوان" الإسرائيلي و"المقاومة" الفلسطينية و"قوات الاحتلال" و"الشهداء" (بالنسبة إلى الضحايا الفلسطينيين). تجلَّى ذلك الانحياز أيضًا في الزمن الذي كرسته القناة لتغطية الانتفاضة في نشراتها الإخبارية، علاوة على الوقت المخصَّص للمتحدثين الفلسطينيين مقارنة بالمتحدثين الرسميين الإسرائيليين؛ فقد كان الوقت المخصص للمتحدثين الإسرائيليين أقل بكثير من نظرائهم الفلسطينيين، كما تعامل معهم المذيعون بأسلوب فيه شيء من الحدَّة أثناء مداخلاتهم المباشرة في النشرات والبرامج. يضاف إلى ما سبق، أن القناة كانت تبث شعارات مشحونة في الفواصل بين برامجها لحشد الجمهور العربي في اتجاه مناصرة الفلسطينيين والتبرع لهم. هذا التحيز المعلن أسهم في صناعة صورة ذهنية للجزيرة باعتبارها نصير القضايا العربية والفلسطينية، بل جعلها المصدر المفضَّل للأخبار في أوساط الجمهور العربي.

أظهرت دراسة استقصائية أجراها معهد "غالوب" عن نسب متابعة القنوات العربية عقب الانتفاضة الثانية (12 من نوفمبر/تشرين الثاني 2002) في الكويت والأردن والسعودية والمغرب، أن الجزيرة احتلَّت صدارة القنوات الإخبارية المحلية والعالمية من حيث الموضوعية في الدول المذكورة؛ فكانت نسبتها 55% في الكويت (تليها "إم بي سي" بنسبة 51%)، و51% في الأردن (تليها "إم بي سي" بنسبة 21%)، و38% في السعودية (تليها "إم بي سي" بنسبة 37%)، و48% في المغرب (تليها "آر تي إم" المحلية بنسبة 14%). في المقابل، فقدت "سي أن أن" مصداقيتها بين جمهورها في الدول التي شملتها الدراسة بخصوص تغطية أحداث الانتفاضة؛ إذ بلغت نسبة موضوعية "سي أن أن" في رأي الجمهور في تلك الدول كما يلي: 11% في الكويت، و5% في الأردن، و7% في السعودية، و2% في المغرب (ريولت (Rheault)، 2007).

كانت تغطية الانتفاضة مؤشرًا واضحًا على أن مرحلة الهيمنة الإخبارية لوسائل الإعلام الغربية التقليدية قد بدأت تزول، كما بدأ احتكارها للتدفق الإخباري العالمي يفقد أرضيته. عندها أدركت الحكومة الإسرائيلية أثر تغطية الجزيرة للقضايا الفلسطينية في المجتمعات العربية وما ولَّدته من غضب تجاه سياساتها، كما أدركت الدور الذي تلعبه القناة (خاصة بعد إطلاقها قناة الجزيرة الإنجليزية) في حشد

العواطف العالمية لا الإقليمية فحسب. وخلال الحرب على غزة في يناير/كانون الثاني 2009 (التي باسم "عملية الرصاص المصبوب")، فرضت حكومة إيهود أولمرت عقوبات على مراسلي شبكة الجزيرة من خلال تحديد نطاق تحركاتهم داخل إسرائيل والأراضي الفلسطينية المحتلة. كما رفضت تجديد التأشيرات المطلوبة لموظفي الجزيرة من غير حاملي الجنسية الإسرائيلية (وعدم منح أية تأشيرات لموظفين جدد). من جهة أخرى، حدَّت من فرص التواصل بين مراسلي الجزيرة والحكومة والهيئات العسكرية، ومنعتهم من حضور المؤتمرات الصحفية، كما قيدت حرية تواصلهم مع المتحدثين الرسميين الإسرائيليين (في مكتب رئيس الوزراء ومكتب وزير الخارجية ومكتب قوة الدفاع الإسرائيلية)، وقصرت ذلك التواصل على ثلاثة فقط، وأعقب ذلك إصدار تعليمات غير ملزمة لأعضاء الكنيست الإسرائيلي بعدم إعطاء مقابلات للمحطة (رافيد (Ravid)، 2009).

الجمهور العالمي وإطلالات ابن لادن الحصرية عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول

عُرفت الجزيرة في ذلك الوقت باسم "سي أن أن العالم العربي"، غير أن شهرتها ظلت محدودة في الغرب وفي الدول غير الناطقة بالعربية حتى هجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول في الولايات المتحدة؛ فقد لفتت تلك الهجمات الانتباه إلى منطقة الشرق الأوسط، واسترعت الجزيرة بدورها الانتباه ببث رسالة مصورة طويلة من زعيم تنظيم القاعدة آنذاك، أسامة بن لادن، الذي اتهمته الحكومة الأميركية بالوقوف وراء الهجمات الإرهابية. حققت الجزيرة العربية شهرة عالمية بين عشية وضحاها، واستمرت شهرتها في الذيوع، مع استمرارها في الحصول على رسائل حصرية مصورة من قادة القاعدة "الأعداء الألداء". ولطالما أقبلت وسائل الإعلام في شتى أنحاء العالم على شراء تلك الرسائل الحصرية بصورة فورية وبثها إلى مشاهديها. قبل ذلك الوقت، لم تكن أغلبية الناس قد سمعت بأسامة بن لادن، فضلًا عن رؤية صورته قبل توجيه الاتهامات الأميركية إليه. ولذلك كانت رسائله ذات قيمة إخبارية عالية لجميع وسائل الإعلام الإخبارية في شتى أنحاء العالم.

غير أن ذلك لم يكن أول اتصال بين الجزيرة وذلك الزعيم "الإسلامي" في أفغانستان؛ فقد قدَّم قبل ذلك مقابلة حصرية للجزيرة في العام 1998 (بثتها القناة في 10 يونيو/حزيران 1999) أنكر فيها صلته بالهجمات شبه المتزامنة على السفارتين الأميركيتين في نيروبي ودار السلام في شهر أغسطس/آب 1998. وفي يناير/كانون الثاني 2001 بثت القناة رسالة أخرى حصرية عن زفاف نجل ابن لادن في أفغانستان، أعقبها بث مقطع حصري آخر في العام نفسه (5 أكتوبر/تشرين الأول 2001) لما يُعتقد أنه احتفال بالاندماج السياسي بين قاعدة أسامة بن لادن وجماعة الجهاد التابعة لأيمن الظواهري (النواوي وإسكندر، 2002، ص. 150). ورغم ذلك، لم يكن ابن لادن والجهاديون العرب وظهورهم العارض على شاشة الجزيرة، محطَّ اهتمام واسع من قِبل الجمهور العربي، لكن ذلك الأمر تغير عقب الهجمات التي طالت برجي التجارة الدوليين في الحادي عشر من سبتمبر/أيلول 2001.

تجلَّى التقدير العالمي الذي أبدته وسائل الإعلام للجزيرة، باعتبارها مصدرًا حيويًّا للمعلومات عن ابن لادن والقاعدة وأفغانستان والشرق الأوسط بصفة عامة، في شكل صفقات أُبرمت مع كبرى الشبكات الإخبارية العالمية مثل "سي أن أن" و"بي بي سي" لبثِّ الرسائل الحصرية المصورة، بل إن بعض

شبكات البث غير الناطقة بالإنجليزية وبعض مزودي الخدمة التليفزيونية عبر الكيبل، تسابقت لضم قناة الجزيرة إلى باقاتها عقب أحداث 2001.

من أمثلة ذلك، إضافة شركة "سكاي برفيكت" في اليابان، للجزيرة إلى باقاتها المجانية اعتبارًا من 9 نوفمبر/تشرين الثاني 2001؛ فقد عرضت الشبكة محتوى الجزيرة كاملًا على إحدى قنواتها مشفوعًا بترجمة فورية للنشرات الإخبارية باليابانية لمدة 30 دقيقة وبمعدل مرتين يوميًّا. غير أن ذلك البث المجاني للجزيرة العربية انتهى في 30 سبتمبر/أيلول 2002، ليتجدد على قناة "إن إتش كيه"، القناة العامة اليابانية الوحيدة وأكبر مؤسسة إعلامية في اليابان. كان البث عبر واحد من برامج "بي إس 1" اليومية على إحدى قنواتها المشفرة (يحمل اسم "أوهايو سيكاي" (أي صباح الخير للعالم)، وذلك في مقطع إخباري وضمن برنامج مفتوح يحمل اسم "ساعة العالم الإخبارية" (تغيرت أسماء البرامج بعد ذلك لتصبح "أخبار العالم" و"أخبار آسيا العالمية" و"أهم أخبار سيكاي").

أما في دول جنوب آسيا الأخرى، مثل ماليزيا وإندونيسيا، فقد أذيعت قناة الجزيرة على قنواتهما المحلية والمشفرة، إما بترجمة كاملة أو بترجمة عناوين الأخبار على الشاشة في فقرات برامجية يومية. ومع إطلاق الجزيرة الإنجليزية، أصبحت القناة تُبث على منصات فضائية إقليمية مثل "أسترو" (مشغل تليفزيون وإذاعة آسيا الفضائية) وهو ما أتاح لجمهور جنوب شرق آسيا مشاهدة محتوى القناة كاملًا. ونظرًا لاتساع نطاق المتابعة الجديد والمتسع عبر المنصات الإعلامية والفضائية في شتى أنحاء العالم، فقد اكتسبت الجزيرة جمهورًا جديدًا غير عربي. كما حظيت بوضعية "الإعلام البديل" الذي غيَّر اتجاه التدفق العالمي للأخبار، وكسر احتكار المعلومة من جانب وسائل الإعلام الحكومية، والعالمية مثل "سي أن أن" و"بي بي سي".

تعزيز البث الإخباري على الساحة العالمية: التغطية الحصرية لأحداث أفغانستان

نجحت الجزيرة في تعزيز نطاق بثها على الساحة العالمية، ومن ثم اكتساب شهرة وقاعدة جماهيرية أوسع مع بداية الحرب في أفغانستان في السابع من أكتوبر/تشرين الأول عام 2001. فعندما شنت الولايات المتحدة هجماتها على أفغانستان، غادرت القنوات العالمية مسرح الأحداث باستثناء الجزيرة، التي سمحت لها "طالبان" في ذلك الوقت بالبقاء داخل البلاد وتغطية أحداث الحرب. وبذلك أصبحت الجزيرة الوسيلة الإعلامية الوحيدة القادرة على بثٍّ لقطات حية للحرب، وتمكنت من تقديم آخر الأخبار والمستجدات المتعلقة بذلك الحدث الذي كان الأكثر أهمية على مستوى العالم في ذلك الوقت. وبين عشية وضحاها، قفز عدد مشاهدي الجزيرة من 35 مليون إلى مئات الملايين من المشاهدين عبر مختلف أنحاء العالم (كيلي (Kelly)، 2002 ص.ص. 66-67). ففي كندا والولايات المتحدة على سبيل المثال، كانت أعداد مشتركي الشبكة تُقدَّر بحوالي 200 ألف مشترك، لكنها زادت بمعدل 2,500 مشترك في الأسبوع، حسب جاسم العلي، مدير عام الشبكة آنذاك. في تلك الفترة، تحولت الجزيرة إلى أحد أهم مصادر الأخبار بالنسبة لوسائل الإعلام والمشاهدين في جميع أنحاء العالم.

في السابع والعشرين من ديسمبر/كانون الأول العام 2001، تصدرت قناة الجزيرة عناوين الصحف العالمية مرة أخرى عندما قامت ببث شريط مصور مدته (33) دقيقة لأسامة بن لادن، وذلك في أعقاب إعلان الولايات المتحدة هزيمة نظام طالبان في أفغانستان واستبدال حكومة انتقالية جديدة به لإدارة شؤون

البلاد. كان ظهور ابن لادن والرسالة التي أدلى بها بمثابة تحدٍّ واضح للولايات المتحدة مفاده أن مزاعمها بنجاح عملياتها العسكرية في أفغانستان غير صحيحة، بدليل أن ابن لادن لا يزال حرًّا طليقًا ولم يُمس بأذى. وقد أثارت تلك الخطوة جدلًا واسعًا بين الحكومات ووسائل الإعلام في الولايات المتحدة وأوروبا، تحديدًا بشأن مدى "خطورة" بث الرسائل المصورة لابن لادن، والخشية من أن تسهم تلك الرسائل في تنشيط "خلايا إرهابية نائمة"، وتوفير منصات لنشر "الرسائل التحريضية"؛ فكان أن تدخلت مستشارة الأمن القومي الأميركي وقتذاك، كوندليزا رايس، بصفتها الشخصية وأوعزت إلى أكبر خمس شبكات إخبارية أميركية (هي "إي بي سي"، و"سي بي إس"، و"سي أن أن"، و "إن بي سي"، وفوكس نيوز) بعدم بث رسائل مصورة لابن لادن أو أيٍّ من مساعديه قبل التأكد من مراجعة محتواها، كما أوعزت إلى كبريات الصحف الأميركية بعدم نشر النص الكامل لتلك الرسائل أو تفريغها (النواوي وإسكندر، 2002، ص. 178). وبالفعل أذعنت الشبكات الخمس الكبرى للتعليمات، بيد أن وسائل إعلامية أخرى في أوروبا (المملكة المتحدة وفرنسا وأسبانيا وألمانيا) رأت أن في ذلك انتهاكًا لمبدأ حرية الصحافة في مجتمعات ديمقراطية، وتعديًا على الاستقلالية التحريرية للمؤسسات الإعلامية.

غزو العراق: الحرب والجمهور العالمي المناهض لها

أثناء غزو العراق في العام 2003، كان هناك تباين واضح في طريقة تغطية الأحداث بين وسائل الإعلام الرئيسية في الغرب، لاسيما الأميركية منها، ووسائل الإعلام العربية التي أخذت على عاتقها مهمة نقل مجريات الحرب إلى الجمهور العربي. فعلى عكس حرب الخليج الأولى، لم تكن عملية نقل الأخبار حكرًا على وسيلة إعلامية بعينها. لقد كان للإعلام غير الغربي حضور مكثف في تلك الحرب، وبالتالي كان على الولايات المتحدة والتحالف التفكير في طرق جديدة لإدارة عملية التغطية الإعلامية بحيث تضمن لهم انتقاء الأخبار التي يريدون إيصالها فقط؛ فرسموا خطة لكسب الحرب الإعلامية عن طريق إنشاء ما عُرف بـ"القيادة المركزية" واستضافة جميع المؤتمرات الصحفية التي تعقدها قيادة التحالف. ولتعزيز تلك الخطة، استعانت قوات التحالف بصحفيين مرافقين للحملات العسكرية. أما الجزيرة فظلت تغطي الحرب باستقلال عن الآلة العسكرية لقوات التحالف، وركزت أخبارها بشكل أكبر على الضحايا المدنيين وعلى الحركات المناهضة للحرب في جميع أنحاء العالم.

في تلك الحرب، برز الاختلاف بيِّنًا في محتوى وسائل الإعلام الغربية ووسائل الإعلام العربية، مثل الجزيرة؛ تجلَّى ذلك في تباين طريقة تمثيل وجهة النظر المؤيدة لأميركا والغرب مقابل وجهة النظر المؤيدة للعرب. وقد أسهم هذا الاختلاف في كسب الجزيرة ثقة شريحة جماهيرية عريضة من المعسكر المناهض للحرب في جميع أنحاء العالم.

أسهم إطلاق الموقع الإلكتروني للجزيرة باللغة الإنجليزية، في نفس الشهر الذي وقع فيه غزو العراق (مارس/آذار 2003)، في تعزيز شعبية الجزيرة لدى شرائح واسعة من الجمهور غير الناطق بالعربية، كانت تتطلع إلى مصدر بديل للمعلومات حول الحرب والأطراف المتحاربة. لقد اكتشف ذلك الجمهور الجديد عبر تغطية الجزيرة مجموعة من الحقائق من بينها أن الإعلام الغربي منحاز في تغطيته إلى وجهة نظر الولايات المتحدة وقوات التحالف ولا يعرض أي أخبار عن الضحايا المدنيين. وبذلك باتت رواية الجزيرة عن الحرب أكثر قبولًا لدى المشاهد العربي وغير العربي على حدٍّ سواء. ومع تجاوزها لحاجز

اللغة، استطاعت القناة أن تصل إلى شريحة جماهيرية أكبر، وأصبحت المواضيع التي تطرحها على موقعها الإلكتروني الأكثر تداولًا وبحثًا في محركات البحث الكبرى على شبكة الإنترنت مثل لايكوس (Lycos)، بحسب صحيفة نيويورك تايمز (وارن (Warren)، 4 إبريل/نيسان 2003).

الجزيرة الإنجليزية: السفير العالمي

بعد نجاحها في ترسيخ مكانتها عالميًّا واكتساب قاعدة جماهيرية عريضة على الساحة الدولية، أطلقت شبكة الجزيرة قناتها الإخبارية الناطقة باللغة الإنجليزية. ومن خلال أربع "مراكز بثٍّ استراتيجية" في كل من الدوحة وواشنطن دي سي، وكوالالمبور ولندن، تمكنت القناة الجديدة خلال وقت قياسي من الوصول إلى 180 مليون بيت في أكثر من 100 دولة موزعة على قارات العالم الست (شبكة الجزيرة، ميديا باك، 2014: 4). واستقطبت ضمن طاقم مذيعيها ومقدمي برامجها عددًا من الشخصيات الإعلامية الغربية البارزة، مثل: ديفيد فروست (صاحب مقابلات نيكسون الشهيرة، 1997)، وريز خان (مقدم برامج في "بي بي سي" و"سي أن أن)، وآفي لويس (مقدم برامج في "سي بي سي"). وبذلك أصبحت الجزيرة الإنجليزية أول قناة إخبارية ناطقة باللغة الإنجليزية على مستوى الشرق الأوسط.

استطاعت الجزيرة الإنجليزية في بداية بثها الوصول إلى عشرات الملايين من المشاهدين في أوروبا وإفريقيا وجنوب شرق آسيا، لكن حضورها في أميركا الشمالية كان ضعيفًا نتيجة لعدم القدرة على البث عبر شبكات الكيبل في تلك المنطقة. وفي 2008، استطاعت الشبكة التغلب على مشكلة البث عالميًّا موفرة لمستخدمي الإنترنت حول العالم إمكانية الوصول إلى قناتيها العربية والإنجليزية من خلال البث الحي عبر الإنترنت (لكن تم وقف خدمة البث الحي عبر الإنترنت في الولايات المتحدة عام 2013 قبيل انطلاق قناة "الجزيرة أميركا" في إطار عقود للنقل والبث).

وبحلول العام 2013، بدأ بث قناة الجزيرة الإنجليزية من خلال البث المجاني الحر عبر منصات الأقمار الاصطناعية وعن طريق أكثر من 225 مقدِّمَ خدمة في 82 دولة موزعة على جميع أنحاء العالم. وهكذا استطاعت القناة الوصول إلى حوالي مليار مشاهد عالميًّا (الجزيرة: حقائق وأرقام، 2013). وقد لعب هذا التوسع في محتوى القناة الإنجليزية دورًا محوريًّا في تحويل اتجاه التدفق التقليدي للأخبار والمعلومات، الذي كان يتحكم فيه عدد قليل من الدول المتقدمة.

الوقوف إلى جانب الثورة: الربيع العربي و"تأثير الجزيرة"

عندما بدأت أخبار "الربيع العربي" تسترعي انتباه العالم في بداية العام 2011، سارعت الجزيرة إلى تشكيل فرق عمل متعددة لتغطية الأحداث في جميع البلدان التي شهدت حركات احتجاجية، وفتحت منابرها أمام الجماهير المشاركة في الأحداث للتعبير عن رأيها، خلافًا لمحطات التليفزيون الوطنية ووسائل الإعلام الموالية للأنظمة في تلك البلدان. وقد أسهمت تلك التغطية في ترسيخ صورة الجزيرة لدى الجمهور العربي والعالمي باعتبارها نصير ثورات "الربيع العربي"، حتى إن بعض المتخصصين في المجال الإعلامي استخدموا مصطلح "تأثير الجزيرة" في إشارة إلى دور الشبكة في التأثير على سياسات

العالم العربي، من خلال تمكينها لبعض التيارات والجماعات التي لم تكن تحظى في السابق بأية مساحة إعلامية تذكر، وكسر احتكار المعلومة من قبل الحكومات والمؤسسات الإعلامية السائدة.

استطاعت الجزيرة أن تزيد عدد مشاهدي قناتيها العربية والإنجليزية إلى 220 مليون مشاهد (الجزيرة: حقائق وأرقام، 2013)، وأضحت القناتان مصدرًا رئيسيًّا للمعلومات المتعلقة بالأحداث في تونس ومصر وليبيا والعراق وسوريا. وحتى عندما أُغلقت مكاتب الشبكة، لبعض الوقت، في عدد من الدول مثل مصر والعراق، استمرت تغطيتها لتلك البلدان مستفيدة من مفهوم "صحافة المواطن" وشهادات النشطاء المحليين من جميع أنحاء العالم. وطبقًا لبحث أجرته شركة "إبسوس" الرائدة في بحوث الإعلام، استحوذت قناة الجزيرة العربية على أكبر معدلات المشاهدة في أغلب البلدان الـ11 التي شملها البحث، خلال الربع الأول من العام 2013؛ فقد ارتفع معدل مشاهدة القناة بنسبة 34% متفوقة بذلك على جميع وسائل الإعلام الفضائية الأخرى مجتمعة (الجزيرة: حقائق وأرقام، 2013).

وكما تجلَّت أهمية الربيع العربي في التغييرات السياسية التي نجمت عنه، فقد تجلَّت أيضًا في اتساع حركة الاستثمار السياسي في قطاع الإعلام؛ فقد شهدت هذه الفترة زيادة عدد القنوات الفضائية في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وفقًا لتصريحات مدير معهد الإعلام الأردني، بسام الطويسي، من 450 قناة في العام 2010 إلى 1400 قناة في العام 2015، على الرغم من أن أرقام الإيرادات تشير إلى أن الاستثمار في هذا المجال غير مجدٍ من الناحية المالية (فرانك كرونيكل، 2016).

وبحسب الطويسي، فإن قيمة الاستثمار، في صناعة الإعلام خلال هذه الفترة، بلغت 25 مليار دولار أميركي، في حين أن عوائده لم تتجاوز 1.5 مليار دولار سنويًّا، وبالتالي، والكلام للطويسي، فإن الاستثمار في القطاع الإعلامي في العالم العربي ما هو إلا محاولة لكسب النفوذ السياسي (فرانك كرونيكل، 2016). وقد صاحب زيادة عدد القنوات الفضائية واشتداد المنافسة بينها تدني مصداقيتها وتراجع نسب مشاهديها بما في ذلك قناة الجزيرة؛ فقد خلصت دراسة أجرتها جامعة نورث ويسترن في قطر حول شعبية قناة الجزيرة الفضائية في بلدان "الربيع العربي"، إلى أن شعبية القناة قد تضاءلت لتصل إلى أدنى مستوياتها، وأن المصادر المحلية ومواقع التواصل الاجتماعي بدأت تحل محلها (فرانك كرونيكل، 2016). وأكدت الدراسة أن تراجع نسب مشاهدة الجزيرة في بعض بلدان الربيع العربي، خاصة مصر وتونس، كان لحساب قنوات محلية إلى جانب وسائل التواصل الاجتماعي.

خاتمة

لقد أصبحت الخبرة التي اكتسبتها الجزيرة على مدار العقدين الماضيين مثالًا نموذجيًّا لكيفية تحول وسيلة إعلام من مجرد مصدر هامشي يسعى لتقديم أخبار بديلة، إلى وسيلة إعلام رئيسية ذات حضور مؤثِّر على الساحة العالمية. كما قدمت نموذجًا لإمكانية تحول وسيلة إعلام مهنية تسعى لتحدي الإعلام المهيمن وكسر احتكاره للمعلومة، إلى مصدر إعلامي يتأثَّر أداؤه بأجندة الجهات الممولة. بيَّنت تجربة الجزيرة أيضًا كيف أن تطور صناعة الإعلام والمعلومات يمكن أن يمهِّد الطريق تدريجيًّا لظهور مصادر معلومات جديدة قادرة على مزاحمة المؤسسات الإعلامية الكبرى، وربما الحلول محلها.

لقد دأبت الجزيرة على مواجهة التحديات والتطورات التي تطرأ على الساحة الإعلامية عن طريق استحداث تقنيات ومنصات جديدة تلبي احتياجات جمهورها وتواكب التطورات التي تَجِدُّ على الساحة.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك النجاح الهائل الذي حققته "الجزيرة بلس" على شبكة الإنترنت وعلى مواقع التواصل الاجتماعي، بتوفير مقاطع فيديو قصيرة في مدتها لكنها غنية ودقيقة في محتواها. وهو ما أسهم في تلبية متطلبات جيل الألفية الثالثة الذي يفضل الحصول على المعلومة المرئية بتقنية النانو.

لا شك أن الجزيرة استطاعت، من خلال تأثيرها وشعبيتها، إجبار محطات التليفزيون التقليدية والحكومية في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا على انتهاج أسلوب أكثر مهنية في البث التليفزيوني، بل يمكن القول: إن تأثيرها هو الذي رفع سقف الحرية في الإعلام العربي عامة، ورفع مستوى النقاشات السياسية بين الجمهور العربي بوجه خاص. لقد أسهمت بذلك في تعزيز وعي المشاهدين بالقضايا السياسية والاجتماعية، سواء أكان ذلك على مستوى الشرق الأوسط أم على الصعيد العالمي، على الرغم من الجدل الدائر حول تحيزها وأجندتها السياسية في السنوات الأخيرة. وفي الأخير، سيكتب التاريخ أن الجزيرة وسَّعت من حدود الاحترافية في الممارسة الصحفية في المنطقة، ودعمت حق المواطنين في التعبير عن آرائهم بحرية في القضايا التي تمس الشأن العام.

المراجع:

El-Nawawi, M.; Iskandar, A. *Al Jazeera; How the Free Arab News Network Scooped the World and Changed the Middle East,* Westview, 2002.

Foote, J. "CNE in Egypt: Some Light at the End of an Arduous Tunnel", *Transnational Broadcasting System Journal*, Fall 1998 (1).

Hugh, M. *Al Jazeera: How Arab TV News Challenged the World*, Abacus, 2005.

Kelly, S. E. "Al-Jazeera: A Mouthpiece for Terrorism, Lackey for Israel, or Voice for Democracy?", *Northwest News*, (September-October), 2002.

Ravid, B. "Government to Impose Sanctions on Al Jazeera's Israel Operations", *Haaretz Israeli News Source,* 1 January 2009, (Retrieved: 10/10/2016).
http://www.haaretz.com/print-edition/news/government-to-impose-sanctions-on-al-jazeera-s-israel-operations-1.267065/

Rheault, M. "International Television Receives High Marks in Saudi Arabia [Scholarly project]", *Gallup.Com - Daily News, Polls, Public Opinion on Government, Politics, Economics, Management,* 11 October 2007, (Retrieved: 10/10/2016).
http://www.gallup.com/poll/101737/International-Television-Receives-High-Marks-Saudi-Arabia.aspx/

Schleifer, S. A. "MMDS and the New Satellite Television Technologies: A Media Explosion in the Arab world", *Transnational Broadcasting System Journal*, (Fall, 2004).

Shigenobu, M. *Framing and Agenda Setting Effects of Al Jazeera Arabic News Channel*, PhD dissertation at Doshisha University, Kyoto, Japan 2011.

Warren, S. J. "Akamai Cancels a Contract for Arabic Network's Site", *New York Times*, 4 April 2003.

"Al Jazeera Arabic Tops Viewing Figures", *Al Jazeera Webpage*, 22 May 2013, Retrieved: 10/10/2016.
http://www.aljazeera.com/pressoffice/2013/05/201352291421900835.html

"Al Jazeera Facts and Figures", Allied Media Corp., 2013, (Retrieved: 10/10/2016).
http://www.alliedmedia.com/aljazeera/al_jazeera_english/Al_Jazeera_English_Facts_and_Figures_asia.html/

"The Declining Popularity of Al-Jazeera News Network and Other Channels", *Fanack Chronical of Middle East and North Africa*, 25 April 2016, Retrieved: 10/10/2016. https://chronicle.fanack.com/qatar/society-media-culture/media/al-jazeera-declining-popularity/

الجزيرة والجمهور المهجري:
حين تعيد الفضائيات تشكيل زمانية ومكانية الهوية والانتماء في عصر العولمة

كمال حميدو
أستاذ الإعلام والاتصال بجامعة قطر

مقدمة

لا يختلف اثنان حول حقيقة أن ظهور قناة الجزيرة في المشهد التلفزيوني العربي كان نقطة البدء لفترة تأريخ جديدة للإعلام التلفزيوني العربي، بما شكله من قطيعة بين مرحلة ما قبل الجزيرة ومرحلة ما بعد الجزيرة، إلى درجة أصبحت عندها القناة ظاهرة إعلامية يتسارع الباحثون لتناولها بمقاربات مختلفة تراوحت بين الإعلامية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية. فبعد أقل من ستة أعوام من إطلاقها سنة 1996، أصبحت قناة الجزيرة واحدة من أكثر القنوات التلفزيونية إثارة للاهتمام الأكاديمي في العالم، بحسب ما أبرزته دراسة لكل من عزالدين عبد المولى وسارة نصر (عبد المولى ونصر، 2013)، أحصت ما لا يقل عن 66 رسالة دكتوراه، و65 رسالة ماجستير، و48 كتابا، و30 ورقة بحثية، نوقشت في مختلف الجامعات والمراكز البحثية، أو نشرت عبر مختلف دور النشر، أو في مختلف المجلات العلمية المحكمة عبر العالم. وقد تناولت كلها بالدراسة قناة الجزيرة كواحدة من أسرع القنوات انتشارا وأكثرها تأثيرا في العالم. كما باتت قناة الجزيرة واحدة من أكثر القنوات التي تثير جدلا إعلاميا وسياسيا حول طبيعة خطها التحريري، وحول الأجندة السياسية أو الفكرية التي تسعى القناة لخدمتها. وقد احتد هذا الجدل بشكل خاص في الدول التي تحتضن عددا كبيرا من أفراد الجاليات العربية في أوروبا وأميركا الشمالية على غرار فرنسا، وبلجيكا، وهولندا، وإنجلترا، وكندا، والولايات المتحدة الأميركية.

لقد تمحورت أغلب آراء الإعلاميين والسياسيين، الذين فرضوا إشكالية الفضائيات العربية في النقاش العام داخل بلدانهم، حول مخاطر "القيم الدخيلة" التي تبثها قناة الجزيرة وغيرها من القنوات العربية، وتأثيراتها السلبية على عملية التنشئة الاجتماعية والفكرية باعتبارها عاملا مكسّرا للأنماط الفكرية والسلوكية التي يفترض أن يتشبع بها المهاجر العربي، أو أبناؤه، من أجل الانصهار في البنية المجتمعية والبنية الفكرية والأيديولوجية للمجتمعات التي احتضنتهم (حميدو، 2005، ص.ص. 93-112). كما ركزت آراء أخرى، ذهبت في نفس الاتجاه، على مخاطر التشويش على الاتجاه السائد الذي تغذيه وسائل الإعلام، بغية تشكيل مقومات الأمة والشعب الواحد داخل تلك الدول. أما الدراسات الأكاديمية التي اهتمت بموضوع الجاليات المهاجرة وقناة الجزيرة أو الفضائيات العربية بشكل عام، فقد توزعت بين تلك التي تناولتها من منظور توافر وسائل الإعلام للأقليات كظاهرة ايجابية مرتبطة بحقوق الإنسان في الإعلام والمعرفة، وبين تلك التي تناولتها من منظور توافر وسائل الإعلام للأقليات كظاهرة سلبية تهدد كيان الأمم الحاضنة لتلك الأقليات، وتشكل خطرا على نسقها الاجتماعي. غير أن ما يحسب على الأخيرة، هو طغيان الاعتماد على المقاربة الوظيفية في تعاطيها مع ظاهرة التأثير، بسبب تركيزها على ما يشكله إعلام الأقليات من مخاطر على التوازن العام للمنظومة المجتمعية داخل الدول التي شملتها تلك الدراسات، دون أن تأخذ بعين الاعتبار طبيعة الاحتياجات الفردية التي تشبعها تلك الوسائل.

الإشكالية والتساؤلات

تسعى الدراسة المقدمة في هذا الفصل إلى تجاوز المأخذ سالف الذكر، من خلال طرح إشكالية التلقي للفضائيات الدخيلة على البيئات الاجتماعية والإعلامية الغربية، من منظور الاحتياجات التي تشبعها برامج شبكة الجزيرة لدى المتلقي العربي في أوروبا، في بيئة إعلامية تتميز بتنافسية شديدة في مجال الأخبار

المستمرة[31]، وبوفرة هائلة في مجال البرامج الترفيهية أيضا. كما تطرح الدراسة إشكالية الأثر الناتج عن متابعة تلك الفضائيات من خلال معرفة التأثير السياسي أو الفكري لشبكة الجزيرة كنموذج، وذلك بحصر تأثيرات شبكة الجزيرة على مستوى الحياة السياسية المتعلقة بالشأن الداخلي لدول المهجر. بالإضافة إلى ما سبق، تسعى الدراسة لفهم العوامل التي جعلت من الجزيرة مصدرا لا غنى عنه لاستقاء الأخبار والمعلومات والآراء الخبيرة عند بعض شرائح الجاليات العربية في المهجر. سنبحث ذلك من خلال طرح ثلاثة أسئلة حول ثلاثة محاور مركزية، لفهم الشعبية التي حققتها قناة الجزيرة أولا، ثم لفهم تأثيرها ثانيا. يهتم المحور الأول بعوامل صعود قناة الجزيرة بين الجاليات العربية كقناة رئيسية لاستقاء الأخبار والمعلومات، من خلال طرح سؤال: ماهي سيرورة فرض قناة الجزيرة نفسها عند الجمهور المهجري منذ 1996 إلى يومنا هذا؟ المحور الثاني يهتم بالمحفزات الذاتية التي تجعل الجمهور المهجري يتعاطى مع هذه القناة دون غيرها، وذلك من خلال طرح سؤال: ماهي الدوافع التي تحرك المشاهد العربي في أوروبا للتعاطي مع الجزيرة دون غيرها من القنوات؟ أهي الدوافع اللغوية؟ أهي الدوافع العاطفية المرتبطة بتغذية الهوية الثقافية الأصلية لأفراد الجالية العربية في أوروبا؟ أم هي الدوافع المهنية المرتبطة بأسلوب الجزيرة في تغطية الأحداث التي تخص العالم العربي؟ المحور الثالث يهتم بتأثير قناة الجزيرة على المتلقي من خلال طرح سؤال: هل يترتب على مشاهدة قناة الجزيرة تأثير على القناعات السياسية والفكرية المرتبطة بالحياة السياسية داخل دول المهجر نفسها؟

المنهجية المتبعة

اعتمدنا لإنجاز هذه الدراسة على مقابلات أجريناها مع مجموعات بؤرية في ثلاث دول أوروبية متجاورة، لكنها متمايزة عن بعضها البعض بخصائصها التاريخية، والسياسية، والاجتماعية المختلفة، وهي فرنسا وبلجيكا وهولندا. وقد أجريت المقابلات بين الفترة الممتدة من 5 يوليو/تموز 2016 إلى 20 أغسطس/آب 2016، وارتكزت على 10 أسئلة موجهة جزئيا، تتمحور حول 10 محاور بنيت بهدف الوصول إلى مؤشرات نوعية تساعدنا على فهم طبيعة العلاقة التي تربط الجزيرة بمشاهديها العرب والمسلمين في بلاد المهجر. ولتساعدنا على فهم طبيعة تأثير قناة الجزيرة على القناعات السياسية والفكرية لمتلقيها. وقد قمنا بتقسيم عينة بحثنا إلى ثلاث فئات عمرية هي: فئة الأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين 15 و26 سنة، وفئة الأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين 26 و48 سنة، وأخيرا فئة الأشخاص الذين تجاوزوا سن الثامنة والأربعين. علما بأننا تعمدنا اللجوء لهذا التقسيم لأنه من شأنه أن يسمح لنا بإدراك التوجهات العامة وفوارق استهلاك تلك الفضائيات بين مختلف الأجيال، خاصة من خلال ربطها بمتغير التحكم في اللغات العربية ولغة البلد الحاضن.

من التدفق الأفقي إلى التدفق العكسي: سيرورة فرض الجزيرة نفسها عند الجمهور المهجري

عندما سعت بلدان العالم الثالث في سبعينات القرن الماضي إلى فرض موضوع إعادة النظر في بنية النظام الإعلامي الدولي، بمدخلاته ومخرجاته على أجندة بعض المنظمات الدولية، واجهت تلك المساعي مقاومة شرسة من الدول الغربية الكبرى التي كانت تسيطر على الشبكات، والمحتويات والوسائط الإعلامية، تارة بحجة عدم المساس بمبدأ التدفق الحر للمعلومات، وتارة بحجة عدم المساس بمبدأ التدفق الحر للمحتويات والخدمات الإعلامية (الجمّال، 2005). فرفضت تلك الدول إعادة النظر في الآليات والأطر القانونية التي كانت تحكم التدفق الإعلامي آنذاك، على الرغم من طغيان التدفق أحادي الاتجاه من الشمال إلى الجنوب. ورغم كل ما بذلته بلدان العالم الثالث في سبيل خلق توازن في التدفق، إلا أن كل المحاولات باءت بالفشل، بما في ذلك مشاريع التكتلات الإعلامية جنوب – جنوب، واتفاقيات التبادل والإنتاج المشترك، وغيرها من المبادرات الأخرى. ومع أنه لم يكن من ضمن أولويات قناة الجزيرة، في بادئ الأمر، منافسة الشركات العالمية في نقل أخبار ومواضيع العالم العربي ودول الجنوب بشكل عام، إلا أنه يمكن الجزم بأنه من جملة ما

[31] هناك ما لا يقل عن 9 قنوات دولية تبث الأخبار المستمرة باللغة العربية تنافس قناة الجزيرة داخل الفضاء الأوروبي وهي قناة العربية، قناة سكاي نيوز عربية، قناة بي بي سي العربية، قناة فرانس 24، قناة أورونيوز، قناة سي سي تي في الصينية، قناة روسيا اليوم، قناة دوتشي فيله الألمانية، وقناة العالم الإيرانية.

اتخذ من تدابير، وما أنجز من مخططات فردية وجماعية من طرف بلدان العالم الثالث، كان مشروع الجزيرة من أنجح ما قدمه العالم العربي والعالم الثالث في سبيل إرساء تدفق أفقي بين دول الجنوب، ثم في سبيل إرساء تدفق عكسي باتجاه دول الشمال.

أظهرت نتائج المقابلات التي أجريناها مع العينات الثلاث، بأن وجود الجزيرة على مسارح الأحداث العالمية الكبرى، مع نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، هو الذي أسهم إلى حد كبير في فرض التسويق الدولي للقناة، ثم في تكريسها كإحدى أهم القنوات التلفزيونية العالمية. وقد أورد أغلب المستجوبين من الفئتين العمريتين الثانية والثالثة بأن اهتمامهم بقناة الجزيرة بدأ مع تغطية الجزيرة لعمليات ثعلب الصحراء الأميركية في العراق في ديسمبر 1998. وقد حرصت القناة آنذاك على أن تكون تغطيتها مختلفة عن تلك التي كانت تقدمها قناة سي أن أن الأميركية، بعد أن عمدت الجزيرة إلى التركيز على ما كان يسميه الإعلام العسكري الأميركي "الخسائر الجانبية"، وما كانت تسميه الجزيرة "استهداف المدنيين العراقيين" خلال تلك الضربات. ثم تعزز رصيد الجزيرة عند الجمهور المهجري أثناء تغطيتها الانتفاضة الفلسطينية الثانية سنة 2000، والتي نعلم بأن القناة سخرت لها إمكانيات بشرية ومادية معتبرة لإيصال صوت الانتفاضة الفلسطينية للرأي العام العربي، ولإظهار وحشية الجيش الإسرائيلي في التعامل مع الأطفال الفلسطينيين بهدف قمع الانتفاضة. بيد أن التبني الفعلي للقناة عند المستجوبين جاء "بعد تغطيتها لعمليات 11 سبتمبر وما تلاها من أحداث دولية مرتبطة بمنطقة الشرق الأوسط". وهي المرحلة التي دخلتها قناة الجزيرة لكسب رهان العالمية مع بداية الحرب الأميركية على أفغانستان في أكتوبر 2001، بحكم أنها كانت القناة الوحيدة المعتمدة في كابول، وبحكم استغلالها الجيد لحصرية نقل صور الحرب والغارات من المدن والجبهات المختلفة. بالإضافة إلى حصرية بث بيانات حركة طالبان وأسامة بن لادن، الزعيم الروحي للقاعدة آنذاك. لقد وردت تكرارات غالبة، عند جل أفراد الشرائح العمرية الثلاث المستجوبة، تفيد بأن قناة الجزيرة "فرضت صورها ومحتوياتها، ليس فقط على المشاهد الغربي، بل وحتى على وسائل الإعلام الغربية الكبرى التي لاحظوا أنها كانت تضطر للاعتماد على الكثير من محتويات قناة الجزيرة لنقل وقائع تلك الحرب".

وقد أفاد جل المستجوبين بأن قناة الجزيرة بلغت ذروة شعبيتها عند الجالية العربية المهاجرة سنة 2003 خلال الحرب الأميركية الثانية على العراق، علما بأن الجزيرة تميزت خلال تلك الحرب عن غيرها من القنوات العالمية والعربية التي نافستها في التغطية الميدانية للمعارك على الأرض، وبشكل خاص "سي أن أن"، الأميركية، و"بي بي سي" البريطانية و"الحياة" اللبنانية، و"العربية" السعودية، و"أبو ظبي" الإماراتية، بنقل وقائع الحرب بشكل حي من مواقع الجبهتين العراقية والأميركية على حد سواء. ولفت المستجوبون النظر بخصوص تغطيات الجزيرة للحروب الأربع المذكورة آنفا، إلى "تبني القناة لخط تحريري مستقل، وفرضها لمفاهيم ومصطلحات خاصة بها، عكست نضجا واستقلالية في التعامل مع الأحداث بشكل يختلف عن آليات التأطير ووضع الأجندة التي تحكم تعاطي وسائل الإعلام الغربية مع قضايا العالمين العربي والإسلامي". ويمكننا أن نذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر، نجاح قناة الجزيرة في فرض مصطلح "القوات الغازية" في الخطاب الإعلامي لتوصيف قوات التحالف التي احتلت العراق. كما يمكن ذكر الخيار التحريري المرتبط بمنح الكلمة لشخصيات خارجة عن نطاق مؤسسات الحكم الرسمية، كالناشطين والمعارضين خلال تغطية الانتفاضة الفلسطينية، حين فتحت مجال التعبير لقادة سياسيين أو ميدانيين من حركة حماس (العويفي، 2004، ص. ص. 649-660) كالشيخ أحمد ياسين، ومحمود الزهار، وعبد العزيز الرنتيسي، بالموازاة مع فسح المجال للمسؤولين السياسيين الفلسطينيين التابعين لحركة فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية للتعبير عن وجهة نظرهم.

الجزيرة كمتنفس إعلامي في بيئة يغلب عليها الاتساق والتماثل النمطي

مع ذيوع صيت الخط التحريري المستقل لقناة الجزيرة، وكسبها مصداقية ومشروعية إعلامية تجاوزتا حدود الإقليمية، ازداد اهتمام الجاليات العربية في المهجر بقناة الجزيرة بين أواخر القرن العشرين والسنوات الأولى من قرننا الحالي. فعلى سبيل المثال، حققت قناة الجزيرة 50% من نسبة المشاهدة الإجمالية للجالية العربية في بريطانيا سنة 2005 (ميلادي، 2005، ص.ص. 37-50). كما ضاعفت من عدد المشتركين فيها

بعد الأسبوع الأول فقط من حرب 2003 الأميركية على العراق، ليبلغ عدد مشاهدي القناة أربعة ملايين في أوروبا، بينما استحوذت على 70% من مشتركي الكابيل العرب في العالم (ميلر، 2007، ص. 105). وفي نفس الفترة، تزايدت في أوساط الجالية العربية المهاجرة في أوروبا نسبة الإقبال على شراء الهوائيات المقعرة ذات الرأسين، والتي تسمح بشبك الأقمار الاصطناعية التي كانت تبث عبرها قناة الجزيرة. كما سار الإقبال على الاشتراك المدفوع في القناة، في الولايات المتحدة الأميركية، على وتيرة متصاعدة سنة 2005، إذ بلغ المعدل 2500 مشترك في الأسبوع، بينما بلغ عدد المشتركين 200 ألف في كل من أميركا وبريطانيا آنذاك (ميلر، 2007، ص. 6).

وورد في تعليلات الأفراد المستجوبين حول دوافع إقبالهم على مشاهدة قناة الجزيرة تكرارات تكاد تكون ثابتة عند كل المستجوبين، تتمحور حول فكرة أن "هيمنة التغطية النمطية المبسطة للأحداث التي تخص العالم العربي والاسلامي في وسائل الإعلام الغربية" كانت الدافع الرئيسي الذي حرك اهتمام الجمهور المهجري باتجاه قناة الجزيرة على حساب القنوات الغربية، قُطرية كانت أم فوق قُطرية. لقد أتاحت قناة الجزيرة للمشاهد العربي المغترب إمكانية الحصول على محتويات إخبارية تخص القضايا العربية والإسلامية بشكل يختلف عن المنظور الذي حصرته فيه وسائل الإعلام الغربية. وقد عبر الكثير من المستجوبين عن "معاناتهم في غربتهم من محتويات وسائل الإعلام الغربية" بحكم أنها كانت غالبا ما "تتعاطى مع المواضيع التي تخص القضايا أو القيم العربية والإسلامية بالكثير من التحيز والأحكام المسبقة والمغالطات المقصودة". وأورد الأشخاص المستجوبون لتبرير موقفهم هذا، تكرارات مرتبطة بالتغطيات "الموجهة للمواضيع المرتبطة بالصراع الفلسطيني الإسرائيلي"، و"بالتناول المضلل المتعلق بحقوق المرأة في الإسلام"، "وبالتغطية المستفزة لقضية ارتداء النساء للحجاب في الفضاء العام"، و"بالتغطيات المضللة التي تربط ضمنيا بين الدين الإسلامي والإرهاب"، و"بالتناول الذي يربط ضمنيا بين العادات العربية والإسلامية والتخلف"، و"التركيز على الأخبار السلبية دون غيرها من الأخبار الإيجابية في البلدان العربية"، واللجوء لاستخدام "المغالطات في تناول الموضوعات التاريخية التي تخص الصراع الفلسطيني الإسرائيلي أو تاريخ بعض الدول العربية"، و"بعدم الاكتراث للضحايا العرب والمسلمين في الحروب والنزاعات مقابل التهويل الذي يصاحب مقتل مواطن غربي واحد". كما عبر جل أفراد الشرائح العمرية الثلاث عن عامل آخر مرتبط بفكرة "التشبع شبه المرضي" مما كانت تبثه وسائل الإعلام الغربية حول المواضيع والقضايا العربية والإسلامية بشكل "جعلهم يشعرون بشبه اختناق إعلامي" كان لا بد له من متنفس بديل يستقي منه جمهور الجالية العربية أخباره.

من جهة أخرى، أبانت المقابلات التي أجريناها عن مؤشرات أخرى تكررت بشكل خاص عند أفراد الفئة العمرية من 48 سنة فما فوق، تدل على أن أحد أهم عوامل شعبية قناة الجزيرة بين أفراد الجاليات العربية في المهجر هو "نبرة الصوت الجديدة" التي فرضتها القناة منذ اقتحامها للمشهد التلفزيوني العربي. وقد سجلنا خلال محاورتنا لأفراد عينتي الفئتين العمريتين (26-48 سنة) و(48 سنة فما فوق) تكرار كلمتي أو معنيي "اعتزاز" و"فخر" بقناة الجزيرة التي "أطلت على المشاهد العربي بخطاب وأسلوب جديدين من حيث المحتوى والتقنيات المستخدمة"، والتي "ضاهت في جودتها أكبر القنوات الغربية". غير أن هذه المؤشرات لا تعبر عن نفسها بنفس القوة عند الشريحة العمرية الشبابية (15-26)، بحكم أن هذه الشريحة العمرية أقل متابعة للقناة بسبب حاجز اللغة، إذ أن الاغلبية المطلقة من مستجوبي هذه الشريحة هم من مواليد بلدان المهجر الثلاثة. وبالتالي لم يتسن سوى لنسبة قليلة منهم تعلم اللغة العربية الفصحى التي تستخدمها قناة الجزيرة. إن تفسير هذه المؤشرات مرتبط بفهم السياق الإعلامي والسياسي الذي كانت تعمل فيه جل القنوات التلفزيونية العربية التي ترعرع عليها أفراد الشريحتين العمريتين (26-48 سنة) سنة و(48 سنة فما فوق). فقبل بروز القناة سنة 1996، كانت الخيارات المتاحة أمام المشاهد العربي تقتصر على قنوات محلية، حكومية في غالبيتها، توزعت بين تلك التي سقطت في خطاب الموالاة العمياء للحكام، وتلك التي سقطت في شراك الخطاب التعبوي الرنان للزعيم، أو للحزب، أو للثورة. وفي الحالات الأربع، كان العمل الإعلامي يغلب عليه الطابع الدعائي المفضوح، الذي لم يكن يحترم ذكاء المشاهد العربي. فاتسم جل ما كان يعرض آنذاك بالانسياق والتماثل للاتجاه السائد، مع طغيان الرتابة من حيث المضمون، ثم الإعداد والتقديم الروتينيين

غير المبدعين، من حيث الشكل. وهي كلها سمات أفقدت الخطاب التلفزيوني مصداقيته، وأفرغت رسائله من محتواها، بشكل جعل جل القنوات التلفزيونية العربية غير جذابة، وغير مؤثرة على عقل المتلقي العربي.

في خضم ذلك المشهد الإعلامي الرديء، درج المشاهد العربي على "التعتيم الإعلامي" وعلى "السطحية في تناول المواضيع"، كصفتين بارزتين طبعت جل القنوات العربية آنذاك. وقد دفعت تلك الخصائص بشرائح كبيرة من الجماهير عبر مختلف الاقطار العربية، إلى الاجتهاد اليومي "التوجيه هوائياتهم صوب قنوات أجنبية عرف عنها احترام عقل المشاهد، وتميزت بقدراتها الإبداعية اللامتناهية في الإعداد والتقديم"، على غرار البي بي سي عند جمهور المشرق العربي أو القنوات الفرنسية العمومية والخاصة عند جمهور المغرب العربي؛ إلى أن ظهرت قناة الجزيرة، و"ظهر معها التباين في الصورة الإعلامية العربية" بعد أن "أدخلت تلك القناة مقاربة إعلامية جديدة، جاءت مختلفة بكل المقاييس المهنية والموضوعاتية". لقد ثمن الأشخاص المستجوبون كثيرا تبني قناة الجزيرة "لمقاربة احترافية جعلتها تضاهي، في زمن وجيز، حتى أعرق القنوات العالمية". ويفسر هذا الموقف بالحرص الذي أبدته الجزيرة على الالتزام بالعمل الإعلامي المبني على الركائز المهنية والأخلاقية الثلاث: الدقة والموضوعية والتوازن. كما أنها أدخلت منطق الرأي والرأي الآخر في تناولها للقضايا السياسية والاجتماعية العربية الحساسة، وهو منطق لم يكن يلمسه المشاهد العربي، سوى في القنوات الأجنبية التي كان يتفنن في الوصول إليها خلسة. كما اعتمدت القناة على جرأة شديدة في طرح المواضيع السياسية والتاريخية والاجتماعية، بشكل لفت أنظار الجماهير العربية من المشرق إلى المغرب. فتصالح المشاهد العربي مع فضائه التلفزيوني بعدما لمس التجديد. وذاع صيت الجزيرة حتى بلغت أرقاما قياسية في نسب المشاهدة (لملوم، 2007، ص.ص. 122-133) حسدتها عليها حتى أعرق القنوات العالمية الموجهة لمنطقة الشرق الأوسط والمغرب العربي آنذاك.

من جهة أخرى، أبانت نتائج المقابلات التي أجريناها عن تكرارات ثابتة عبر عنها المستجوبون من الفئات العمرية الثلاث، ترتبط بفكرتي "الاعتزاز والارتياح" "لوجود قناة عربية" توصل للعالم الغربي انشغالات وهموم العالم العربي "وتحمل صوته بمنظور إعلامي مختلف". إن تفسير هذه المؤشرات مرتبط بالسياق العام الذي نشأت فيه الجزيرة، وهذا السياق مرتبط بدوره ببنية النظام الإعلامي الدولي وخصائصه التي كانت تحدد من هم اللاعبون "المنتجون" ومن هم "المستهلكون" في الساحة الإعلامية العالمية آنذاك. فقد كانت فترة تسعينات القرن العشرين، فترة احتدام حروب بسط مناطق النفوذ الثقافية والإعلامية بين القوى الإعلامية العظمى، وذلك بفضل تحكم دول المركز، كما أسماها غالتونج (غالتونغ، 1971، ص.ص. 81-117)، في تكنولوجيا الأقمار الاصطناعية والبث الفضائي المباشر. فقد أطلقت بريطانيا وأميركا وروسيا وفرنسا أقمارها الاصطناعية الخاصة بالبث التلفزيوني، وأنشأت قنوات موجهة نحو مناطق جغرافية محددة من العالم، وفقا لمناطق النفوذ الثقافي التي نشأت إما تبعا للجغرافيا السياسية للمستعمرات أو المحميات السابقة، أو بتأثير الجغرافيا السياسية لمناطق النفوذ الجديدة التي تشكلت بعد الحرب العالمية الثانية، عقب ظهور المعسكرين الشرقي والغربي. كما عرفت الفترة التي سبقت ظهور قناة الجزيرة ما بين 1988 و1990، إطلاق أكثر من سبع منظومات للبث التلفزيوني المباشر كانت كلها تهدف لخدمة مناطق النفوذ الثقافي والفكري على غرار تي دي أف 1، تي دي أف 2، تي في سات 1 وتي في سات 2 بشراكة ألمانية فرنسية، تلي اكس السويدي، بي أس بي البريطاني، أولمبوس الأوروبي، إسترا اللوكسومبورغي، أوتلسات وغيرها (بال، 1992 ص.ص. 130-136).

واكبت هذا الصراع على التموقع الثقافي والإعلامي الدوليين، الذي كانت المنطقة العربية أحد أبرز ميادينه، صحوة فكرية وثقافية تسارع مخاضها في العالم العربي خلال عشريتي السبعينات والثمانينات من القرن العشرين. فطرحت خلال تلك الفترة وبحدة، في الكثير من الأدبيات السياسية والأكاديمية والإعلامية والدينية، إشكالية التبعية (بركات، 2003) الإعلامية والغزو الثقافي، وإشكالية التبعية الإعلامية وتداعياتها على الهويتين العربية والإسلامية. وكشفت مقابلاتنا مع الشرائح العمرية الثلاث أن الجالية العربية المهاجرة لم تكن راضية عن ردود الفعل العربية الرسمية على تلك التحديات "التي لم تكن في حجم الرهانات والتحديات التي كانت تتعرض لها المنطقة آنذاك". ومعروف تاريخيا أن الحكومات العربية اكتفت ببعض المبادرات الفردية المحتشمة التي فشلت بحكم انكفائها على قطاع الصحافة المكتوبة فقط، أو ببعض المبادرات المشتركة

التي لم تؤت أكلها بحكم الصراعات والاختلافات، أو آليات العمل الفاشلة، على غرار مشروع عربسات، وقبله اتحاد إذاعات وتلفزيونات الدول العربية. غير أن مشروع الجزيرة، من منظور الأشخاص المستجوبين، "نجح بعد بضع سنوات فقط حيث فشلت كل المبادرات الفردية والجماعية التي سبقته"، بعد أن فرضت القناة نفسها على المستوى الإقليمي، قبل أن تصل شيئا فشيئا إلى العالمية، لتصبح اليوم، واحدة من أكبر القنوات التلفزيونية في العالم.

ريبة غير مشروعة من القناة بين الأوساط السياسية والإعلامية الغربية

بما أن العولمة هي بشكل من الأشكال تجسيد لانتصار الأيديولوجية الليبرالية الداعية لحرية نشر الأخبار والمعلومات، فمن المنطقي توقع انفتاح الغرب الليبرالي على الآخر وتقبله إعلامه على اختلاف قيمه وثقافته، احتراما لقواعد اللعبة التي وضعها الغرب بنفسه، من خلال فرضه للعولمة ودفاعه عن قداسة حرية الإعلام ومبدأ تدفقه الحر. غير أنه وبمجرد أن بدأت الجزيرة وبعض الفضائيات العربية الأخرى تنافس القنوات الكبرى الغربية، سمعنا في الدول الثلاث (فرنسا، بلجيكا، هولندا) أصواتا تحذر من الفضائيات العربية التي بدأت تفرض نفسها في أوساط المواطنين الغربيين من أصول عربية .فأصبحت "فضائيات الله"[32] ، كما أسماها البعض، تثير جدلا متزايدا في الأوساط السياسية والإعلامية الأوروبية بحجة خطورتها الأيديولوجية المفترضة، أو على الأقل بحجة المؤثرات السلبية التي يمكن أن تشوش على عملية دمج المواطنين المنحدرين من أصول عربية بتلك البلدان[33]. فلم تنظر السلطات الرسمية في فرنسا وهولندا وبلجيكا إلى وصول تلك الفضائيات العربية إلى أراضيها نظرة البلدان المتسامحة العريقة في التقاليد المؤمنة بحرية الإعلام والتواصل، كما أنها لم تتعامل معها بنفس التسامح الذي أبدته تجاه الفضائيات الإيطالية أو البولندية أو الإسبانية أو البرتغالية، التي كانت تصل إلى شرائح أخرى من مواطني تلك الدول من أصول غير عربية[34].

وعلى الرغم من أن الرأي العام في الدول الثلاث تجاهل القضية ولم يعرها اهتماما زائدا، تزايدت في تسعينات القرن الماضي أصوات، مصدرها بعض الإعلاميين ورجال السياسة، تدعو للحد من الفضائيات العربية الموجهة للجالية العربية المهجرية. ففي فرنسا مثلا، قام المجلس الأعلى السمعي البصري بسن تشريعات تحد من "اقتحام" صور الفضائيات العربية للمجال التلفزيوني الفرنسي. وأمام حساسية مسألة المنع من خلال قرار حكومي، تجنبت السلطات الفرنسية تلطيخ صورتها بحظر تلك القنوات، وذلك بأن أطلقت يد بعض الإدارات المحلية لتمارس بنفسها صلاحيات الضبط في ذلك المجال. يمكننا هنا على سبيل المثال، ذكر الإجراءات التعجيزية التي حاولت بعض البلديات أو دواوين السكن أو حتى محلات بيع الأجهزة الإلكترونية، على غرار محلات "دارتي"، فرضها قبل الموافقة على بيع المواطن هوائيات مقعرة، كالحصول على تصريح مسبق من البلدية مثلا (حميدو، 2005). كما وصل الأمر سنة 1993 إلى حد إصدار مرسوم يقضي بضرورة الحصول على "رخصة بناء" قبل تركيب أي هوائية مقعرة على أسطح أو شرفات المباني. بل وصل الأمر لأن يدلي كاتب الدولة الفرنسي المنتدب للجامعات، بتصريح ينتقد فيه، وبنبرة حادة، لجوء المواطنين الفرنسيين من أصول عربية للقنوات الفضائية حين قال: "إن العرب يعيشون بيننا غير أنهم يعودون إلى بلدانهم بمجرد حلول المساء. فالفضائيات تربطهم بالله، بالبلدان الشقيقة وبأصوات أسيادهم. كلما زادت قدرات الهوائيات المقعرة على امتصاص الإشارات الواردة من المشرق، أصبحت فرنسا عديمة المنفعة" (العمراني، 1995).

وبعد اعتداءات 11 سبتمبر 2001، تعاظم التعبير عن القلق إزاء تلك القنوات التي أصبحت تتهم ضمنيا بالمساهمة في تكوين "طابور خامس" قد يعمل من داخل البلدان الأوروبية على الإضرار بمصالح تلك

---

[32] نشرت مجلة لكسبريس الفرنسية بتاريخ 1995/10/19 مقالا عنونته: "التلفزيون: فضائيات الله"، أشارت في مقدمته إلى تخوف الرئاسة الفرنسية من العدد المتزايد للفضائيات العربية التي تقتحم الفضاء التلفزيوني الفرنسي. الرابط : http://www.lexpress.fr/informations/television-les-paraboles-d-allah_610318.html

[33] نورد هنا تصريحا للسيد كريستيان هريرو، بصفته مندوبا للعمل الثقافي والإعلامي والاتصالي بصندوق العمل الاجتماعي (FAS)، وهو هيئة شكلت خصيصا لمهمة دمج المهاجرين. وقد ورد في التصريح: "إن تلقي التلفزيونات الأجنبية يعد مصدر انطواء على الذات ويشكل عامل انحلال اجتماعي" في فرنسا. لورت. ك (1994)، "التلفزيون وعملية الدمج الاجتماعي"، ملحق لوموند للإذاعة والتلفزيون، 11-12 سبتمبر/أيلول 1994.

[34] طرحت في دول البينلوكس، كما في فرنسا، فكرة ضبط وصول المواطنين العرب للفضائيات العربية عن طريق المنع أو عن طريق فرض الضرائب. انظر الرابط التالي: suffrage-universel.be/be/bemime.htm

البلدان. ولم تتوقف تلك الانشغالات عند حدود التعبير اللفظي، بل بلغت مرحلة التجسيد حين أجبر المجلس الأعلى السمعي البصري الفرنسي قناة المنار اللبنانية على وقف بثها داخل التراب الفرنسي، بشكل أثار استغراب الملاحظين باعتبار أن فرنسا من أكثر البلدان دفاعا عن قدسية حرية الصحافة والإعلام. ولعل ما غذى تلك المخاوف أكثر ، هو ما كان يتم الترويج له من طرف بعض الأوساط السياسية والإعلامية الغربية المتطرفة، والتي كانت تُنظِّر، منذ سقوط القطب الشيوعي، لحتمية بروز زحف أسلامي أخضر على أنقاض الزحف الأحمر، بهدف منافسة العالم الحر حول السيادة الثقافية على العالم. وتعد كتابات صموئيل هنتنغتن (1993) الملهم الرئيسي للمدافعين عن تلك الأطروحة التي برزت بعد هجمات 11 سبتمبر 2001.
ثم جاءت مواقف تنظيم القاعدة الداعية إلى محاربة الغرب، لتضفي الشرعية على تلك الأطروحة من خلال الزخم الإعلامي والأكاديمي الهائل الذي صاحب تلك المواقف. وقد قامت أطروحة هنتنغتن على فرضية أن سقوط الأيديولوجيات مع انهيار الاتحاد السوفياتي سيفسح المجال لصعود المطالب المرتبطة بالهوية والانتماء. غير أنه، وخلافا لما حدث في القرنين التاسع عشر والعشرين، لن يتم التعبير عن تلك المطالب على أساس الانتماء لأقطار أو لأقليات بحد ذاتها، بل على أساس الانتماء الحضاري الأشمل. وعليه، توقع هنتنغتن انتقال ساحة المعركة القادمة إلى مناطق الصدع الفاصلة بين الفضاءات الحضارية التسعة التي حددها [35]. إن ما يتناساه دعاة منع وصول الفضائيات العربية، والجزيرة تحديدا، إلى الفضاء الإعلامي الأوروبي، هو أن ظاهرة انتهاك الحرمة الإعلامية للآخر لم يبادر بها العرب بظهور الفضائيات العربية في تسعينات القرن الماضي. إنها ظاهرة أوجدتها تلفزيونات الدول الغربية العظمى استجابة لمقتضيات الدعاية أثناء الحرب الباردة من جهة، ثم استجابة لحاجات الدبلوماسية الشعبية التي كانت الامبراطوريات السابقة تمارسها من أجل الحفاظ على مناطق نفوذها الثقافية. وفي كلتا الحالتين وجدت البلدان العربية ودول العالم الثالث نفسها ضحية لتلك الممارسات، ببقائها فضاء مفتوحا أمام الانتهاكات التي كانت تقوم بها محطات البث القوية التي أنشأتها الدول العظمى.

برامج الجزيرة كحاجة سوسيو- سيكولوجية للجمهور المهجري

ما الذي يدفع المشاهدين العرب من أصول عربية إلى التوجه نحو القنوات العربية والجزيرة بشكل خاص، في حين تتوفر لديهم بفرنسا خيارات واسعة من القنوات الأوروبية التي تمتاز بالتنوع والاحترافية بشكل يغنيهم مبدئيا عن برامج الفضائيات العربية؟ لفتت انتباهنا خلال هذه الدراسة ظاهرة سوسيو- سيكولوجية غنية بالمعاني وجديرة بالتعمق فيها، سبق وأن لمسناها في إحدى دراساتنا السابقة (حميدو، 2005)، وهي ظاهرة عادة ما ترتبط بحياة الشخص المغترب. إنها ظاهرة الانتماء والزمانية[36] متعددة الأبعاد التي تجعل الفرد لا يحصر اهتماماته في دائرة ضيقة تقتصر على البلد الذي يعيش فيه. فقد يتابع الشخص قناة ما، إما لتلبية حاجة ترتبط بانتمائه وبزمانيته الضيقين، أو لتلبية حاجة ترتبط بانتمائه وبزمانيته الرمزيين الواسعين. لقد أكدت لنا هذه الدراسة أن هناك أشخاصا يعبرون عن تمسكهم بمشاهدة نشرات أخبار بلد المهجر لأنها تلبي لديهم حاجات يمكن أن نصفها بأنها محلية، غير أننا نجدهم في نفس الوقت يتمسكون بمتابعة نشرات الجزيرة لأنها تلبي لديهم حاجات مرتبطة بانتمائهم الأوسع. إن القيم الثقافية لبلد الإقامة تجبر الشخص على التصارع دوما من أجل إيجاد نوع من التوازن النفسي من خلال التوفيق بين حركية المحو الثقافي (acculturation) من جهة، وحركية التنشئة الثقافية (enculturation) لبلد المهجر. وحركيتا المحو والتنشئة هاتان، تعدان ممرا حتميا يخضع له الشخص المغترب، إما بحكم تغيير السياق الفكري والقيمي بانتقاله من المجتمع الأصلي إلى المجتمع الجديد، أو نتيجة للفوارق القيمية التي يعيشها الشخص المغترب بسبب الاختلاف بين النموذج الأسري الذي يصارع من أجل تمرير الموروث الثقافي للأبوين، ومؤسسات الضبط الاجتماعي التابعة لبلد الإقامة، التي تسعى لتنشئة الشخص المغترب على ضوابطها الخاصة. فتجد

---

[35] حدد هنتغتن تسعة أقطاب حضارية قائمة بذاتها، يمكنها أن تدخل في صراعات في ما بينها وهي: القطب الحضاري الغربي المبني على الديانة الكاثوليكية والبروتستانتية، القطب الحضاري الأرثوذوكسي، القطب الحضاري لأميركا اللاتينية، القطب الحضاري لإفريقيا السوداء، القطب الحضاري الإسلامي، القطب الحضاري الهندوسي، القطب الحضاري الصيني، القطب الحضاري البوذي، والقطب الحضاري الياباني.

[36] نستخدم مفهوم الزمانية هنا بمعنى كلمة (Temporality) في اللغة الانجليزية وذلك للدلالة على الزمان الرمزي الذي يضبط عليه الشخص ساعته النفسية والعاطفية. وهي زمانية تتشكل من الزمان الذاتي الذي قد لا يمت للمحيط بصلة، والزمان الموضوعي الذي يتقاسمه الفرد مع محيطه الخارجي.

الشخص حينئذ يشعر بانتماء ثلاثي الأبعاد، يتوزع بين جماعة الانتماء وجماعة المرجع وجماعة المرجع الموسعة. كما تجده يعيش زمانية ثلاثية الأبعاد تتوزع أيضا بين زمانية بلد الإقامة، وزمانية بلد المرجع، وزمانية أمة المرجع.

ما نعنيه بمفهوم جماعة الانتماء هو المجتمع الذي يعيش فيه الشخص ويتفاعل يوميا مع مكوناته في أماكن العمل مثلا، أو من خلال علاقات الجوار أو في الفضاءات العامة التابعة لذلك المجتمع (المدارس، المؤسسات الحكومية، الجمعيات...). أما ما نقصده بجماعة المرجع، فهو ذلك المجتمع الذي يتخذه الفرد كمرجع أساسي يستوحي منه قيمه الثقافية والعقائدية الشخصية، وقد يكون مجتمعا غير ذلك الذي يعيش فيه. بينما نقصد بمفهوم جماعة المرجع الموسعة، ذلك الكيان الأوسع الذي يحمل دلالة الأمة في حالتنا هنا. أما في ما يخص مفهوم الأبعاد الثلاثة للزمانية فإننا نقصد به زمانية بلد الإقامة حين يعيش الفرد مضبوطا على ساعة بلد الإقامة، وحين يتبنى مواعيدها الرمزية التي تخلق لدى الفرد الإحساس بالانتماء الجماعي، وهي مواعيد يمكن أن تكون يومية على غرار النشرات الإخبارية مثلا، أو مواعيد غير ثابتة مثيرة للإحساس الجماعي لذلك البلد كالمواعيد السياسية أو الرياضية الحاسمة، أو مواعيد رمزية دورية ثابتة كالأعياد الوطنية والدينية. ونقصد هنا بزمانية بلد المرجع أن يظل الشخص مضبوطا على مواعيد رمزية غير تلك الموجودة ببلد المهجر، بل بتلك الموجودة في بلد المرجع. ونقصد بزمانية أمة المرجع أن يكون الشخص مضبوطا على زمانية ذلك الكيان الأوسع الذي هو أمة الانتماء، وذلك قبل زمانية بلد المرجع، التي بدورها تأتي قبل المواعيد الرمزية الموجودة في بلد المهجر.

إذا ما تأملنا في المعطيات السوسيولوجية لجمهور قناة الجزيرة في الدول الثلاث المدروسة، فإن أول ما نلاحظه أن متغير اللغة ومتغير الجنس يعدان عاملين مؤثرين في مدى الأهمية التي تحظى بها قناة الجزيرة عند الأشخاص المستجوبين. فالنزعة نحو مشاهدة تلك القناة هي في منحى تنازلي عند الفئة العمرية الأولى (الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين 15 و26 سنة). إذ لا نجد إطلاقا من بين الأشخاص المستجوبين في هذه الفئة من يعلن حصريا مشاهدة قناة الجزيرة، في حين نجدهم بنسبة 64% في الفئة التي تجاوزت سن الثامنة والأربعين، وبنسبة 15% عند الفئة العمرية المتراوحة بين 26 و48 سنة. إذن، بقدر ما تقل القدرات اللغوية التي تسمح بمتابعة القنوات الفرنسية والبلجيكية والهولندية، يزيد التوجه نحو قناة الجزيرة. وبقدر ما تزيد تلك القدرات، تقع إدارة الظهر للقناة الإخبارية العربية. إن تفسير نسبة هذا التوجه، خاصة لدى الفئة العمرية التي تجاوزت الثامنة والأربعين، هو الأمية المتفشية بين الأشخاص المكونين لهذه الفئة والذين شكلوا أولى دفعات الهجرة الاقتصادية نحو البلدان الثلاثة خلال القرن الماضي. كما يلاحظ أيضا أن أكثر أنواع البرامج استهلاكا لدى الفئة الأكبر سنا عند الرجال هي الأخبار، ثم البرامج السياسية. وهو ما يفسر إقبالهم المرتفع نسبيا على قناة الجزيرة، تتبعها البرامج الدينية، ثم الأفلام والكوميديا، ثم الرياضة. أما عند فئة النساء، فتأتي الأفلام والمسلسلات أولا، ثم الأغاني والموسيقى، ثم البرامج النسائية، ثم البرامج الدينية، وهو ما يفسر متابعتهن للقنوات العامة أكثر من قنوات الأخبار المستمرة بما فيها قناة الجزيرة. كما نلاحظ عند الغالبية العظمى من رجال فئة كبار السن انحصار زمانيتهم الإخبارية والسياسية في بلد الانتماء الأصلي، ومنطقة المغرب العربي والشرق الأوسط.
أما عند فئة المستجوبين الذين تتراوح أعمارهم ما بين 26 و48 سنة فنلاحظ ارتفاع عدد الأفراد الذين يساوون تقريبا بين متابعة قناة الجزيرة واستهلاك البرامج الإخبارية لقنوات بلد المهجر، حيث بلغت نسبتهم 55% من مجموع الأفراد المشكلين لهذه الفئة. وتتدحرج البرامج الإخبارية عند هذه الفئة إلى المرتبة الثانية من حيث الاهتمام عند الرجال، لصالح الأفلام والكوميديا، تليها ثالثا البرامج الرياضية، ثم برامج الواقع، ثم البرامج السياسية ثم البرامج الدينية. أما عند نساء هذه الفئة، فتأتي الأفلام والمسلسلات أولا، ثم الأغاني والموسيقى، ثم برامج الواقع، ثم البرامج النسائية، ثم البرامج الدينية، وهو ما يفسر قلة اهتمامهن بقناة الجزيرة. كما نلاحظ عند الغالبية العظمى لرجال هذه الفئة توزع زمانيتهم الإخبارية والسياسية والرياضية بين بلد المهجر وبلد الانتماء الأصلي، وهي الحال أيضا بالنسبة للأفلام، في حين يتم تفضيل زمانية بلد المهجر في ما يتعلق ببرامج الواقع، بينما تنحصر زمانيتهم الدينية على ما يحدث في منطقة المغرب والمشرق العربيين. أما عند نساء هذه الفئة، فان الزمانية المفضلة بالنسبة إلى الأفلام والمسلسلات هي زمانية

بلدان منطقة المغرب والمشرق، في حين يتم تفضيل زمانية البلد الأصلي في ما يتعلق بالبرامج النسائية والبرامج الدينية. أما التوجهات الملاحظة عند فئة المستجوبين الذين تراوحت أعمارهم ما بين 15 و26 سنة فتعبر عن قطيعة مع التوجهات التي رأيناها عند الفئتين السابقتين. فهناك عدد مرتفع من الأفراد الذين يعلنون بأنهم لا يشاهدون سوى البرامج التلفزيونية لبلد المهجر بالرغم من توفر القنوات الفضائية العربية (75%). أما ترتيب أنواع البرامج حسب استهلاكها عند باقي الأشخاص الذين يعلنون مشاهدة القنوات الفضائية العربية فيأتي كما يلي: برامج الواقع، ثم الأفلام والكوميديا، ثم الرياضة، ثم البرامج الإخبارية، ثم البرامج الثقافية عند الرجال. أما عند النساء فتأتي البرامج الغنائية والموسيقية أولا، ثم برامج الواقع، ثم البرامج النسائية، ثم الأفلام والكوميديا، ثم البرامج الثقافية. ونلاحظ عند الغالبية العظمى لرجال ونساء هذه الفئة انحصار زمانيتهم الإخبارية والسياسية والرياضية في بلد المهجر، وهو ما يفسر تراجع نسبة مشاهدة قناة الجزيرة عند هذه الشريحة العمرية.

لكن، أليس مشروعا أن تخشى دول المهجر الغربية من أن يشكل لجوء مواطنيها من الأصول العربية إلى تلك القنوات "الدخيلة" قطيعة في البنية الأيديولوجية وكذا في الاستمرارية الأيديولوجية للمجتمعات الفرنسية والبلجيكية والهولندية في حالاتنا المدروسة؟ خاصة إذا ما علمنا بأن أولئك المواطنين يشكلون الآن ما يقارب 6% من التعداد الإجمالي لسكان فرنسا، 6% تقريبا من سكان بلجيكا، و6% تقريبا من سكان هولندا. إن واقع الحال، هو أنه لا يوجد في حقيقة الأمر مشاهد عربي بل مشاهدين عرب لبرامج الفضائيات العربية، والجزيرة تحديدا. بمعنى أن الجاليات العربية هي أبعد من أن تكون شريحة اجتماعية متجانسة تتمتع بمكونات أيديولوجية مستقلة بذاتها وتملك وعيا بتلك المكونات. إن إطلالة المواطن الفرنسي، الهولندي أو البلجيكي من أصل عربي على البرامج العربية لا تعني أن ذلك المواطن يدير ظهره لقيم بلد الإقامة أو لمؤسسات الضبط الاجتماعي فيه. فاستهلاك البرامج التلفزيونية العربية لا يأتي على حساب البرامج التلفزيونية الفرنسية إلا عند الأشخاص الذين لا يملكون القدرة اللغوية على متابعة تلك البرامج (يشكل هؤلاء الأشخاص 56% من مجموعة الفئة العمرية الثالثة، أي الأشخاص الذين يزيد سنهم عن 48 سنة). فإذا نظرنا مثلا إلى الأشخاص الذين يداومون على متابعة النشرات الإخبارية لقناة الجزيرة، نجد أن أغلبهم (77%) ليسوا مستعدين لتعويض النشرة الرئيسية التي يتابعونها على قنوات دول المهجر بنشرات إخبارية خارجية، وهو الأمر الذي ينطبق أيضا على البرامج السياسية والاجتماعية والرياضية.

يعيدنا هذا المعطى إلى فكرة الزمانية التي تحدثنا عنها سابقا. بمعنى أن المواطن الفرنسي من أصل عربي، مثله مثل كل مغترب، يحاول أن يحدث في ذاته تعايشا بين زمانية بلد المهجر وزمانية بلد المرجع مع إعطاء كل منهما الأولوية التي تستحقها في الوقت والمكان المناسبين. وتؤكد بعض أبحاث علم النفس أنه لا يجوز النظر إلى تلك الإطلالة على أنها حالة مرضية تهدد عملية الدمج والاستقرار الاجتماعيين في بلد الإقامة، بل تعد على العكس، ظاهرة صحية تفيد المجتمعات التي يقيم فيها الشخص المغترب. لقد طرحت دراسة للباحثة ألكسندرا سانيلا (سانيلا، 2002. ص. ص. 17-25) فرضية أن كل شخص يتغرب يمر حتما بمسلك سوسيو-سيكولوجي طويل الأمد وشديد الاضطراب يحتمل أن ينتهي بالمغترب، بحسب طبيعة تكوينه النفسي وبحسب محيطه الخارجي، إما إلى الانخراط في المجتمع والاندماج السوي فيه، أو إلى الانعزالية والإصابة بالتوتر والأمراض النفسية التي قد تشكل خطرا على المجتمع الذي يعيش فيه. من هذا المنطلق نعتبر أن الجزيرة، كقناة تلفزيونية واردة من الفضاء الثقافي الأصلي، تساهم خلال عملية اندماج الشخص على مساعدته على عدم فقدانه معالم اجتماعية ونفسية ضرورية لتوازنه الخاص أثناء سيرورة عملية الاندماج. إن هذه الخلاصات من شأنها أن تدحض المبررات التي تقوم عليها الأفكار الداعية إلى منع وصول المواطنين من أصول عربية إلى القنوات العربية بحجة أن تلك القنوات، التي تعتمد كثيرا على "البناء الفكري الديني"، تتعارض في محتواها مع التوجهات الوضعية لمؤسسات الضبط الاجتماعي في المجتمعات الأوروبية.

إن الحالات التي تعبر عن رفض حقيقي لتلفزيونات مجتمع المهجر تبقى قليلة جدا (2% فقط من مجموع الأشخاص المستجوبين)، و توحي لنا الدراسة النوعية أن ذلك الرفض لا يتأسس على موقف أيديولوجي أو ديني ثابت، يرفض مبدئيا تلك القنوات، بقدر ما يُعتبر ردة فعل تجاه ما يسميه المستجوبون تجاوزات عنصرية تتردد في الكثير من الحصص والنشرات الإخبارية لبلد المهجر، وبشكل "يوحي بأنها عمل منهجي هدفه الآني تشويه صورة العربي والمسلم، ومسعاه النهائي هو خلق هوة بين المواطنين من أصول عربية

وباقي مجتمعات دول المهجر". ومهما كانت مصداقية ذلك الشعور ومهما كانت مكوناته موضوعية أم ذاتية، يكفي أن التعبير عن ذلك الإحساس في ذاته يعد فشلا لمحتوى بعض برامج قنوات دول المهجر التي ينظر إليها المواطنون من أصول عربية على أنها تشكل احيانا "أداة فصل عنصري"، في حين أنيطت بها مسؤولية اجتماعية وأخلاقية تقضي بالمساهمة في عملية لم الشمل، في ظل الوئام، والحياة المشتركة بين جميع مكونات مجتمعات الدول الثلاث المدروسة.

خلاصة

تشير حواراتنا التي أجريناها مع أفراد عينة المجوعات البؤرية في الدول الثلاث إلى أن اللغة، والاحترافية والتجديد، والتناول المختلف للأحداث، كانت العوامل الثلاثة الأساسية التي ساهمت في دفع الجاليات العربية المهاجرة في الغرب إلى متابعة قناة الجزيرة ليس فقط على حساب القنوات العربية الاخرى التي تبث من بلدانهم الاصلية، بل حتى على حساب القنوات الغربية. وتشير المعطيات السوسيولوجية لجماهير قناة الجزيرة بالأقطار الأوروبية الثلاثة، إلى أن أغلبية متابعيها هم من الجيل الأول للمهاجرين أو من متوسطي الأعمار الذين هاجروا من فترة قصيرة. بينما يتناقص الاهتمام بتلك القناة عند الجيل الجديد الناشئ بدول المهجر بتناقص إلمامهم باللغة العربية، وبابتعادهم اللاإرادي عن البنية الفكرية والنفسية الشرقية بحكم تنشئتهم في المحيط الثقافي الأوروبي. وهو ما يؤسس لحتمية تناقص عدد مشاهدي تلك القنوات مستقبلا، إن لم تتأقلم برامجها مع هذا المعطى. كما لاحظنا أيضا بأن المشاهد من أصول عربية في الدول الثلاث المدروسة، لا يلجأ إلى قناة الجزيرة في ما يتعلق بالبرامج الإخبارية والسياسية إلا في حالات الرغبة في تلبية حاجات مرتبطة بزمانية الفضاء الإخباري أو السياسي العربي. وقد بينت لنا وتيرة المشاهدة بأن الاستهلاك الحصري لقناة الجزيرة يأخذ وتيرة تنازلية، مرتبطة بمتغير عدم التحكم في اللغة العربية كمتطلب ضروري لمتابعة وفهم برامج القناة.

كما تأتي متابعة قناة الجزيرة عند أغلبية المواطنين من أصول عربية مكملة لقنوات دول المهجر التي تُتخذ كمصدر أساسي في الاحتياجات الإخبارية المرتبطة بفضاء تلك الدول. وهي قنوات لا يتم هجرها بالتوجه إلى القنوات العربية إلا عندما يشعر أولئك المشاهدون بأنها تستفز مشاعرهم من خلال التغطية المضللة للأحداث التي تمس أخبار الصراعات الشرق أوسطية، أو تلك التي تمس بالدين وبالثقافة العربية أو الإسلامية. لقد لاحظنا في الجزء الذي تناولنا فيه السياق التاريخي لنشأة وتطور الجزيرة بأن ظهور تلك القناة، لم يكن وليد استراتيجية هجومية هدفها فرض النمط الأيديولوجي العربي، على افتراض وجوده. كما أن تلك القناة تخضع في أسلوب برمجتها للمحتويات الإعلامية إلى منطق سياسي محلي أو إقليمي في غالبيته، وليس إلى محددات دولية نابعة من منطق الصراع الحضاري. يتضح إذن، بأن كل المؤشرات التي توصلنا إليها من خلال تقدمنا في بحثنا هذا تدحض المزاعم القاضية بأن قناة الجزيرة تسعى للتأثير السياسي المقصود على المواطنين من أصول عربية في الغرب. كشفت لنا هذه الدراسة أيضا أن كل ما يرتبط بزمانية بلد الإقامة المتعلقة بالأولويات الإخبارية والسياسية تتم تلبيتها من خلال برامج القنوات التلفزيونية المحلية، كما كشفت لنا أيضا أن القنوات التلفزيونية العربية ليس لها تأثير في تكوين آراء الجاليات العربية بخصوص السياسة الداخلية لبلد الإقامة، خاصة في ما يتعلق بتحديد التوجهات الانتخابية لأعضاء تلك الجالية.
من جهة أخرى، تدحض المؤشرات التي حصلنا عليها فكرة أن قناة الجزيرة غايتها أداء رسالة أيديولوجية تجاه مواطني تلك البلدان. فمعظم برامج قناة الجزيرة الناطقة باللغة العربية تبث أساسا للعنصر العربي في محيطه الإقليمي وبلغته. أما الوصول إلى المشاهد العربي في محيطه الأوروبي أو الأميركي فلا يشكل إلا هدفا ثانويا بدليل محدودية المحتويات التي تعد خصيصا لتلك الجاليات. صحيح أن هناك قنوات نشأت لتخاطب المشاهد الغربي بلغته، على غرار قناة الجزيرة الانجليزية، غير أن الاتجاه الغالب على برامج تلك القنوات يصب إما في خانة تقديم معالجة عربية للأخبار أو في خانة التعريف بثقافات تلك البلدان وبإمكاناتها السياحية كما هو الحال في أمثلة أخرى. إن وصول صورة العرب وصوتهم إلى الغرب من خلال قناة الجزيرة لا يجوز أن ينظر إليه من منظور الصراع الثقافي والحضاري كما يريد البعض أن يصوره، بل من

منظور تعدد وتنوع الرؤى، كشكل من أشكال التفاعل بين الحضارات الذي فرضته العولمة. وهو مسعى مشروع في نظرنا باعتباره يواكب توجها سائدا حاليا في العالم نحو تداخل الثقافات وتقاربها. ومن شأن ذلك بالتأكيد أن يسمح للفضاء الحضاري العربي باعتباره فضاء حضاريا ذا تاريخ عريق، وخصوصيات فريدة، أن يبرز مساهماته في الحضارة الإنسانية. كما لا يجوز أن ينظر إلى قناة الجزيرة وإلى التلفزيونات الفضائية العربية على أنها وسيلة صراع، بل باعتبارها واسطة ثقافية في غاية الفعالية، لم يقع توظيفها بعد بكامل طاقتها في التعريف بالذات والتعرف على الآخر. إن الغرب، الذي فرض انفتاح البشرية على بعضها بفضل شركاته وتكنولوجياته العابرة للحدود والقارات، لا يمكنه المطالبة بأن يكون ذلك الانفتاح أحادي الاتجاه، كما أنه لن يستطيع طويلا أن يحدد وحده قواعد العولمة وفقا لمصالح اقتصادية وثقافية ضيقة الأبعاد.
إن العولمة كحتمية تاريخية، ستفرض نفسها في نهاية المطاف على كل البشر، ليس باعتبارها أيديولوجية طرف منتصر، بل باعتبارها واحدة من الطفرات الإنسانية التي ستحدث تأثيرا بالغا في العلاقات الاجتماعية بين الأفراد وفي عمليات الضبط الاجتماعي داخل المجتمعات والدول في مرحلة ما بعد الحداثة. غير أن تبنيها من الجميع يمر حتما بعملية ترويض لا مفر منها، تجعل الإنسانية تتقبلها بمفهومها الإيجابي الذي يعني التوجه نحو بلورة فضاء عالمي تتواجد فيه الثقافات والحضارات بشكل متكافئ، جنبا إلى جنب وليس وفقا لمنطق هرمي ينبني على مبدأ القوة. وخلافا لما يطرحه أصحاب نظرية صراع الحضارات في هذا الصدد، نرى أن ظاهرة التداخل الثقافي، التي تسهم فيها الفضائيات التلفزيونية كثيرا وتكثفها الاختراعات التكنولوجية التي ما فتئت تختزل عاملي الزمان والمكان، من شأنها أن تخلق فضاء عاما بشريا يتعدى الفضاءات العامة القُطرية، وتخلق هوية مركبة تتجاوز الانتماءات الثقافية والحضارية الضيقة. إن تلك الهوية المركبة وذلك الفضاء الأوسع سيجبراننا، لا محالة، على إعادة النظر في فهمنا الحالي لمسألتي الهوية والثقافة اللتين تعودنا على بنائهما بمنطق صدامي يضع محددات الذات في مواجهة محددات هوية الآخر. إن الهوية المركبة التي نتحدث عنها هنا لن تقوم على المكونات الرمزية والأيديولوجية التي كانت تعتمد سابقا في رسم الهويات المحلية، بل تقوم على مكونات موضوعية وعقلانية من شأنها أن تخلق روابط اجتماعية بين أشخاص تختلف معتقداتهم. كما أن من شأن تلك الهوية أن تغير اعتبارنا لمفهومي الثقافة والحضارة اللذين لن ينظر إليهما على اعتبارهما أبعادا ذاتية للانتماء العرقي، بل على اعتبارهما مساهمات موضوعية في بناء صرح الإنسانية.

المراجع

عبد المولى، عزالدين ونصر، سارة: **دليل البحوث الأكاديمية حول الجزيرة: دكتوراه، ماستر، كتب، وأوراق بحثية بين 1996-2012**، مركز الجزيرة للدراسات، 2013.

حميدو، كمال، "وسائل الإعلام بين نداء العقل ونداء القلب: اشكالية التنشئة الاجتماعية للمهاجرين"، **مجلة مسائل إعلامية**، مركز دراسة الوسائط الإعلامية بجامعة ميتس - فرنسا، العدد 8، المطبوعات الجامعية بنانسي، 2005، ص.ص. 93-112.

الجمّال، راسم محمد، **نظام الاتصال والإعلام الدولي: الضبط والسيطرة**، الدار المصرية – اللبنانية، القاهرة، 2005.

العويفي، محمد، "تأثير الجزيرة"، **مجلة السياسة الخارجية**، بيرسي، العدد رقم 3، 2004، ص. ص. 649-660.

ميلادي، نورالدين، "وسائل إعلام قيد التحول، الجزيرة وقوة التعبير الحر"، **مجلة مسائل إعلامية**، العدد 8، 2005، ص.ص. 37-50.

ميلر، توبي، **المواطنة الثقافية: الكونية والنزعة الاستهلاكية التلفزيونية في عصر الليبرالية الجديدة**، تمبل يونيفرستي برس، 2007، ص. 105.

المرجع السابق، ص 6

لملوم، ألفة، "عن أضرار القنوات الفضائية العربية"، فصل من كتاب **وسائل الإعلام، الهجرة والثقافة الفوق قطرية**، دو بوك، بروكسل، 2007، ص.ص. 122-133.

غالتنوغ، يوهان، "النظرية البنوية للامبريالية"، **مجلة بحوث السلم**، العدد رقم 8، 1971، ص.ص. 81-117.

بال، فرنسيس، **الإعلام والمجتمع**، ط. 6، باريس، مونتكريستيان، 1992 ص.ص. 130-136.

بركات، نظام محمد، "التبادل اللامتكافئ بين الثقافة العربية والغربية"، من كتاب **الثقافة العربية: أسئلة التطوير والمستقبل**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2003.

حميدو، 2005، مصدر سابق.

العمراني. ك، " فرنسا تشعر بالقلق "، **مجلة جون أفريك**، عدد 1822-7-13 ، ديسمبر 1995، ص. 61.

هنتنغتن، صموئيل، "صراع الحضارات"، **مجلة الشؤون الخارجية**، العدد 72-3، 1993.

حميدو، 2005، .مصدر سابق.

سانيلا، ألكسندرا، "المسار النفسي والاجتماعي للشخص المهاجر"، **مجلة الهجرة والمجتمع** رقم 83، لشهري سبتمبر وأكتوبر 2002. ص. ص. 17-25.

الجزيرة في أستراليا:

الاستقبال، الجمهور، والتأثير

سكوت بريدجز

باحث في علوم الإعلام بجامعة كانبيرا، أستراليا

مقدمة

تأسست الجزيرة في العام 1996 بموجب مرسوم من أمير دولة قطر، وكانت قناة إخبارية وحيدة ناطقة باللغة العربية. في بادئ الأمر، كانت القناة تبث لوقت محدود يوميًا وتوجه رسالتها إلى شريحة محدودة من الجمهور، ثم تطورت على مدار العقدين التاليين لإنشائها لتتحول إلى "شبكة الجزيرة الإعلامية". تحتضن "الشبكة" أو "الجزيرة" أشكالا مختلفة من الإنتاج الإعلامي الإخباري والرياضي والترفيهي تصل إلى شتى أنحاء العالم عبر منصات متنوعة وبلغات متعددة. اعتمدت الجزيرة في تمويلها في البداية على قرض سخي من الحكومة القطرية، وانطلقت كواحد من عدة مشاريع تابعة للدولة، رأى فيها الأمير الجديد، آنذاك، سبيلا لتوسيع النفوذ الإقليمي وإظهار الوجه العصري والتحرري لدولة قطر الصغيرة أمام العالم (انظر، على سبيل المثال، مايلز، (Miles) 2005؛ النواوي وإسكندر، 2002؛ باورز، (Powers) 2012؛ بحري، 2001). ومع أنّ السياسة التحريرية للجزيرة تتمتع باستقلال كبير عن الحكومة القطرية في ما يتعلق بالإدارة اليومية لشؤونها، إلا أن القناة كانت – ولا تزال – في تماس مع السياسة الخارجية لقطر ما بعد العام 1995؛ تلك السياسة التي ترتكز على استراتيجيات الحيطة وصناعة الصورة للحفاظ على أمن الدولة، في منطقة تشهد اضطرابات متزايدة وتخضع في العادة لسيطرة فاعلين كبار (انظر، على سبيل المثال، بينتاك، (Pintak) 2010؛ كامرافا، (Kamrava) 2013؛ غراي، (Gray) 2013؛ يومانز، (Yumans) 2012؛ النواوي وإسكندر، 2002).

الحيثيات التي اكتنفت تأسيس قناة الجزيرة الفضائية الناطقة بالعربية (المعروفة اختصارا بـ"الجزيرة"، والتي سنشير إليها في هذا الفصل بلفظ "الجزيرة العربية" تمييزا لها عن غيرها) أصبحت معروفة لدى الجميع، تماما مثلما هي معروفة دواعي إطلاق أختها الصغرى "الجزيرة الإنجليزية" وما أحدثته القناتان من تأثيرات هائلة. فلا داعي إذن للتعريج على ذلك هنا. بدلا من ذلك، سأسعى في هذا الفصل إلى التركيز على موضوع جمهور الشبكة ونموه في جميع أنحاء العالم. ففي حين يكون النمو عادة استجابة لحاجة دفينة في صلب المؤسسات الإعلامية، كان التوسع في حالة شبكة الجزيرة جزءا محوريًا من هدف تأسيسها باعتبارها مشروعًا للدولة. وكما يعود ارتفاع نسب مشاهدة شبكات التلفزيون التجاري بالنفع على المُعلنين (سمايذ، (Smythe) 1981)، فإن ارتفاع نسب مشاهدة الإعلام غير التجاري تعود بالفائدة على الرعاة. وبالتالي، فإن اتساع نطاق الجمهور يمكن الجزيرة من تحقيق النتائج المرجوة على صعيد الدبلوماسية الناعمة التي تأسست لأجلها، وما تزال قائمة لمتابعة تحقيقها.

سأركز بصفة خاصة على توسع الجزيرة في أستراليا، نظرًا لإهمال أستراليا حتى اليوم في الدراسات التي تبحث في تأثير النمو العالمي للجزيرة. يضاف إلى ذلك أن أستراليا سوق صغيرة نسبيًا بالنسبة إلى الجزيرة وإلى غيرها من المؤسسات الإعلامية العالمية، فهي تضم 25 مليون نسمة فقط، غير أن الهيمنة

شبه الكاملة للغة الإنجليزية والتماثل الثقافي مع المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأميركية، جعلا من أستراليا هدفًا واضحًا لتوسع الشبكة. غير أن الطبيعة الفريدة لسوق الإعلام الأسترالي، كما سيأتي بيانه، وما تتميز به من كثرة العقبات والحواجز الهيكلية، من شأنها أن تحبط الوافدين الجدد إلى تلك السوق: فهناك خمس محطات للبث الأرضي تمارس، منذ وقت طويل، هيمنة شبه كاملة على سوق التلفزيون. أما خدمة التلفزيون عبر الاشتراك فقد دخلت إلى أستراليا متأخرة للغاية وظل نموها بطيئا نسبيًا. يضاف إلى ذلك أن جمهور البث التلفزيوني يتجه إلى مزيد من التشرذم واللجوء إلى خيارات أخرى في استهلاكه للمحتوى الإعلامي غير التلفزيوني، وهو ما يزيد الأمر صعوبة على جهات البث الجديدة في سعيها لبناء قاعدة جماهيرية. في بيئة كهذه، كانت استراتيجية الجزيرة للتوسع من خلال مشاركة المحتوى عبر اتفاقيات البث التبادلي مع محطتي بث عموميتين في أستراليا هي الاستراتيجية الأنجح في تحقيق النمو في مجال البث التلفزيوني في أستراليا. وإذا أخذنا بعين الاعتبار النمو الهائل الذي حققته الجزيرة في الفضاءين الرقمي والإلكتروني، يمكن أن نقول إن محتوى الجزيرة أصبح يصل إلى الكثير من الأستراليين بشكل منتظم.

بعد بيان التسلسل الزمني لحضور الجزيرة في أستراليا، وبعد توضيح علاقة الجزيرة الإنجليزية بهيئتي البث العموميتين، سأقدم نبذة عامة عن نظرة النقاد والجمهور وطواقم التحرير في جهتي البث المذكورتين، لشبكة الجزيرة؛ وستعقب ذلك مناقشة التأثير الذي أحدثته الجزيرة في سوق الإعلام الأسترالي. تجدر الملاحظة هنا أن هذا الفصل يستفيد من بحث أجريته في إطار أطروحتي لنيل درجة الدكتوراه، وقد نُشرت منه سابقا مقالتان في دوريتين محكمتين، هما: "الجزيرة في أستراليا" (بريدجز، 2016 أ)؛ و"الجزيرة ومحطتا البث العموميتان في أستراليا" (بريدجز، 2016 ب).

الجزيرة في أستراليا

عندما نقارن بين أستراليا والدول التي تشترك معها في نفس الثقافة في مختلف أنحاء العالم، مثل المملكة المتحدة والولايات المتحدة، نجد أن سوق الإعلام الأسترالي فريد. فمثلا، تمتلك أستراليا واحدًا من أكثر هياكل الملكية الإعلامية تركيزًا في العالم (فينكلشتاين، (Finkelstein) 2012). وقد كان مجال البث التلفزيوني فيها خلال العام 1996 خاضعًا لهيمنة خمس شبكات للبث التلفزيوني الأرضي المجاني – اثنتان منها حكوميتان، والثلاث الأخرى تجارية – أما خدمة التلفزيون عبر الاشتراك فقد كانت قد انطلقت لتوها. وفي الحقيقة كانت أستراليا آخر البلدان الناطقة بالإنجليزية التي قامت بإدخال خدمة البث مقابل الدفع. وقد ظلت وتيرة الإقبال على خدمة التلفزيون عبر الاشتراك بطيئًة نوعا ما بسبب سيطرة شبكات البث الأرضية على سوق الإعلام من ناحية، ومن ناحية أخرى نتيجة لمجموعة من القوانين التي سُنّت لتقييد خدمة التلفزيون عبر الاشتراك وتحديدها في محتويات حصرية (من قبيل الفعاليات الرياضية الجماهيرية). فبحلول العام 2005، وصل إجمالي نسبة البيوت الأسترالية التي اشتركت في هذا النوع من الخدمة التلفزيونية إلى 23% فقط مقارنة بنسبة 88% في الولايات المتحدة ونسبة 50% في المملكة المتحدة (يونغ، (Young) 2010). وحتى يومنا هذا، ما زال البث التلفزيوني المفتوح يحظى بمكانة أهم بكثير في السوق الأسترالية مقارنة بخدمة التلفزيون مدفوعة الأجر، علمًا بأن خدمات إتاحة الفيديو والبث الإلكتروني والرقمي تشكل حاليًا تحديًا خطيرًا أمام الهيمنة الطويلة للجهات المشار إليها. ونظرا إلى تلك

العوامل مجتمعة، فإنه من الصعوبة بمكان على الوافدين الجدد أن يجدوا حظهم في السوق الإعلامية الأسترالية.

دخلت الجزيرة السوق الأسترالية لأول مرة في العام 2001، أي بعد خمسة أعوام من انطلاقها. وكان دخولها في ذلك العام عن طريق إحدى ثلاث شركات جديدة توفر خدمة التلفزيون عبر الاشتراك، وهي شركة "أوبتوس" (Optus). كما أدخلتها شركة "ماي سات" (MySat) ضمن خدماتها مدفوعة الأجر وقصرتها على من لديهم تجهيزات الأقمار الاصطناعية المطلوبة. وبعد ذلك بوقت قصير راجت أنباء عن تخطيط الجزيرة لفتح مكتب لها في أستراليا (جاكسون، (Jackson) 2002). واعتبارًا من العام 2012، خرجت الجزيرة العربية من باقة "ماي سات" لكنها أصبحت متاحة مجانًا عبر خدمة "آسيا سات" (AsiSsat) (مقابلة شخصية، حسن باتل، منفذ أول بقسم الاتصال لدى الجزيرة الإنجليزية، 23 يونيو 2015).

عندما انطلقت الجزيرة الإنجليزية في العام 2006، أقر مديرها التنفيذي في حينها، نايجل بارسونز(Nigel Parsons)، بأن أستراليا "سوق يصعب الدخول إليها، بالرغم من أهميتها البالغة لنا" (زيفر، (Ziffer) 2006). وقد رفضت شركتا خدمات التلفزيون عبر الاشتراك آنذاك ("فوكس تل" و"أوبتوس") تحميل الجزيرة الإنجليزية ضمن باقتيهما، غير أن فوكس تل اقترحت على القناة الوليدة أن تدفع أجرًا نظير إدراجها ضمن خدمتها (وستبري، (Westbury) 2006). ومع ذلك، أتيحت الجزيرة الإنجليزية منذ لحظة انطلاقها على قمر "أوبتوس سي 1" الاصطناعي (وهي خدمة منفصلة عن خدمة أوبتوس للتلفزيون مدفوعة الأجر، بالرغم من التشابه في الاسم)، وذلك بالمجان شريطة امتلاك التجهيزات اللازمة – وهذا يعني أنها لن تُشاهد إلا في عدد قليل للغاية من البيوت الأسترالية نظرًا لندرة استخدام الأطباق اللاقطة. كذلك أتيحت الجزيرة الإنجليزية خلال عامها الأول ضمن عدد من الخدمات الصغيرة المتنوعة، مثل خدمة IPTV (التلفزيون عبر بروتوكول الإنترنت) من خلال مقدمي خدمات الإنترنت: أي شركة "ترانس آكت" لخدمات الاتصالات في كانبيرا، إذ أضافت تلك الشركة قناة الجزيرة الإنجليزية إلى خدماتها في نوفمبر 2006، ثم لحقتها في ذلك شركة "تي بي جي" الوطنية. أما محطة التلفزيون الصغيرة الموجهة للأقليات في سيدني "تي في إس" فشرعت في إعادة بث مقتطفات إخبارية مختارة من الجزيرة الإنجليزية في أبريل 2010 (نوكس، (Knox) 2010). وفي العام 2009، أضيفت الجزيرة الإنجليزية إلى خدمة التلفزة الإقليمية بالاشتراك المعروفة باسم "أوستار"، وفي مايو من العام 2012 استحوذت "فوكس تل" على "أوستار"، فاحتكرت فوكس تل بذلك سوق البث التلفزيوني عبر الاشتراك في أستراليا (إذ أوقفت أوبتوس خدمتها عن أي مشتركين جدد في العام 2009، ثم انتهى الأمر بتصفية الشركة). وفي إطار الاستحواذ المذكور، أضيفت قناة الجزيرة الإنجليزية إلى باقة فوكس تل الأساسية، وبذلك أصبحت متاحة لجمهور يبلغ 2.2 مليون منزلا (فوكستيل، 2012)، ولكن يبدو أن الإقبال الفعلي على مشاهدتها على هذه المنصة منخفض.

على الرغم من إتاحة الجزيرة في أستراليا عبر القنوات آنفة الذكر، إلا أن حضورها في أستراليا حتى العام 2010 كان هامشيًا نسبيًا، لأن جميع خدمات الإتاحة آنفة الذكر لم تسفر عن معدلات مشاهدة كبيرة. ولم تتمكن الجزيرة من تحقيق نجاح ملموس في توسيع قاعدة متابعيها في أستراليا إلا من خلال اتفاقيات

البث التبادلي مع الجهتين الأستراليتين العموميتين، مع اقتران ذلك بالحضور المتنامي على شبكة الإنترنت.

الجزيرة ومؤسستا البث العموميتان في أستراليا

وقعت الجزيرة الإنجليزية، على التوالي، في العامين 2010 و2011 اتفاقيات للبث التبادلي مع محطتي البث العموميتين في أستراليا، وهما: هيئة البث الأسترالية (أي بي سي) وشركة خدمات البث الخاصة (أس بي أس).

شركة أي بي سي

تأسست اللجنة الأسترالية للبث (التي غُيّر اسمها لاحقًا إلى "هيئة البث الأسترالية") في العام 1932 على غرار هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) (ديفيس وآخرون، (Davis) 1987). وعلى طريقة "بي بي سي"، جاء تمويل "أي بي سي" من ممولي الضرائب؛ لكن على العكس من نظام ترخيص التلفزيون بالمملكة المتحدة، تأتي ميزانية "أي بي سي" من حساب مخصص للضرائب وعوائدها. وبالرغم من نموذجها التمويلي، تحظى "أي بي سي" منذ إنشائها بالاستقلالية التحريرية عن الحكومة، بمقتضى القانون، وتدافع طواقمها عن تلك الاستقلالية بشراسة. وبحسب تقريرها السنوي للعام 2014 (أي بي سي، 2014)، تحظى خدمات الشبكة على اختلاف منصاتها بجماهيرية كاسحة، إذ يشاهد القناة نحو 10 مليون أسترالي أسبوعيًا في المناطق الحضرية، أما إذاعة "أي بي سي" فيتابعها نحو 5 ملايين شخص، فيما يصل عدد متابعي خدماتها على شبكة الإنترنت إلى 6 ملايين متابع. بالإضافة إلى تلك الشعبية، تعد "أي بي سي" من أوثق الخدمات الإخبارية والمؤسسات العامة في الدولة (إسينشيال ميديا، (Essential Media) 2015)؛ وهذا ما دعا سايمونز (Simons) (2007، ص. 176) إلى وصف "أي بي سي" بأنها "أهم مؤسسة ثقافية في الدولة دون منازع"، كما يرى أنه لا توجد مؤسسة أخرى "تطاولها في الاستئثار بقلوب الأستراليين وعقولهم".

وقعت "أي بي سي" اتفاقية للبث التبادلي مع الجزيرة الإنجليزية في 2010 تتيح لكل طرف منهما استخدام محتوى الطرف الآخر في نشراته الإخبارية. غير أن الواقع العملي اقتضى أن تستخدم "أي بي سي" قدرًا أكبر من محتوى الجزيرة الإنجليزية مقارنة بالقدر الذي استخدمته الجزيرة الإنجليزية من محتوى "أي بي سي". كما تتيح الاتفاقية ذاتها لـ"أي بي سي" إعادة بث محتوى الجزيرة الإنجليزية متى ما وردت أخبار عاجلة. علاوة على ذلك، فقد اتفق الطرفان على الاستعانة المتبادلة بمرافق البث التابعة لهما من حين لآخر، وهما على تواصل منتظم بخصوص الشؤون التحريرية. وفي مقابلة شخصية (بتاريخ 24 أكتوبر 2013)، أخبرني غافين موريس (Gaven Morris) – مسؤول المحتوى الإخباري في "أي بي سي" ومدير قناة "أي بي سي نيوز 24" – أن اتفاقية البث التبادلي تتيح لـ"أي بي سي" "مصدرًا موثوقًا من المحتوى الإعلامي" نظير "الوصول إلى قسم من الجمهور في أستراليا". أما مدير "أي بي سي نيوز راديو" – هيلين توماس (Helen Thomas) (مقابلة شخصية مع الكاتب في 4 من يوليو 2014) – فأكدت أن الجزيرة الإنجليزية تتيح "منظورًا مختلفًا وقويًا"، وهو منظور "ضروري وتزداد الحاجة إليه باستمرار في مجال التغطية الإخبارية على مستوى العالم عامة، وعلى مستوى الشرق الأوسط بصفة خاصة".

تعد قناتا "أي بي سي" الإخبارية – "أي بي سي نيوز 24" التلفزيونية و"أي بي سي نيوز راديو" الإذاعية – الأكثر استخدامًا لمحتوى الجزيرة الإنجليزية؛ إذ تعرض القناتان أخبارًا ومحتويات أخرى (مثل المقابلات) من الجزيرة الإنجليزية، وذلك في صلب برامجهما الإخبارية الخاصة، فيما تعيد "أي بي سي نيوز 24" بث نشرتين إخباريتين من الجزيرة الإنجليزية قوام كل منهما ساعة واحدة، وذلك على الساعة الثانية والخامسة صباحًا من كل يوم. وقد خلص تحليلي لمضمون النشرتين الإخباريتين الداخليتين لمدة أسبوع، إلى أن "إي بي سي نيوز 24" استخدمت محتوى الجزيرة الإنجليزية بمتوسط ’’8’52 في اليوم (نحو تسع دقائق)، فيما استخدمت "أي بي سي نيوز راديو" ذلك المحتوى بمتوسط قدره ’’11’30 في اليوم الواحد.

شركة أس بي أس

أطلقت الحكومة الأسترالية "خدمة البث الخاصة" في العام 1977 عقب المحاولات الناجحة لإقامة محطات إذاعية تبث بلغات أجنبية في كل من سيدني وملبورن، حتى أصبحت أول مؤسسة بث عمومية متعددة الثقافات على مستوى العالم (أنغ (Ang) وآخرون، 2008). وفي العام 2016، أصبحت "أس بي أس" قادرة على تقديم مجموعة متنوعة من المحتويات الإخبارية والمعلوماتية والترفيهية عبر العديد من منصات البث والمنصات الرقمية. أمّا تمويل هذه الشبكة فهو مزيج من الدعم الحكومي والعائد التجاري من الإعلانات ومبيعات المحتوى.

وقد أصبح محتوى الجزيرة الإنجليزية، نتيجة لاتفاقية البث التبادلي، جزءا من النشرة الإخبارية الرئيسة لشبكة "أس بي أس"؛ ونشرة "أس بي أس وورلد نيوز"، فضلا عن إعادة بث نشرات إخبارية كاملة من الجزيرة الإنجليزية على شبكة "أس بي أس" في إطار حزمة من النشرات الإخبارية الأجنبية تحت عنوان: "وورلد ووتش". وفي مقابلة شخصية (بتاريخ 19 من مايو 2014)، أفاد المنتج التنفيذي لنشرة "أس بي أس وورلد نيوز"، أندرو كلارك (Andrew Clarke) بأن الجزيرة الإنجليزية ماهرة في تقديم الخلفية الكامنة وراء الخبر وكذلك في الوصول إلى مناطق يتعذر على منافسيها الوصول إليها، مثل إفريقيا وأميركا الجنوبية. أما المنتج التنفيذي لنشرة "وورلد ووتش"، بول ويليامز (Paul Williams)، فيرى، (في مقابلة شخصية بتاريخ 19 من مايو 2014)، بأن قناة الجزيرة الإنجليزية تمثل توازنًا مضادا للقنوات الإخبارية العالمية المهيمنة الناطقة بالإنجليزية، والتي نقوم أيضا ببث محتواها في برنامجنا. وقد خلصت دراستي إلى أنه، إلى جانب إعادة البث اليومية لنشرات الجزيرة الإنجليزية على قناة "أس بي أس"، تستخدم "أس بي أس وورلد نيوز" محتوى الجزيرة الإنجليزية في نشراتها بمتوسط يومي قدره ’’3’47.

جمهور الجزيرة في أستراليا

قد يكون من المستحيل الوصول إلى أرقام محددة تبين حجم المتابعة السابقة والحالية للجزيرة في أستراليا، نظرًا لعدد قنوات التوزيع والإتاحة الانتقائية للبيانات. ومع ذلك، يمكن التوصل إلى بعض الأرقام التقديرية باستخدام المقاييس المتاحة في المجال العام.

فيما يخص الجزيرة العربية، نعلم أن ما بين 20 و25 ألف أسترالي كانوا يشاهدون القناة على "ماي سات" في الفترة بين عامي 2001 و2011، مقابل اشتراكي مالي (مقابلة شخصية مع حسن باتل بتاريخ

23 من يونيو 2015)، وهذا رقم متواضع من المشاهدين بالنظر إلى أعداد الجالية العربية في أستراليا والتي تقدّر بحوالي 250 ألف نسمة في العام 2006 (حسب إحصاء "المكتب الأسترالي للإحصاء" في 2013).

إن تحديد عدد متابعي الجزيرة الإنجليزية عبر جهات البث غير العمومية يقتضي اللجوء للحدس والتخمين بالأساس؛ فالأرقام الخاصة بتحميل القناة على "أوستار" غير متاحة، لكنها لن تكون أرقامًا مهمة على أية حال، أما خدمات IPTV فتكشف عن أرقام لا وزن لها مطلقًا. وحتى في ما يخص تحميل القناة على "فوكس تل" التي تحظى بما يربو عن مليوني منزل من المتابعين المحتملين، فإن الجمهور الفعلي للجزيرة الإنجليزية لا يشكل سوى قدر ضئيل للغاية من هؤلاء المتابعين؛ لا سيما وأن متوسط جمهور وقت الذروة في مشاهدة فوكس تل، بالمناطق الحضرية، يقل كثيرًا عن مليون مشاهد (ميتشيل وماك إنتاير، (Mitchell & McIntyre) 2014). فخلال أسبوع من المتابعة والرصد، تبيّن أن قناة فوكس تل الإخبارية (سكاي نيوز أستراليا) اجتذبت أقل من نصف بالمائة من جميع مشاهدي قنوات التلفزيون المجانية والمدفوعة. وفي الأسبوع ذاته، حققت "بي بي سي وورلد" (وهي القناة الإخبارية الأخرى الوحيدة لدى فوكس تل المصنفة ضمن بيانات التقييم) معدل متابعة أقرب إلى الصفر (أوزتام، (OzTAM) 2015 أ). أما معدل المتابعة المتراكمة لقناة سكاي نيوز أستراليا على مدار الأسبوع فكان أقل قليلا من مليون مشاهد، مقابل 160 ألف مشاهد لقناة بي بي سي وورلد (أوزتام، 2015 ب). وإذا أخذنا بعين الاعتبار كل القنوات الإخبارية المتاحة للمشاهدين، مثل سي أن أن وفوكس نيوز، مع انقسام الجمهور بين تلك القنوات، فإن نسبة متابعي الجزيرة الإنجليزية على فوكس تل ستكون، على الأرجح، ضعيفة.

ورغم أن الاتفاقية التي عقدتها الجزيرة الإنجليزية مع شبكات البث العمومية مكّنتها، دون شك، من زيادة عدد مشاهديها في أستراليا، إلا أن الوصف الأدق لتلك المتابعة هو "التعرض" لمحتوى الجزيرة، في الجانب الأكبر منه، باعتبار أن ذلك المحتوى مندرج ضمن برامج "أي بي سي" و"أس بي أس" الإخبارية الخاصة بهما، وهو ما يجعل استهلاك الجمهور لمحتوى الجزيرة الإنجليزية استهلاكا غير مباشر. ومع ذلك، يمكن تقدير مستوى ذلك "التعرض" استنادًا إلى نسب المشاهدة الخاصة بالبرامج والقنوات الإخبارية التابعة لشبكات البث العمومية التي تستخدم محتوى الجزيرة الإنجليزية.

بحلول أبريل 2015، وصل عدد متابعي "أي بي سي نيوز 24" في المناطق الحضرية إلى 900 ألف شخص أسبوعيًا (أوزتام، 2015 ب)، فيما وصل متوسط العدد لجمهور المساء في فترة الذروة خلال العام 2014 إلى 41 ألفًا (مقابلة شخصية مع ستيف ألين، (Steve Allen) مدير فيوجن استراتيجي، بتاريخ 8 من أبريل 2015). وخلال الاحتفال بالذكرى الخامسة لإطلاق "أي بي سي نيوز 24" في يوليو 2015، أفادت مديرة الأخبار لدى "أي بي سي"، كيت تورني، (Kate Torney) بوصول عدد متابعي القناة خلال الأسبوع الواحد إلى 4 ملايين شخص (باك ستوري، 2015)، وهذا الرقم يبدو مرتفعًا مقارنة بالقنوات الأخرى. أما عدد متابعي فقرات إعادة البث الليلية لمحتوى الجزيرة الإنجليزية على "أي بي سي نيوز 24" فقُدر بنحو 10 آلاف شخص في 7 أبريل 2015 خلال منتصف الليل، وبنحو 8 آلاف شخص في الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي. وهذا الرقمان متّسقان مع الاتجاه العام في هذا الصدد (مقابلة شخصية مع ستيف ألين، بتاريخ 8 أبريل 2015). وخلال شهري يناير وفبراير 2015، وصل متوسط جمهور "أي بي سي نيوز راديو" إلى 27 ألف شخص بين الساعة 5:30 صباحًا ومنتصف الليل في خمسة مراكز حضرية، وذلك استنادًا إلى الأرقام التقديرية الواردة في "جي أف كاي (GfK)" (2015 أ؛

و2015 ب؛ و2015 ج؛ و2015 د؛ و2015 هـ)؛ فيما ادعت "أي بي سي" أن عدد مستمعيها بلغ مليون شخص في الأسبوع (أي بي سي، 2015؛ ويونغ، 2010).

واستنادًا إلى عينة من الأرقام التقديرية الصادرة في منتصف العام 2015 وفق ما أوردته مؤسسة "تي في تونايت" (نوكس، 2014؛ ونوكس 2015 أ؛ ونوكس 2015 ب؛ ونوكس 2015 ج)، فإن "أس بي أس" و"ورلد نيوز" اجتذبتا ما بين 100 و200 ألف مشاهد في المناطق الحضرية في الليلة الواحدة؛ علمًا بأن المتوسط المماثل المسجل في 2014 بلغ 135 ألفًا (مقابلة شخصية مع ستيف ألين بتاريخ 8 من أبريل 2015). من المهم في هذا المقام الإشارة إلى أن جميع تلك الأرقام، باستثناء نسب المشاهدة التي قدمتها كيت تورني بخصوص "أي بي سي نيوز 24"، وتلك التي قدمتها "أي بي سي نيوز راديو"، تستبعد المشاهدين/ المستمعين الإقليميين والرقميين. لكن إذا أخذناها مجتمعة، وبالاستناد إلى البيانات المتاحة، فإن هناك نحو 4 ملايين أسترالي يتعرضون لمحتوى الجزيرة بصفة أسبوعية عبر "أي بي سي" و"أس بي أس"، غير أن الرقم الفعلي يُرجح أن يكون أقل من ذلك بكثير.

الجزيرة على شبكة الإنترنت

رغم أن الجزيرة الإنجليزية قناة تلفزيونية، أولا وأخيرا، إلا أن منتجاتها الرقمية والمتاحة عبر الإنترنت بدأت تدريجيا تمثل واجهة المؤسسة بالنسبة إلى الكثيرين من متابعي الأخبار الجدد. وتعتبر أستراليا، بصفة خاصة، سوقًا هامة لموقع الجزيرة الإنجليزية على شبكة الإنترنت. وتفيد الدراسات التي أجريتها حول الموضوع، بأن جمهور ذلك الموقع في أستراليا عريض ويتزايد بصورة متسارعة.

حلت السوق الأسترالية في العام 2015 في المركز الثالث بين أكبر الأسواق المتابعة لفيديوهات الجزيرة الإنجليزية عبر الإنترنت، وذلك بالرغم من القلة النسبية لتعداد سكان الدولة (حوالي 24 مليون نسمة، مقارنة بالسوقين الأولى والثانية في التصنيف ذاته، المملكة المتحدة (64 مليون نسمة) وكندا (35 مليون نسمة). والأهم من ذلك أن إحصاءات الجزيرة الإنجليزية تكشف عن نمو قوي في عدد الأستراليين الزائرين لموقع الجزيرة الإنجليزية الإلكتروني؛ إذ كان عدد الجُدد منهم خلال النصف الأول من 2015 (أي المستخدمين الذين لم تسبق لهم زيارة الموقع من قبل) "في حدود المليون" (مقابلة شخصية مع زياد رملي، محلل متخصص في شبكة الإنترنت، الجزيرة الإنجليزية، 14 من يوليو 2015).

وهذا النمو يعد أكثر أهمية لا سيما إذا علمنا أن نحو 80% من متابعة الأستراليين لموقع الجزيرة الإنجليزية هي متابعة قصدية، (خلافا للمتابعة التي تحصل نتيجة إحالات من قبل وسائل التواصل الاجتماعي أو من مواقع الأخرى)، إذ ليس مستغربًا أن تصل الإحالات إلى المواقع الإلكترونية الإخبارية في مواقع التواصل الاجتماعي إلى ما بين 60% و80% من إجمالي الحركة الإلكترونية. ويتفق محلل الجزيرة الإنجليزية، رملي، مع الرأي القائل إن تلك النسب تعني أن الغالبية العظمى من الأستراليين يتابعون الجزيرة الإنجليزية عبر الإنترنت بصورة مباشرة ومقصودة، وهو ما يعكس درجة عالية من الولاء لعلامة القناة. جدير بالذكر هنا أن الأستراليين يهتمون بالأخبار العالمية، ولكن الأخبار المتعلقة بأستراليا تحظى لديهم بأهمية خاصة. وفي هذا الصدد يعلّق رملي (مقابلة شخصية بتاريخ 14 من يوليو

2015): "عندما يلجأ إلينا الناس من بلد معين بحثًا عن أخبار تتعلق بمنطقتهم، أو شؤونهم الداخلية، فذلك بالتأكيد يعدّ مؤشر نجاح".

"أوان" الجزيرة الإنجليزية

بدأ تنفيذ اتفاقيات البث التبادلي المبرمة بين الجزيرة وشبكتي البث العموميتين في أستراليا في توقيت لم تكن الجزيرة الإنجليزية تتوقع أهميته؛ إذ تصادف توقيع تلك الاتفاقيات مع موجة من الأخبار الكبرى استمرت لشهور لاحقة، وهو ما أسهم في انتشار شبكة الجزيرة وعلامتها في أستراليا، تمكين المزيد من الأستراليين من الاطلاع على محتوى القناة. وحسب حسن باتل (مقابلة شخصية بتاريخ 1 يوليو 2015)، امتدت تلك الفترة ما بين أواخر العام 2010 عندما فازت قطر بتنظيم كأس العام لكرة القدم 2022، وبين أواخر أكتوبر 2011 عندما سقط القذافي في ليبيا. ففي تلك الفترة استرعت تغطية الجزيرة للأحداث الكبرى انتباه العالم حتى برزت مقولة "ظاهرة الجزيرة". وفي أستراليا نفسها، أدت أزمة الصحفي الأسترالي لدى الجزيرة الإنجليزية، بيتر غريستي (Peter Greste)، الذي تم توقيفه وسجنه في مصر إلى بقاء الجزيرة في واجهة الوعي العام لفترة تجاوزت العام 2011 بكثير.

من أهم تلك الأحداث الكبرى التي غطتها الجزيرة احتجاجات وانتفاضات ما سُمي بالربيع العربي، لا سيما التظاهرات التي شهدتها مصر مطلع العام 2011. فقد تُوجت تلك الفترة، التي دامت لأسابيع قليلة، بتنحي الرئيس المصري حسني مبارك عن سدة الحكم، وهي عينها الفترة التي أطلق عليها مسمى "أوان" الجزيرة الإنجليزية قياسا على "أوان حرب الخليج" بالنسبة إلى شبكة "سي أن أن" في بداية التسعينات من القرن الماضي. والمقصود بعبارة "أوان" في عالم الإعلام هو لحظة تحول تحصل في تاريخ مؤسسة ما بفضل تغطيتها لأحداث إخبارية كبرى. وفي حين لم يكن "أوان" الجزيرة الإنجليزية مع الثورة المصرية مسؤولا مسؤولية مباشرة عن نجاح القناة في أستراليا، إلا أنه كان عاملا أسهم بقوة في ذلك بكل تأكيد. كما كان لتلك الأحداث الإخبارية الكبرى، وتزامنها مع اتفاقيات البث المتبادل مع هيئتي البث العمومتين في أستراليا، دور كبير في تعزيز انتشار المحتوى الرقمي للجزيرة الإنجليزية.

استقبال الجزيرة في أستراليا

على خلاف ما يحدث في دول مثل الولايات المتحدة الأميركية (يومانز، 2012)، لم يسبق أن قوبلت الجزيرة بمزاج مناهض بين الجمهور الأسترالي. غير أنه وُجدت، بلا شك، جيوب للتشكيك في الشبكة استنادًا إلى الرواية الغربية عن الإعلام العربي منذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر وما تلاها من حروب في أفغانستان والعراق. فقد سارع رئيس شركة الاتصالات "ترانس آكت"، إيفان سلافيتش (Ivan Slavich)، على سبيل المثال، إلى طمأنة المشاهدين إلى أنه قد فحص القناة قبل أن تقوم تلك الشركة بإضافة الجزيرة الإنجليزية إلى خدمة IPTV، قائلا: "لقد طرحت بالتأكيد أسئلة تضمن عدم وجود أي مشاهد غير ملائمة على القناة... فمثلا، لا أريد قناة تعرض مشاهد قطع الرؤوس أو أي شيء من هذا القبيل، وقد طمأنوني إلى أن هذا ليس مسلك القناة" (أي بي سي نيوز، 2006).

سيركز المبحث التالي من هذا الفصل حول استقبال الجزيرة في أستراليا على أربعة مجالات، هي: (1) نظرة الجمهور الأسترالي إلى حضور الشبكة في أستراليا؛ (2) نظرة المعلقين في أستراليا إلى حضور الشبكة في أستراليا؛ (3) نظرة طواقم العمل في شبكتي البث العموميتين إلى الشبكة باعتبارها مصدرًا للأخبار.

الجمهور

لقد اقتصر البحث الذي أجريته حول ردة فعل الجمهور حيال الجزيرة في أستراليا على تحليل الصدى الرسمي وغير الرسمي، الذي وصل شبكتي البث العموميتين. ورغم أن الموضوع جديد وما يزال في حاجة إلى المزيد من البحث والتحليل، إلا أن بعض النتائج الأولية يمكن أن تكون مؤشرا مفيدا إلى المزاج العام تجاه الجزيرة.

في هذا السياق، أفادني العاملون في "أي بي سي" و"أس بي أس" بأن الشكاوى التي تردهم حول الجزيرة الإنجليزية لا تزيد ولا تقل عن تلك التي تصل إليهم بخصوص شركائهم الآخرين. يقول غافين موريس (مقابلة شخصية بتاريخ 24 أكتوبر 2013) إن "أي بي سي" تلقت بعض الملاحظات السلبية عن استخدام الشبكة محتوى من الجزيرة الإنجليزية إثر إطلاقها خدمة "أي بي سي نيوز 24"، وهو يرى أن ذلك ناجم عن "سوء فهم لطبيعة الجزيرة... [فهناك] مفاهيم مغلوطة [لدى الجمهور] مفادها أن [الجزيرة] قناة تلفزيونية داعمة للإرهاب". ويؤكد أنه لم تصلهم شكاوى ذات بال عن محتوى بعينه، باستثناء عدد قليل من التعليقات العامة من قبيل التساؤل عن السبب الذي دفع "أي بي سي حتى تدخل في شراكة مع جهة بث عربية؟" من جهته، قال توني هيل (Tony Hill)، المسؤول في "أي بي سي نيوز 24" (مقابلة شخصية بتاريخ 24 من أكتوبر 2013) إن القناة تلقت "تعليقات عارضة ونادرة عن سبب استخدام محتوى الجزيرة. [لكن] بصفة عامة فإن عدد الشكاوى لم يكن يُذكر على الإطلاق". أما هيلين توماس، المسؤولة في "أي بي سي نيوز راديو" (مقابلة شخصية معها بتاريخ 4 يوليو 2014)، فقالت إنها لم تتلق على موجات إذاعتها بخصوص الجزيرة الإنجليزية إلا ملاحظات عابرة، وكانت كلها إيجابية.

أما بيانات آراء الجمهور الواردة من "أس بي أس" منذ بداية شراكتها مع الجزيرة الإنجليزية وحتى نهاية العام 2013 فتشمل 53 رأيًا ذكرت الجزيرة؛ من بينها 40 رأيًا أشار إلى المحتوى التحريري للجزيرة الإنجليزية أو إلى رأي عام بشأن القناة، فيما تناولت الآراء الأخرى مسائل غير ذات صلة. وكان 27 رأيًا من الأربعين المذكورة إيجابيا بصفة عامة، بينما كان 13 منها سلبيا بصورة عامة. في ما يلي مثالان نموذجيان للتعقيبات الإيجابية:

"أود تهنئة أس بي أس على قرارها الاعتماد في بثها على واحد من أفضل مصادر الأخبار التلفزيونية المجانية. شكرًا على اختياركم الصائب".

"الجزيرة – شكرًا جزيلا لكم على إضافة هذه القناة إلى باقة وورلد ووتش. أجد ذلك في غاية الأهمية. فهي تغطي الكثير من الأخبار التي لا نجدها في أي مكان آخر..."

وفيما يلي تعقيب يعكس الرأي المقابل:

"لماذا نجد هذه الأخبار على التلفزيون الأسترالي؟ هل تعلمون أن أخبار الجزيرة مدعومة من الإرهابيين (هكذا)!"

من جهتها، نظمت "أس بي أس" مجموعات تركيز (Focus groups) بكل أنحاء أستراليا على امتداد السنوات الماضية. وقد أفاد أندرو كلارك (Andrew Clarke) من أس بي أس (مقابلة شخصية بتاريخ 19 مايو 2014) بتزايد النظرة الإيجابية للجزيرة، التي يبدو أنها تجاوزت "سي أن أن"، حسب ما جاء على لسان أحد المشاركين في مجموعات التركيز، والذي اعتبر الجزيرة مصدره المفضل للأخبار.

المعلقون

جاءت نزعة الرفض الأبرز لحضور الجزيرة في أستراليا، وبالخصوص لشراكتها مع شبكات البث العمومية، من مجموعة صغيرة، لكن صوتها مرتفع، من المعلّقين البارزين. وكان أول تعليق ناقد للجزيرة الإنجليزية قد وقع في العام 2011 عندما أعلن الرئيس الأميركي باراك أوباما أسر أسامة بن لادن وقتله. فمع إذاعة الخبر، انتقلت "أي بي سي" إلى بث الجزيرة الإنجليزية لفترة من الوقت. بعد ذلك، علقت كارولاين أوفرينغتون (Caroline Overington)، كاتبة العمود المتخصصة في الإعلام في صحيفة "ذي أستراليان" آنذاك، قائلة: "في فقرة على أي بي سي 1 [وهو الاسم الذي كانت تحمله في ذلك الوقت أهم قنوات شبكة أي بي سي المجانية] مهداة من الجزيرة وُصف أسامة بن لادن بأنه "بطل" بالنسبة إلى البعض في العالم العربي" (أوفرينغتون، 2011 أ). وفي اليوم التالي، وبعد طلب التعليق من "أي بي سي"، أفادت أوفرينغتون بنبرة تشكيكية، بأن "إعادة "أي بي سي" بثّ الجزيرة الإنجليزية كان اختيارا ولم يكن اضطرارا" (أوفرينغتون، 2011 ب).

وفي مستهل العام 2015، وعقب الهجمات على الصحيفة الفرنسية الساخرة "شارلي إيبدو"، كشفت الرسائل الإلكترونية المسربة من قلب الجزيرة الإنجليزية عن خلاف بين بعض أفراد طاقم التحرير بشأن كيفية تغطية الواقعة (بورديلون، (Bordelon) 2015). وعلى إثر ذلك، غرّد المحرر المشارك في صحيفة "ذي أستراليان"، كريس كيني (Chris Kenny)، قائلا إن الجزيرة الإنجليزية انخرطت في "البروباغاندا" (كيني، 2015 أ) وفي "التماس العذر للإرهابيين" (كيني، 2015 ب)، معلنًا أن ما حدث يعد "وصمة عار" على أي بي سي التي لجأت إلى الجزيرة الإنجليزية كمصدر خارجي (كيني، 2015 ج). من جهتها، عبرت كاتبة العمود في صحيفة "هيرالد صن"، ريتا باناهي (Rita Panahi)، عن تبرّمها من "استخدام "أي بي سي" الجزيرة الإنجليزية كمصدر في تغطيتها الإخبارية (باناهي، 2015). أما المراسلة السياسية لصحيفة "ذي أستراليان"، سارة مارتن (Sarah Martin)، فكتبت تحت عنوان "نقد لاذع لأي بي سي بعد الهجوم على مسؤول الجزيرة": "لقد دافعت أي بي سي عن استخدامها للمحتوى الإخباري لقناة الجزيرة القطرية في تغطيتها لهجمات باريس الإرهابية، بعد تسريب رسائل بالبريد الإلكتروني كشفت عن شجب الشبكة للمجلة الساخرة وهي تتعرض لموجة من العنف". وكان المقال قد استند بقوة إلى تصريح عضو البرلمان الاتحادي، مايكل دانبي (Michael Danby)، الذي قال فيه إن "النخبة السياسية القطرية تبدو ميّالة للطرف الآخر"، وأن "على "أي بي سي" أن تفكر في العواقب" (مارتن، 2015).

أما أبرز الناقدين للجزيرة في أستراليا فكان المدون الشهير، وكاتب العمود الصحفي، والمذيع التلفزيوني أندرو بولت (Andrew Bolt). فبعد الجدل الذي اكتنف قصة أسامة بن لادن، تساءل بولت بنغمة تهكمية: "بالله عليكم ما هي أجندة أي بي سي؟" (بولت، 2011). وفي العام 2014، وخلال الحرب بين إسرائيل وحماس، انتقد مجددا العلاقة بين الجزيرة الإنجليزية وأي بي سي، فكتب في مدونته: "من بين جميع القنوات في العالم أجمع، اختارت أي بي سي قناة الجزيرة لتبث داخل أستراليا من خلال مرافقها الممولة من دافعي الضرائب، وذلك بمعدل مرتين يوميًا. هل نحن بحاجة إلى بوق النظام القطري ليفسّر لنا سياسة العالم؟... يجب التوقف عن ذلك، وإلا فلنطالب أي بي سي بتخصيص ساعتين في اليوم أيضًا لخدمة إخبارية من إسرائيل" (بولت، 2014).

بعد أيام قليلة، وفي برنامج بولت التلفزيوني (ذا بولت ريبورت)، علّق ضيفه روان دين (Rowan Dean) محرر "ذا سبكتيتور أستراليا" قائلا: "... تغطية الجزيرة بالكامل متمحورة حول "إسرائيل الجانية" و"إسرائيل الشريرة" التي "تضطهد الفلسطينيين المساكين" و"تقتلهم بلا رحمة"، فهي ترتكب "جرائم حرب" وما إلى ذلك من النعوت... إذن، ما تفعله "أي بي سي" ببثها لتغطية الجزيرة على امتداد ساعتين يوميًا، إنما هو في الحقيقة دعاية صادرة عمن هم وراء الكثير مما تفعله حماس... وبصفتي دافعًا للضرائب، فأنا أستشعر إهانة بالغة بسبب ذلك. أنا لا أمانع في أن تعرض القناة ما يحلو لها عرضه، لكن عليها التزام شيء من التوازن حيال وجهة النظر الإسرائيلية. فحتى داخل وسائل الإعلام الإسرائيلية ستجد جميع أنواع وجهات النظر المتباينة، لكن هذا العرض المتنوع غير موجود في الجزيرة التي لا تقدم شيئًا سوى وجهة النظر المناوئة لإسرائيل". (دين، 2014). ولكن، باستثناء عدد الصغير نسبيًا ممن يتفقون مع آراء المعلقين المذكورة في التغريدات وعلى المواقع الإلكترونية، فإن هذا النقد لم يترجم، على ما يبدو، إلى معارضة واسعة الانتشار للجزيرة بين عامة الناس.

جهات البث العامة

فيما يخص الطواقم التحريرية والإدارية في "أي بي سي" و"أس بي أس"، انتهى البحث الذي أجريته إلى أن موظفي شبكات البث العمومية، بصفة عامة، يحملون آراء إيجابية عن الجزيرة وبإمكانهم الاستفادة من المحتوى الذي تقدمه.

على سبيل المثال، أفادت هيلين توماس (مقابلة شخصية بتاريخ 4 يوليو 2014) بأن الجزيرة الإنجليزية "تقدم منظورًا مختلفًا وقويًا، وأرى أنه لا غنى لنا عنه، بل وتزداد ضرورته في التغطية العامة للأخبار من مختلف أنحاء العام، لا سيما الشرق الأوسط". وأضافت أن العاملين في "أي بي سي نيوز راديو" يحبون الاطلاع على محتوى الجزيرة الإنجليزية لأنه "يضيف إلى القوة الصحفية، وإلى قوتنا التحريرية تبعًا لذلك، وهم يحبون [امتلاك القدرة على] العمل وفق ذلك". هذا الرأي يتفق معه أيضا المنتج والمذيع في "أي بي سي نيوز راديو"، مارك تامهين (Mark Tamhane) (مقابلة شخصية بتاريخ 4 أغسطس 2014)، حيث يقول: إن الجزيرة الإنجليزية لديها مراسلون أكفاء وتقدم قصصا إخبارية "رائعة" تحمل منظورًا يختلف عن المؤسسات الأخرى، وإن محتوى الجزيرة الإنجليزية مصاغ بطريقة جيدة ويبدو أكثر عمقا. أما المنتج التنفيذي لدى "أس بي أس وورلد نيوز"، أندرو كلارك (مقابلة شخصية بتاريخ 19 مايو 2014)، فيرى أن الجزيرة الإنجليزية "ماهرة في تقديم الخلفية التي تكمن وراء الخبر وفي دخول مناطق لم يسبقها إليها منافسوها، مثل إفريقيا وأميركا الجنوبية".

من ناحية أخرى، أفاد محرران بأنهما يحْذَران بين الفينة والأخرى من استخدام محتوى الجزيرة الإنجليزية، وقالا إنهما لا يختاران من الأخبار إلا بعد التقييم أولا، حرصًا على "التوازن والدقة" (مقابلة شخصية مع مايكل ريد، المنتج التنفيذي في أي بي سي نيوز 24، بتاريخ 5 أغسطس 2014)، مع إيلاء اهتمام خاص إلى الأخبار الواردة من الشرق الأوسط حيث تتجلى تحيزات الشبكة في صورتها الأبرز (مقابلة شخصية مع ديفيد كودي، رئيس مناوبة في أي بي سي نيوز 24، بتاريخ 5 أغسطس 2014).

تأثير الجزيرة في أستراليا

عندما يتعلق الأمر بمجال البث الإخباري المتلفز في أستراليا، فإن هيمنة الشبكات المجانية وقناة "فوكس تل" الداخلية (سكاي نيوز أستراليا) لا جدال فيها، ولا يبدو أن أيًا منها قد أزعجه دخول الجزيرة إلى أستراليا. فالجزيرة العربية ونظيرتها الإنجليزية متاحتان على أجهزة التلفزيون الأسترالية كقناتين إخباريتين إضافيتين مطمورتين وسط مئات الاختيارات المتاحة للمشاهدين عبر الاشتراك وعبر خدمات التلفزيون الفضائي. كما أن الجزيرة الإنجليزية متاحة فقط عبر إعادة البث لنحو اثنتي عشرة ساعة أسبوعيًا (غالبا خلال الليل) على موجات البث العامة. وكما بيّنّا أعلاه، فإن عدد الأستراليين المتابعين للجزيرة عبر قنوات التوزيع ضئيل، ومن المستبعد جدا أن يعاد توزيع جمهور الخدمات الإخبارية الحالية بشكل ذي بال.

ومع ذلك، وحتى نفهم تأثير الجزيرة بطريقة سليمة في سوق الإعلام الإخباري في أستراليا، علينا أن ننظر في ما وراء الإحصاءات التقديرية والتصنيفات ومعدلات المتابعة. فكما سبق بيانه في هذا الفصل، فإن الطريقة الأساسية التي تصل من خلالها الجزيرة الإنجليزية إلى الأستراليين عبر شاشات التلفزيون هو عندما يحدث انتقاء محتواها وتفكيكه وتركيبه ثم عرضه ضمن نشرات أخبار شبكات البث العمومية. فالجزيرة تسد ثغرة في الإنتاج الإخباري الأسترالي، لأن التقليص المستمر في الميزانيات يعني اضطرار المؤسسات الإخبارية المحلية إلى الاعتماد أكثر فأكثر على جهات أخرى لبث المحتوى الإخباري الدولي. والحقيقة أن الجزيرة الإنجليزية تقوم، عمليا، بوظيفة وكالة إخبارية بالنسبة لشبكات البث العمومي في أستراليا، إلى جانب الوكالات التقليدية مثل "أسوشيتد برس" و"رويترز" وشركاء البث الأجنبي مثل "بي بي سي".

خلال السنوات الماضية، دار نقاش طويل في الأدبيات الإعلامية حول ما إذا كان يمكن للجزيرة أن تلعب دور المسهّل للتدفق العكسي للمعلومات، أي تدفقها من جنوب العالم في اتجاه شماله (انظر مثلا، بويد باريت وبويد باريت (Boyd-Barrett and Boyd-Barrett)، 2010؛ فيغنسكو (Figenschou)، 2014؛ ثوسو (Thussu)، 2007؛ راي وكوتل (Rai and Cottle)، 2010). هذا الفصل ليس مجال ذلك النقاش، ولكن تجدر الإشارة إلى أن الجزيرة، من خلال ما تلعبه من دور شبيه بالوكالة بالنسبة إلى شبكات البث الأسترالية العمومية، فإنها تؤثر في الخدمات الإخبارية التي تقدمها تلك الجهات من حيث انتقاء الأخبار والرؤى المطروحة وما شابه ذلك. وبالتالي، يمكن القول إن سياسات الجزيرة وتقاليدها التحريرية تؤثر بالتأكيد في صناعة الأخبار الأسترالية.

على صعيد الإنترنت، تواصل الجزيرة، إلى جانب مجموعة أخرى من وكالات الأخبار الأجنبية، تقديم محتوى إخباري عالي الجودة ومجاني (وهو الأهم)، وهو ما من شأنه أن يستمر في التأثير السلبي على مساعي الشبكات الإخبارية المحلية لتأسيس نماذج مهنية قوية تقدم الأخبار العالمية. وربما لذلك السبب، انسحبت أغلب مؤسسات الإعلام الأسترالية، بشكل ملحوظ، من مجال الأخبار العالمية، وفضلت الاعتماد كليا أو جزئيا، على محتوى شركائها أو ما يأتيها من وكالات الأنباء. أما بالنسبة إلى الجزيرة الإنجليزية، فإن اتساع نطاق حضورها على شبكة الإنترنت في أستراليا يؤشر على مستقبل لامع لها في هذه البلاد، لا سيما مع استمرار توزيع البث التلفزيوني في الانحسار أمام التوزيع الرقمي وتوفير الخدمة "حسب الطلب". ومع ذلك، يصعب الحسم في الوقت الراهن في ما إذا كان ذلك التطور سيأتي على حساب خدمات إخبارية أخرى.

خاتمة

لا شك أن الجزيرة، عند دخولها إلى أستراليا، قد تأثرت بالطبيعة الفريدة لسوق الإعلام الأسترالية، وهي الطبيعة التي شكلت عقبة هيكلية أمام كل الوافدين الجدد. لذلك، اتجهت الجزيرة إلى استراتيجية توسع غير تقليدية في أستراليا قوامها الشراكات مع جهات البث الأسترالية العمومية، باعتبارها الوسيلة الرئيسة لعرض محتوى الجزيرة على الجمهور الأسترالي. وجاء استخدام "أي بي سي" و"أس بي أس" للمحتوى الإخباري للجزيرة الإنجليزية ليضفي شرعية على تلك المؤسسة الإخبارية العربية، من خلال ربطها بمؤسسات البث الأسترالية العمومية التي تحظى بالثقة والاحترام. اقترن ذلك بما نالته القناة من اهتمام لافت عبر تغطيتها لأحداث إخبارية كبرى مثل ثورات الربيع العربي، كما أن زيادة الوعي بعلامتها التجارية من خلال تلك الشراكات ساهم في تعزيز النمو الإلكتروني للجزيرة الإنجليزية في أستراليا. وفي العام 2016، أي بعد خمسة أعوام من دخولها أستراليا، باتت القناة تحظى بالشهرة لدى الأستراليين كما تبيّن من خلال التغذية المرتجعة لشبكات البث العمومية، ومن خلال قياس نسب المتابعة على شبكة الإنترنت. كما أنها تحظى بتقدير إيجابي من قبل الطواقم التحريرية العاملة لدى محطات البث العمومية. أما الانتقادات المحدودة الموجهة للقناة من جانب المعلقين الإعلاميين، فلا تعكس وجود معارضة واسعة وملموسة في أوساط الجمهور الأسترالي.

يمكن توصيف تأثير الجزيرة في المؤسسات الإخبارية المحلية بأنه إيجابي وسلبي في نفس الوقت: فبالنسبة إلى جهات البث العمومية بصفة خاصة، أسهمت الجزيرة الإنجليزية في سد الفجوة التي خلّفها تقليص ميزانيات الأخبار وتراجع عدد مكاتب الشبكات الأجنبية. لكن تقديم محتوى إخباري مجاني، يعتبره الكثير من المتابعين الأستراليين ذا جودة عالية، من شأنه أن يسهم في عرقلة جهود المؤسسات الإخبارية المحلية لتقديم نموذج بديل في سوق تتسم بالتنافسية المتزايدة.

في النهاية، يستمر سعي الجزيرة لتوسيع قاعدة جمهورها مدفوعا بالدعم المتواصل من راعيها الأساسي. وإذا نظرنا إلى الأمر من هذه الزاوية، فإن توسع الجزيرة في أستراليا لم يزد من عدد متابعيها ومن تقديرهم الإيجابي لها فحسب، بل أسهم كذلك في تعزيز أهداف السياسة الخارجية لدولة قطر.

المراجع

ABC. *Sharing Australian Stories: Annual Report 2014*. (Retrieved: 18/02/2015). http://about.abc.net.au/reports-publications/2013-14-annual-report/

ABC. *ABC History*. (Retrieved: 03/06/2015). http://about.abc.net.au/who-we-are/abc-history/

ABC News. *Al Jazeera Misunderstood, TransACT Head Says*, 2006, (Retrieved: 10/12/2013). http://www.abc.net.au/news/2006-11-22/al-jazeera-misunderstood-transact-head-says/1316274

Ang, I. "Hawkins, G. and Dabboussy", L. *The SBS Story*, Sydney, UNSW Press, 2008.

"Australian Bureau of Statistics", *2011 Census QuickStats*, 2013, (Retrieved: 03/06/2015). http://www.censusdata.abs.gov.au/census_services/getproduct/census/2011/quickstat/0?opendocument&navpos=220

"Back Story", *News 24 Celebrates Five Years On Air*, 2015, (Retrieved: 27/07/2015). http://abcnewsgathering.tumblr.com/post/123951256416/news-24-celebrates-five-years-on-air-brave

Bahry, L. The New Arab Media Phenomenon: Qatar's Al-Jazeera, *Middle East Policy*, *8*(2), 2001, pp. 88-99.

Bolt, A. *What's the ABC up to?* 2011, (Retrieved 01/09/2012). http://blogs.news.com.au/heraldsun/andrewbolt/index.php/heraldsun/comments/whats_the_abc_up_to

Bolt, A. *Why is the ABC Broadcasting Al Jazeera?* 2014, Retrieved: 02/01/2015). http://blogs.news.com.au/heraldsun/andrewbolt/index.php/heraldsun/comments/why_is_the_abc_broadcasting_al_jazeera/

Bordelon, B. "'I Am Not Charlie': Leaked Newsroom Emails Reveal *Al Jazeera* Fury over Global Support for *Charlie Hebdo"*, *National Review Online*. 2015, (Retrieved 12/01/2015). http://www.nationalreview.com/corner/396131/i-am-not-charlie-leaked-newsroom-emails-reveal-al-jazeera-fury-over-global-support/

Boyd-Barrett, C. & Boyd-Barrett, O. "24/7 News as Counter-Hegemonic Soft Power in Latin America" in S. Cushion & S. Lewis (eds.), *The Rise of 24-Hour News Television: Global Perspectives*, New York, Peter Lang 2010, pp. 199-220.

Bridges, S. "Al Jazeera in Australia", *Communication Research and Practice*, 2016a. DOI: 10.1080/22041451.2016.1209273

Bridges, S. "Al Jazeera and the Australian Public Broadcasters", *Journal of Arab and Muslim Media Research*, 9 (1), 2016b, pp. 99-118.

Davis, G. and Royal Australian Institute of Public Administration. A.C.T. Division. & Australian National University. Graduate Program in Public Policy,1987. The SBS and the ABC. [Canberra]: Public Policy Program, Australian National University in collaboration with Royal Australian Institute of Public Administration, ACT Division

Dean, R. (Guest). (2014, July 27). *The Bolt Report* [Television Broadcast], Melbourne, Australia: Network Ten.

El-Nawawy, M. & Iskander, A. *Al-Jazeera: How the Free Arab News Network Scooped the World and Changed the Middle East*. Cambridge, MA, Westview Press, 2002.

Figenschou, T. *Al Jazeera and the Global Media Landscape: The South is Talking Back*. New York, NY, Routledge, 2014.

Finkelstein, R. *Report of the Independent Inquiry into the Media and Media Regulation*. Commonwealth of Australia, 2012.

Foxtel, *FOXTEL and AUSTAR Unite to Deliver New National Television Service*, 2012, (Retrieved: 10/12/2013).
http://www.foxtel.com.au/about-foxtel/communications/foxtel-and-austar-unite-to-deliver-new-national-television-s-173194.htm

GfK, *Sydney Radio - Survey*, 2015a, (Retrieved: 08/04/2015).
http://www.gfk.com/au/Solutions/audience-measurement-and-insights/Documents/Share%20Summary%20Rpt/Metro/2015/GfK_Summary%20Report%20Sydney_Survey%201%202015.pdf

GfK, *Melbourne Radio - Survey* 2015b, (Retrieved: 08/04/2015).
http://www.gfk.com/au/Solutions/audience-measurement-and-insights/Documents/Share%20Summary%20Rpt/Metro/2015/GfK_SummaryReport%20Melbourne%20_Survey%201%202015.pdf

GfK, *Brisbane Radio – Survey*, 2015c, (Retrieved: 08/04/2015).
http://www.gfk.com/au/Solutions/audience-measurement-and-insights/Documents/Share%20Summary%20Rpt/Metro/2015/GfK_SummaryReport%20Brisbane%20_Survey%201%202015.pdf

GfK, *Perth Radio - Survey* 2015d, (Retrieved: 08/04/2015).
http://www.gfk.com/au/Solutions/audience-measurement-and-insights/Documents/Share%20Summary%20Rpt/Metro/2015/GfK_Summary%20Report%20Perth_Survey%201%202015.pdf

GfK, *Adelaide Radio - Survey* 2015e, (Retrieved: 08/04/2015).
http://www.gfk.com/au/Solutions/audience-measurement-and-insights/Documents/Share%20Summary%20Rpt/Metro/2015/GfK_SummaryReport%20Adelaide_Survey%201%202015.pdf

Gray, M. *Qatar: Politics and the Challenges of Development*. Boulder, CO: Lynne Rienner Publishers, 2013.

Jackson, A. “Al Jazeera to Open Australian Bureau”, *The Age,* 13 December 2002, (Retrieved: 18/02/2015).
http://www.theage.com.au/articles/2002/12/12/1039656168727.html

Kamrava, M. *Qatar: Small State, Big Politics*. Ithaca, NY, Cornell University Press, 2013.

Kenny, C. [chriskkenny]. (2015a, January 10). . @Jsus1 @mattsteinglass extraordinary, thanks - to think this propaganda is run by our national broadcaster is depressing [Tweet] (Retrieved: 18, 2015). https://twitter.com/chriskkenny/status/553860611423993856

Kenny, C. [chriskkenny]. (2015b, January 10). @twitchvladvos @AlJazeera Apologia for terrorists by attempting to rationalise their alleged grievance and deny jihadist motives [Tweet] (Retrieved: 18/02/2015).
https://twitter.com/chriskkenny/status/554102836661723136

Kenny, C. [chriskkenny]. (2015c, January 10). Worth tweeting again. The trouble with @AlJazeera and why it's a disgrace for #theirABC to outsource to them. http://t.co/AtZp9Yxsyu [Tweet] (Retrieved: 18/02/2015).
https://twitter.com/chriskkenny/status/554099572759220224

Knox, D. "Al Jazeera on TVS, TV", *Tonight,* 2010, (Retrieved: 11/02/2015).
http://www.tvtonight.com.au/2010/04/al-jazeera-on-tvs.html

Knox, D. "Catalyst up, SBS World News down on Thursday", *TV Tonight*, 2014, (Retrieved: 08/04/2015).
http://www.tvtonight.com.au/2014/08/catalyst-up-sbs-world-news-down-on-thursday.html

Knox, D. "When Gogglebox Faces the Ratings", *TV Tonight*, 2015a, (Retrieved: 08/04/2015).
http://www.tvtonight.com.au/2015/02/when-gogglebox-faces-the-ratings.html

Knox, D. "MKR Dips but still has Plenty of Ratings Sweetener", *TV Tonight*, 2015b, (Retrieved: 08/04/2015).
http://www.tvtonight.com.au/2015/02/mkr-dips-but-still-has-plenty-of-ratings-sweetener.html

Knox, D. "Clever Coding Skews Sunday Ratings", *TV Tonight*, 2015c, (Retrieved: 08/04/2015).
http://www.tvtonight.com.au/2015/03/clever-coding-skews-sunday-ratings.html

Martin, S. "ABC Gets Pasting after Al Jazeera Boss's Attack", *The Australian*, 12 January 2015, (Retrieved: 12/01/2015).
http://www.theaustralian.com.au/in-depth/terror/abc-gets-pasting-after-al-jazeera-bosss-attack/story-fnpdbcmu-1227181516392

Miles, H. *Al-Jazeera: How Arab TV News Challenged the World*, London, Abacus, 2005.

Mitchell, J. and McIntyre, P. "Foxtel's Pay TV Summer Ratings Sink" *Sydney Morning Herald*, 3 February2014, (Retrieved 28/10/2014).
http://www.smh.com.au/business/media-and-marketing/foxtels-pay-tv-summer-ratings-sink-20140203-31wk9.html

Overington, C. ABC Lags Networks on Big Break, *The Australian*, 3 May 2011, (Retrieved: 11/02/2015).
http://www.theaustralian.com.au/news/nation/abc-lags-networks-on-big-break/story-e6frg6nf-1226048713439

Overington, C. Managing Director Defends Decision to Stick with Normal Programming, *The Australian*. 4 May 2011, (Retrieved: 11/02/2015).

http://www.theaustralian.com.au/in-depth/managing-director-defends-decision-to-stick-with-normal-programming/story-fn8ljzlv-1226049439085

OzTAM, *Consolidated Metropolitan Total TV Share of All Viewing 5 City Share Report - All Homes Week 13 2015 (22/03/15 - 28/03/15) 06:00 - 23:59 Total Individuals - including Guests*, 2015a, (Retrieved: 08/04/2015).
http://www.oztam.com.au//documents/2015/OzTAM-20150322-A2MetTTVShrCons.pdf

OzTAM, *Consolidated National Subscription TV Share and Reach National Share and Reach Report - Subscription TV Homes only Week 13 2015 (22/03/2015 - 28/03/2015) 06:00 - 23:59 Total Individuals - Including Guests*, 2015b, (Retrieved: 08/04/2015).
http://www.oztam.com.au//documents/2015/OzTAM-20150322-B2NatSTVShrRchCons.pdf

Panahi, R. [RitaPanahi]. (2015, January 9). ABC24 taking AlJazeera feed of siege. Same news org that asked *after* terror attack whether #CharlieHebdo should apologise. [Tweet] (Retrieved: 18/02/2015).
https://twitter.com/RitaPanahi/status/553536849168195584

Pintak, L. *The New Arab Journalist: Mission and Identity in a Time of Turmoil*. London, I.B. Tauris, 2010.

Powers, S. The Origins of Al Jazeera English, in P. Seib (ed.), *Al Jazeera English,* New York, Palgrave Macmillan, 2012, pp. 5-28.

Rai, M. & Cottle, S. "Global News Revisited: Mapping the Contemporary Landscape of Satellite Television News", in S. Cushion & S. Lewis (eds.), *The Rise of 24-Hour News Television: Global Perspectives*, New York, Peter Lang 2010, pp. 51-79.

Simons, M. *The Content Makers: Understanding the Media in Australia*, Camberwell, Victoria, Penguin Books, 2007.

Smythe, D. *Dependency Road: Communications, Capitalism, Consciousness, and Canada*, Norwood, NJ: Ablex, 1981.

Thussu, D. (ed.), *Media on the Move: Global Flow and Contra-Flow*, Oxon, UK, Routledge, 2007.

Westbury, M. "Why you won't see Al-Jazeera on Foxtel. *Crikey",* 2006, (Retrieved: 10/12/2013).
http://www.crikey.com.au/2006/11/16/why-you-wont-see-al-jazeera-on-foxtel/

Youmans, W. *The Media Economics and Cultural Politics of Al Jazeera English in the United States,* Dissertation, University of Michigan, USA, 2012.
http://deepblue.lib.umich.edu/bitstream/handle/2027.42/96045/wyoumans_1.pdf

Young, S. "Audiences and the Impact of 24-Hour News in Australia and Beyond", in S. Cushion & S. Lewis (Eds.), *The Rise of 24-Hour News Television: Global Perspectives,* New York, Peter Lang, 2010, pp. 243-262.

Ziffer, D. "Al-Jazeera Gets Bureau but Won't Screen Here", *The Age*, 3 October 2006, (Retrieved: 10/12/2013).
http://www.theage.com.au/news/world/aljazeera-gets-bureau-but-wont-screen-here/2006/10/02/1159641265006.html/

الفصل السادس

مستقبل الجزيرة.. ومستقل الإعلام العربي

مستقبل الجزيرة والإعلام العربي

فيليب سيب
بروفسور الصحافة والدبلوماسية العامة في جامعة ساوثرن كاليفورنيا

يتشكل مستقبل وسائل الإعلام العربية بفعل عدد من العوامل شبيهة بتلك التي أسهمت في ولادة الجزيرة وبقائها على مدار السنوات العشرين الماضية، بيْد أن تأثير العوامل الراهنة أشدّ وأكبر ممّا كان عليه الأمر في السابق، وذلك بفعل ما يواكب تلك العوامل من تغيرات هائلة على الجانبين السياسي والتّقني. إلى جانب ذلك، فإنّ جمهور وسائل الإعلام العربية سيواصل نموّه وفقا للطّرق المرتبطة بدور الجزيرة في صياغة أسلوب استقبال المعلومة في أوساط الجمهور العربي، وهو نموّ مقترن بمزيد من التعقيدات التي تفرضها التغيرات الحاصلة في البيئة الصّحفية والسياسية.

يستعرض هذا الفصل أداء الجزيرة في أعقاب "الربيع العربي" وضرورة تكيّفها مع التّغيرات الطارئة على منطقة الشرق الأوسط. ففي الوقت الذي دخلت الساحة السياسية في المنطقة في أتون موجة من الاضطرابات، بفعل ثورات العام 2011، وهي ثورات لم تتكّشف نتائجها النهائية بعد، فإنّ تعطّش الجمهور العربي للأخبار تزايد وتعاظم. غير أن هذه الحالة منطوية على تحديات ماثلة أمام الجزيرة، فبالإضافة إلى الحدة المتزايدة في السياسات الإقليمية تواجه الجزيرة مستجدات عميقة في طرق الوصول إلى الأخبار وتقديمها؛ وهو ما غيّر دورها المجتمعي وأثّر في قدرتها على تقديم المعلومة.

البناء على المكتسبات التاريخية

كان الماضي عبارة عن مقدّمة؛ فتاريخ "الجزيرة "، وعلى الأرجح أيضا، مستقبلها المرتقب ومستقبل جمهور الأخبار العربي، إنّما هما حلقة في سلسلة متواصلة تعود بدايتها إلى برنامج "صوت العرب" الإذاعي الذي أطلقه جمال عبد الناصر في العام 1953. بعد ذلك، ولعقود تلت، أضحى الصوت الإخباري العروبي القوي محض شذوذ؛ إذ اتّجه الكثير من العرب إلى الاستماع إلى أصوات إخبارية غربية بحثًا عن برامج إخبارية ذات مصداقية وكفاءة إنتاجية؛ فمالوا إلى متابعة قنوات مثل "بي بي سي" ثم إلى "سي أن أن" في وقت لاحق. لم يعرف العرب نشرات إخبارية عربية خالصة تضاهي نظيراتها الغربية، من حيث حيوية الأداء ومحاكاة نفس القيم الإعلامية الغربية المتّبعة في الإنتاج الإخباري، إلا بعد ظهور الجزيرة في العام 1996. ولعل أهم ما حقّقه ظهور الجزيرة هو تمكين العرب – بعد طول انتظار – من مشاهدة أخبار تتعلق بأحداث فرضت سطوتها على حياتهم من خلال عيون عربية، إذ أصبحت التقارير الإخبارية مفعمة بالثقافة العربية، تستوحي وهجها من وجهات النظر السياسية العربية؛ فكان ذلك تطورًا ثوريًا من المنظور الجيوسياسي والصحفي على حدّ سواء.

عند تقييم المستقبل المرتقب لوسائل الإعلام العربية، فلا بد من ذكر ريادة الجزيرة وقدرتها على عرض أخبار "عربية" حقيقية على الجماهير العربية؛ حيث إنّ الكثير من أوجه التطور في التقارير الإخبارية العربية، خلال العقدين الماضيين، إنما يُنسب الفضل فيه إلى الجزيرة، ولو بمقدار؛ بل إن القنوات المنافسة للجزيرة انطلقت في بناء بيئاتها الصحفية والسياسية من الأساس الذي أرسته الجزيرة. وهذا الحُكم ينسحب على كل شيء، بدءًا من البرامج الحوارية المثيرة للجدل ومرورًا بالتجهيزات المُكلفة وانتهاءً بالتقارير الإخبارية القوية والجريئة.

لا يعني ما سبق من طرح أن الجزيرة كانت نموذجًا مثاليًا منزهًا عن كل خطأ؛ فقد اكتنف تجربتها جدل متواصل بشأن مدى استقلاليتها الصحفية وتحيزها السياسي، وقد أحسن منافسوها استغلال تلك الأمور. يُضاف إلى ذلك أن توسع الجزيرة، طلبا لولوج أسواق جديدة، لم يكن موفّقا وسلسا على الدوام، ولطالما ثارت أسئلة حول تطلّعاتها العالمية. وعلى غرار المؤسسات التلفزيونية الأخرى، اضطرت الجزيرة إلى مواجهة تحديات التكيف مع التقنيات الجديدة؛ وهي عملية مُكلفة ومحفوفة بالغموض وعدم اليقين. تلكم هي جميع العوامل التي ستؤثر، ليس فقط في مستقبل الجزيرة، بل وفي جميع المؤسسات الإخبارية العربية الأخرى أيضا؛ فالسنوات العشرون المقبلة ستكون حُبلى باضطرابات لن تقل شأنًا عما كان عليه العقدان الماضيان.

حضور الجزيرة في العالم

لطالما تجاوزت الجزيرة حدود كونها ظاهرة قَطَرية، بل إنّها شبّت حتى عن الطوق العربي؛ إذ يتشكل جمهورها الأكبر (المتابع لقناتها الناطقة بالعربية) من داخل العالم العربي، لكن حضورها تعاظم منذ تأسيسها فاتسع نطاق تأثيرها ومرماه ليمتدّ إلى خارج الدائرة العربية، وراقبتها حكومات، وجهات أخرى، من خارج المنطقة التي تبثّ منها القناة بغية الوقوف على قياس النبض السياسي في منطقة الشرق الأوسط. علاوة على ذلك، يُنظر إلى الجزيرة بوصفها أداة يلجأ إليها الغرب من أجل الوصول إلى الجماهير العربية وفهمها؛ وقد تجلى ذلك، أكثر ما تجلى، عندما كانت الجزيرة القناة الفضائية الوحيدة المناصرة للقضايا العربية، فحينها أدرك صناع السياسة الغربيون أن التقارير، التي اعتُبرت مجافية للواقع السياسي في معظم أرجاء العالم الغربي، إنما مثّلت، في الحقيقة، انعكاسات دقيقة للرأي العام العربي في مواضيعها.

وخلال الانتفاضة الفلسطينية عام 2000، عكست تغطية الجزيرة السخط العربي عندما وجد العرب أنفسهم – والوصف لجيل كيبل – "هدفًا جماعيًا لحملة إذلال تشنها إسرائيل، بتواطؤ من الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين" (كيبل (Kepel)، 2004، ص.20). وخلال المراحل الأولى من الحرب التي قادتها الولايات المتحدة في العراق، سعى المسؤولون الأمريكيون إلى استغلال الجزيرة لتسويغ الحرب، لكن مجرد الظهور على شاشات الجزيرة لم يضمن لهم استقبالاً وودًا لدى أوساط الجماهير العربية؛ إذ ما كان بمقدور مسؤول يتحدث على شاشات التلفزة أن يروّج لسياسة تلقى استهجانًا عارمًا بالأساس. وكما قالت روندا زهارنة، فإن تلك الجهود الأميركية لم تكن سوى "أداء استعراضي قوامه سوء الفهم والاتصال بين ثقافتين" (زهارنة، 2005، ص. 200).

تواكب تلك الجهود، الطامحة إلى نشر مصداقية الجزيرة وتأكيدها، جهود أخرى أكثر تواترًا؛ تمثّلت في سهام النقد والمحاولات الرامية إلى الطعن في مصداقية القناة وتقويضها، وهي سهام وجهود وقفت وراءها – في الغالب الأعم – جهات تنتمي إلى أرفع المستويات التابعة للحكومة الأميركية. من ذلك اتهام نائب وزير الدفاع الأمريكي، بول وولفويتز، قناة الجزيرة بتقديم "تغطية إعلامية شديدة التحيز" و"تحرض على العنف ضد قواتنا" في العراق ة (تيمز (Timms)، 2003). بيد أن الجزيرة نظرت إلى الأمور من منظور مختلف؛ إذ كتب كبير محرري موقع الجزيرة الإلكتروني، فيصل بودي، ما يلي: "برزت الجزيرة وحدها – من بين جميع الشبكات الإخبارية العالمية الكبرى – بموقفها الذي اتخذته حيال الحرب باعتبارها عملا غير قانوني" (بودي، 2003).

هذا النوع من الجدل وثيق الصلة بالمستقبل لأنه كاشف عن استعداد الجزيرة للخروج عن الأجندة الإخبارية العالمية العامة من أجل ربط أدائها الإخباري بالهوية العربية؛ علمًا بأن الجزيرة، ومعها قنوات أخرى شهيرة مثل "العربية"، يُنظر إليها باعتبارها ممثلا لقطاع عريض، هام ومتنوع، من الفكر السياسي العربي. ولذلك،

فإن تلك المنابر العربية وغيرها تعد خزانات أخبار قيّمة بالنسبة للحكومات والباحثين وغيرهم من حيث وفرة المعلومات المستقاة من مصادر مفتوحة. وبالرغم من أن عالم الإعلام العربي يعج حاليًا بكثرة المنتسبين إليه، مقارنة بالماضي- والشواهد على انضمام آخرين إليه في المستقبل ما تزال قائمة -إلا أن الجزيرة ما تزال تعتبر مقياسًا للأوضاع السائدة في أجزاء من الفضاء السياسي العربي.

لقد شهد العقد الأول من القرن الجديد، علاوة على التحديات المصاحبة لبدايات الحرب في أفغانستان والعراق، تطورات تقنية بدأت بدورها في تشكيل أسلوب الجزيرة، وغيرها من المؤسسات الإعلامية العربية، في عرض الأخبار (وهذه حقيقة تنسحب على المؤسسات الإعلامية الأخرى في شتى أنحاء العالم). ولعل التنبؤ بمآلات انتشار شبكة الإنترنت كان صعبًا عندما ظهرت قناة الجزيرة في العام 1996؛ بل إن الوقائع أثبتت أن تأثير التطورات التقنية كانت أعظم من أيّ حراك سياسي.

تدلّل بعض الإحصاءات الأساسية على مدى عمق التغيرات التي حدثت على هذا الصعيد؛ فبنهاية العام 2000 كان عدد المصريين المتاح لهم الاتصال بشبكة الإنترنت يبلغ 450,000 شخصًا؛ لكن ذلك العدد قفز إلى 33 مليون شخص وفق إحصاء شهر يونيو 2016؛ أما في تونس فقد زاد العدد من 100,000 إلى 5.4 مليون شخصا خلال الفترة نفسها؛ في حين أنّ الزيادة في المملكة العربية السعودية كانت من 200,000 إلى 18.3 مليون شخص. وبصفة عامة، فقد سُجّل تزايد معدل استخدام شبكة الإنترنت في الشرق الأوسط بما يعادل نحو أربعة آلاف في المائة في الفترة من العام 2000 إلى منتصف العام 2016 (دي آرغايز (De Argaez)، 2016).

من نافلة القول إنّ معدل النمو هذا مذهل؛ لكن ما دلالته بالنسبة إلى مستقبل الجزيرة ومستقبل وسائل الإعلام العربية بشكل عام؟ أولا: إنّ معدل النمو المذكور محكوم بالارتفاع، ففي السنوات المقبلة سيصبح الاتصال الشامل بالشبكة العنكبوتية أمرا واقعا في جميع أرجاء العالم تقريبًا. كما أنّ أدوات الاتصال بالشبكة – مثل الهواتف الذكية – ستصبح أقل ثمنًا مقارنة مع أسعارها اليوم؛ وسيواكب ذلك الاتصال الشامل تحديات أعظم من نظيراتها الحالية من حيث عادات تلقي الأخبار وما يفعله الأشخاص بالمعلومات التي يطّلعون عليها. لقد كانت الجزيرة من المؤسسات الإخبارية التي سارعت إلى توسيع نشاطها وإنتاجها الإعلامي حتى اشتمل على منتجات متاحة عبر شبكة الإنترنت، إلاّ أنّ الوعي بما يفضل الجمهور استهلاكه من تلك المنتجات ما يزال في مرحلة التطور ومحاولة الاستيعاب، (وسيأتي تفصيل ذلك لاحقًا).

لقد حرصت الجزيرة على مواكبة التقنيات الجديدة، وتوسعت أيضًا في حضورها العالمي من خلال البث بلغات مختلفة؛ وما إطلاق خدمة "الجزيرة البلقان" و"الجزيرة تركيا" إلا دليل على الأجندة المركّبة للمؤسسة الأم. أي أن الجزيرة تقتحم أسواقًا جديدة ترى فيها أفقًا للاستئثار بحصة سوقية لجني الأموال، وهو إلى ذلك، جهد يرمي، ولو جزئيًا، إلى استهداف جماهير ذات غالبية مسلمة خارج العالم العربي، بما يتيح إرساء روابط "افتراضية" بدولة قطر.

وعلى شاكلة القناتين المذكورتين، تحمل "الجزيرة الإنجليزية" هوية الشبكة إلى آفاق أرحب وإلى أعداد أكبر من المشاهدين من خلال دخولها إلى الكثير من الدول حيث يتلقّى الجمهور أخباره باللغة الإنجليزية، وهي اللغة الأكثر انتشارًا على مستوى العالم بلا شك. ومع أنّ الكثيرين تعرّفوا إلى الجزيرة بسبب تميز قناتها العربية، إلا أن "قناة الجزيرة الإنجليزية" أتاحت للملايين التحول إلى مستهلكين فعليين للمنتج الإخباري المقدم عبر شاشتها، ومع أنها تتّخذ مقرّها في نفس المجمّع الذي توجد فيها شقيقتها "قناة الجزيرة العربية"، إلّا أنّ للقناة الإنجليزية غرفة تحرير خاصّة بها وموظّفين مستقلين عن زملائهم في القناة العربية، وهي أقل تركيزًا، في أخبارها، على شؤون الشرق الأوسط من زميلتها الناطقة باللسان العربي. وقد تميزت "الجزيرة

الإنجليزية"، عن سواها من القنوات الفضائية، من خلال تكثيف التقارير الإخبارية القادمة من النصف الجنوبي من العالم؛ وهي مناطق دأبت الكثير من المؤسسات الإخبارية الكبرى على إهمالها. ونظرًا لقدرة "الجزيرة الإنجليزية" على الاستفادة من الموارد العامة لشبكة الجزيرة الإخبارية، فقد أضحت بدورها مصدرًا جاذبًا لمن يرغب في البحث عن المعلومات عن أهم الوقائع والأحداث في الشرق الأوسط. فخلال الأسابيع الأولى من اندلاع انتفاضات الربيع العربي في العام 2011، زاد معدل الإقبال على البث الإلكتروني الحي للقناة عبر شبكة الإنترنت بنسبة 2,500 بالمائة؛ مع تسجيل 60 بالمائة من تلك النسبة في الولايات المتحدة الأميركية (بورمان (Burman)، 2011). ثمّ أصبحت "الجزيرة الإنجليزية"، اعتبارًا من العام 2016، قادرة على الوصول إلى 220 مليون منزل في أكثر من 100 دولة عبر العالم (موقع الجزيرة الإنجليزية (aljazeera.com)).

يثمّن متابعو الأخبار، التي تبثّها القنوات الفضائية العالمية، المقاربة التي تتّبعها شبكة إخبارية تتخذ من الشرق الأوسط مقرًا لها، كما يقدّرون الانتشار الذي تحظى به "الجزيرة الإنجليزية". لكن، وبينما يمكن اعتبار "الجزيرة الإنجليزية" مشروعًا مكللا بالنجاح، فإنّ "الجزيرة أمريكا" لم تحظ بنصيب مماثل من النجاح؛ فذلك الوافد الجديد إلى السوق الأميركية وإن حاز الثّناء على أدائه الصحفي، إلاّ أنّه تعذر عليه بناء قاعدة جماهيرية موسعة؛ فالقنوات المنافسة كثيرة للغاية، وأي معروض إخباري لا يمكنه أن يحظى، ولو بفرصة ضئيلة لاسترعاء اهتمام الجمهور الأمريكي، ما لم يكن قادرًا على سدّ فجوة ما من خلال ما يمكن أن يتفرّد به من أداء؛ ولذلك لم يُكتب الدوام "للجزيرة أمريكا" سوى لأقل من ثلاث سنوات.

العالم ينقلب رأسًا على عقب

عندما أضرم الشاب التونسي محمد البوعزيزي النار في نفسه، بعد أن تملكه الإحباط حيال النظام السياسي الذي لم يقدم له سوى أفق سياسي كئيب ومظلم، انطلقت على إثر ذلك الحادث سلسلة من الأحداث التي هزت الشرق الأوسط كأنها زلزال شديد؛ بل إن الساحة السياسية ما تزال مضطربة، وهو اضطراب ليست المؤسسات الإخبارية في المنطقة منه ببعيد. فقد كانت الجزيرة في القلب من أحداث "الربيع العربي"، حيث بثت الأخبار للجمهور العربي حتى عندما أقدمت الحكومات على منع قنوات التلفزة الوطنية من تغطية الاضطرابات الحاصلة في بلدانها. وعلى الرغم من التوسع في الحديث عن تأثير وسائل التواصل الاجتماعي (وهو ما أفرز مصطلحات من قبيل "ثورة الفيسبوك")، إلا أن التلفزيون الفضائي كان عاملا أقوى من تلك الوسائل نظرًا لتوفره لدى أعداد هائلة من الجمهور في الشرق الأوسط عام 2011؛ وهي أعداد تفوق بكثير أعداد المتلقين للأخبار عبر شبكة الإنترنت (سيب (Seib)، 2012، ص.ص. 41-64).

انطوت تلك الفترة على أوقات عصيبة لمن كان لهم أمل في ولادة أنظمة ديمقراطية من رحم الاستبداد القديم. لكن الإصلاح السياسي تعطل أو أخفق بالكلية، باستثناء ما تقدّمه التجربة التونسية؛ فالحكومات العنيفة صارت أكثر عنفًا في دول مثل مصر والبحرين، فيما قصمت الحروب الأهلية المروّعة ظهر الدولة والمجتمع في كلّ من سوريا وليبيا واليمن؛ أما العراق فيجاهد للملمة أطرافه؛ في حين تهدّد التدفقات العارمة للمهاجرين الاستقرار الاقتصادي لكل من الأردن ولبنان.

في خضم ذلك كله توجد الجزيرة، التي لم تكن بمنأى عن السياسة المدفوعة بالغضب في العالم العربي في فترة ما بعد 2011؛ فمع ارتفاع المدّ العاطفي، فإنّه لا يُنظر إلى التغطية الإخبارية كمهمة محايدة، ولذلك وجدت الجزيرة نفسها في مهبّ هجوم عنيف ممن يرون في القناة، بل وفي حكومة قطر، طرفين متحيّزين

ومزعجين. سيظل الجدل حول تلك الأمور مستمرًا لأجل غير مسمّى، لكن الجزيرة ترى أن التغيرات الحاصلة في طريقة تقديم المعلومات وتلقيها ستكون على قدر من الأهمية المضاهية للتغيير السياسي، وذلك على المدى البعيد.

على الرّغم من أن الإصلاح السياسي ربما يكون قد تعثر في أعقاب انتفاضات العام 2011، إلا أن التحول في استخدام وسائل الإعلام قد تعاظم وتطور؛ ويأتي في صدارة تلك الوسائل المُتاحة توفّر الاتصال بشبكة الإنترنت. وكما أسلفنا، فقد شهدت الدول العربية معدّلاً غير عادي في نسبة تزايد أعداد مستخدمي الشبكة، ومن المؤكد أن هذا المعدل سيتسارع في ظل التحسن في إمكانات الاتصال وتراجع تكاليفه انطلاقًا من الهواتف الذكية وغيرها من الأجهزة.

كذلك، وعلى الرغم من توقعات الجزيرة وبعض المؤسسات الإعلامية العربية الأخرى بحدوث ذلك النمو بمرور الوقت، إلا أن أحدًا لم يكن يتوقع زيادة في اعتماد الجمهور على وسائل الإعلام الجديدة بتلك السرعة وأن تبلغ ذلك الانتشار الواسع؛ علمًا بأنه اعتماد يرجع، في جانب منه، إلى عامل السن، إذ نجد أنّ نحو 28 بالمائة من سكان الشرق الأوسط هم من الفئة التي تتراوح أعمارها بين 15 و29 عامًا، وهو ما يعني وجود 100 مليون شاب وشابة بالمنطقة (موقع يوث بوليسي (YouthPolicy.Org)). وهذه الفئة العمرية هي المستخدم الأول لوسائل الإعلام الجديدة، ومن المؤكد ستكبر الفئة العمرية الأصغر وهي أكثر اعتمادًا على تلك الوسائل. وليست هذه الحال بدعًا بين البشر؛ بل هي تحول في أسلوب الحياة على نحو يعيد تشكيل المجتمع بأسره.

لقد فطنت أغلب المؤسسات الإخبارية – ومن بينها الجزيرة – إلى أن الافتقار إلى الحضور الإلكتروني على شبكة الإنترنت يكاد يُحتّم نهايتها. لذلك، أطلقت الجزيرة موقع Aljazeera.net في مستهل هذه الحقبة. لكن مجرد "الحضور الإلكتروني" ليس كافيًا؛ فتفضيلات متلقّي الأخبار تتغير باستمرار، وتقتضي المحافظة على الصدارة بين المنافسين القدرة على التكيف التقني وإجراء تحليل ديموغرافي دقيق؛ ولعل في ظهور وسائل التواصل الاجتماعي دلالة على ذلك.

عندما احتفلت الجزيرة بذكرى تأسيسها العاشرة في العام 2006، وكان ذلك بالتزامن مع ميلاد "الجزيرة الإنجليزية"، لم تكن وسائل التواصل الاجتماعي موجودة تقريبًا؛ لكننا شهدنا منذ ذلك الحين ظهور مواقع "فيسبوك" و"يوتيوب" و"تويتر" وكثير غيرها من المؤسّسات التي توفّر منصات مختلفة للتواصل الاجتماعي. يستخدم موقع "فيسبوك" – مثلا – نحو 1.5 مليار مشترك، وهو بطبيعته يروق للجماهير الغفيرة؛ فيما تبحث جمهرة المواقع المنافسة عن مواضع مريحة لها؛ علمًا بأن بعض تلك المواضع عامرة بأدوات التغطية الإخبارية المتخصصة، التي قد تكون راسخة القدم في اتجاه سياسي أو ديني معين. أما ما هو أكثر أهمّية، فيكمن في الشعور بالتمكين الذي ولّدته وسائل التواصل الاجتماعي لدى مستخدميها؛ فطبيعة تلك الوسائل قائمة على تمكين متلقي الأخبار من التفاعل مع الجهات الإخبارية والتحادث مع بعضهم البعض. وذلك التفاعل يعني ضرورة إنصات المؤسسات الإخبارية للجمهور والتعاطي معه؛ وهو ما يعني أمورًا عدّة من بينها تغيير بيئة العمل، لأن المراسلين – مثلا – سيتحملون مسؤولية الردّ على رسائل البريد الإلكتروني وغيرها من الرسائل المتعلقة بأعمالهم، فضلا عن احتمال أن يُفضي نشر خبر مثير إلى استدعاء كمّ هائل من التجاوب الإلكتروني. وتلكم خطوة كبرى تتجاوز بكثير فكرة "الرسائل الموجهة للمحرّر" التي جرت العادة بإرسالها إلى المؤسسات الإعلامية. أما خاصية التحادث، فتعني قدرة "تغريدة" واحدة على التّغلغل في أوساط الجمهور لنشر خبر أو محتوى على نحو متعذّر القياس؛ وهذا مثبت بالطبيعة الإحصائية لخاصية تناقل "التّغريدات".

إن هذا التمكين الذي تمد به وسائل الإعلام جمهورها الواسع يمثل قوة مضادة لرغبة الحكومات غير الديمقراطية في إغلاقها؛ فقد ثبت لدى بعض محتجي العام 2011 أنّه من الممكن بناء مجتمعات مهتمة بأطروحاتهم من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، بما يسرّع من وتيرة التنظيم السياسي، ويجعله أكثر أمانًا على نحو لا يكاد يُقارن بالماضي. ومن شأن ذلك تغيير الديناميات السياسية، بل والمعايير الصحفية المؤثرة في كيفية أداء المتخصّصين في مجال الأخبار أعمالهم. وهكذا بات من المحتمل أن يُصبح الشأن السياسي مسرحًا لاحتواء المزيد من الصّخب والتّماوج بسبب الوفرة الهائلة في أوجه الاتّصال بين مكوّناته.

غير أن الجانب السلبي لكل ذلك يتمثل في امتلاك الراغبين في تمزيق المجتمع، بطرق سلبية، القدرة على توظيف وسائل التواصل الجديدة لاستغلال التقلبات السياسية. فمثلا، أثبت ما يعرف بتنظيم "الدولة الإسلامية" (داعش) مهارة فريدة في استغلال وسائل التواصل الاجتماعي لتجنيد الأتباع وجمع الأموال ودعم عملياته الحربية. وبات استخدام "تنظيم الدولة"، وغيره من التنظيمات المشابهة، لتلك الأدوات التواصلية موضوعًا للتغطية الإخبارية في حد ذاته، وقد رفع بذلك تحديًا آخر أمام المؤسسات الإعلامية، التي توجّب عليها تنويع مواهب المراسلين لديها حرصًا على استقطاب ذوي المهارات اللازمة لتنفيذ تلك التغطيات. علاوة على ذلك، فقد استعانت التنظيمات المتطرفة – مثل تنظيمي الدولة والقاعدة – بوسائل التواصل الاجتماعي، وغيرها من الأدوات المرتبطة بشبكة الإنترنت، لنشر أخبارها؛ إذ يصدر التنظيم حاليًا مجلّة إلكترونية شهيرة تحمل اسم "دابق"، وذلك لتأكيد انتشاره في الفضاء الإلكتروني وجذب مزيد من الأتباع.

وفي خضم تلك البيئة الإعلامية متعاظمة المكوّنات، تجد الجزيرة، وغيرها من المؤسسات الإخبارية، نفسها في حالة من التنافس لا مع المؤسسات الصحفية الراسخة فحسب، بل ومع أشباه الصحفيين ذوي التغطيات المتمحورة حول الذات والمفتقرة للحقيقة والصدقية أيضا؛ ذلك بأن شبكة الإنترنت متناهية الديمقراطية – فالوصول إليها ميسور لكل من يعتبر نفسه "صحفيًا" وينشر معلومات من شأنها (لو امتلكت الحد الأدنى من الصدقية أو الغرابة) أن تصل إلى جمهور عريض خلال ثوان. (ومن الأمثلة غير الصحفية على ذلك فيديو "براءة المسلمين" الصادر في العام 2012 بهدف الإساءة للنبي محمد (صلّى الله عليه وسلّم)؛ إذ كان المفترض في ذلك الفيديو أنه مقطع من فيلم أمريكي، لكن الفيلم ذاته لم يكن ذلك فحواه في الأصل. ومع ذلك، وبمجرد النشر على شبكة الإنترنت، فقد انتشر الفيديو المذكور كالنار في الهشيم، وأضرم احتجاجات مناهضة للولايات المتحدة في كلّ من القاهرة وصنعاء وتونس وغيرها).

من التغيرات الهامة في الممارسات الصحفية جرّاء انتفاضات العام 2011، استخدام محتوى وسائل التواصل الاجتماعي كمصدر لتغطيات المؤسسات الإعلامية التقليدية. فقد مُنع مراسلو الجزيرة من تغطية أحداث تونس تغطيةً مباشرة، من قبل نظام الرئيس التونسي آنذاك زين العابدين بن علي، لكن تغطية الجزيرة للثورة التونسية، كما قال محمد زياني "اعتمدت بصورة شبه حصرية على مصادر من الشبكة الاجتماعية، لا سيما فيسبوك"؛ مضيفًا أنه: "في حين رصدت وسائل التواصل الاجتماعي تعاقب الأحداث وقدمت بثًا متواصلا من الصور ومقاطع الفيديو والتفاعلات والبيانات، فإنّ المؤسسات الإخبارية العابرة للحدود – مثل الجزيرة – قامت بنسج تلك المواد على هيئة أخبار قوية مسترعية للانتباه والتعاطف، فتجمّعت بذلك أصوات الناس وحسابات النشطاء، وصدرت التعليقات السياسية وظهرت رؤى المجتمع المدني" (زياني، 2015، ص.ص. 187-189).

وبشيء من المبالغة يمكن القول إنه بات بمقدور أي شخص يحمل هاتفًا جوّالا أن يصبح مراسلاً للجزيرة من خلال جمع المعلومات ومقاطع الفيديو وإرسالها إلى محطة البث. كما يمكن لمرتادي وسائل التواصل الاجتماعي – باختلاف مشاربهم ومواقفهم – تقديم تصورات جماعية متعددة الجوانب للأحداث بما يتيح للمؤسسات الإخبارية (مثل الجزيرة) استخدامها كمصادر للمعلومات في تغطياتها. لذلك أفاد زياني بأنّ:

الجزيرة ساهمت في هذه العملية من خلال نشرها تقارير مستقاة في الأصل من مواد منشورة على موقع "فيسبوك"، يعاد نشرها بعد ذلك على "فيسبوك". بذلك نشأت "حلقة تفاعلية" في رأي زياني، وإليها يُنسب الفضل في "تحريك المحتجين" وبناء شراكة واقعية بين النشطاء والصحفيين المحترفين (زياني، 2015، ص. 189).

يوضح هذا المثال آفاق التوسع في تعريف "وسائل الإعلام الإخبارية" أو "الوسائط الإخبارية" ليتجاوز العالم المهني التقليدي، وقد انسحب على منصات إلكترونية في الوقت الحاضر. لقد كانت الجزيرة من أوائل المؤسسات التي استجابت لذلك التحول بشكل منهجي من خلال جمع "التغطيات" الإلكترونية وتنقيحها ثم بثها إلى الجمهور وعرضها في تغطياتها وعلى موقعها الإلكتروني. لقد أدت أحداث العام 2011 إلى تغيير السياسات في العالم العربي على نحو ستكون له تبعاته لسنوات قادمة؛ ولم تكن التغيرات التي أفرزتها تلك الأحداث، في طرق جمع المعلومات وبثها أقل شأنًا؛ وستتضافر تلك العوامل لتشكيل مستقبل الجزيرة.

نظرة مستقبلية

ظل التلفزيون زهاء 50 عامًا وسيلة الأخبار المهيمنة في معظم أنحاء العالم؛ فقد غير وجوده طريقة بث الأخبار وتلقّيها، فيما كانت غرف المعيشة في منازل المشاهدين مسرحًا لعروض جاذبة وحية في مختلف مناحي الحياة – بدءًا من السياسة والحروب وحتى الأخبار الخفيفة. وبمرور الوقت، أصبح جهاز التلفاز أكبر حجمًا وأفضل أداءً، واستأثر بمكانة محورية داخل ملايين البيوت، سواء لأهميته الاجتماعية أو لوجوده المادي.

لكن هل سيستمر ذلك إلى الأبد، أم أن حقبة التلفزيون آخذة في التراجع والانحسار في غياهب الماضي، في ظل الميل إلى استبدال التغطية التقليدية بالتواصل الأكثر اعتمادًا على شبكة الإنترنت؟ هذا السؤال متروك للجزيرة – وغيرها من المؤسسات الإخبارية – للإجابة عليه بتؤدة ودقة... إجابة لا تفرط في التمسك بالماضي ولا تجنح جنوحًا غير مدروس إلى القفز إلى مستقبل محفوف بالغموض والضبابية.

إن المستقبل يتشكل بسرعة، والمنابر الإخبارية في ظهور متواصل (ومآل الكثير منها إلى أفول سريع أيضًا). اعتمدت المؤسسات الإخبارية التي تغطي المؤتمرات السياسية الأميركية، في منتصف العام 2016، اعتمادًا كبيرًا على وسائل التواصل الاجتماعي؛ إذ أصدرت صحيفة الـ "واشنطن بوست" خمس تغريدات في الساعة الواحدة، وخصصت حسابًا على موقع "تويتر" للشأن السياسي. أما صحيفة "بوست" فاستعانت بمواقع "سنابشات" و"فيسبوك" و"فيسبوك لايف" و"جينياس" لتفسح المجال وسيعًا أمام التعليق على الأخبار والخطابات؛ فيما أتاح موقعا "تويتر" و"فيسبوك لايف" عمليات بث آنية لجلسات المؤتمرات، واستعان المراسلون بالعديد من المنصات لنشر أخبارهم. كما ربطوا بين المنصات من خلال إجراء مقابلة على "فيسبوك لايف" مثلا ثم نشر رابط لها على حساباتهم في "تويتر" و"فيسبوك" (جو لي (Jo Lee)، 2016).

ومع انجذاب المزيد من الجمهور، المهتم بمتابعة الأخبار، إلى منصات التواصل الاجتماعي، باتت الحاجة ملحة عند المؤسسات الإخبارية – سواء أكانت "واشنطن بوست" أم الجزيرة أم غيرهما – إلى إدخال التغييرات اللازمة بصفة مستمرة على العديد من منصاتها الإخبارية حتى تكون حيثما يكون الجمهور المتلقي. ويُلاحظ أن جميع المواقع الإخبارية الجديدة غير متصلة بالبث اتصالا مباشرا، بل تعتمد على الأدوات الإلكترونية في ذلك، فيما يتزايد اعتمادها على فرضية مفادها أن محتواها سيُشاهد على الأجهزة النقالة؛ فالجلوس أمام التلفاز في غرفة المعيشة أضحى عادة من الماضي.

بينما تعدّل الجزيرة ونظائرها جهودها لمواكبة التقنيات الجديدة، فإنّه لا بد لها أيضًا من الانتباه إلى التغيرات الحاصلة في طرق تلقي الأخبار عند الجمهور المنتشر في المناطق النائية وفي نظرته إلى العالم. فمن الأهمية بمكانٍ، بالنسبة إلى الجزيرة وإلى وسائل الإعلام العربية، ما يمكن تسميته "المهجر العربي"؛ فلطالما وُجدت جالياتٌ عربية مهاجرة خارج حدودها، وأصبح العرب منتشرين في كل أنحاء العالم تقريبًا. لكننا نؤكد مجددًا على ما أحدثته التقنية من تغيير في النظام القديم، ففي ذلك تقول كريستينا سلايد (Christina Slade): إنّ "الأخبار الواردة من دولة المنشأ لم تعد تتأخر شهورًا كما كانت في الماضي، ولم يعد الآخرون يتحكمون فيها، ولم تعد تخاطب الحنين الدفين في أسلوب عرضها وتأطيرها؛ بل أصبحت آنية تُبثّ في توقيت واحد في دولة المنشأ ودولة المهجر على السّواء. وبعد أن كانت الجاليات في المهجر تجمع الأخبار وتتبادلها فيما بينها عن الوطن في أماكن معينة – مثل المقاهي، فإنها اليوم تتشارك تلك الأخبار داخل المجال العام في الفضاء الرقمي". وأوردت سلايد واقعة مواطن بريطاني، من ذوي الأصول العربية، أثناء زيارته كينيا، عندما لجأ إلى قناة الجزيرة (العربية) لمشاهدة الأخبار. ولاحظت أن "الشعور بالانتماء لم يعد مرتبطًا بمكان معين، بل بات متاحا لكل إنسان عن طريق استخدام التقنية. فاللغة العربية بالنسبة إلى الناطقين بها هي ما يربطهم بالوطن، وهي كذلك وفي نفس الوقت، عابرة للحدود" (سلايد، 2014).

في هذا السياق، يكتسب الانتشار العالمي لقنوات التلفزيون الفضائية أهميته، لكن وسائل التواصل الاجتماعي باتت تعزز أكثر تلك الروابط بين المهاجرين العرب وأوطانهم الأصلية. ومع تزايد معدلات الاتصال بتلك الوسائل الجديدة، تتزايد كذلك التطلعات إلى "الارتباط" بالحياة المدنية السائدة في الأوطان الأصلية، وهو ما يعني الوصول الموسّع إلى الأخبار. ولعل هذا من الأسباب التي حدت بقناة الجزيرة، وبوسائل الإعلام العربية عموما، إلى أن تتخذ ما يلزم من إجراءات للوصول إلى متلقي الأخبار المعتمدين على مجموعة متنوعة من الأدوات الإعلامية؛ فالخيارات كثيرة أمام الجمهور، وسيغير الجمهور وجهته إذا لم يجد جهات إخبارية بعينها ضمن المعروض الماثل أمامه من الطيف المتنوّع للمنابر الإخبارية.

بصفة أعمّ، يجب على جميع موفري الخدمات الإخبارية التكيف مع المتطلبات المتغيرة عند متلقي المعلومة. لقد كان بمقدور الجزيرة خلال عامها الأول – شأنها في ذلك شأن القنوات الأخرى في العالم – أن تطل على جمهورها قائلة: "إليكم مواعيد بث الأخبار. ولا شأن لنا إذا ما كانت تتفق مع مواعيدكم أم لا". وقد كان على السواد الأعظم من المتابعين أن يرتّب مواعيده لتتناسب مع مواعيد القنوات. أما اليوم فطالب الأخبار سيجد المعلومة والخبر، سواء في الصباح الباكر أم في جوف الليل، بمجرد نقرة على تطبيق هاتفي؛ وإن لم يكن التطبيق حديث المحتوى ولحظيّ التجدد فسيلجأ طالب الخبر إلى سواه. علاوة على ذلك، إذا كان الخبر مثيرًا للجدل أو منطويًا على أهمية خاصة، قد يجعل منه ذلك مادة للتداول الأطول، خاصة إذا عمد أحد متلقي الأخبار أو إحدى المؤسسات الإخبارية إلى إطلاقه عبر شبكات التواصل الاجتماعي.

إننا بصدد نظرية "انفجار عظيم" في بث المعلومات؛ وسيتأثر كل شيء يخص المؤسسات الإعلامية بهذا التحول الانفجاري تأثرًا متزايدًا – بدءًا من شؤونها المالية وانتهاء بالمسؤوليات المهنية للصحفيين.

تواجه الجزيرة قدرًا متعاظمًا من التعقيدات نظرًا للتأثير السياسي الذي تمارسه، وهو راجع إلى علاقتها بحكومة قطر، وما الموقف من مجريات الأحداث في ليبيا عام 2011 إلا دليل على ذلك؛ فقد نشبت حرب أهلية هزّت أوصال ليبيا خلال أحداث الربيع العربي، وأصبحت قطر داعمًا رئيسيا للثوار الذين تمردوا على نظام القذافي، فقدمت لهم الدعم المالي والإنساني والعسكري. واستأثرت الجزيرة بفرصة التغطية الحصرية المباشرة للجبهات الأمامية، وأصدر قادة المتمردين الكثير من البيانات العامة عبر القناة نفسها. كذلك ساعدت قطر المتمردين في تأسيس محطة تلفزيونية خاصة بهم؛ وجاء تمويل القناة بالأساس من مغترب ليبي ثري، فيما هيأت قطر التجهيزات و"الكوادر" الفنية اللازمة من خلال إحدى قنواتها المحلية. علاوة على ما سبق،

فقد عرضت قطر شراء النفط المنتج في المناطق التي يسيطر عليها المتمردون وتصديره حتى تتوفّر لهم عوائد مالية. وعلى المدى البعيد، توقعت قطر أن تنهض بدور هام في إدارة امتيازات النفط والغاز في ليبيا إذا ما انتصر المتمردون المدعومون من قبلها. وواكب ذلك اعتراف بالجميل لأمير قطر من طرف دول حلف الناتو المشاركة في الحملة العسكرية ضد القذافي، وأخذ الأمير في تعزيز صورته باعتباره مساندا للربيع العربي، دون أن تكون قطر نفسها قد تأثرت بالربيع العربي (ستيفن وتاتل وألكسندر (Stephen, Tuttle and Alexander)، 2011).

توضح تلك الحالة أنّ الحكومة القطرية وقناة الجزيرة قد تتحركان بتناغم لتعزيز أهدافهما المشتركة المتعلقة بالدبلوماسية الشعبية؛ فلطالما كانت الجزيرة أهم أداة في جهود قطر الدؤوبة لتوسيع دورها على الساحة العالمية، كما أن أسلوب التغطية في القناة ما يزال مخلصًا لتوجهات رعاتها من العائلة القطرية الحاكمة. وعن ذلك قال شون باورز وإيتان جيلباو (Shawn Powers & Eytan Gilboa): "أولا، الجزيرة ليست مجرد مؤسسة إعلامية عابرة للحدود، بل هي أيضًا شبكة تتصرف كفاعل قوي في السياسة الدولية، بل وتُعامل على هذا الأساس. ثانيًا، اعتمدت الشبكة أجندة سياسية تتعلق بالشؤون الداخلية في العالم العربي وبالقضايا الخارجية لبقية العالم، لاسيما الغرب. ثالثًا، انطلاقًا من موقعها كفاعل سياسي دولي يواجه انتقادات حادة من داخل الشرق الأوسط ومن خارجه، أطلقت الجزيرة حملة تواصلية شاملة وموسعة للتغلب على الكثير من النقاط الخلافية التي كانت طرفًا فيها" (باورز وجيلباو، 2007، ص.ص. 74-75).

في ثنايا ما سبق مثال على الدبلوماسية الشعبية المزدوجة، فنحن أمام حكومة ومؤسسة إعلامية يخاطبان الجماهير في إطار من الجهود المشتركة أو المنفردة أحيانًا، ولكن الغايات والأجندات مشتركة فيما بينهما على أي حال. تستخدم الكثير من الدول البث التلفزيوني كأداة للدبلوماسية الشعبية – ومن أمثلة ذلك مؤسسة "بي بي سي" في بريطانيا ومؤسسة "آر تي (روسيا اليوم)" الروسية – لكن نموذج الجزيرة القطرية يمتاز عنهما، لأن شبكة الجزيرة تحتفظ بهوية شعبية منفصلة يواكبها استخدام المعلومات كأداة مؤثرة في السياسة الإقليمية وانتهاج استراتيجية دبلوماسية شعبية خاصة بها (زياني، 2015، ص. 189).

إن أصول ومرامي الدبلوماسية الشعبية القطرية تتجاوز الجزيرة بكثير؛ فقد أنشأت قطر "المدينة التعليمية" التي تضم فروعًا لجامعات أمريكية وغير أمريكية، كما أنشأت متاحف عالمية ومشاريع أخرى ثقافية ذات مستوى عالمي؛ واستطاعت الفوز بتنظيم كأس العالم لكرة القدم للعام 2022 وغيره من الفعاليات الرياضية؛ ويتواكب كل ذلك مع استضافة الدولة العديد من المؤتمرات وجولات التفاوض المعنية بقضايا عالمية. ولا شك أن الثروة الطائلة التي تنعم بها الدولة تعينها على عمل ذلك وأكثر؛ وهنا يعلم مديرو الجزيرة أن القناة يجب عليها أن تعدّل ذاتها حتى تتمكن من التعايش مع هذا الجهد الدبلوماسي الشعبي الأوسع.

"التعديل" هي الكلمة الأهم عندما يتصل الأمر بالكثير من الجوانب المستقبلية لوجود الجزيرة؛ فبعض المتخصصين والباحثين في مجال الإعلام يرون أن "عصر الجزيرة" قد انتهى، وأن مزيجًا من السياسات الإقليمية المضطربة والتغيرات الكبرى في عالم التقنية واستيعاب المعلومات قد قضى على أشكال الهيمنة الصحفية السياسية التي حازتها الجزيرة يومًا ما.

صحيح أن المشهد الإعلامي العربي بات أكثر ازدحامًا بالفاعلين فيه مما كان عليه يوم انطلق بث الجزيرة في العام 1996، غير أن النجاح يولّد المنافسين والمقلّدين، وكان من المؤكد أن تتراجع هيمنة الجزيرة المبكرة تدريجيا. فقد فرضت "العربية" وغيرها من القنوات الفضائية لنفسها حضورًا في أوساط الجمهور العربي، وأصبح الفاعلون في المشهد الإعلامي أقرب ما يكونون إلى التماثل، لا إلى التمايز.

في هذا السياق، كان للسياسة الإقليمية – التي لطالما كانت عاملا مؤثرًا في صناعة الإعلام العربية – أثرها في صياغة طموحات الجمهور وحساسياته. وعندما بلغ النّضال الجماهيري ذروته في العام 2011، توقع الكثير من العرب أن تواكب منابرهم الإعلامية تطلعاتهم السياسية. ستظل هذه الحال موضع اختبار لوسائل الإعلام العربية، بمعنى: إلى أي مدى يمكن للمؤسسة الإعلامية التجاوب مع المصالح السياسية للجمهور دون التخلي عن التزامها الصحفي بالتغطية المتوازنة المحايدة؟ هذا يعني أن المصداقية – وكذلك ولاء الجمهور – مرتهنان بنظرة الجمهور إلى الجزيرة وغيرها من المؤسسات الإخبارية العربية في خوضها ذلك الاختبار.

لم يكن الهيجان السياسي على قدر الأهمية والتأثير اللذين حازتهما التغيرات المرتبطة بالتقنيات الوسائطية الحديثة. وإذا أرادت الجزيرة والمؤسسات الإعلامية العربية الأخرى أن تظل مواكبة للتغيرات، فلا بد هنا من التحول جذريًا وسلوك نهج "غير مكتف بالبث" في عالم الأخبار؛ فالشعوب لم تعد مجرد "جمهور"، بل أصبحت شريكًا في العمليات الجديدة المتغيرة لجمع المعلومات وبثها. ولك أن تفكر في عدد من يلجأون حاليًا إلى هواتفهم المتحركة أو أجهزتهم الكفية أو حواسيبهم النقالة بدلاً من جهاز التلفزيون لمعرفة جديد الأخبار.

تلكم هي البيئة التي سيتشكل فيها مستقبل الجزيرة؛ والنجاح، أو ربما مجرد البقاء، فيها يستوجب من الجزيرة، ومن المؤسسات الإخبارية الأخرى، اتخاذ خيارات صعبة بشأن تقليل التركيز على البث والتحول بالتركيز إلى وسائل التواصل الاجتماعي... ثم إلى ما يستجد بعدها من تطورات.

والمؤكد أن كل تلك المؤسسات بصدد دراسة اتخاذ قرارات صعبة وعصيبة، على المستوى الصحفي والمالي والسياسي.

المراجع

Kepel, G. *The War for Muslim Minds*, Cambridge, MA: Harvard University Press, 2004, p. 20.

Zaharna, R. S., “Al Jazeera and American Public Diplomacy,” in Mohamed Zayani (ed.), *The Al Jazeera Phenomenon*, Boulder: Paradigm, 2005, p. 200.

Timms, D. “Wolfowitz Sparks Fury from Al Jazeera,” *Guardian*, July 29, 2003.

Bodi, F. “Al Jazeera Tells the Truth about War,” *Guardian*, March 28, 2003.

De Argaez, E. *Internet World Stats News*, July 10, 2016, www.internetworldstats.com. NOTE: This figure for the “Middle East” does not include North Africa.

Burman, T. “The Al Jazeera Moment,” *The Star.Com* (Toronto), February 4, 2011, Retrieved: 20/09/2016. http://www.thestar.com/opinion/editorialopinion/article/933097--the-al-jazeera-moment.

"Facts and Figures", *Al Jazeera.Com*, Retrieved: 20/09/2016. http://www.aljazeera.com/aboutus/2010/11/20101110131438787482.html; http://www.aljazeera.com/watchaje/.

Seib, P. *Real-Time Diplomacy: Politics and Power in the Social Media Era*, New York: Palgrave Macmillan, 2012, pp. 41-64.

“Middle East and North Africa: Youth Facts”, *YouthPolicy.Org*, Retrieved: 20/09/2016. http://www.youthpolicy.org/mappings/regionalyouthscenes/mena/facts/#FN13.

Zayani, M. *Networked Publics and Digital Contention: The Politics of Everyday Life in Tunisia*, Oxford University Press, 2015, pp. 187-189.

Zayani, *Networked Publics,* 189.

Jo Lee, S. “How Twitter, Facebook Live, and Genius Transformed Convention Coverage,” *Mediashift*, July 26, 2016, (Retrieved: 20/09/2016). http://mediashift.org/2016/07/how-twitter-facebook-live-genius-transformed-convention-coverage/.

Slade, C. *Watching Arabic Television in Europe*, London: Palgrave Macmillan, 2014, pp. 13-123.

Stephen, C., Tuttle, R. and Alexander, C. “Qatar May Win Big if Libyan Rebels Prevail,” *Bloomberg Businessweek*, July 18, 2011, p. 15; Hounshell, B. “The Revolution Will Soon Be Televised,” *ForeignPolicy.Com*, March 28, 2011, Retrieved: 31/03/2011. www.foreignpolicy.com/articles/2011/03/28/the_revolution_will_soon_be_televised/

Powers, S. and Gilboa, E.“The Public Diplomacy of Al Jazeera,” in Philip Seib (ed.), *New Media and the New Middle East*, New York: Palgrave Macmillan, 2007, pp. 74-75.

Seib, *Real-Time Diplomacy, pp.* 117-18.

عصر جديد من البث التلفزيوني في العالم العربي

نهى ميلّر

أستاذة الإعلام بجامعة بدفوردشير، المملكة المتحدة

مقدمة

تصدرت قناة الجزيرة العربية منذ انطلاقها عناوين الصحافة الغربية، وأضحت أولى القنوات الإخبارية المستأثرة بالدراسة بين الشبكات الإخبارية في الأوساط الأكاديمية الغربية والعربية على حدّ سواء؛ بل إن بعض الباحثين أطلق على قناة الجزيرة العربية، مصطلحات رنّانة من قبيل "الشبكة المتفردة" و"المجال الشعبي الجديد" ومنبر "نشر الديمقراطية" في المنطقة العربية. لكن مع ذلك، فقد واجهت القناة الكثير من التحديات لا سيما منذ بداية الانتفاضات العربية خلال السنوات القليلة الماضية. فبالإضافة إلى تأثير التراجعات الاقتصادية الإقليمية والعالمية على موارد القناة، واجهت الجزيرة العربية نقدًا واسعًا، لا سيما في دول الثورات/الانتفاضات العربية، مثل مصر وليبيا.

يناقش هذا الفصل قدرة قناة الجزيرة العربية على تثبيت علامتها، التي كفلت لها التميز عن منافساتها في المنطقة. أما ما يتعلّق بالتراجع المزعوم في معدل متابعتها، خلال السنوات القليلة الماضية، فيستوجب تسليط الضوء عليه في السياق الذي يتحرك فيه الإعلام العربي بشكل عام، والذي يتشابك فيه العمل الإعلامي والسياسة أيّما تشابك، إلى درجة تجعل من العسير على وسائل الإعلام الإخبارية، في الغالب، تحقيق الاستقلالية المهنية الكاملة. وبالتالي، فبدلا من استحداث قنوات منافسة، فإنّه ينبغي على المستثمرين في مجال الإعلام، والإعلاميين المهنيين، استحداث مسارات جديدة للتعاون بين المنصات ذات التوجّه العروبي الشامل من جهة، ووسائل الإعلام المحلية أو الإقليمية من جهة أخرى.

سأعرّج في البداية على العوامل التي ساعدت الجزيرة على تبوّء موقع رائد في مجال الأخبار في العالم العربي، ثم أناقش الاتهامات الموجهة إلى الجزيرة عقب الثورات/الانتفاضات العربية. وفي القسم الموالي من الفصل، سأبحث في قدرة الجزيرة، ووسائل الإعلام العربية الأخرى، على العمل كمجال عمومي جديد بدلًا من أدائها التقليدي كقناة بث إخباري تقدم خدمية عمومية، لا سيما في منطقة تتشابك فيها وسائل الإعلام تشابكًا هائلا مع السياسة. وأخيرًا، سأقترح مسارا مناسبا للمستقبل، حيث ينبغي على وسائل الإعلام العربية الإقليمية ووسائل الإعلام المحلية التعاون فيما بينها.

هل هي خدمة عمومية جديدة؟

انطلقت قناة الجزيرة العربية الإخبارية في العام 1996 لتبث في جميع أرجاء المنطقة، وسرعان ما رسّخت وجودها كشبكة عربية مهنية تنافس المؤسسات العالمية، مثل "بي بي سي" (BBC) العربية. ونجحت القناة، التي تتخذ من قطر مقرًا لها، في لفت الانتباه العالمي لا سيما منذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر وما تبعها من حرب في أفغانستان. أفضى نجاح الجزيرة إلى بث روح المنافسة في عالم الإعلام الإخباري العربي الراكد في حينها، فانطلقت قناة "العربية" الفضائية في العام 2003 كجزء من شبكة تلفزيون الشرق الأوسط (أم بي سي) لتكون المنافس الأبرز للجزيرة. وشهد عدد القنوات الإخبارية منذ ذلك الحين تضخمًا كبيرًا، إذ يوجد حاليًا ما يربو على 66 شبكة إخبارية تتنافس على استقطاب أعين المشاهدين وإعلانات المعلنين،

وأغلبها مجاني. هذا التطور الناتج عن تزاوج بين الثروة الخليجية والاشتراك الواسع في استخدام اللغة العربية المكتوبة، يعني أن هناك فرصة لضخ مزيد من الأموال في صناعة الإعلام (ميلور (Mellor)، 2015). هنا برز السعوديون باعتبارهم ذوي النفوذ الأكبر. ومع التضييق على وسائل الإعلام المستقلة في الداخل، شرع الكثير من المستثمرين السعوديين في صب الأموال صبًا لبعث القنوات الإخبارية في الأسواق الأكثر تحررًا؛ فكانت البداية في لبنان ثم في دبي. غير أن القوانين الصارمة الحاكمة للأداء الإعلامي والرقابة الذاتية عليه ظلت النمط السائد في عموم المنطقة، وهو ما يعني أن كل قناة إخبارية بحاجة إلى دولة حاضنة حتى تنجو من التسلط الحكومي. ويمكن أن نقف على هذه الحقيقة في التغطية التي تقدمها وسائل الإعلام العربية في شتى أنحاء المنطقة (ميلور، 2015).

يمكن توصيف القنوات الفضائية الجديدة بكونها تخاطب الجماهير العربية، لا في المنطقة العربية فحسب، وإنما في أوروبا والأميركتين أيضًا (غريب، 2000). وقد استطاعت الجزيرة العربية أن تحافظ على مكانتها باعتبارها المزود الإخباري الرائد في المنطقة، وواحدًا من المزودين الإخباريين المفضلين عند الجاليات العربية خارج الأقطار العربية، إذ كانوا أول المستفيدين من الإعلام العابر للحدود سواء أكان ذلك عبر التلفزيون الفضائي أم عبر الصحف العربية. لقد حققت الجزيرة العربية حضورًا عالميًا لافتا تجلى بوضوح في المدن والحواضر الكبرى مثل لندن، فأتاحت دمج الجاليات العربية في الشأن العربي (ميلادي (Miladi)، 2006). ومن خلال إبرازها لآراء مجموعات المعارضة السياسية، واستجواب متحدثين رسميين إسرائيليين على شاشتها، والتدقيق في القضايا الخلافية على المستويين السياسي والاجتماعي، قدمت الجزيرة العربية مادة إخبارية جديدة للمشاهد العربي الذي طال تعطشه إلى "شيء جديد" يمس حياته ويوليه ثقته ويستشعر المسؤولية فيه؛ فلطالما اعتمد على "بي بي سي" أو "سي أن أن" أو غيرهما من مصادر الأخبار غير العربية لمعرفة الأحداث الجارية، أو الاعتماد على برامج إخبارية تُحكِم الحكومات العربية قبضتها عليها" (سيب (Seib)، 2011، ص. 20).

حازت الجزيرة ثلاث مزايا رئيسية مهمة أكّدت فرادتها مقارنة بغيرها من المنافسين الإقليميين: أولاها الدعم المالي، وثانيتها التقنية الحديثة، وثالثتها القدر المعقول من الحرية الصحفية (غريب، 2000). علاوة على ذلك، استعانت الشبكة بالعديد من المذيعين والخبراء من ذوي الخبرات السابقة في شبكات عالمية، مثل "سي أن أن" و"بي بي سي"، وفتحت آفاقًا جديدة مثل البرامج الحوارية السياسية على طريقة البرامج الأميركية (مثل برنامج "الاتجاه المعاكس" الذي يشبه برنامج "Crossfire"). وسعيًا من الشبكة إلى الوصول إلى دائرة أوسع من الجمهور الغربي، أطلقت الشبكة "قناة الجزيرة الإنجليزية" في العام 2006، بالرغم من الاختلافات التحريرية الواضحة بينها وبين القناة الأم، حسب بعض الدراسات (عبد المجيد وهيرينغ (Herring)، 2008). وفي وقت لاحق، توسعت الشبكة لتضم قنوات أخرى متخصصة مثل الجزيرة الرياضية والجزيرة الوثائقية والجزيرة موبايل والجزيرة مباشر والجزيرة بلقان. وفي أعقاب الانتفاضات العربية، أطلقت الجزيرة قناتها "الجزيرة مباشر مصر" للتركيز على الشأن المصري دون سواه. وفي العام 2013، أطلقت الشبكة قناة "الجزيرة أميركا" بعد شراء قناة "ذا كارينت" (The Current) الأميركية. لكن الأمر انتهى بإغلاقها خلال هذا العام (أبريل/نيسان 2016) بعد الإعلان عن انتفاء مقتضيات الاستمرار في هذا المشروع، وذلك في ضوء التحديات الاقتصادية القائمة في السوق الإعلامية الأميركية. كذلك، بررت الشبكة قرارها بإغلاق الجزيرة أميركا، بالتحول نحو وسائل الإعلام الجديدة والاستثمار أكثر في وسائل التواصل الاجتماعي، باعتبارها مصادر جديدة للأخبار، وهو ما دفع الشبكة إلى تعزيز محتواها الرقمي وخدمات التوزيع الرقمية وصولا إلى الولايات المتحدة وغيرها من الأسواق العالمية.

تعتبر الجزيرة من الشبكات الإعلامية الرائدة في استخدام وسائل الإعلام الرقمية. فقد أطلقت موقع الجزيرة نت (Aljazeera.net) في العام 2001، وهو موقع يقدم مادة مكثفة من الأخبار ويعرض سجلا واسعًا من

البرامج العربية. وقد فاز هذا الموقع بعدة جوائز من بينها جائزة الصحافة العربية للعام 2008، وهي جائزة استحدثتها دبي في العام 2004. أما القناة المنافسة، وهي "العربية" التي تتخذ من دبي مقرًا لها، فقد أطلقت بدورها خدمة إلكترونية باسم العربية نت (Alarabiya.net) في العام 2004 بعد مراجعة المواقع المنافسة حتى يتسنى لها تحديد المواضيع التي تسترعي انتباه الشباب العربي (عايش وميلور (Ayish & Mellor)، 2016، ص. 25). وفاز موقع الجزيرة الإنجليزية على شبكة الإنترنت بجائزة الصحافة الإلكترونية من "مؤسسة الأخبار الإلكترونية" (ONA) عن تغطيته الثورة المصرية، علمًا بأن أكثر من 70% ممن وصلوا إلى موقعها هم من مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي (عايش وميلور، 2016، ص. 56). ثمة مثال آخر على تكامل وسائل التواصل الاجتماعي في الأداء الإعلامي لشبكة الجزيرة، وهو نافذة "شارك" (sharek.aljazeera.net)، التي أطلقتها القناة كمصدر تفاعلي إضافي على غرار خدمة iReport التي أطلقتها شبكة "سي أن أن". أطلقت منصة "شارك" في العام 2008 واستقطبت كمّا هائلا من تفاعلات المستخدمين حيث وقع تحميل مقاطع الفيديو بعدد زاد على سبعين ألف مقطع من مختلف أنحاء الشرق الأوسط وشمال إفريقيا (عايش وميلور، 2016، ص. 68). وجاء إطلاق "وحدة الشفافية" في الجزيرة خلال يناير 2011 باعتبارها النسخة العربية من "ويكيليس"، ولتكون "منصة لإرسال الوثائق ومحتوى الوسائط المتعددة أو القرائن والأدلة والبراهين إلى غرفة الأخبار بغية تنقيحها قبيل النشر التحريري" (عايش وميلور، 2016، ص. 144). إلى جانب ذلك، عززت الشبكة مشاركة جمهورها من خلال استحداث مزايا تفاعلية في منصتها الإلكترونية، واقترن ذلك بدعوة المواطنين إلى المشاركة بالمحتوى المقدم منهم وبناء شبكة مؤثرة مع المدوّنين والنشطاء في العديد من البلدان العربية (دافي (Duffy)، 2011).

لقد بعثت الجزيرة، دون شك، الحياة في عالم البث التلفزيوني والإذاعي العربي، فعجّلت بظهور جيل جديد من الخبرات الإعلامية من الشباب ذوي المؤهلات العلمية الرفيعة من منطقة الخليج (السعودية وعمان وقطر والإمارات والبحرين والكويت). وقد أسهمت الفرص المتاحة لذلك الجيل الجديد من الإعلاميين المحترفين في الخليج، في خلق مجال جديد لذلك الجيل حتى يعبر عن نفسه ويطلق العنان لمواهبه وقدراته الإبداعية. فكان ذلك إيذانًا بمرحلة جديدة في الساحة الإعلامية الخليجية والعربية عموما، لا سيما مع زيادة الاستثمار القَطري في عدد من المنصات الإعلامية. علاوة على ذلك، نجحت الجزيرة في تقديم بديل للهيمنة السعودية على الإعلام العربي، من خلال امتلاكها العديد من القنوات الفضائية والصحف العربية. كما نجحت في الترويج لدولة قطر باعتبارها فاعلا جديدًا على الساحة الإقليمية والدولية. وقد دار الكثير من النقاش حول العلاقة بين الجزيرة، باعتبارها جزء من استراتيجية قطر الإعلامية، واستراتيجية الدولة الشاملة الهادفة إلى خلق صورة ذهنية لها باعتبارها مشاركًا فاعلا في السياسة الدولية من خلال حضورها النشط في المجالات الثقافية والتعليمية والإعلامية (التميمي، 2012). وهناك من نظر إلى الترويج القوي الذي حققته الجزيرة لدولة قطر على مستوى حضورها وصورتها، من زاوية الدبلوماسية العامة (سيب، (Seib)، 2011). جدير بالذكر أنه بعد تأسيس الجزيرة، أقدمت قطر على إلغاء وزارة الإعلام لديها، في إشارة تدل على اتجاهها نحو مزيد من الشفافية وحرية الصحافة. وفي العام 2007، أقامت شراكة مع منظمة "مراسلون بلا حدود" لإنشاء مركز الدوحة لحرية الإعلام بهدف الدفاع عن الصحفيين في شتى أنحاء العالم، وبذلك برزت قطر باعتبارها نصيرا للإعلام الحر وملجأ للصحفيين المضطهدين (التميمي، 2012، ص. 87).

ركز الكثير من الدراسات الأكاديمية على الجزيرة باعتبارها محفزًا للإصلاحات السياسية والاجتماعية في المنطقة، فيما كشفت الدوائر البحثية الأكاديمية المتخصصة في الإعلام العربي عن أثر الشبكة لا في الإقليم فحسب، بل وفي المشهد الإعلامي العالمي كذلك (لمزيد من التفصيل في هذا الموضوع، انظر، "عبد المولى، 2015). لقد مثّل نموذج الجزيرة تحديا جدّيا للأدبيات الراسخة في مجال الدراسات الإعلامية، التي تربط ربطا عضويا بين طبيعة النظام السياسي وشكل المنظومة الإعلامية التي تعمل ضمنه، والتي لا ترى سبيلا لنشأة إعلام حر في بيئة سياسية غير ديمقراطية. جاءت الجزيرة لتثبت أن ذلك الربط غير ضروري وأن

بإمكان البيئة العربية، بما هي عليه من محافظة ونزوع سلطوي، أن تلد إعلاما حرا ومهنيا (عبد المولى، 2015). برزت الشبكة كبديل ذي مصداقية لوسائل الإعلام المحلية، وظهرت باعتبارها شكلا جديدا من أشكال "البث القائم على مفهوم خدمة الجمهور"، تقدم له أخبارا مهنية وموثوقة بهدف تمكين المواطن العربي وتعزيز دوره. الجديد في نموذج الجزيرة أيضا يتضح من خلال موقعها الوسط بين وسائل الإعلام الحكومية تهمين عليها الدولة وتوجهها وتضبط أجندتها وسياستها، ووسائل الإعلام التجارية التي يتحكم فيها رأس المال وضغوط المعلنين. يمكن تعريف خدمة الجزيرة "التمكينية" باعتبارها وسيطًا "يسهّل للمواطنين الوصول إلى الحياة العامة والمشاركة فيها [...]، ويعزز استفادتهم من التعليم والثقافة، ويطور المعرفة ويحفز التواصل والتفاعل بين المواطنين" (بانرجي وسينيفيراتني (Banerjee & Seneviratne)، 2005، ص. 13). ومع ذلك، فإن ما تقدّم يطرح سؤالا عما إذا كان بالإمكان أن نتوقع أن تلعب الجزيرة فعلا، دور مزود الخدمة العمومية، فتحقق التفاعل بين المواطنين من مختلف البلدان العربية في منطقة غارقة في الصراعات السياسية.

لقد قدمت الانتفاضات التي وقعت خلال السنوات الأخيرة مثالا عمليا على صعوبة دور الجزيرة، باعتبارها فضاء عاما جديدا أو شبكة إقليمية للبث العمومي. فالكثير من المعلقين يتهمون القناة بالتحيز المقصود عند التعاطي مع الصراعات الدائرة. لا شك أن الثورات/الانتفاضات العربية قدمت فرصة أخرى للجزيرة كي تقدّم نفسها باعتبارها نافذة إعلامية عالمية ذات شبكة واسعة من المراسلين ومعدّي التقارير في ميادين الأحداث. فقد وفرت الكاميرات لنقل صور حية على مدار اليوم والأسبوع من ميدان التحرير، فكانت الجزيرة العربية يومها أهم مصدر إخباري عن الثورة المصرية على سبيل المثال. كذلك عرفت زيارات الموقع الإلكتروني للجزيرة زيادة هائلة إبان تلك الانتفاضات بالتزامن مع الاستخدام المتزايد لوسائل التواصل الاجتماعي والوسائل الإعلامية الجديدة في الأوساط العربية في مواقع الأحداث. غير أن القناة وجدت نفسها متورطة في توترات سياسية عميقة طفت على السطح مجددًا في أعقاب تلك الثورات/الانتفاضات.

الوقوع في شبكة السياسة

واجهت قناة الجزيرة العربية منذ إطلاقها كمًا هائلا من النقد، لعل أبرزه ذلك الذي وجهته إليها الإدارة الأميركية على خلفية تغطية الشبكة لحرب أفغانستان في العام 2001 وبث أشرطة أسامة بن لادن؛ فيما أثارت الشبكة حفيظة النظم العربية بتقاريرها المتواترة والجريئة عن انتهاكات حقوق الإنسان في الكثير من الدول، ما أدى إلى إغلاق مكاتب الجزيرة في الكثير من المدن العواصم العربية (سيب، 2011). كما اتهمت الولايات المتحدة قطر بتوجيه محتوى الجزيرة بما يخالف اتفاقية الدول العربية لدعم حرية الصحافة. فقد جاء في تصريح للسفارة الأميركية أن الحكومة القطرية "تدعي مناصرة حرية الصحافة خارجها، لكنها لا تتقبلها بصفة عامة في الداخل"، وذلك عقب استقالة المدير الفرنسي لمركز الدوحة لحرية الإعلام في يونيو 2009 بسبب القيود المفروضة على حرية العمل (ورد ذلك في دراسة بوث (Booth)، 2010). واتُهمت الجزيرة كذلك باستخدام وثائق "ويكيليكس" المسربة، نيابة عن الدولة القطرية، لاستعمالها كورقة ضغط في مفاوضات السياسة الخارجية مع الولايات المتحدة، بل وعمدت إلى تغطية التسريبات بما يناسب تلك السياسة ووقف التغطية الحساسة نظير تنازلات معينة (التميمي، 2012، ص. 84).

إضافة إلى ما سبق، اتُهمت القناة بإثارة القلاقل في المنطقة. فعقب الإطاحة بمبارك أطلقت الجزيرة قناتها "الجزيرة مباشر مصر" للبث من داخل مصر في العام 2011 بالرغم مما يشاع عن عدم الترخيص لها بذلك. وقد أُغلقت القناة في العام 2013 بدعوى تهديدها الاستقرار في مصر (عبد الله، 2014، ص. 15). بعد ذلك،

وعقب الإطاحة بنظام مرسي في العام 2013، اتُهمت القناة بالتحيز لطرف واحد ودعم جماعة الإخوان المسلمين (عبد الله، 2014، ص 6). في خضم تلك التوترات، ألقت قوات الأمن المصرية القبض على الكثير من الصحفيين، من بينهم ثلاثة من صحفيي الجزيرة الإنجليزية في إطار القضية المعروفة باسم "خلية الماريوت"، وذلك لمباشرة عملهم من فندق الماريوت دون تصريح من السلطات. كما وُجهت لهم اتهامات بتشويه صورة الدولة في الخارج واختلاق أخبار لا أساس لها من الصحة بدافع مناصرة جماعة الإخوان المسلمين (عبد الله، 2014، ص. 22).

وفي دراسة حديثة صدرت بشأن تغطية شبكة الجزيرة (الإنجليزية والعربية) للانتفاضة الليبية في العام 2011، تبين أن المصالح السياسية الوطنية والخارجية تؤثر في تغطية الشبكة للأحداث. وقارنت الدراسة المذكورة بين تغطية الجزيرة وتغطية "بي بي سي" (العربية والعالمية)، وأوردت معطيات مثيرة للاهتمام تشير إلى أن كلتا الدولتين المضيفتين للشبكتين، أي قطر والمملكة المتحدة، تشاركان بقوة في تدخل "الناتو" في ليبيا وتروجان له. وانتهت الدراسة إلى أن التغطية في كلتا الشبكتين كانت متأثرة بمصالح السياسة الخارجية للدولتين، وهو ما يؤكد الرابط بين الأهداف الإخبارية والمضامين السياسية (الناهد، 2015).

يورد بركات (2016) روايات لموظفين سابقين لدى الشبكة قالوا إن مجلس إدارة الشبكة يتحكم في السياسات التحريرية، علمًا بأن رئيس مجلس الإدارة هو أحد أفراد الأسرة الحاكمة في قطر، وهو ما يطرح مجددًا التساؤل بشأن الاستقلالية التحريرية للشبكة. ويرى بركات (2016) أن قناة الجزيرة العربية أسهمت في إحداث تغييرات ميدانية في كل من مصر وليبيا خلال انتفاضتيهما في العام 2011، وذلك بتوفيرها منبرا لمفكرين مثل عزمي بشارة ويوسف القرضاوي، وغيرهما من رموز المعارضة في مصر وليبيا، في مسعى من الجزيرة لسحب الشرعية من النظامين السابقين المصري والليبي عبر التأطير المكثف لهما بعمليات مدروسة. واكتسب دور الجزيرة زخمًا وقوة بفعل ضعف أداء وسائل الإعلام المحلية في كل من مصر وليبيا مقارنة بالتقارير الكثيفة الصادرة عن الجزيرة واقترانها بتحليلات دقيقة من أجل قراءة الموقف في الدولتين؛ فضلا عن إفساح المجال لمفكرين مثل عزمي بشارة لاقتراح استراتيجيات بعينها بغية تصحيح الأوضاع. لعبت الجزيرة إذن، دورا جديدا عقب الانتفاضات، استفاد من تكنولوجيات الاتصال في عرض رؤى المفكرين للتحولات الجارية ولتعقيدات الواقع السياسي المستجد في المنطقة. وبذلك برزت الجزيرة باعتبارها مفكرًا مؤسسيًا، أي على هيئة المفكر الذي يجمع بين الأدوات التقنية والموارد الفكرية والقدرة على اختراق قطاعات اجتماعية عريضة والتأثير فيها. فهي إذن مفكر ينهض بدور مناوئ للسطوة في مواجهة النظم المستبدة (بركات، 2016).

انتُقدت الجزيرة أيضًا على خلفية تعاطفها الواضح مع "الإخوان المسلمين" في الكثير من المقابلات مع القياديين الأبرز للإخوان، مثل خيرت الشاطر ومحمد مرسي ومحمد بديع، في ضيافة المذيع أحمد منصور، الذي أعلن بنفسه انتماءه للإخوان المسلمين (القاسمي، 2012). كما أكد بعض صحفيي الجزيرة ومذيعيها على مسؤوليتهم الاجتماعية في أن يكونوا صوت من لا صوت لهم. فمثلا، دافع محمد كريشان، مقدم برنامج "حديث الثورة"، عن موقف الجزيرة تجاه الإخوان المسلمين قائلا: "إن الإسلاميين يشكلون حركات معارضة قوية في العالم العربي، والجزيرة لا تفعل شيئا سوى النهوض بدورها المهني كمزود إخباري من خلال إفساح المجال للمعارضة للتعبير عن رأيها" (أبو نجلية وميلور، 2016). بعبارة أخرى، فإن الجزيرة ستتخلى عن التزامها بالقيم التحريرية الموضوعية إذا لم تفسح المجال للصوت الإسلامي كما تفسحه للصوت العلماني. وذهب الإعلامي أحمد منصور إلى أن واجب القناة هو الوقوف إلى جانب الضعفاء والمضطهدين، بما في ذلك الحركات الإسلامية، مثل الإخوان المسلمين عقب انقلاب المؤسسات العسكرية في مصر عليهم وحظر الحركة في العديد من الدول العربية. في المقابل، برر الصحفيون الذي تركوا الجزيرة مباشر مصر عقب

الإطاحة بمرسي خروجهم بالانتصار المستميت للموضوعية الغربية التي ترفض التحيز في الصراع الدائر (المرجع السابق).

الترابط بين الإعلام والسياسة

تعرضت الجزيرة، كما أسلفنا، للنقد من قبل بعض المراقبين على خلفية تحيزها لرواية "الإخوان المسلمين" في مصر، غير أنها لم تكن المؤسسة الإعلامية الوحيدة التي وجدت نفسها في اشتباك مع تلك التداخلات السياسية. فقد رحبت قناة "العربية"، على سبيل المثال، بالإطاحة بنظام الرئيس مرسي ومجيء الانقلاب العسكري. كما اتهمت البحرين إيران بتمويل 40 قناة فضائية بهدف ترويج الدعاية المغرضة ضدها وضد دول الخليج خاصة بعد الانتفاضات العربية بداية من أواخر العام 2010. من جانبها، أغلقت مصر بعد الانقلاب 12 قناة فضائية وأصدرت تحذيرات لعشرين أخرى بسبب ازدراء الأديان. وفي العراق، علقت الحكومة تراخيص 10 قنوات فضائية لما وصفته بأنه تسعير للخطاب الطائفي. علاوة على ذلك، اتُهمت قناة "الميادين"، التي أسسها مذيع الجزيرة السابق غسان بن جدو، بخدمة صوت سوريا وإيران وحزب الله في لبنان من أجل معادلة النفوذ السعودي هناك. كما واجهت قناة "العرب" الإخبارية في مهد انطلاقتها مصيرا مجهولا نتيجة العلاقة غير السوية والضارة بين السياسة والإعلام. فعندما أطلقها الملياردير السعودي الأمير الوليد بن طلال، وعدت القناة جمهورها بأن تكون "ثورية" الطابع في الشرق الأوسط. فبدأت القناة بثها في الأول من فبراير/ شباط 2015، وفي اليوم التالي أغلقتها السلطات البحرينية بحجة ما أسمته أسبابًا "إدارية"، إذ اتهمت الشبكة بأنها لم تستصدر التراخيص اللازمة للبث. أمّا السبب الحقيقي، كما تبين لاحقًا، فكان اللقاء التي أجرته القناة مع خليل المرزوق، القيادي بحزب المعارضة الأبرز في البحرين، على الرغم من نفي الحكومة البحرينية تعليق عمل الشبكة لأسباب سياسية. ومن ثم، فإن مثال "العرب" في سعيها إلى الصعود وسقوطها المدوي إنما يكشف جانبًا من التقلب والصعوبة في عالم التلفزيون الإخباري في الشرق الأوسط حيث توجد ثروات هائلة مرصودة لصناعة الإعلام، ولكن الصعوبات السياسية ما تزال قائمة (ميلور، 2015).

الحقيقة أن جميع المؤسسات الإخبارية في المنطقة تعمل وفق منظومة أوسع من السياسات والضوابط التي تؤثر تأثيرًا مباشرًا في مضامينها وفي منسوب حرية التعبير لديها. ولعل العامل السياسي من أهم تلك العوامل المؤثرة عند تحليل الإنتاج الإخباري في المنطقة. وقد أسهمت الأحداث الأخيرة، مثل الثورات/الانتفاضات العربية، في تعقيد العلاقة المتشابكة أصلا بين السياسة والإعلام (عبد الستار، 2013)، فأضحت تغطية الجزيرة جزءًا من الصراع الدائر في المجال السياسي.

يستمر هذا التداخل غير الصحي بين السياسة والإعلام فيؤثر سلبا على أداء أغلب وسائل الإعلام العربية في المنطقة. فالكثير من السياسيين أصبحوا يتواصلون مع المواطنين من خلال وسائل الإعلام بدلا من استخدام منظوماتهم الحزبية الآفلة. وبالرغم من انتعاش الأحزاب السياسية عقب الربيع العربي، فإنّ وسائل الإعلام ما تزال تلعب دورا محوريا في توجيه الرأي العام والتأثير فيه. ولا يبدو أن تلك الأحزاب قادرة على تصحيح العلاقة بين المجال السياسي والإعلام؛ بل تحولت، بسبب أعدادها المتضخمة، إلى عائق يحجب رؤية المواطنين لبرامجها ويعيق إدراكهم لمدى الاختلاف الذي يميز بعضها عن بعض. فمثلا، شهدت مصر عقب ثورة 25 يناير 2011 طوفانًا من الأحزاب والحركات السياسية زاد عددها عن الأربعين حزبا. ولكن الجمهور من جهته أصبح أكثر تفاعلا وقدرة على مراقبة المحتوى الإعلامي. فمثلا، أذاعت قناة "العربية" هذا العام وثائقيًا عن قائد حزب الله، حسن نصر الله، بعنوان "قصة حسن" فأثارت به حفيظة الكثير من المشاهدين، لا سيما في المملكة العربية السعودية، الذين احتشدوا على وسائل التواصل الاجتماعي متهمين

القناة بتقديم نصر الله باعتباره بطلا. وعلى إثر ذلك، تم فصل المدير العام لقناة العربية، تركي الدخيل، من منصبه (الحياد. نت، 21 فبراير، 2016).

يرى عبد المولى (2015) أن الفصل بين المتغيرات في الساحة الإعلامية ونظيراتها السياسية بات مستحيلا؛ مؤكدًا أن الربيع العربي كان مثالا عمليًا آخر تجلت من خلاله العلاقة التفاعلية العميقة والدقيقة بين الإعلام والسياسة بما أسهم في بطء التطور الديمقراطي في المنطقة العربية. فلم يعد بالإمكان تصوير وسائل الإعلام باعتبارها خاضعة لقوى السوق أو لقيود الدولة فحسب (كوران (Curran)، 2005)، بل إن الإعلام العربي يكاد يؤدي دور المؤسسات السياسية، إلى جانب كونه منتدى للرأي العام ومجالا تتبلور داخله الخطابات التي تسهم في صناعة القرار. ومع ذلك، فإن البيئة السياسية العربية، بحكم انتشار الاستبداد في الكثير من البلدان، ما تزال أرضا خصبة لتعزيز سيطرة الحكومات على وسائل الإعلام واستخدامها لأداء الرسالة السياسية التي تناسبها. وبغض النظر عن مدى صعوبة المفاوضات بين الصحافيين العرب لنيل استقلالهم، فإنه ما تزال هناك قيود تحد من قدرتهم على توسيع مجالات عملهم المهنية وتعزيز دورهم في المجتمع.

التعاون بدلا من التنافس

مما لا شك فيه أن سوق الإعلام العربي مكبّلة بالتطورات السلبية التي يشهدها الحقل السياسي. فمثلا، يمكن إلغاء برامج، بل وقنوات كاملة من البث لأسباب سياسية. وفي حين شجعت الدول العربية سياسة السوق المفتوحة في المجال الاقتصادي، فإنها ظلت مترددة حيال فتح أفق المجال الإعلامي. ففضلت، بدلا من ذلك، الإبقاء على انقسام واضح يفصل بين المجالين السياسي والتجاري من جانب، والمجال الثقافي من جانب آخر. والحق أن تركيز الكثير من الدول العربية كان منصبًا على تحرير المجال الاقتصادي، فتبنت قيم السوق الرأسمالية والنيو- ليبرالية، فيما أبقت على المجالين الاجتماعي والسياسي رهن القيد والسيطرة. وحتى مع التوسع في مجال البث التلفزيوني والإذاعي الخاص، وارتفاع معدلات استخدام شبكة الإنترنت، وإنشاء مناطق إعلامية حرة، طوّرت الدولة بيئة تجارية تفضيلية للإنتاج الإعلامي بشرط أن لا يُستغل ذلك في الترويج للنشاط السياسي، سواء عبر الأعمال الدرامية أو البرامج الحوارية أو برامج الشؤون الجارية. وعقب الانتفاضات العربية، ظل الحديث عن دفع عجلة الإنتاج بسرعة هو النغمة السائدة، وذلك لفرض فكرة أن الثروة، لا النقاش السياسي، هو الطريق الوحيد للتنمية (ميلور، 2014).

وإذا كانت النظرية الليبرالية التقليدية تنظر إلى دور الإعلام باعتباره رقيبا يسائل الدولة ويحاسبها، إلا أن ذلك النموذج لا يكاد يأخذ بعين الاعتبار أصحاب الشأن الآخرين، وبذلك لا يضمن "مساءلتهم على سوء استغلالهم لمصادر السلطة بمختلف أنواعها سواء في المجال العام أو المجال الخاص" (كوران، 2005، ص. 124). في سياق هذا الجدل حول الإعلام ودوره، يمكن القول إن وسائل الإعلام الخاصة تهدد الصحافة المؤسسية المستقلة، أو تنزل بمستوى الصحافة الاستقصائية لفائدة أصناف صحفية أخرى أقل شأنًا وأكثر رواجًا (كوران، 2005، ص. 129). كما يمكن القول أيضا، إن المشاريع الإعلامية الخاصة تلعب دورا إيجابيا بتشجيعها للتنافسية، فالتنافس بين وسائل الإعلام الأجنبية والإقليمية من شأنه أن يفضي إلى تعزيز الاحترافية بين المتخصصين في صناعة الأخبار، برغم ما يقال عن خضوع وسائل الإعلام الخاصة لضغوط رؤوس الأموال والمعلنين. لتطوير هذه البيئة، يقترح كوران (2005) دخول التلفزيون الوطني الذي يقدم خدمة عمومية في حوار مع القطاعات الإعلامية الهامشية، بما في ذلك المؤسسات الخاصة والقطاعات المهنية والمدنية. لكن، هل بمقدورنا استحداث نموذج مماثل للساحة الإعلامية العربية، وهل يمكن أن نتوقع وجود مؤسسة إعلامية إقليمية واحدة تقدم خدمة عمومية من هذا القبيل، بدلا من هذه القنوات الوطنية التي تبث في منطقة يُوظف فيها الإعلام كأداة لخدمة أهداف سياسية ودينية؟

يبدو نموذج كوران في وجود منظومة إعلام عمومي تنخرط في حوار مع وسائل الإعلام المحلية والمجتمعية والمهنية ووسائل إعلام المجتمع المدني، واعدا، وإن كان تطبيقه صعبا في المجال الإعلامي العربي. فرغم إسهام الجزيرة في إثراء التدفق العكسي للمحتوى الثقافي العالمي من الجنوب باتجاه الشمال، إلا أنها ما تزال تتحرك في إطار هذا التداخل العميق بين الإعلام والسياسة. ولذلك فمن المستحيل المحافظة على الاستقلالية التحريرية الكاملة إزاء النفوذ السياسي. وفي ظل هذا المشهد الإعلامي غير المنظم والمكتظ بوسائل إعلام فصائلية وحزبية، تجد كل وسيلة إعلامية نفسها أمام تحد حقيقي يتعلق بقدرتها على أن تكون منبرا مفتوحا يسمح بالنقد والتبادل الحر للأفكار. بل إنه من الصعب أن نتوقع وجود لاعب إقليمي واحد قادر على أداء مهمة الإعلام الوطني العمومي. ومن ثم، فإن السبيل للتقدم قد يكمن في التعاون، لا في التنافس؛ أي أن تكون مهمة الإعلام الوحيدة هي إبراز صوت مختلف المجموعات في المجتمع حتى ولو كانت متصارعة، ليس هذا فحسب، بل وعليه أيضًا "الترويج للمصالحة" (كوران، 2005، 137). إن المشكلة في الساحة الإعلامية العربية تكمن في عدم الرغبة في التعاون من أجل تنظيم مجال البث الفضائي الراهن، وهي مشكلة طرحتها الجزيرة وناقشتها. (انظر برنامج "الواقع العربي"، الحلقة المذاعة بتاريخ 24 من ديسمبر/كانون الأول 2014).

هناك الكثير من الفرص ومن مجالات التعاون بين المؤسسات الإعلامية العربية، التي لم تُطرق بعد، مثل الجزيرة ووسائل الإعلام المحلية. ومن الفرص القائمة، مثلا، استخدام الخبرات والموارد المحلية عند تغطية الأحداث المحلية (مع اجتناب الحوادث المماثلة للواقعة المعروفة باسم "خلية الماريوت"). يمكن إنتاج وثائقيات مشتركة، وإقامة مجمّع مشترك من الموارد التدريبية، والاتفاق على مجموعة من المعايير المهنية المشتركة. يشير كوران (2005، ص. 144) إلى الموقع الإلكتروني "الديمقراطية المفتوحة" (Open Democracy) باعتباره نموذجا حيا للصحافة العالمية التي توفر "منبرا مفتوحا وتعدديا وتفاعليا وذكيا للحوار والنقاش بين أناس في مناطق مختلفة من العالم". ومن بين المؤسسات الإعلامية العربية، تعتبر الجزيرة في وضع مثالي لقيادة مبادرة من هذا النوع بالاعتماد على الخبرات المحلية والإقليمية. غير أن المفارقة هي أن اتحاد إذاعات الدول العربية يضم بالفعل لجنة تتمثل مهمتها في إدارة التعاون بين القنوات الفضائية العربية في ما يتعلق بتنسيق البث التلفزيوني، وعقد منتديات سنوية، ومناقشة التشريعات الجديدة، وتنسيق الموارد التدريبية المشتركة، وتقديم رؤى جديدة للتواصل عبر الثقافات. إلا أن ذلك التعاون لم يتحقق منه شيء على أرض الواقع، ما دفع أحد المعلقين العراقيين إلى نعي التعاون في إنتاج برامج مشتركة أو مجرد الاتفاق على رؤية مستقبلية بشأن كيفية إسهام القنوات الفضائية في الإصلاحات السياسية والإعلامية (الياسري، 2016).

إن وجود ساحة إعلامية قادرة على الإسهام في بناء وصيانة فضاء عمومي نابض بالحياة يتوقف على الجهود المشتركة للمتخصصين العرب في مجال الإعلام من أصحاب المؤسسات العربية العابرة للحدود، مثل الجزيرة، القادرة على قيادة مبادرات من هذا القبيل بغية تعزيز استقلالية العاملين في حقل الإعلام، سعيًا إلى التخفيف من تدخلات الدولة في هذا المجال. فإن لم يتحقق ذلك، فإن وسائل الإعلام العربية ستظل مشاريع غير مستقرة، بقاؤها مرهون بالدعم السياسي الذي إن غاب عنها غابت هي عنا.

المراجع:

Abdelmoula, E. *Al Jazeera and Democratization: The Rise of the Arab Public Sphere*, London & NY, Routledge, 2015.

Abdel-Sattar, N. *Innovation in Arabic Online Newsrooms: A Comparative Study of the Social Shaping of Multimedia Adoption in Aljazeera Net, Almassae and Almasry Alyoum in the Context of the Arab Spring*, PhD diss, Oxford Internet Institute, University of Oxford, 2013.

Abdulla, R. *Egypt's Media in the Midst of Revolution*, *Carnegie Endowment for International Peace*, Washington DC, 2014.

Abdul-Mageed, M. M. & Susan C. H. "Arabic and English News Coverage on Aljazeera.net" in F. Sudweeks, H. Hrachovec, and C. Ess (Eds.), *Proceedings of Cultural Attitudes towards Technology and Communication* (CATaC'08), Nîmes, France, June 24-27, 2008.

Abunajela, M. A. & Mellor, N. "Islam in the News", in Noha Mellor & Khalil Rinnwai (eds.) *Political Islam and Global Media: The Boundaries of Religious Identity*, London & NY, Routledge, 2016.

Al-Heyad.Net "Al-Arabiya tells Hasan's Story", *Al-Heyad.Net*, 21 February, 2016. http://www.alheyad.net/news48846.html

Al-Nahed, S. "Covering Libya: A Framing Analysis of Al Jazeera and BBC Coverage of the 2011 Libyan Uprising and NATO Intervention, *Middle East Critique*, Vol. 24, Issue 3, 2015, pp. 251-267.

Al-Qassemi, S. 'Morsi's Win is Al Jazeera's Loss', *Al Monitor*, 2012.

http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2012/al-monitor/morsys-win-is-al-jazeeras-loss.html

Ayish, M. & Mellor, N. *Reporting the MENA Region: Cyber Engagement and Pan Arab Social Media*, MD, Rowman & Littlefield, 2016.

Banerjee, I. & Seneviratne, K. (eds.) *Public Service Broadcasting: A Best Practices Sourcebook*. UNESCO, 2005.

Barakat, R. Al-Jazeera, *Intellectuals, and the Deconstruction of Social Realities*. Unpublished PhD thesis, Edinburgh University, UK, 2016.

Booth, R. "WikiLeaks Cables Claim Al Jazeera Changed Coverage to Suit Qatari Foreign Policy", *The Guardian*, 6 December 2010.

https://www.theguardian.com/world/2010/dec/05/wikileaks-cables-al-jazeera-qatari-foreign-policy

Curran, J. "Mediations of Democracy", in Curran, James & Michael Gurevitch (eds.) *Mass Media and Society*, 4th edition, London, Hodder Arnold, 2005.

Dabbous-Sensenig, D. "To Veil or Not to Veil: Gender and Religion on Al-Jazeera's Islamic Law and Life", in *Westminster Papers in Communication and Culture*, Vol. 3, No 2, 2006.

Ghareeb, E. “New media and the information revolution in the Arab world: An assessment”, *The Middle East Journal*, 54 (3), 2000.

Hersh, J. “Wadah Khanfar, Ex-Al Jazeera Boss, Dismisses Rumours about his Resignation”, *Huffington Post*, 28 September 2011.

http://www.huffingtonpost.com/2011/09/28/wadah-khanfar-al-jazeera_n_985945.html

Mellor, N. “The Two Faces of Media Liberalization”, *Mediterranean Politics*, Vol. 19(2), (2014, pp. 265-271.

Mellor, N. “For the Arab World, Lots of New Channels, but Still the Same Old Story”, *Reuters*, 26 Feb. 2015.

Miladi, N. “Satellite TV news and the Arab Diaspora in Britain: Comparing Al-Jazeera, the BBC and CNN”, *Journal of Ethnic and Migration Studies*, Vol. 32, No 6, 2006, pp. 947–60.

Seib, P. “Al-Jazeera English in Focus: International Broadcasting”, *Public Diplomacy Magazine*, USC Center on Public Diplomacy, 2011.

Tamimi, N. Al-Diplomasiya al-`ama wa takween al-sima al-wataniya. *Al Jazeera Centre for Studies*, 2012.

Yasri, F. Nahwa tafaul akbar bayna al-fada’iyyat al-Arabiya”, *Al-Sabah al-Jadid*, March 2016. http://www.newsabah.com/wp/newspaper/76967/

القوة الناعمة لوسائل الإعلام الهجين:

تلاقي وسائل الإعلام و"تأثير الجزيرة"

عزيز دواي

أستاذ الاتصال والإعلام الرقمي بجامعة أونتاريو، كندا

مقدمة

سواء أسميناه "تأثير الجزيرة" أم أداة "للقوة الناعمة" القطرية، فإن التأثير المبتكر والرائد للجزيرة نابع من طبيعة منظومتها التي تشكلت في بيئة الإعلام الهجين، وهي منظومة تجمع في الوقت ذاته بين جديد التقنية والحركية السياسية للجماهير العربية المترابطة شبكيًا. فبعد عقدين على إطلاقها في العاصمة القطرية الدوحة، توسعت الجزيرة بشكل مذهل، إذ تحولت من قناة تلفزيونية إخبارية صغيرة ناطقة بالعربية إلى كيان هائل يوظف مئات المراسلين والطواقم الإعلامية (ألايد – ميديا (Allied-Media)، 2016 أ). كما تواصل الشبكة اجتذاب ملايين المشاهدين والمستخدمين، وقد نجحت في تحقيق حضور عالمي فريد تعزز بامتلاكها أكثر من 70 مكتبًا في شتى أنحاء العالم. أمّا الإنجاز الأبرز لهذا المشروع فيتمثل في إعلاء الجزيرة للصوت العربي، وهو ما يعني بالتبعية إعلاء صوت دولة قطر ومصالحها في العلاقات الجيوسياسية والعلاقات الدولية (مايلز (Miles)، 2006؛ ساmويل – أزران (Samuel-Azran)، 2013). لطالما أثارت الإنجازات الملموسة للشبكة وانتشارها العالمي مقارنات بينها وبين هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) وشبكة (سي أن أن) الأميركية. فمنذ إنشاء الجزيرة، ظلت أنساقها البرامجية وطريقة جدولتها للأخبار العاجلة وأسلوبها في نقل الأخبار، تقارن في أحيان كثيرة بـ"سي أن أن"، وهو ما حدا ببعض المحلّلين والباحثين إلى نعتها بـ"سي أن أن العالم العربي" (انظر، مثلا، فندي، 2000؛ وجونسون وفهمي، 2008).

لقد تجاوزت المقارنة بين القوتين الإعلاميتين العالميتين – الجزيرة و"سي أن أن" – مستوى الأساليب الإخبارية والبرامجية إلى التركيز على جوهر تغطيتهما للسياسة العالمية. فقد كانت تغطية "سي أن أن" الميدانية لحرب الخليج الأولى، مثلا، مصدرا للمعلومات التي لا غنى عنها للمشاهدين من كل أنحاء العالم، الذين كانوا يرغبون في متابعة مجريات الحرب. ورغم أن "سي أن أن" استخدمت في تغطيتها لحرب العراق في العام 1991 تأطيرا معينا جعل منها تبدو حربًا "نظيفة" تخللها استخدام أسحلة دقيقة وذكية حدّت من أعداد الضحايا المدنيين (بودريلارد (Baudrillard)، 1995)، فإن تلك التغطية أسهمت بشكل فعّال في بناء سمعة الشبكة بوصفها رائدة الأخبار العالمية. وبالمثل، جاءت تغطية الجزيرة المتفرّدة لحرب الولايات المتحدة في أفغانستان، وما تبعها من غزو إدارة بوش للعراق عام 2003، لترسّخ مكانة الجزيرة بوصفها مؤسسة إخبارية رائدة تنطلق من العالم العربي ومن النصف الجنوبي من العالم. وبدلا من مقولة الحرب النظيفة، التي وقع الترويج لها من خلال عدسات مراسلي البنتاغون، فإنّ شاشة الجزيرة ضجّت بعرض ضحايا التدخلات العسكرية

الأميركية، وببيان الأعداد غير المعلنة من الضحايا المدنيين، فضلا عن بيان الفوضى التي خلفها الاحتلال. وفي إشارة على افتخار الجزيرة بتأثيرها المتصاعد، وُجد داخل مقرّ القناة في الدّوحة ملصق يحمل العبارة التالية: "العالم يشاهد سي أن أن، وسي أن أن تشاهد الجزيرة" (شريبي، 2012).

وسعيًا إلى رصد تأثير الجزيرة على الشؤون العالمية، فسيكون من المهم ألاّ نقتصر في هذا الفصل على أداء الشبكة باعتبارها أداة للدبلوماسية الناعمة لدولة قطر، بل وأن نعي أيضا إسهام تغطيتها المبتكرة للشؤون العربية والعالمية ومدى تجذّرها في رؤاها الواضحة ذات التحيزات العربية والإسلامية (ريناوي، 2006). بالإضافة إلى ما تقدّم، فإنّ هذا الفصل يطرح فكرة مفادها أن الجزيرة تمثل "نظامًا إعلاميًا جديدًا هجينًا" إن شئنا استعارة التوصيف الذي أطلقه تشادويك (Chadwick) (2013)، وهو نظام تتلاشى فيه الحدود بين الإعلام "القديم" و"الجديد" تلاشيًا كبيرًا لتمكين جماهيره ومستخدميه المرتبطين شبكيًا، وللإسهام في تشكيل ثقافة سياسية تشاركية ناشئة بالمنطقة. ولأجل ذلك، سأناقش بإيجاز دور الشبكة في تحويل قطر من دولة هامشية محافظة إلى فاعل مؤثر في السياسات الإقليمية والصراعات الدولية. ومن ثم، فإن تقاطع تغطية الجزيرة مع السياسة الخارجية لدولة قطر سيقع التطرق إليه من خلال إلقاء نظرة عامة على الطريقة التي انتهجتها القناة في تغطياتها للصراع العربي الإسرائيلي، والحرب الأميركية على الإرهاب، وما يُعرف بـ"الربيع العربي".

البيئات الحاضنة لوسائل الإعلام الهجينة: ما بعد "تأثير الجزيرة"

حققت شبكة الجزيرة صعودًا صاروخيًا أسفر عن تأثير متعدّد الأبعاد في العالم العربي، وهو ما أربك المحللين والباحثين في مجال الإعلام من الساعين إلى تفسير تلك الظاهرة الإعلامية. فغالبًا ما يقع تصنيفها ضمن مفهوم "التدفق الإعلامي العكسي" أو "صوت الجنوب" الذي وضع حدًا للهيمنة الإعلامية الغربية (توسو (Thussu)، 2014). ولعل أشهر التوصيفات هو ذلك الذي استخدمه "سيب" (Seib) (2008) عندما أطلق مصطلح "تأثير الجزيرة"، في مسعى منه لرصد التأثير غير المسبوق الذي أحرزته الجزيرة في العلاقات الدولية، ومدى إسهام انتشار تقنيات الاتصال الحديث في إحداث تحوّل في الشؤون الدولية.

من الناحية المفهومية، ينطوي مصطلح "تأثير الجزيرة" على رسم صورة لشبكة تمكنت تغطياتها الإخبارية في فترات كثيرة من تعبئة وتحريك الرأي العام العربي والمسلم، فنهضت بفضل ذلك بدور محوري في السياسة العالمية في القرن الحادي والعشرين. كما يشمل ذلك الدور التأثير المركّب الذي مارسته الشبكة وطال مؤسسات إخبارية أخرى في المنطقة وخارجها. فلم يكن مستغربا عندئذ محاكاة نموذج البث العالمي المذهل للجزيرة من قبل عدة قنوات أبرزها القناة الروسية "روسيا اليوم" ونظيرتها الفرنسية "فرنسا 24". والأهم من ذلك أن "تأثير الجزيرة" إنما يؤشر على طبيعة متزايدة

السيولة للمنظومة الإعلامية المعاصرة، وهي سيولة ناجمة عن التلاقي والتقاطع الحاصل بين مختلف بيئات العمل الإعلامي.

يعتبر مصطلح "تأثير الجزيرة" أحد تمظهرات البيئة الجديدة لوسائل الإعلام الهجينة، حيث يلتقي الإعلام التقليدي والإعلام الجديد، وتتهاوى الحدود القديمة بين تقنيات الاتصال الإعلامية. فقد أحدثت شبكة الإنترنت وغيرها من وسائل الإعلام "الجديدة" ثورة في "أنواع" الأخبار وبعثرت نظامها المعهود، فحوّلت جماهير وسائل الإعلام التقليدية إلى مستخدمين للمحتوى ومنتجين له في الآن ذاته. وفي ظل التحدي الماثل من الإنترنت، سعت المؤسسات الإعلامية الإخبارية "القديمة" أو التقليدية إلى التكيف مع مشاركات المستخدمين النشطة وتفاعلاتهم مع الأخبار. إن ما نشهده اليوم ما هو إلا ضرب جديد للتواصل والتلاقي بين "القديم" و"الجديد" كما يرى تشادويك، إذ يقول: "النظام الإعلامي الهجين قائم على التفاعلات بين المنطقين الإعلامي القديم والجديد (كل نظام تحدده حزمة من التقنيات والتخصصات والأعراف والسلوكيات والأنماط التنظيمية) اللذين يترابطان وينعكسان داخل المجال الاجتماعي للإعلام والسياسة. والفاعلون في هذا النظام يرتبطون بعلاقات معقدّة ودائمة التطور تقوم على مفاهيم التكيف والتبعية المتبادلة وتركيز القوة وتوزيعها. في هذا السياق، يخلق الفاعلون تدفقات المعلومات أو يستفيدون منها أو يتحكمون في مسارها بطرق تناسب أهدافهم، وفي الوقت ذاته تعدّل أو تمكّن أو تُعطل أداء الآخرين، وذلك على امتداد نطاقات متنوعة من السياقات الإعلامية القديمة والجديدة، بل وفي ما بينها" (ص. 4).

لقد أضحت الجزيرة، من خلال تغطيتها لأخبار العالم العربي، مفصلا مركزيا في سياسات المنطقة بوصفها فاعلا في النظام الإعلامي المرتبط بغيره من مفاصل الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية. ولعل جزءًا من النجاح المستمر للجزيرة يعود إلى فهمها وتجاوبها المرن مع هذا النموذج المتغير للأخبار، فقد تبنت بوضوح ثقافة المشاركة التي تقوم عليها وسائل التواصل الاجتماعي في تغطيتها الإخبارية وفي إنتاجها الإعلامي. وطوّعت القوة الهائلة لوسائل التواصل الاجتماعي، مثل "يوتيوب" و"تويتر"، ليصبح محتواها متاحا على مختلف المنصات. وليس البث التلفزيوني المباشر للقناة إلا مثالا على أن الشبكة تتحكم باقتدار في بيئتها المعلوماتية المترابطة حيث بات إنتاج المحتوى الإعلامي واستهلاكه خارج النموذج التقليدي سواء باعتماده على مصادر جماهيرية لجمع الأخبار أو لطبيعته التفاعلية أو لطابعه التعاوني. بالإضافة إلى القنوات التلفزيونية الجزيرة ومواقعها الإلكترونيه، فإن تغطيتها الإخبارية متاحة أيضا على منصات أخرى من بينها حساباتها على مواقع التواصل الاجتماعي مثل تويتر وفيسبوك وإنستغرام، وكذلك عبر تطبيقات "واتساب" و"تلغرام".

القوة الناعمة الهجينة: التناغم بين الجزيرة والسياسة الخارجية القطرية

يمكن أن نفهم تأثير الجزيرة في الشؤون الدولية من خلال فهمنا للتحول الذي طرأ على وضع قطر على مستوى السياسات الإقليمية والعلاقات الدولية. فلطالما كانت قطر فاعلا هامشيًا في العلاقات الدولية لأسباب جيوسياسية واضحة. إذ بسبب محدودية عمقها الجغرافي والسكاني، انتهجت الإمارة، صغيرة الحجم، والغنية بالنفط، سياسة محافظة وهادئة في السياسة العالمية، وعاشت تحت مظلة الجارة الكبرى، المملكة العربية السعودية، وضماناتها الأمنية حتى منتصف التسعينات (بركات، 2012، ص. 3). أما على صعيد السياسة والثقافة العربيتين، فقد لعبت مصر، لفترة طويلة، دورا محوريا عزّزت من خلاله فكرة العروبة والوحدة العربية، فيما كانت مكانة السعودية، بوصفها مهد الإسلام ومحوره الروحي، ضمانة لوضعها الخاص في قلب العالم الإسلامي. هذه المعادلة التي حكمت السياسة الخارجية العربية بدأت في التغير مع وصول الأمير الجديد حينها، الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، إلى سدة الحكم في دولة قطر في العام 1995، وسعيه تدريجيا إلى انتهاج سياسة ليبرالية، وإدراج قطر بقوة في السياسة الدولية (بركات، 2012). وقد كانت الجزيرة جزءًا من هذه الاستراتيجية الهادفة لدعم السياسة الخارجية والإسهام بفعالية في تعزيز خزّان الدبلوماسية الناعمة لدولة قطر. وبخلاف القوة "الخشنة" المتمثلة في القدرة العسكرية أو الإغراء الاقتصادي، تجنح القوة الناعمة إلى استمالة "الآخر" من خلال الإقناع لا الإكراه (ناي (Nye)، 2004). أما تشيتي (Chitty) (2015) فيؤكد أن القوة الناعمة والدبلوماسية العامة مفهومان متمايزان، غير أنهما يتقاطعان في مجال الدبلوماسية الشعبية الناعمة أو الدبلوماسية الثقافية. من هذه الزاوية، شكّلت الجزيرة أداة فعّالة واستراتيجية في مجال الدبلوماسية العامة لدولة قطر.

وقد ثبت نجاح هذا المزيج بين الصحافة المهنية والدبلوماسية الإعلامية نجاحا باهرا، فقد حافظت الجزيرة بشكل واضح على استقلاليتها التحريرية عن الدولة، ونجحت في نشر نمط جديد من الصحافة المهنية ومن المحتوى الإخباري في العالم العربي. لقد شكّلت القناة "نموذجًا جديدًا للدبلوماسية العامة من خلال جمعها بين صفتي المؤسسة التي تعمل تحت رعاية الدولة والمؤسسة الخاصة" (ساموبل – أزران، 2013، ص. 1293). وخلافا لشبكات الإعلام الدولية التقليدية التي ترعاها الدولة، مثل إذاعة "صوت أمريكا"، فإن نموذج الجزيرة "الهجين" اكتسب مصداقية أكبر نظرًا لقدرته على هز أركان الأنظمة الاستبدادية، واستفزاز طغاة الداخل و"قوى عظمى" على حد السواء، وزعزعة كثير من الصور النمطية الراسخة حول العرب. وقد وجدت الجماهير العربية منذ البداية في النقد الذي توجهه الشبكة للاستبداديات العربية أمرًا منعشا ومدخلا للتمكين، فسارعت باتجاهها في شكل جماعي (لينش (Lynch)، 2005). وبالنظر إلى دورها الممهّد لانتفاضات "الربيع العربي"، فقد أسهمت الجزيرة في تشكيل "جمهور عربي جديد، وهو جمهور آخذ في إحداث تحول ملموس في الثقافة السياسية العربية" (لينش، 2005، ص. 40). وعلى المستوى الدولي، تمكنت قناة الجزيرة العربية من احتلال موقع لها في السوق العالمية وإيجاد دائرة واسعة من المتابعين الأوفياء بين الجاليات العربية التي تبحث عن "بديل تستقي منه الأخبار وتتابع الشؤون الجارية، إلى جانب ما تعرضه القناة من نقاشات جريئة وبرامج دينية"، حسب دراسة الجمهور التي أجراها "ميلادي" (2006، ص. 953).
في هذا السياق، يرى باحثون في مجال الإعلام أن "القوة المرئية" للجزيرة لم تروج للسياسات الخارجية القطرية على الساحة الدولية فحسب، بل ومنحت الدولة قدرًا أكبر من المصداقية بوصفها وسيطًا في الصراعات الدولية (انظر مثلا توسو، 2014). وعلى المستوى الإقليمي، أضفت رمزية

وجود الجزيرة في العاصمة القطرية مستوى أكبر من الجدية على جهود قطر للتوسط بين الفصائل الفلسطينية. أما في الحرب الأهلية المدمرة الدائرة رحاها في سوريا، فقد ساندت قطر جهود التنسيق الموسعة بين فصائل المعارضة السورية الساعية إلى الإطاحة بنظام الأسد (توسو، 2014). أما إذا كانت الدولة المضيفة، طرفا في نزاع دولي، فإن تلك الدراسات ترى أن تغطية الجزيرة تميل لفائدة قطر، وهو ما يثبت وجود روابط أوضح بين المؤسسة الإعلامية والدولة. فمثلا، يرى ساමويل-أزران (2013) أن الجزيرة مثّلت "أداة دبلوماسية بيد قطر إبّان الخلاف السعودي – القطري (بداية من سبتمبر 2002 إلى سبتمبر 2007)" (ص. 1295). وقد تبيّن، بالاستناد إلى تحليل شمل الفترة، أن تغطية القناة للشأن السعودي بين عامي 2002 و2007 كانت تميل أكثر إلى السلبية كلما تصاعد التوتر واتسع الخلاف الدبلوماسي بين البلدين (ص. 1301). ومن المؤشرات السلبية في تلك التغطية تسليط الضوء على انتهاكات حقوق الإنسان في المملكة وتجاهل الرد الرسمي السعودي على ذلك، وإفساح المجال لمعارضين سعوديين على شاشات الجزيرة.

وبقطع النظر عن الخشية التي يمكن أن تطرحها طبيعة العلاقة بين الجزيرة ودولة قطر، فقد اقترن صعود الجزيرة مع تحول السياسة الخارجية القطرية من حالة السلبية إلى وضع الفاعل الدولي النشط. ويشهد على ذلك وساطات قطر المتزايدة وجهودها لإرساء السلام بتسوية الصراعات الإقليمية والدولية للحفاظ على "أمنها". في هذا الصدد، يقول "بركات" (2012، ص. 36): "بدأ التحول مع إدراك قطر أن "الحجم غير مهم"، وأن القوة الناعمة والثروة أدوات قوية في مجال العلاقات الدولية، وأن الربيع العربي لحظة محورية في العلاقات العربية – الغربية، ستجلب معها مزايا سياسية واقتصادية وأمنية للدول التي تتسم بقدر كافٍ من التقدمية والفاعلية لتحقيق الانتصار".

لقد تكلّلت جهود الوساطة القطرية بالنجاح، في الغالب، نظرًا لتوفيرها حوافز مالية والتزامًا قويًا من قيادتها، مثل الانخراط الشخصي لوزير خارجيتها السابق في مبادرة "أصدقاء سوريا" برعاية الجامعة العربية. نجحت تلك الجهود إلى حد بعيد في تسوية صراعات وتوترات في لبنان وفلسطين واليمن، فضلا عن الصراع الحدودي بين جيبوتي وإريتريا (كامرافا، 2011). وجاءت تغطية الجزيرة لتلك الصراعات جامعةً بين عناصر القوة الناعمة التي ركزت على صورة قطر وروّجت لها باعتبارها "وسيطًا نزيهًا أمينًا لا يهمه سوى إحلال السلام والاستقرار" (كامرافا (Kamrava)، 2011، ص. 539)، كما أسفر ذلك عن تحويل قطر إلى "فاعل دولي مستقل وتقدمي" (أولريخزن (Ulrichsen)، 2013، ص. 1).

الصراع العربي الإسرائيلي برواية أخرى: سياسة خارجية بتدفق إعلامي عكسي

نبعت شعبية الجزيرة في أوساط المتابعين العرب من جاهزيتها لتبني موقف المكلومين والمهمشين بالتوازي مع دور قطر التقدمي والنّشط في العلاقات الدولية، فضلا عن طموحها المؤكد للنهوض بدور صانع السلام على الساحة العالمية. فقد ظلت التغطية التجديدية التي انتهجتها قناة الجزيرة الفضائية للشؤون العربية والدولية، في مختلف مراحلها، متأصلة في رؤاها الجلية المنحازة للقضايا

العربية والإسلامية. وفي ما يلي رصد لتقاطعات تغطية الجزيرة مع السياسة الخارجية لدولة قطر من خلال إلقاء نظرة عامة على كيفية تغطية القناة للصراع العربي-الإسرائيلي، والحرب الأميركية على الإرهاب، وما يُصطلح عليه بـ "الربيع العربي".

فكيف تغطي الجزيرة الصراع العربي-الإسرائيلي الممتد؟ لقد أصبحت تغطية الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي قضية فاصلة بالنسبة للجزيرة وشبكتها ككل. واستنادًا إلى المصادر الإعلامية العربية، فإن العنف الذي اندلع في الأراضي الفلسطينية أواخر العام 2000، إنما جاء ردًا على الزيارة الاستفزازية التي قام بها إلى المسجد الأقصى (المعروف أيضًا باسم جبل المعبد) آنذاك زعيم المعارضة الإسرائيلية، أرئيل شارون، بتاريخ 28 سبتمبر/أيلول عام 2000 (برسمان (Pressman)، 2006). وقد عُرفت أعمال العنف تلك، والتي امتدت بين عامي 2000 و2005 باسم "انتفاضة الأقصى" أو "الانتفاضة الثانية"، وشهدت سقوط مئات الضحايا المدنيين من الجانبين. وقد بيّن تحليل تغطية الجزيرة للانتفاضة الثانية أن القناة سلكت عددًا من الاستراتيجيات الخطابية التي لم تخف تحيزها للجانب الفلسطيني، وهو موقف يشاركها فيه بقوة جمهورها العربي الواسع. فقد كشفت دراسة "ويندون" (Wendon) في تحليل الخطاب (2005)، أن تغطية الجزيرة للانتفاضة الثانية أطّرت الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي تأطيرا مجازيا وظفت فيه معركة "داوود وجالوت" لـ"بيان مدى عدم التكافؤ في القوة بين إسرائيل والفلسطينيين". وفي الوقت ذاته، أسبغت الشرعية على فكرة المقاومة باعتبارها الاستراتيجية الوحيدة الناجعة في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي (ص. 99). وبذلك كانت تغطية الانتفاضة أول لحظة فاصلة في تاريخ الجزيرة، خاصة حين بثت مشاهد قوية للعنف والدمار كان أبرز تجسيد لها المشهد الحي لوفاة الصبي الفلسطيني، محمد الدرّة، ابن الاثني عشرة ربيعًا. بعد ذلك ارتفع الطلب، بشكل غير مسبوق، على هذا المحتوى الإعلامي كما يلاحظ النووي وإسكندر (2003، ص. 69): "لا يهم إن كانت الجزيرة قد صورت الانتفاضة على أنّها نتيجة للعدوان الإسرائيلي أم الفلسطيني، المهم هو استمرار شغف الجماهير العربية بالانتفاضة، وقد كان ذلك التعاطف محرّكا ومُوجّها لتغطية الجزيرة، بما جعل "العرض حسب الطلب".

لقد أصبحت الجزيرة جزءًا لا يتجزأ من حركة المناصرة الواسعة في الشارع العربي لحقوق الفلسطينيين في نضالهم ضد الاحتلال الإسرائيلي. وقد أسهمت الصّورالحية التي كانت تبثها القناة لبيان الحصيلة الدموية للصراع في إذكاء الوعي وحشد التعاطف مع الفلسطينيين في محنتهم، وتعزيز الدعوة للتحرك العربي (لينش، 2005). أدت تلك التغطية المتعاطفة أيضا إلى زيادة الثقة العميقة في أوساط المشاهدين العرب، وترسخت بذلك "محورية الشبكة في الحياة السياسية العربية" (لينش، 2005، ص. 38)، وذلك ما كشفت عنه الدراسات الإثنولوجية ودراسات الجمهور على غرار دراسة (طويل – سوري، 2007). وقد كان المشاهدون في الأراضي الفلسطيني المحتلة، على سبيل المثال، يتابعون شاشة الجزيرة لمواكبة ما كان يجري من أحداث عنف متصاعد في شوارعهم أثناء الانتفاضة. وعلى حد ما جاء في تصريح أحد فلسطينيي الداخل لباحثة الإعلامية، "طويل – صوري" "جميعنا في المدينة كنا نشاهد الجزيرة لمعرفة ما يحدث حولنا... أعتقد أن كل القنوات المحلية توقّفت، في مرحلة ما، عن الاعتماد على مراسليها واكتفت بإعادة بث محتوى الجزيرة" (ص. 19). بالنسبة إلى المشاهدين الفلسطينيين والعرب، امتزجت العلاقة الثقافية للجزيرة بجماهيرها، وتبنيها

غير المشروط في خطابها لمفاهيم من قبيل الشهادة والمقاومة، مع التوجه المناهض للاحتلال وما يرتبط به من نضال ضد الاحتلال الإسرائيلي الغالب في أوساط "الشارع العربي".

على خلاف وسائل الإعلام الأجنبية، قدمت الجزيرة منظورًا مختلفًا للصراع العربي – الإسرائيلي، تمثل في سردية راسخة تاريخيًا تُشكّل فيها موجات العنف جزءًا من صراع طويل، لا باعتبارها أحداثًا منفصلة متباعدة من قبيل الفعل ورد الفعل كما يتجلى بشكل واسع في تغطية وسائل الإعلام العالمية للصراع. يمكن رصد هذا الموقف المناصر للقضايا العربية أيضًا في تغطية الجزيرة لحرب العام 2006 بين إسرائيل وحزب الله اللبناني. فبعد دراسة التغطية الإعلامية العربية لتلك الحرب خلص مركز "شورنشتاين للصحافة والسياسة والسياسات العامة بجامعة هارفارد (Shorenstein)" إلى أن التغطية المرئية على شاشة الجزيرة، وكذلك الصور المصاحبة للمواد المنشورة على موقعها الإلكتروني تقدّم إسرائيل، بشكل عام، على أنها "الطرف المعتدي" (كالب وسايفتز (Kalb & Saivetz)، 2007). لقد استطاعت هذه التغطية البديلة التي قدمتها الجزيرة للصراع العربي الإسرائيلي مواجهة السرديات الإعلامية الغربية، مُؤذنة بميلاد مرحلة جديدة "لم يعد فيها الإعلام الغربي مهيمنًا كما كان في السابق" (سيب (Seib)، 2005).

من كابول إلى بغداد: "السرديات المضادة" عن "الحرب على الإرهاب"

إذا تجاوزنا الصراع العربي – الإسرائيلي، سنجد أن الجزيرة لم تتوان عن تقديم سردية نقدية مضادة وصفتها في موضع آخر بـ"أطر ما بعد السرديات"، وهي أطر بديلة لما أعلنته إدارة بوش من "حرب على الإرهاب" بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر بالولايات المتحدة، وكذلك للحربين اللتين قادتهما الولايات المتحدة على أفغانستان (أكتوبر 2011) والعراق (مارس 2003). وفي حين شكلت أشرطة زعيم تنظيم القاعدة، أسامة بن لادن، التي كانت تصل إلى القناة، إلى جانب تغطيتها التلفزيونية لحرب أفغانستان مادة للأخبار العاجلة في شتى أنحاء العالم، ما دفع "سي أن أن" وغيرها من شبكات التلفزيون العالمية إلى إعادة بثها في مناسبات كثيرة، فإن الوصول إلى طالبان والقاعدة، وما اقترن به من سبق إعلامي، مثّل تصعيدا خطيرا في علاقة الشبكة بواشنطن (توسو وفريدمان (Freedman)، 2003). فإذا كان مراسلو القناة وصحفيوها يرون في بث أشرطة بن لادن سبقا صحفيا تطمح إلى تحقيقه أي مؤسسة إخبارية مهنية تحترم نفسها، فإن المسؤولين الأميركيين اعتبروا بث تلك الأشرطة عملا متهورا يرمي إلى عرقلة السياسة الأميركية في الشرق الأوسط، ويعرض أمنها القومي للخطر (شارب (Sharp)، 2005). وقد زعمت كوندوليزا رايس، وعدد آخر من مسؤولي إدارة بوش، أن أشرطة القاعدة التي تبثها الجزيرة قد تحوي رسائل مشفرة موجهة للمتعاطفين مع الإرهابيين، وحثت المؤسسات الإعلامية الأميركية والغربية على الامتناع عن بث تلك المقابلات (مجدر، 2003). وبالفعل، سرعان ما انضمت الوسائل الإعلامية الغربية الأخرى إلى تلك الحملة وهاجمت الجزيرة واصفة إياها بـ"قناة ابن لادن". وازدادت حدة التوتر مع إقدام التحالف

العسكري، الذي تقوده الولايات المتحدة، على قصف مكتب الجزيرة في كابول، وهو ما احتجّت عليه الشبكة بشدة معتبرة إياه استهدافا مقصودا بسبب التحدي الذي تمثله.

جاء غزو الولايات المتحدة للعراق في إطار سيناريو مماثل، حيث واجهت الجزيرة تشويهًا لسمعتها واتهامات بالتواطؤ مع الإرهاب وبالنزعة المعادية للولايات المتحدة. وتُوّجت تلك الحملة بتهديدات مباشرة ضد الشبكة ومراسليها. في الحقيقة، كان عداء المسؤولين الأمريكيين للجزيرة ووصمها بأنها "بوق العدو" بمثابة رد فعل على شعبيتها في العالم العربي، وعلى ما اعتبرته الإدارة الأميركية تأثيرا سلبيا على السياسات الخارجية الأميركية في المنطقة. غير أن هذا العداء الصريح للشبكة يطرح سؤالا هاما حول أوجه الاختلاف بين تغطية الجزيرة للحرب على الإرهاب وحرب العراق وسياسات الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وبين تغطية وسائل الإعلام الأميركية.

يقدّم لنا تأطير حرب العراق على شاشة الجزيرة بعض الأجوبة المبدئية على السؤال المطروح آنفًا، علمًا بأن نظرية البناء الاجتماعي تفيد بأن الأطر الإعلامية تقدم للقراء والمتابعين عرضًا "انتقائيا" للواقع يساعدهم على فهم ما يدور حولهم من أحداث، بما في ذلك قضايا الحرب والفقر والعنصرية، إلخ. فالأطر المطروحة في وسائل الإعلام لا تصف "المشكلات" فحسب، بل إنها، كذلك، تصف "الحلول" لها من خلال التركيز على جوانب معينة من المشكلة، باعتماد مصادر رسمية واختيارات لغوية محددة، وغير ذلك من الآليات. فعلى شاشة الجزيرة مثلا، يقدّم "الإطار الإنساني" للمشاهدين عرضًا جريئا للحرب في أفغانستان (والعراق) باعتبارها عملا غير "نظيف". فلم تكن تتردد في كشف حصيلة الضحايا البشرية للتحالف العسكري بقيادة الولايات المتحدة، مستخدمة في ذلك صورا قوية ومقاطع فيديو للضحايا الأفغان، ومقابلات مع جرحى الضربات الجوية الأميركية. لقد كان "التأطير الإنساني" للحرب على شاشة الجزيرة بمثابة "شاهد" على الأحداث وفاضح لزيف أسطورة "الحرب النظيفة" التي سعت الآلة العسكرية الأميركية للترويج لها (جاسبرسن وكيخيا (Jasperson & Kikhia)، 2003، ص.ص. 127 – 128). أما عندما استخدمت الجزيرة أطرًا عسكرية، فقد ركزت محتواها على "الأضرار الجانبية" للحرب.

تستخدم الجزيرة الإنجليزية من ناحيتها "تأطيرا مضادا" يبدو أكثر وضوحا خصوصا عند مقارنته بالاستعارات والكنايات التي تزخر بها التغطية الإعلامية الأميركية للحربين المذكورتين. فعلى سبيل المثال، ارتكز "الإطار العسكري" الذي استخدمته "سي أن أن" على مقولة التفوق التقني للقوات العسكرية الأميركية، بينما لعبت اللغة التقنية المنمقة التي استعملها المراسلون و"الجنرالات" دورا كبيرا في طمس الحقائق بشأن الهدف الوحيد من استخدام القنابل والمعدات العسكرية، ألا وهو القتل. لقد بدت "لغة" الحرب على شاشة "سي أن أن" لطيفة ومجردة، واشتملت على عبارات بديعة من قبيل "الأهداف الناعمة" و"القصف البساطي" و"القنابل الزهرية" (جاسبرسن وكيخيا، 2003). بشأن الشبكات الإخبارية الأميركية الأخرى، يلاحظ "لول (Lule)" (2004) أن هناك أربع استعارات هيمنت على تغطية "أن بي سي" للاستعدادات التي سبقت الحرب على العراق، هي: "الجدول الزمني" و"ألاعيب صدام" و"صبر البيت الأبيض" و"تبرير/ أو ترويج الخطة". وفي سياق إبعاد التهمة عن إدارة الرئيس بوش ودرء المعارضة والجدل بشأن الحرب في العراق، يتفق

"لول" مع "لاكوف" (Lakoff) على أن الاستعارات الإعلامية يمكن أن تكون قاتلة. أما لغة الحرب واستعاراتها على شاشة الجزيرة فقد كانت صريحة ولم تترك مجالا للشك في عقول المشاهدين بأن الناس سيقتلون جرّاء التدخلات العسكرية الأميركية في أفغانستان والعراق؛ تلك هي الطبيعة البديل الذي تمثله الجزيرة.

تغطية "الربيع العربي": التقارب بين الإعلام وقوة الشعوب

تشكّل شبكة الجزيرة حاليًا "نظامًا إعلاميًا هجينًا" فقد معه التمييز بين إعلام "قديم" وآخر "جديد" معناه. وفي سياق توسيع حضورها وتطويع القوة الهائلة لوسائل التواصل الاجتماعي، وإتاحة إنتاجها الإعلامي على مختلف المنصات، أطلقت الشبكة قناة "الجزيرة مباشر" التي تعمل كقناة بث مباشر مستقلة عن القناة الإخبارية. واستعانت إلى جانب ذلك بخدمات شبكات التواصل الاجتماعي المختلفة (تويتر وفيسبوك وإنستغرام)، وتطبيقات "واتساب" و"تلغرام"، لتغطية الشؤون العربية وأحداث "الربيع العربي". وتبيّن لنا قوة الموقف الذي تبنته الجزيرة في تغطيتها لتلك الأحداث، تناغما واتساقا واضحين مع السياسات الخارجية لدولة قطر.

إن الجزيرة، بما بثته من حياة في البيئة السياسية في أغلب أرجاء العالم العربي (لينش (Lynch)، 2005)، وباستفادتها من قوة الشبكة العنكبوتية، قد عزّزت دورها في بناء ثقافة جديدة وتسهيل النقاش العام عبر إتاحة منصاتها أمام المواطنين العرب للاحتجاج على الحكم الاستبدادي وإعلان معارضتهم التي طالما قمعت ووقع إسكاتها. بعبارة أخرى، أحدثت الجزيرة، إلى جانب تكنولوجيات التواصل والمعلومات نقلة في ميزان القوة بين الجمهور والدولة، و"غيرت ديناميات التأثير" على نحو يمكّن الجماعات الافتراضية والمهجرية، من تحدي السرديات السياسية التي تضفي الشرعية على الاستبداد والقمع في المنطقة. وكما أسلفنا، فإن اهتمام المحللين الإعلاميين يتركز في المقام الأول على قوالب البرامج الحوارية وعلى كيفية توليد أشكال جديدة من النقاش الحيوي داخل الفضاء العام. وفي حين لعبت التغطية الإخبارية لشبكة الجزيرة دورا أساسيا في الانتفاضات السياسية التي أطاحت بنظم الحكم المستبدة في تونس ومصر وليبيا، ما زالت أحداث "الربيع العربي" الجارية تطرح العديد من الأسئلة بشأن دور شبكة الإنترنت في تسريع وتيرة التحولات السياسية والاجتماعية في المجتمعات العربية.

ثمة اهتمام محدود بمدى توفير المواقع الإلكترونية لتلك القنوات الفضائية، منبرًا فريدًا للنقاش العام من خلال تعليقات المستخدمين، وانعكاسات ذلك المحتوى الذي ينتجونه على حرية التعبير. وما تزال تلك الفجوة في انتظار جسرها بالنظر إلى شعبية منتديات الحوار وتوفّر مساحات التعليق التي تتيحها المواقع الإلكترونية الإخبارية العربية لقرّائها. فقد استعادت أعداد كبيرة من المواطنين العرب، بفضل تلك المواقع، حقها في المشاركة في بلورة الخطاب العام بعد أن كانت لوقت طويل محرومة من ذلك (انظر السقاف، 2006؛ وبونت (Bunt)، 2009؛ ودوي ونوفل، 2012). أما الدراسات القليلة التي أنجزت حول هذا الموضوع، فقد حاولت استكشاف قدرة تلك التعليقات، التي يشارك بها

المستخدمون، على تغيير الخطاب والتعبير السياسيين في المنطقة. في إحدى تلك الدراسات التي تناولت المحتوى الذي ينتجه مستخدمو موقع الجزيرة، لاحظ "دوي ونوفل" (2012) أن تلك التعليقات تؤكد الطابع "التمثيلي" و"الشامل" للرأي العام الإلكتروني الذي يعكس بدقة كبيرة نوعية النقاشات العامة. إضافة إلى ذلك، تشكّل تلك المنتديات وما توفره من خصائص التعليقات الإلكترونية فضاءات "هجينة" للرأي العام العربي، إذ تصل الداخل بالخارج، والمحلي بالعالمي.

لقد كان دور الجزيرة في تغطية ثورات "الربيع العربي" والاحتفاء بها تقدّمًا طبيعيًا ونتيجة منطقية لاستثمارها الجيد لهذا الالتقاء بين وسائل الإعلام الجماهيرية، الجديدة منها والتقليدية. من جهة أخرى، كشفت ثورات "الربيع العربي" عن اتساع نطاق "الجمهور العربي الجديد" الذي أسهمت الجزيرة في خلقه وتشكيله، كما كشفت عن علاقته اللصيقة بالإعلام، وطبيعته التفاعلية، وتمكنه تقنيا. ففي أعقاب سقوط حسني مبارك، أطلقت الجزيرة قناتها المتخصصة في تغطية الشأن المصري "الجزيرة مباشر مصر"، والتي اتهمها نظام السيسي بأنها بوق للرئيس المخلوع محمد مرسي وجماعة الإخوان المسلمين. وسرعان ما تحولت تلك القناة، التي لم تعمر طويلا، إلى أداة دبلوماسية أكدت مرة أخرى الانخراط القطري في سياسات "الربيع العربي".

في الأخير، يمكن القول إن شعبية الجزيرة تعود إلى انحيازها إلى القضايا العربية والإسلامية، ولكن استمرار نجاحها سيظل رهنًا بقدرتها على التجديد وعلى الانخراط أكثر في البيئة الإعلامية الجديدة "الهجينة"، حيث تلتقي التكنولوجيا والحراك السياسي والجمهور العربي المترابط بعضه ببعض. ذلكم هو مستقبل الجزيرة.

المراجع

Allied-Media (2016a). “History of Al Jazeera Television”, Retrieved from: http://www.allied-media.com/aljazeera/jazeera_history.html/

Al-Saggaf, Y. “The Online Public Sphere in the Arab World: The Aar in Iraq on the Al Arabiya Website”, *Journal of Computer-Mediated Communication*, 12 (1), 2006, pp. 311–334.

Barakat, S. “The Qatari Spring: Qatar’s Emerging role in Peacemaking”, *The London School of Economic and Political Science*, No 24. 2012, Retrieved from: https://www.brookings.edu/wp-content/uploads/2016/06/qatar-role-peacekeeping-barakat.pdf

Baudrillard, J. *The Gulf War did not Take Place*. Bloomington, Indiana, Indiana University Press, 1995.

Bunt, G. R. *iMuslims: Rewiring the House of Islam*. Chapel Hill, NC, University of North Carolina, 2009.

Cherribi, S. “Al-Jazeera Arabic: Transnational Identity and Influence”. London, *The SAGE Handbook of Political Communication*, 2012, pp. 472-483.

Chitty, N. “Analysing Soft Power and Public Diplomacy”. *Jilin University Journal Social Sciences Edition*, 55 (3), 2015, pp. 20-27.

Douai, A. & Nofal, H. K. “Commenting in the Online Arab Public Sphere: Debating the Swiss Minaret Ban and the “Ground Zero Mosque” Online”, *Journal of Computer-Mediated Communication*, 17 (3), 2012, pp. 266-282.

El-Nawawy, M. & Iskandar, A. *Al-Jazeera: The Story of the Network that is Rattling Governments and Redefining Modern Journalism*. Boulder, CO, Westview, 2003.

Fandy, M. “Information Technology, Trust, and Social Change in the Arab World”, *The Middle East Journal*, 2000, pp. 378-394.

Jasperson, A., E., & Kikhia, M. O. “CNN and Al-Jazeera’s Media Coverage of America’s War in Afghanistan”, in P. Norris, M. Kern, and M. Just (eds), *Framing terrorism: The News Media, the Government, and the Public*, New York, Routledge, 2003, pp.113-132.

Johnson, T. J., & Fahmy, S. “The CNN of the Arab World or a Shill for Terrorists? How Support for Press Freedom and Political Ideology Predict Credibility of Al-Jazeera among its Audience”, *International Communication Gazette*, 70 (5), 2008, pp. 338-360.

Kalb, M., & Saivetz, C. “The Israeli—Hezbollah War of 2006: The Media as a Weapon in Asymmetrical Conflict”, *The Harvard International Journal of Press/Politics*, 12 (3), 2007, pp. 43-66.

Kamrava, M. “Mediation and Qatari Foreign Policy”, *The Middle East Journal*, 65 (4), 2011, pp. 539-556.

Lule, J. “War and its Metaphors: News Language and the Prelude to War in Iraq, 200”. *Journalism Studies*, 5 (2), 2004, pp. 179-190.

Lynch, M. “Watching Al-Jazeera”, *The Wilson Quarterly*, 29 (3), 2005, pp. 36-45.

Magder, T. “Watching What We Say: Global Communication in a Time of Fear”, in D. Thussu and D. Freedman (Eds), *War and media: Reporting conflict*, 24/7, London, Sage Publications, 2003, pp. 28-44.

Miladi, N. “Satellite TV News and the Arab Diaspora in Britain: Comparing Al-Jazeera, the BBC and CNN”, *Journal of Ethnic and Migration Studies*, 32 (6), 2006, pp. 947-960.

Nye, J. S. *Soft Power: The Means to Success in World Politics*. New York, Public Affairs, 2004.

Pressman, J. “The Second Intifada: Background and Causes of the Israeli-Palestinian Conflict”, *Journal of Conflict Studies*, 23 (2), (2006, Retrieved from: https://journals.lib.unb.ca/index.php/JCS/article/viewArticle/220/378

Rinnawi, K. *Instant Nationalism: McArabism, Al-Jazeera, and Transnational Media in the Arab World*. Maryland, University Press of America, 2006.

Samuel-Azran, T. Al-Jazeera, Qatar, and New Tactics in State-Sponsored Media Diplomacy, *American Behavioral Scientist*, No 57, September 2013, pp. 1293-1311.

Seib, P. “Hegemonic No More: Western Media, the Rise of Al-Jazeera, and the Influence of Diverse Voice”, *International Studies Review*, 7 (4), 2005, pp. 601-615.

Seib, P. *The Al Jazeera Effect: How the New Global Media are Reshaping World Politics,* Washington, D.C., Potomac Books, Inc. 2008.

Sharp, J. M. “The Al-Jazeera News Network: Opportunity or Challenge for US Foreign Policy in the Middle East”, Library of Congress Washington Dc Congressional Research Service, July 2003, Retrieved from:
http://oai.dtic.mil/oai/oai?verb=getRecord&metadataPrefix=html&identifier=ADA476202

Thussu, D. *De-Americanizing Soft Power Discourse?* Los Angeles, CA: Figueroa Press, 2014, Retrieved from:
https://uscpublicdiplomacy.org/sites/uscpublicdiplomacy.org/files/useruploads/u20150/CPDPerspectives2_2014_SoftPower.pdf

Thussu, D. K., & Freedman, D. (Eds), *War and Media: Reporting Conflict*, 24/7, London, Sage Publications, 2003.

Ulrichsen, K. C. “Qatar’s Mediation Initiatives”, *Norwegian Peacebuilding Resource Center Policy Brief*, 2013, Retrieved from: https://www.files.ethz.ch/isn/160109/da1df25567ebd34af26d634892934b03.pdf

Wenden, A. L. “The Politics of Representation: A Critical Discourse Analysis of an Aljazeera Special Report”, *International Journal of Peace Studies*, 10 (2), 2005, pp. 89-112.